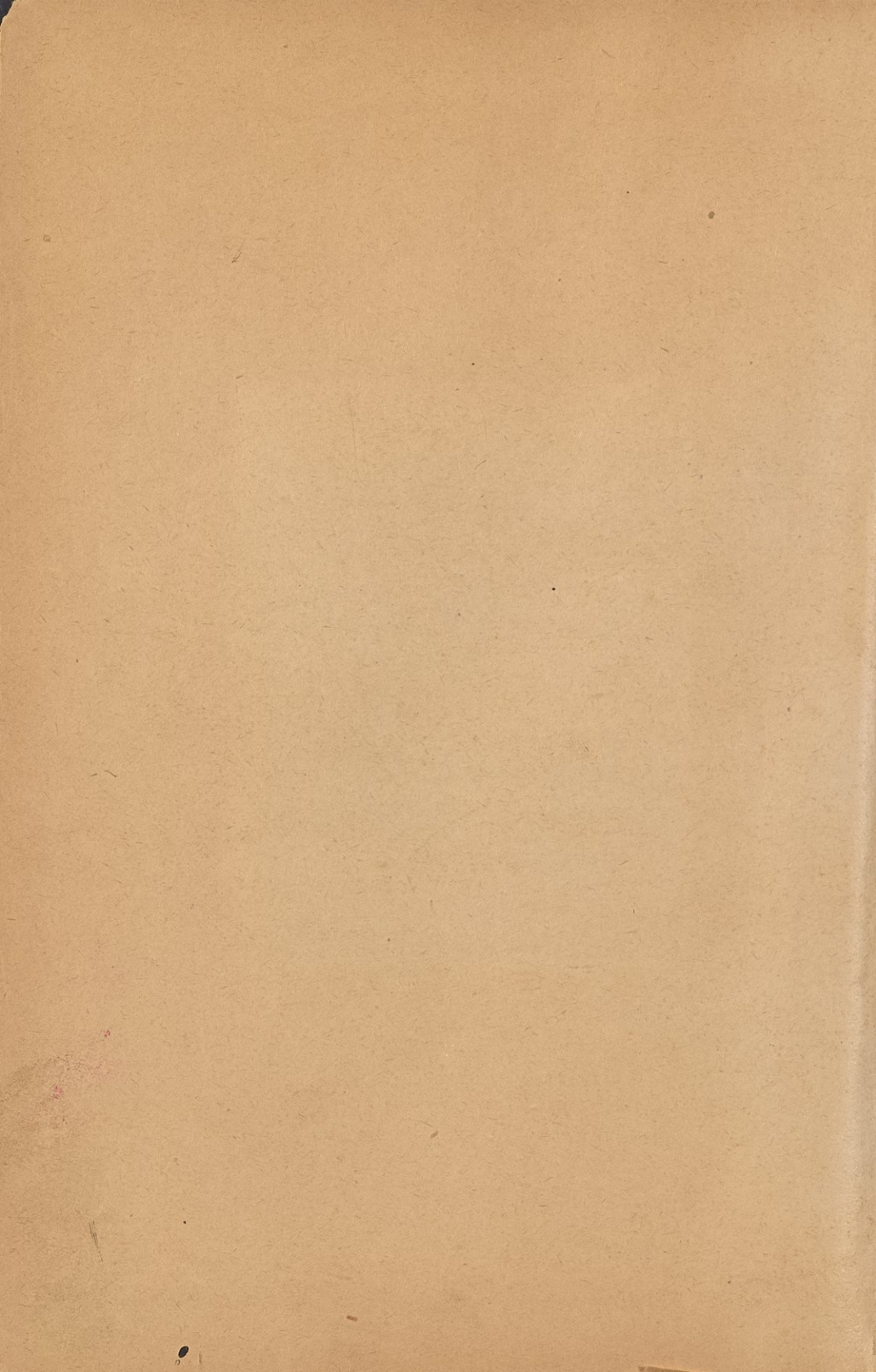


THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



GENERAL LIBRARY



سيرة
أَخْزَرُ الْقَصَّةِ
على برقي

رواية

الاميرة يراعت

(تأليف)

محمد أحمد

﴿ حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ﴾

(الجزء الاول)

﴿ القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ — ١٩١٠ م ﴾

مَطْبَعَةُ مَدِينَةِ الْوَالِدَةِ عَبْدِ الْوَكِيلِ

﴿ بشارع خيرت بالطريقة الشرقى بالقاهرة ﴾

PJ

7828

.M8

A38

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم ﴾

رواية الاميرة يراعت

— ❖ ١ ❖ —

التعارف

كنت جالسا صبيحة يوم صفا أديمه . واعتل نسيمه . وتغنت في حديثه
داري أطياره . وأماي قرينتي في غرفة جلوسنا الاعتيادية . ممسكة هي
بقطعة من الثياب تطرز فيها وأنا منهمك في مطالعة احدى روايات بيرلوتي
الشائقة التي تصف بلاد اليابان وعادات أهلها وصفا يأخذ بمجامع القلوب شأن
كل مؤلفات ذلك القصصي الطائر الصيت وقد طاب لكل منا عمله ولذت
له حالته وما أحسن المعيشة البيتية وأطيبها لمن يمتادها ويتعد في أوقات فراغه
عن ضوضاء العالم من قهاوٍ وحانات تشمئز منها النفوس الأبية وتنبو عن
أخلاق زوارها الاذواق السليمة . . .

كنت على تلك الحال أنا وقرينتي واذا بخادمة صغيرة لنا دخلت علينا
حاملة رسالة باسمي أتى بها ساعي البريد واذا كانت زوجتي أقرب الى الباب
مني تناولتها من يد تلك الخادمة وبديلاً من أن تناولنيها جعلت تأمل فيها برهة
ثم قالت وهي تنظر الى بعينين مدهوشتين :

— لم أعهد لك أصدقاء أو عمالاً يكتبونك في مثل هذه « الظروف »

المزخرفة أو يعطرون كتبهم مثل هذا التعطير الذي يفوح شذاه من ثيابا هذا
الكتاب ألك صديقة يا صديقي ؟

فقلت مسرعا — كلا ثم كلا أريني

فناولتني بيد مرتعشة هذه الرسالة فقضتها فاذا فيها :

أيها الفاضل :

اني امرأة شريفة النسب كريمة الحسب أعشق العلم والأدب وأحب
من يحبهما وقد أردت أن أتخذ من هذا البلد في مثل هذه الايام الشتائية
سكناً ومربعاً ولي جاه وسلطان من الكمال والعقل كما أن لي لبانات وأوطاراً
شريفة في هذا العالم وبدافع المحبة لك بما يثني الناس عليك كآبتك أيها الفاضل
أرجو أن تشرفني بالحضور الى دارى بالشارع العباسي رقم ... الساعة العاشرة
من صباح الغد لا تعارف بك وتعارف بي «

محببتك

الاميرة ي ...

كنت اقرأ هذا الكتاب وأأمل فيه وعينا زوجتي لا تفارقاني فلما
رأت تأثرى وتبسمي قالت :

— لقد صدق حدسي انه بلا ريب من صديقة لك أو مداعبة من

مداعبات هذه الايام وقد تبين لي ذلك من حالك وابتسامك
فقلت — صدقت انه من امرأة ولكني لا اظن ان صاحبة هذه الرسالة
من تلك الفئة البلاء... وانما لها مآرب أخرى صالحة سأكشف عنها بذهابي
الى موعدها وهما نحن الان في وقته...

فقلت زوجتي بلهف :

— أو تذهب إليها؟ ألا تخشى الفتنة...

قلت — لا تخافي ولا تحزني

ثم قمت الى ملابس خروجي فارتديتها وخرجت وأنظار قرينتي تشيعني
بما دخلها من الريب والشكوك.

ركبت مركبتي الى الشارع العباسي ثم جعلت أنظر في أرقام الدور حتى
اهتديت الى دارها فسألت البواب عن ربها فقال

— تفضل بالدخول وسار أممي

فولجت حديقة بهجة ترقص شجاريرها على الاغصان أغصان البرتقال
والليمون وتمايل أزهارها المختلفة من ورد وقرنفل ونرجس وياسمين ذات
اليمين واليسار ويجري الماء فيها من فسقيات وفوارات بديعة الصنع وقد عقب
الجو بروائح الازهار الذكية فلما وصلت الى مدخل الدار فارقتي البواب بعد
أن أشار الى بالدخول باحترام فصعدت درجا من المرمر موصلا الى ردهة
أرضية مفروشة بالمرمر المجزع وقد نقش سقفا وحيطانها نقشا جميلا فلتقتني
فتاة صغيرة عاينها حلة مزركشة ومصوغات ذهبية على عادة المصريات وقبل
أن أسألها عن سيدتها سألتني هي قائلة :

— أجنابكم... ؟

— نعم

— تفضل ياسيدى فابغني وهانذا ذاهبة لاعلم سيدتي الاميرة بقدموك فانها بانتظارك منذ ساعة من الزمان ثم فتحت لي باب غرفة الاستقبال فدخلتها وذهبت هي تعدو كالظليم لتخبر سيدتها أما أنا فما استقر بي المقام في تلك القاعة حتى دهشت مما فيها من الزخارف والنقوش والصور والتحف الثمينة الجامعة لكل مبدعات الفنون الجميلة القديمة منها والحديثة وصور مشاهير العلماء والكتاب والشعراء المتقدمين والمتأخرين وأواني من اليابان والصين ومرآح وآلات طرب وعدد وأسلحة قديمة ومنضدة عليها أنفُس الكتب والاسفار وتحف لاتعد ولا تحصى مما تعشقه الازواق السليمة فهت في بحر التأمّلات

« ترى ماهذه المرأة وما شأنها وكيف جمعت كل هذه الاشياء النفيسة الدالة على التضلع من المعارف وسلامة الذوق وما مبلغ كفايتها بين بنات جنسها حتى حسن اختيارها لهذه الدرجة ؟ أتعشق المدينة القديمة حتى جمعت محاسن آثارها ؟ أتغزل في سقراط . وأفلاطون . وأرسطو . وهو ميروس واشيل . وارسطفانوس . وسوفكلاوس . واريديس . وشيشرون . وسنيكا وفرجيل . وبلوطارك حتى اقتنت صورهم ؟ وهل تدري ما كورنيل . وراسين . وروسو . وشكسبير . وغوث . وهو جو . وجورج ساند حتى ضمت صورهم الى جانب تلك الصور القديمة بترتيب محكم ؟ وماذا تعنى بتلك الالواح العربية المكتوبة بخطوط جميلة تتضمن آيات من الحكيم العربية والشعر ؟

وأى فكرة جاءت في أن تضم الى هذا وذلك آثاراً من آثار الصين واليابان
والهند؟ وما هذه الآلات بين قيثارات وعيودان؟ اللهم ان هذا شئ غريب
جداً اني لازداد عجباً واندهاشاً كلما ابصرت هذه الاشياء الجامعة لخلاصة
ما وصلت اليه العقول البشرية وأزداد شوقاً الى رؤية هذه الأعجوبة بين
بنات حواء...»

كانت هذه الافكار تجيش بخاطري وتجول في صدري وانا اتمشى في
القاعة أقف أمام كل صورة وازاء كل لوحة اتأمل محاسنها واتذكر ماضيها
واتعظ بحكمتها فلما كنت أمام لوحة كتب فيها بخط عربي جميل مطرز بالذهب
على قطعة من المخمل الاخضر هذا البيت

تريدين ادراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من ابر النحل
فتح باب كان تحت هذه اللوحة وبرزت منه صبية لم تقع عيني في عمرى
على أجمل منها قدماً واعتدالا وغيونا نجلا ومحيا جمع المحاسن كلها في تلك الطلعة
وهي مرتدية برداء من الحرير الاخضر ويدها كتاب مذهب الاطراف
فدنت مني وسلمت على وهي تقول بجلال ووقار وعذب من الكلام ومنطق
حلوهو الفصاحة مجسمة :

— ما ارسلت اليك الا لفضلك ولمصلحة هذه البلاد التي كانت مهداً
لى وقد طفت الارض وأريد الآن ان اقضى شطرا من سياحتى بينكم وأراكم
اليوم معاشر ابناء مصر اهلا لتقدير صنيعي ومبادئى حق قدرهما فقلت :
— أيتها الاميرة ان بلادنا لترحب بك ولكني لم افهم ما تعنين بالمصاحبة
وتقدير المصريين صنيعك ومبادئك قدرهما وان كتابك وحديثك لم يفصحا

لى بل زادا اشتياقي . . .

فتبسمت وقالت كالمتعجبة :

— أو لم تعرف الى الآن من أنا؟ انا السائحة الشهيرة . انا سمية مربية العقول ومهذبة النفوس ومرقية البشر في هذا العصر وما سلفه من العصور، انا سمية ربة الابداع والبراعة انا « الاميرة يراعة » . . .

فتذكرت حينئذ ما كنت اقرأه في الصحف من ان في العالم الآن أميرة بهذا الاسم وأنها تسيح البلاد وتناظر العلماء وتشر اسمى الآراء واجمل الافكار فما امت حديثها وقدراني جمالها ووقارها وفصاحة لسانها حتى رأيتني جاسياً امامها باسطا يدي إليها قائلاً بالضراعة والابتهاال

— عنوا أيها الملك الكريم عنوا أنت يا من رفعت سميتك قديماً أمة اليونان وقديسها شيوخ الرومان وأجل قدرها فقهاء العرب ثم عطفت على أوروبا فملكها ناصية البلاغة وهذبت اخلاق أهلها ورققت شعورهم ولا اخال سميتها التي امامي وقد برزت على الاقران وساحت البلدان الا عاطفة على مصر وابنائها الضعفاء فعطفاً عطفاً على أيا أميرة اليراع .

فظلت تبسم لى وقد علا وجهها الجلال والجمال بما لا اقدر ان اصف مقدرات تأثر نفسى وانفعال قلبي به خشوعاً وهيبه أما هي ففكرت ههنية ثم قالت — ان الحديث ليطول علينا اليوم وان لى زواراً وأصدقاء احدث كلا

في هذه الاونة بحسب ما اختار لنفسه وسيكون لى حديث عام عليهم جميعاً أما الآن وقد عرفت شأني ومستقرى ومقامى ففى أي وقت شئت زرني على الرحب والسعة وانا مستعدة لحديثك بما تشاء ثم أذنت لى بالانصراف

فودعتها وانصرفت وبودي ان لا اودعها بيد ابي ما وصلت داري حتى وجدت
امرأتي تنتظرني على أحر من الجمر فاعلمتها بقصتي وتعارفي بالاميرة يراعة
وانها أميرة موسرة وامعجوبة زمانها في تعشق الادب والحكمة وانها تسيح في
الارض لتنشر مبادئها وتناظر العلماء والادباء ولا تجالس غيرهم فقالت زوجتي
ساخرة « جنون » قلت « حبذا الجنون »



ومن يعشق يلذ له الغرام

بت تلك الليلة التي زرت في صبيحتها الاميرة يراعة غارقا في بحر لجي
من الافكار لم أذق طعاما ولم تطب لي لذة المطالعة كعادتي ، جاءتني الجرائد
كالعادة فلم أعرها نظرة بادئ بدء ثم ففتحها لأتسلى بتلاوتها أولاً داري
حالي عن قرينتي وابنتي وابني فلم اطق صبراً ولم افهم منها سطرأ وعندما جاء
وقت النوم فهناك تراحت على الافكار وتراكت الهموم فلم تكتحل عيناى
بسهاد وبت ارعى النجوم « أرق على أرق ومثلي يأرق »

« ما هذا الجمال ، ما هذا الجلال ، ان لهذه المرأة دولة قوية على النفوس
وسلطانا قاهراً على الافئدة جاءها ولا ريب مما تحلت وتخلقت به من الاخلاق ..
انها لكريمة من نسل كرام . . . وكفاها فخراً ان تسمى بهذا الاسم الخالد
الذكر الذي عشق مسماه اليونان وتشربت محبته قلوب الرومان ولعب دوره

عند العرب واتخذ أوروبا منذ عهد الترقى والتجديد ربعا . . . وها هو كالا ميرة يعطف كما تعطف هي على الشرق وأمه الضعيفة . . . ان هذه الاميرة بالحق لجميلة والله جميل يحب الجمال وانا ضعيف ولقد سلبت عقلي وملكت فؤادى « ارسلت اليّ تدعوني من غير سابقة عهد تعارف بيننا . . . أنها بلا ريب احببني مهما كانت حالها فكيف لا احبها واعشق قدها المشوق وقوامها الاليف وعينها النجلاوين وفيها القرصى الذى يقطر شهداً وينثر دراً . . . » تلك كانت هواجس افكارى بأول الليل ثم فكرت فيما يربط حبل ودى بها فشرعت تسمى تمدنى قائلة :

« أنها قد رحبت بك وأذنت لك بزيارتها فلم لا تكون الزيارة مذ الغد فى ميعاد زيارتك أمس الدابر حتى تمتع الطرف بذلك المرأى الجميل والحيا الذى يقطر منه ماء الجمال والجلال ولكن لنعد لها عدتها فهي « الاميرة يراعة » وربما جرى حديثها معك فى الاصول وانت قد تركتها خلف ظهرك كالصانع الذى خرج الى دور العمل فتشبت به بكل قواه فهو لا يكاد يتذكر ما بنى عليه من النظريات الاولية . على انى لا اظنها الا ارفع مقاما وأعلى نظراً فهي بلا محالة قاصرة حديثها على اللباب مما يتحراه ابناء العصر دون تلك القشور أو الاصول لانها لا بناء المدارس وطلبة العلم . . . فما هي سائلتك أو محدثك به ؟ ان المواضيع حجة فاذا سألتك عن مصر فقل ما تعلم وان ناقشتك فى السياسة فجاهر بما تعتقد انه الصواب وان فالتحتك فى التجارة أو الصناعة أو الاخلاق فاحك ما أنت قادر عليه . . . لكن لا أنها الاميرة يراعة فلا بد أنها هي التي ستفيض عليك من معلوماتها وحينئذ تكون مستفيداً وتعلمها ومن هو معلمك ؟

هو ذلك الملك الكريم هو الاميرة يراعة المشهورة الجميلة . . . »
 حكمت نفسى هذا الحكم فرأيتنى سعيداً بمعرفة تلك الاميرة وانى
 ساستفيد منها بما جعل يفسح معه مجال الامال والاماني بازدياد معلوماي القليلة
 فارتحت عند وصولى لهذه النتيجة في ذهنى والانسان يعيش بالامانى ويرتاح
 لتلك النتائج الخيالية التي هي اساس الاعمال والانتعاش النفسى فان كان مستيقظاً
 فرح ونشط وان كان ارقا زال ارقه وغشيه النعاس فنام قرير العين وهذا
 ما حصل لى وكان ذلك قبيل الفجر اذا أخذتني سنة من النوم فمت مرتاحا
 فرحا ورأيت حلماً لذيذاً :

رأيتني في فلاة شاسعة مترامية الاطراف وفيها قوافل تسير متزاحمة كل
 يعدو لوجهة هو مواليها والناس بين ماش وراكب وطرب وباك وناشدضالة
 ومر كض فرساً وسائناً ظعنناً وصحيح ومر يرض وفي طرف تلك البرية بستان
 كبير يلجه كثيرون من أوائلك السفار فيسقون منه ويتفياون ظلالة ثم
 يخرجون حاملين من فواكه وازهاره وجرار الماء فتخاطبها منهم الايدى
 ويشكر لهم عليها الناس فزاحمت حتى دخلت ذلك البستان مع الداخلين فشاقتني
 منظره وراقتني ظلالة الوارفة وقد جمع كل الاشجار ذات الاثمار والطيور
 المسمعة والازهار من جميع الاجناس والدياه الجارية وقد توفر عليها الداخلون
 بين شارب ومغترب وقاطف من الزهر أو جان من الثمر وهم بين فرح طرب
 ومفكر متأمل ومترنم بالشعر ومتغزل بالنسيب والنسيم ينعش الافتدة
 والشمس لا حارة ولا باردة كأن الوقت خريف أو ربيع حيث الاعتدال
 في الزمن والاعتدال في الطقس .

وأبصرت في جانب من ذلك البستان قصرًا رفيع العماد بديع الزخرف يدخله الناس أفواجا فدخلت معهم واكني دهشت اذ رأيت ربه هي « الاميرة يراعة » تلك التي اسرت في اليقظة فؤادي فلما رأته تبسمت و اشارت الي بيدها ان ادن مني فدنوت منها في زمرة من الناس فجعلت تلقى علينا من فيها دررًا وحكمًا ثم أهدت كلاً من الحضور باقة من الازهار فخر جنازمرًا زمرا كل الله أعلم بما في نفسه من الحب والغرام والهيام بربة ذلك القصر والبستان هذا مارأيته من الرؤيا ولقد كنت متلذذًا بها لولا أن سمعت قرينتي تناديني:

— لقد ضحى النهار ألا تقوم ؟

— كم الساعة الآن ؟

— التاسعة الا ربعاً

— آواه لم يبق على ميعاد ذهابي اليها الا ساعة وربع

— أنت ذاهب اليوم أيضاً الى تلك الحمقاء التي تنتحل العلم والمعرفة

وتراسل الرجال ليأتوا دارها يا للجرأة ويا للوقاحة . . . ليتنا بقينا في جهالتنا

الاولى ولا رؤية هذا الرقي المعكوس الذي أفسد أحوالنا ، اذا كنتم تدعون

أن هذا الزمن أرقى مما سلفه فلم كثرت الشرور ؟ ولم ازدادت المساوى

والسفالات ؟ فكفاكم غروراً أيها الناس وكفاكم تغريراً بالعقول واني شهد

الله لأفضل الرجوع أنا وابنتي الى ما كان عليه آبائنا ولا مشاهدة هذه الامور

القييحة التي ماجلبتها علينا الا المدنية الجديدة والحرية الجديدة والشقشقات

الجديدة . . . فقلت وانا اتئاب واتمطي في فراشي :

— انك يا عزيزتي لا تدرين بان هذه امور لا بد أن تنتج عند الامم

الناهضة باديء ذي بدء مثل هذه النتائج وهو ما يسمى بدور الانتقال ولهذا الدور حقه ثم يخلفه دور العمل بالعقل ومعرفة الاحوال وتقدير مجهودات العقول قدرها واني أحذرك أن تطعني في ذلك الملاك أو تسمي تلك الاميرة بالحمقاء أمامي مرة اخرى أسمعت ؟

— انى انما أخاف عليك من كيد النساء العظيم وأخشى أن يتعبك مكر هذه الاميرة ويؤلمك شغفك بها وما أقصد بذلك الا الشفقة بك والاشفاق على نفسك

— أو تشفقين على من هذا الملاك الطاهر ذلك الذي كاهه شفقة وحنان هذا جنون منك ؟

قلت هذا ثم قت الى ملابسي فلبستها وأمرت بمركبتي فجهزت ثم نظرت في الساعة فاذا هي التاسعة ونصف فأسرعت بالخروج وقرينتي تنظر الى صاحبة وأنا مشئت الذهن « ترى أتقابلني اليوم أم تعيب على تسرعى زيارتها وتعدده من قلة الذوق عندى ؟ » فترددت قليلا في الخروج وأحييت أن أثني وأعود ادراجي ولكن قام بنفسى دافع الحب القوي لتلك المرأة وطفقت نفسى توسوس الى بدافعه قائلة « أتحسب انها تكره زيارتك اليوم ؟ كلا انها دعتك من تلقاء نفسها ورحبت بك سلما ولقد تحمل تسرعك على شغفك بسماع حديثها العذب واستطلاع جلية حالها فلا تحش واعزم واستخر الله وتوجه اليها . . . فقام في نفسى محدث آخر يقول وماذا يضرك لو أخرجت هذه الزيارة يوما آخر اذ في العجلة الندامة وفي الثاني السلامة فقال الاول كالمعتت انى أحييتها ولا يمكنى أن لا أراها في هذا اليوم مهما كلفنى ذلك فقال الثاني

ولكنك لو أتيتها ورفضت مقابلتك فماذا يكون شأنك أنتقبل أن تعود إليها؟
فأين الشمم اذاً وكرامة النفس فاصبر ريثما يمر على زيارتك الاولى يوم فقال
الاول — أصبت وأجدت واني مطيع لك «

عند ذلك رجعت من السلم وأمرت بالركبة أن تعاد الى مكانها وخلعت
ملابسي فقالت زوجتي :

لم رجعت ؟

قلت — تذكرت انها أخبرتني أن أتيا غداً لا اليوم

فقالت كالساخرة

— لا ولكنك افكرت انه قد يفضها اسراعك بزيارتها فأنثيت حتى

تقبلك باشتياق غداً

ثم قامت مغضبة وهي تقول

— ان هذا ليس بالحال المرضي

فذكرتها بمبدأي ومقاصدي

فضحكت وقالت :

— اذن فزرها ما شئت أن تزورها



بين الوهم والحقيقة

اذا سكنت أفكار الانسان لأمر هداً روعه من جهة ما يخزنه فيه وجاءه

بصيص من نور الحقيقة أراه بعض الصواب فأنا حين ارتحت الى ما صممت عليه من عدم الذهاب في هذا اليوم الى زيارة « الاميرة يراعة » حتى احفظ لنفسى كرامتها لديها جعلت احدث نفسي وأريها صواب ما ملت اليه ولكن هل ميلي الى تلك المرأة التي لم أرها غير مرة واحدة فسلبت لي بجمالها هو كما ذكرت لزوجتي أم اني اكذب عليها حتى لا تغار منها وان ما انبعث في فؤادي هو نار الحب الحقيقي بكل معاني الكلمة ؟ أما تصميبي فهو للوثوق من قوة ارادتي في امتلاك نفسي والحفاظ بمبدائي أي الاقتصار على الزوجة الواحدة ولكن في أعماق قلبي كنت أسمع ما يقول لي أنك كذبت بل أنت قد عشقت وعلى ذلك ظلمت طول ذلك النهار ويايته وأنا افكر في هل أنا « محبوب » كما أنا محب فكانت أمواج الافكار تغشاني بين أمل ويأس الى أن جاء النهار التالي فخرجت الى دار « محبوبتي » وقد لبست أخضر ثيابي وتعطرت ولا كعروس ولم تبد قرينتي أقل ملاحظة لوثوقها من مبدائي ! اتيت دار الاميرة يراعة فمشى لي البواب واوصلني كعادته الي مدخل الدار ثم لقيت تلك الفتاة الخادمة فقابلتني أحسن مقابلة وادخلتني تلك القاعة التي عرفها القاريء ولكنها ذهبت اذ رأيت ربة الدار جالسة وحوها زمرة من صفوة المصريين المعممين والمطربشين ممن اعرف بعضهم معرفة شخصية حين رأيتي الاميرة يراعة قامت اليّ وسلمت عليّ وهي تقول :

— أهلاً بصديقنا الجديد اني أقدم اليك هؤلاء الافاضل واعرفك بمن لم تعرف منهم فهذا الشيخ ن . . . أحد افاضل علماء هذا العصر وهذا الشيخ ب . . . من كبار أدباء مصر وهذا البهجة الجليل س . . . بك وهذا الشاعر

المجيد ف . . . ثم قدمت لي باقي الحضور واحداً واحداً من اعرف ومن لم اعرف كما قدمتنى اليهم وعرفتهم من انا . . .

فسلمت على هؤلاء الافاضل بكل لطف وشكرت ربة الدار ولئن كنت في سرى أود ان لم يكن معنا أحد ثم لم البث طويلا حتي جاءت وصيفة ويدها طبق عليه سيجارات « چنكليس » الشهيرة فقدمت لنا منها وقدمت وصيفة أخرى تحمل صينية من الفضة عليها فناجين القهوة فادارتها على الحضور بكل رشاقة وأدب

وكان الحديث بين القوم يدور في مواضع شتى فحين قدمت أنا تغير مجراه وجمعت ربة الدار ترحب بي وترمقني بعينها الساحرتين مما لم املك لي معه واضطربت منه حواسي بما لم تخف معه عليها حالي أما هي فلم تعبا به على ما كنت امنى به نفسي وكان أولئك الحضور لحظوا ذلك مني أيضاً فجعلوا يبسمون ويهزون الرؤوس كأنهم يقولون لي « انك تحاول محالا فارض بما رضينا به من تعظيم هذا الملك الكريم من بعيد والا طردت من حضرته » وشعرت أنا بذلك وتبين لي خيطه الابيض من خيطه الاسود بما ساعد وجدائي الحر النقي على الظهور والتغلب على تلك العواطف التي كادت تفضحنى في المجلس فأبث الى الصواب والحقيقة وتركت وراء ظهرى ما بني الوهم من العلالى والقصور وجمعت هذه المرأة تعظم في عيني كأول مرة لقيتها فيها واخبرتني باسمها وكأنها قرأت في عيني تلك الآيات البيئات فعلا جيئها الجلال والوقار وقالت بلفظها العذب لتقطع عني خط الرجعة وتحول بيني وبين العودة الى تلك الاوهام والاحلام

« ان اخواني المصريين على ما يظهر لي من أحوال كثيرة تينتها لا يدركون « الحب » الا من وجهته الحسية ولكن ذلك الحب السامى من الوجهة السماوية — أو على الأقل كما شرحه لامارتين في رواية رفايل — فانهم لا يشعرون به أو لا يريدونه مع انه أشرف أنواع الحب واعظمها وان لذته لتتفوق كل لذة وسعادته تفضل كل سعادة وفوائده في تربية العواطف والنفوس وترقيق المشاعر لمن أسمى ما ترنمت به الشعراء وتحدث به الحكماء معذور من يرى الجمال ويعشقه ولكنه لا يعذر اذا تعدى هذا الحد وتاقت نفسه الى تشويه عشقه وتلويثه فتغليب العقل في هذا المقام منتج للمرء خير ما يديم حبال الود غير منصرمة بل خير ما يفيض عليه جلائل النعم من التمتع بالفضائل وكريم العواطف وتبادل شهى الاحاديث وليس بعد هذا سعادة لطامع ... فاغضيت حياء لان هذا الكلام موجهة سهامه بلاريب الى دون باقى القوم ولئن كانت الاميرة القته حديثاً عاماً علينا فوددت حينئذ لو أن الارض شقت فالتعنتي على ابي رأيت من كثير من الحضور خشوعاً مثل خشوعي وحياء كحيائى الامر الذى شجعتى فقلت مدافعاً أو معتذراً :

— ان في المصريين من هم على تلك الصفة المرضية التي تمدحونها وتحيينها أيتها الاميرة الجليلة ولا تخدعنك بعض الظواهر ومن هذه الصفة صفته وقد يغلب هواه عقله أمام سلطان الجمال القاهر فهذا سرعان ما تذهب دهشته ويثوب اليه صوابه ويمثل له الحب على نحو ما وصفت أيا ملاك الكمال والجمال لانهم من البشر والبشر آخذون من الخلال بين الملك والحيوان فتبسمت الاميرة براعة لهذا الكلام وأدركت أنه وعد صريح منى باني

ملائم في اتصال مودتي بها وصادقتي معها خظة الكمال والعقل ولم ينبس أحد من الحضور بكلمة بل جعل كل يغض طرفه ويفكر في نفسه كأنه يتذكر ما حدث له حين تعرف بهذه الاميرة لأول مرة وجرى له معها مثل ماجرى لي ثم زالت أوهامه . . .

ودخلت الوصيفة تحمل كتابا الى سيدتها فقضته وجعلت تنظر فيه مليا ثم رفعت رأسها وقالت مخاطبة لنا جميعا :

— أيها الافضل أتدرون ممن هذه الرسالة ؟ أنها من اختي الكبيرة الاميرة « حكمة » النازلة الآن ربوع أوروبا تسأل عنى وعن مقامي بين ظهرانيكم وتعلمنى بانها مستعدة لأمدادي بمعلوماتها الواسعة في كل ما يفيدني ويفيد أبناء هذه البلاد في مقامي بينكم وان اختي هذه جديرة باحترامكم أيها الافضل لأنها من العلم والمعرفة بالمكان الأرفع وهي أكبر مني سناً وقد ربنتي وهذبنتي فقام كل من بالمجلس والاميرة تعظيما واجلالا لذكر شقيقتها الاميرة حكمة وكتابها الكريم وهي تلوه علينا وكان كاه درر وغرر
ثم تهربت الاميرة يراعة كأنها تذكرت أعضاء أسرتها من صغير وكبير فاستطردت حديثها قائلة :

— ان أسرتي الكريمة تتركب أيها الكرام من خمس اخوة اكبرنا السيدة « حكمة » هذه التي تلوت عليكم كتابها الكريم وتليها اختي الاميرة « شجاعة » ثم شقيقتي « عفة » ثم اختي « عدالة » ثم محدثكم واني أصغر اخوتي اولئك اللواتي صادفن من مجربات الاحوال في هذا العالم الاهوال وقاسين الشدائد من أزواجهن ولقد هن كلهن بتربنتي وتهديبي خير قيام فانا

صفوتهن ومراة أخلاقهن أما والدانا فمن سلالة كريمة عريقة في الحسب والنسب وقد توفيا ولحقا بالابرار رحمهما الله منذ أزمان . . .

ثم عرکت جينها الوضاح کمن يستج مع قوی فکره ليقول قولاً هاماً وکننا نحن المجتمعين كأن على رؤوسنا الطير وتحقق لي أيي أمام ملك طاهر ساقه الله الينا ليهدينا سبل الرشاد وليس هذا منها دعوى فزاد به اشغفي وغرامى واتقطعت مادته في هذه الآونة الا من حب طاهر واجلال واحترام لهذه الاميرة التي ما لبثت أن رفعت رأسها الينا وقالت

— لقد علم كل منكم الآن ولا ريب حقيقة حالي وسر قدومي لبلادكم أي رجوعي الى وطن آبائي وأجدادي وان هذا القدوم قد رأيته كما رأيته اخوتي ضروريا فكونوا خير واسطة لبث ما سأحدثكم به من الأحداث وابته من الآراء مما يفيد أمتنا المصرية العريقة المجد والشرف في هذا الزمان زمان الجهاد على الحياة ، زمان النور والعلم والارتقاء ولقد كفى هذه الامة لعباً بين الامم فقد جاء دورها وآن أوان رقيها وتحصيلها الخيرات ولا تظنون هذا بالامر السهل على أيي باذلة قصارى جهدى لأخلص انكم من علمي وعلم اخوتي في قالب عصري لذيذ لتحفظوه وتنشروه بين الامة المصرية فهل أنتم فاعلون ؟ لا ريب أنكم مجيبون . نعم اذا رأينا ما تحاضرنا به مفيداً صالحاً فثقوا بانه نافع ومفيد جداً لا سيما وانه مصوغ بطريقة عصرية لذيذة وعلى قواعد استخراجها اختي « حكمة » للناس بأوروبا فأجلوها لذلك وعنوا بكتابتها التي تطبع بالآلاف هناك وأراكم سائلي عن موضوعات هذه المحاضرات فاقول انها احدي عشرة محاضرة فلسفية عصرية مقسمة على هذا

النمط : السعادة . الخيرات الظاهرة . الجمال . الشهوات . العواطف . الفكر
الحياة العملية . الاخلاق والفضائل . العالم والهيئة الاجتماعية . السعادة في
المجتمع الحالي . نعيم الحياة وشقاؤها^(١) فماذا ترون في هذه المواضيع أو هذا
البرجرام أيها الافاضل ثم ضحكت
فاكبر جميع الحضور شأها وقلنا كلنا بلسان واحد :

— انها نعمت المحاضرات أو الدروس وأنت وحدك أيتها الأميرة
الجديرة بمحاضرتنا بها من فمك الشهي وحبذا هي من خدمة لوطن العزيز
فقلت ووجهها طافح بالسرور والبشر يم أساريره :

— وأي من الغد سائقة اليكم هذه المحاضرات ابتداء من الساعة العاشرة
صباحاً الى الظهر وقد انتهى مجلسنا اليوم وموعداً غداً ان شاء الله تعالى
فقام كل منا وتزاحمنا على تقبيل يديها وانصرفنا لهجين بالثناء على هذه
الاميرة وكل يفكر في غد أما أنا فزاد غرامي وهيامي ولكني كتمته وجعلت
احوله الى سبيله الاسد من الاجلال والاكبار والاخلاص فلما دخلت داري
قابلتني امرأتي وهي تقول « ما سمعت الوم من دجالتك » فقلت « هي
أفضل واكرم من دجالتك أو كوديتك » فضحكت وضحكت أنا وزال
بعض همي ونمي لاني سأمتع مسامعي بتلك المحاضرات الاحدى عشرة من
ذلك النعم الشهي وامتع طرفي بضعة عشر يوماً بذلك المرأى الجميل والمحيا
الذي يتفرق فيه ماء الحسن وفي هذا بعض السلوى للعاشقين . . .

« ١ » هذه المحاضرات مقتبسة من كتاب فلسفة السعادة للفيلسوف الفرنسي الشهير بول
جانيه ومن غيره أيضاً



﴿ محاضرات الاميرة يراعة ﴾

السعادة

بكرت الى دار الاميرة فرأيت بعضاً من المدعويين لسماعها قد سبقني ورأيتهما قد أعدت لكل واحد منا كرسيًا ومنضدة عليها قرطاس ودواة وأقلام كأننا طلبة علم في احدى الكليات أو مكاتبو الصحف في بعض الحفلات أو رجال السياسة في المؤتمرات أو آخرًا أعضاء مجلس نواب استعداداً للمناقشة وكتابة المقترحات وكان أمامنا كرسي عال لطيف اعد جلوس الاميره وأمامه مكتب عليه أدوات للكتابة وكتب وقد نقش أبدع نقش

فما وافت الساعة المعينة وقد شربنا القهوة والسيجارات التركية حتى اعتلت الاميرة منبر الخطابة وكانت لابسة حلة بيضاء وعلى صدرها شارة جميلة ويدها عود من الزيتون الاخضر وفوق رأسها الكليل من الزهر كهيئة شعراء اليونان في الدهر الاول فصمتنا جميعاً واصحنا بالاسماع وكلنا عيون ترمق بالوقار والاجلال هذا المالك الكريم الذي استعد لمناجتائنا ثم قالت بصوت عذب ومنطق حلو :

« اشكركم أيها الافاضل على كريم عواطفكم نحوى وحسن ظنكم بي وعتقادكم في ما أنتم أهله ان هذه المحاضرة كما قدمت في برجرامى امس

تتعلق بالسعادة وما هي وانه أيها السادة موضوع جليل يلذ ابناء هذا العالم سماعه ويحلو لهم ذكره .

« السعادة مما لا سبيل الى تحديده بل هي مما قد اختلف في معناه وما هيته الاوائل والاواخر واني ملخصة لكم صفة ما وصلت اليه كبار العقول في هذا الموضوع من الوجهة الادبية الفلسفية : ان الناس مخدوعون في الحياة يجمع عقولهم المتناقضات قد يشكون من الحياة ثم هم يزعمون أنهم يعرفون اسرار السعادة فيها ! وانها لو جاءتهم تجر اذيلها لعرفوا كيف يتصرفون بها فلذلك تراهم ينتقدون هذا الغنى ويعيبون ذلك الجار الموسر في معيشته وتدييره أمره ! واذا كانت مجريات الحوادث ليست بيد الانسان بل بإرادة الرحمن فهذا يدور محور فكر الانسان ووهمه في الحكم الخالص به ولا ينجل من خطاه فيه وخطاه فينسب العيب الى غيره ولا يراه في نفسه ومرجع هذا الى الضعف وحب الذات انتهاهى فيحكم على السعادة أنها قد تخطئ وتوسوس لينا أنا بيتنا ان ما حصلناه مما نستحقه وما حرمانه فأما حرمانه بالحوادث والحظوظ ليس الا

« تلكم هي ضلالات الانسان بهذا الصدد وليس الامر قاصراً فيها على الحظوظ المادية بل هي تتناول أيضاً الاحوال الذاتية من حيث العقل والعلم والمعرفة كل يدعي لنفسه العصمة والكمال ولا ينظر الا الى عيوب الغير ! واسمع الى احاديث الناس بهذا المعنى تر عجباً وعلى الحقيقة فان كلا يرى السعادة على ما يهوى وتشتهي نفسه ويعتقد رأيه الصواب وعمله الحق .

« ومهما كانت الاحوال التي عليها السعداء أو من نسميهم السعداء فلا

يصح ان تكون قاعدة لكل الناس في السعادة اذ للناس اهواء متفرقة وأحوال مختلفة ولن تتوفر السعادة من كل اطرافها لانسان فهذا يغلط من يجمع أموراً من الظواهر فيجعلها نموذجاً للسعادة ولقد أحسن لارشفو قد اذ جعل السعادة في الاذواق لا في الامور المادية ، والخلط يجعل اللذة السعادة ليس الا من قبيل الخلط بين السبب والمسبب فمن هنا تعلم خطأ الذين يتحرون الذات فيتعهم طلابها ويرون أنهم غير سعداء لما يستولى على عقولهم من القلق والاضطراب بالاستغراق في اللذات على أن اللذات تختلف بين صحيحة وفسادة وهو أمر يعسر التدقيق فيه أو الاتفاق عليه .

« انا في تعيين هذه السعادة يجب أن نرتكن على مبدأ ثابت والا نهال كل بناء فيما نقرر عنها فأولا ينبغي أن نعني بالسعادة سعادة الرجل الكامل لا سعادة الطفل أو الرقيق أو الحيوان اذ ان ما قد يتلذذ به هؤلاء قل أن نعه من السعادة لذلك الرجل الكامل الذي يتحرى الخيرات الصحيحة المنحصرة في هذا العصر في مثل « استجدادة الفكر » و « اتقان العمل » و « عظمة النفس » و « حب الفخار » الخ وان نقيضاتها مما يسعد أو يتلذذ به الخملون والكلون ومن على شاكلتهم من الاطفال والحيوانات العجم فيه لذة وسعادة ولكنها ليست بالمنشودة لمثل ذلك الرجل الكامل وقس على ذلك من يتبع الشهوات فيضل سبل الرشاد

« فالسعادة اذاً تنقسم قسمين سعادة صحيحة وأخرى كاذبة بل هناك سلسلة من السعادات تتدرج من أدنى الى أعلى واكمل وان السعادة الخيالية العالية التي ينشدها الانسان لهي مجموع تلك السلسلة في تدرجها وارتقائها وليست

واحدة منها الا وترجع في أصلها الى ذات الانسان أى الى استخدام قوانا
الادبية فيما خصت له بدافع ذاتي وبلا ممانع داخلي أو خارجي قينتي الألم
وتحصل للنفس في تأدية وظائفها الراحة والهدوء وهذا منتهى الحياة السعيدة
التي ينشدها الناس في جهادهم على الحياة على أن الراحة التامة مما لا سبيل اليه
وانما غاية ما يصل اليه الانسان في جهاده ايجاد الوفاق والتناسب بين قواه
ليحصل على نوع من الراحة والسلام لان الانسان لئن أوجد في نفسه لنفسه
بالحكمة ذلك السلام التام والهناء فسرعان ما يرى الحوادث تشوش عليه حاله
فاذن تكون السعادة التامة ليست من موجودات هذا العالم وان المؤديات
اليها هي التي تعوق عليه أو تتدافع بين لذات وآلام لديه وهذا الجهاد المنتج
لشبه تلك السعادة هو القدر المتحصل عليه بالعمل واجهاد القوى في هذا العالم
عالم التعب والنصب .

« ان وصول الانسان وحصوله على المجد والفخار من طريقه الصحيح
من السعادات في هذا العالم ولو منى في سبيله بالمصائب والتعاسات لان له من
ذلك المجد بجد ذاته سعادة وفرحة ولان من المصائب ما هو شطر السعادات
وجالبا اذا أدى حال مجهود القوى اليها وهذا من كريم سنة البشر في نيل
الفخار — وصعب العلا في الصعب — والا كان لا فرق بينهم وبين العجاوات
التي تكره بذل المجهودات وتنهزم أمام الصعب من الحادثات وشرط الانسانية
في سعادتها الحفاظ بالذات بطريق العمل الصحيح .

« نعم هناك رأى صحيح في توقي الألم والابتعاد عن العالم للعيش بالتأمل
والتفكير في الحقائق على أن هذا لدى التأمل الصحيح يقتضي أيضاً بذل الجهد

للحصول على الدرجة الرفيعة في جهاد النفس ومدافعة اللذات والتوفر على السعادة والعلوم ولكل ظلماته وصعوباته ومغمراته في طرح واجبات اخرى وحقوق للبدن وللناس امرنا البارى تعالى بان لا نهضم نفوسنا وهيتنا حقوقها منها .

« وهناك من شروط السعادة أيها الكرام « المدة » فسعادة لا تدوم ليست الا حلماً لنائم والخيرات الصحيحة تدوم أكثر من اللذات المارة فهي لا تدوم وتلك الطبيعية تدوم لتناسبها مع أحوالنا وتدرجها مع أدوار الانسان في عمره فمن ثمة كان للطفولة لطيف لذاتها وللشباب كريم مسراته ثم للكهولة والشيخوخة سعادتهما وراحتهما ولا ينبغي للمرء ان يحزن على مغادرته لكل دور أو يغمم لذهاب الجمال مثلاً عند الدخول في سن الكهولة أو الشيخوخة اللتين لهما وقارهما أو جمالهما الخصبين ولا حكم للشذوذ أو لطرؤ الحوادث غير المنتظرة أما من حيث الخيرات الخارجة كالغنى ونحوه فمن السعادة الحفاظ به ومن المصائب فقده وبما ان المال أكثر عرضة للضياع بالحوادث فينبغي للانسان ان يستزيد مما يبقى ليعمل بأحسن ما يتوصل به اليه

« على انا لو ناقشنا ما الانسان معرض له في هذا العالم لألفينا تلك السعادة مما يصح ان تتضارب فيها الاقوال وتختلف الظنون وعندى ان الانسان لما كان معرضاً في نفسه وعقله وماله للضياع فخير ما يلجأ اليه ويسعد به « الدين » أى الركون الى جانب الله تعالى فتم السعادة لا على طريقة أهل التقشف والزهادة بل على تلك القاعدة التي جاء بها الحديث الشريف « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » وما الدنيا الا ظل

زائل وما الاموال والاهلون الا عوارى أو ودائع ولا بد يوماً ان ترد
الودائع . . . »

ثم سكتت الاميرة براعة برهة فرأيت في عينيها ذمعتين حائرتين ثم
ذرفنا فتمثل لي من تأثرها وشكلها وحديثها العذب ومحاضرتها الحلوة ماجعاني
اتضاءل في نفسى واتصاغر أمام ذلك الملك الكريم ثم فتحت فاهها الشهي
وقالت وعلامات التأثر بادية عليها :

— لقد انتهت أيها الافضل محاضرة اليوم وفي الغد احدثكم ان شاء الله
تعالى حديثاً غيرها مما اعلنته في بر جرامى السابق على ان تلك المحاضرات
سلسلة مرتبطة بعضها وستسمعون غداً ما يتعلق بالخيرات الظاهرة وانى على
كل حال اكرر لكم الشكر على حسن استماعكم لى وعنايتكم باحدثي
ثم تبسمت وقد عاودها سرورها فاعادت لنا نفوسنا وهي تقول :

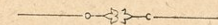
— والآن لينصرف تلاميذى بسلام » فضحكنا وقام اكبرنا سنناً

ومقاما وهو شيخ من المعممين وعالم عصرى من العاملين فقال :

— اني أيتها الاميرة بالاصالة عن نفسى وبالنيابة عن باقى اخواني «تلاميذك»
اشكرك الف شكر واتى على محاضرتك هذه الشبية الطلية ثناء يوفىها حقها
من المديح والاكبار وليسمح لى «استاذنا الاعظم» بتقيل يديه جزاء
ما اسدانا من نعمائه التي لا تقدر ولقد جاء فى الاثر « من علمنى حرفاً صرت
له عبداً »

وما أتم الاستاذ المعمم كلامه حتى كنت أول المتقبلين لتلك اليد الناعمة
ثم استأذنا فى الانصراف فأذنت لنا الاميرة فخرجنا وكلنا معجب بتلك الاعجوبة

ولا يكاد يصدق بما رأى وما سمع لولا ما علق بذاكرته أو قيد في دفتره
من محاضرتها النفيسة .



﴿ محاضرات الاميرة يراعة ﴾

الخيرات الظاهرة

لا أطيل على القارئ في وصف تلك المجالس الشائقة لأنها كانت متشابهة
كتشابه أحوال المدرسة من المجيء لها في الوقت المضروب والانصراف
عنها في الميعاد المعين كما لا أصف له مقدار تلذذ نفوسنا وابتهاجها حتى كنا
نعد أنفسنا نحن الشيوخ والكهول أطفالا أي طلبة علم حقيقيين ولكننا كنا
مهذبين الاخلاق حسنى التربية نصغي باعثناء وتأدب في حضرة استاذنا ذلك
الملك ونجمله ونجبه وهاهي محاضرة الاميرة الثانية أسوقها كما قيدتها في
دفترتي من لفظ الاميرة يراعة ربة الابداع قالت حفظها الله تعالى :

« أيها السادة :

« مهما قال الفلاسفة المتقدمون من الاقبال على النفس واستكمال
فضائلها حتى تساوى لديها اللذات والآلام فانه لا سبيل الى نكران ما للخيرات
الظاهرة من الفضل والمزية في الحياة الدنيا فالعافية والغبطة من متطلبات
الحياة للوزان وتقوية القوى الادية ولقد قال المثل القديم « العقل السليم

في البدن السليم « ثم أن النشاط في العمل والشجاعة والاقدام قد تعتمد على القوة كما أن للغبطة مفعولها وأثرها بحسب اختلاف الاحوال فهذه النعم من الخيرات ، والفلسفة الادبية المتشددة وان جعلتها من الخيرات الزائفة فهي على كل حال من الخيرات النفيدة التي منحها البارى عباده لمصلحتهم .

« ومن الخيرات الظاهرة والنعم اللذات الصحيحة المعتدلة التي لا تهيج التصورات أى النزعات الفاسدة ولا تقلق العقل وتهوش عليه في عمله أما من يجعل هذه اللذات لذات الحواس المعينة على السعادة عين هذه السعادة وان حياة التمتع والرخاء والبذخ ليس وراءها سعادة فمع اختلافهم فيها قد وهموا واخطأوا ووقعوا المجتمع في الشرور لانه لم يتأول مقاصدهم الحسنة الا بها غير ناظر الى القيود أو الشروح التي شرحت بها تلك المبادئ ، ومن الاثم والعار ان تصرف الحياة فيما لا يجدى نفعاً من التمتع باللذات بل يجب الاعتدال لتوافق الاحوال البشرية التي هي وسط بين الملك والحيوان .

« واذا كان البدن والحواس بتوفرهما على الاعتدال أى اطاعة العقل جديرين بالاحترام والعبادة بشأتهما فلا جرم كانت حيازة الاشياء الخارجة المعينة على سلامتهما وحفظهما أمراً ضرورياً وان كل ما يوجب ضررها ومنعها عن تأدية وظيفتهما انما نعهده من المصائب والتعاسات فالضرر اذاً ليس في الغنى وحيازة الاموال وانما هو في سوء استعمالها والتصرف فيها أو التكالب عليها كما ان الفقر ليس الا فقر العقول ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انما الغنى غنى النفس » ومعنى هذا دقيق يلقي فيه الفقير تعزية وسلوة وتحييياً في العمل والغنى حكمة ثرية سبيل الرشاد في السلوك بالقناعة والاعتدال تلك

القاعدة الصحيحة من الاجمال في الطلب وترك التغالى والشره والبدخ وليس في هذا تنبيط للهم عن السعي لان حصول المرء على الغبطة مما يعين القوى الادبية كما تقدم فهو نعم المعين للحصول على السعادة وانما العيب في الشره وكثرة التتم وعدم اشعار النفس القناعة والغنى . ومثل هذا الرغبات الصحيحة كالتعب في تحصيل العلوم أو احراز الفخار وابتناء المعالى من وجوها الشريفة فهذا القعود فيه لا يعد من الفضائل بل يعتبر من أحوال الهمجية غير الصالحة لهذا العصر ولكن هناك حداً أيضاً واعتدالاً محموداً يجب على الافراد المشتغلين بذلك مراعاته لان الرغائب تجر بعضها بعضاً وفي الحديث الشريف « اتنان لا يشبعان طالب علم وطالب مال » اشارة الى ذلك من ضرورة اختيار الحد الوسط تبعاً للقاعدة الصحيحة

« ليس في الفقر غضاضة الا اذا بلغ اشده وكاد يكون على صاحبه كفراً ولكن بين ذلك أوساطا فيها من السعادات ما الله أعلم بمقدارها في نفوس اصحابها مما قد يحسدهم عليه الاغنياء المنعمون . أما التربة اى شدة الفقر فقها من الشقاء ما قد يقضى على اصحابها شر قضاء بل ما يجعل الانسان وحشا ضاريا قد يتجرد بسببها من الفضائل اللهم الا من بقايا قد تكون كالزهرة في وسط الاشواك أو كالشعرة البيضاء في جلد الثور الاسود

« ولنوضح ههنا الفرق بين الفقر والبؤس اى التربة فالفقر ما يكون لصاحبه بعض الظهور أي غير واصل بصاحبه الي المدقة وشدة الحاجة وانه الذي يحصل رزقه يوما بيوم ولولا تمسكه بشأنه لأختل ميزانه وهذا الفريق هو الذى خلق للكدح والعمل حتي لا يهلك جوعا وسعادة هذا الفريق

وهناؤه في عمله وبالرغم عما في عيشه من الشظف والآلام فان له نصيباً وافراً من السعادة والسرور الخصبص به بل فضائله الجمحة هي التي تقوي النفس وتهذبها وتشعرها بقوتها وواجبها في العمل والكدح وان الرجل الذي ينزل هذا الميدان لا ناصر له ولا معين غير نفسه وعمله فينشئ له مركزاً وعملاً وأسرة لهو الانسان الكامل أي الرجل الصحيح بكل معنى الكلمة العصرية وهو يفضل ذلك الرجل الذي يرتكن على تراث أو ميراث قد لا يلبث أن يضعه، وهو يفضلهُ أيضاً في الاخلاق والصفات ، وكل الاعمال التي قام بها البشر انما قام بها هؤلاء الفقراء أي رجل العمل والكدح والنشاط العقلي مهما قيل في مآثر الغنى وآثار الاغنياء ونظرة في كل الاعمال والمنشآت

البشرية تريكم أيها السادة خيط هذه النظرية الابيض من خيطها الاسود « ومما يلزم الانسان من الخيرات الخارجة المنزل والمسكن والناس في كل العالم ينقسمون الى سكان أرياف وسكان مدن وانا لا يسعنا ههنا أن نذكر فضل كل فريق منهما ومآثر الاعمال التي يأتيا الريفيون والحضريون وحاجة كل الى صاحبه وتبادل المنافع بينهما ونزوح كل الى منزل صاحبه وكيف تعباً المدن الكبيرة ويكثر سكانها من الريفيين الذين ينزحون اليها طلباً للرزق في تلكم الاوساط الكبيرة ويرتقون وكيف تمد الارياف المدن والعواصم بالخيرات وتحتك الافكار بين الجماعات

« وبهذه المناسبة أقول أن النقل — والعز في النقل — كما قال الطغرائي للاقامة أو السفر للسياحة والنزهة وفوائد الاول تابعة للمصلحة الذاتية القاضية به وفوائد الثاني لا يختلف فيها اثنان من حيث ترويح النفس وترويضها بمختلف

المناظر وشدليل الهواء وعليه فان كنتم حضراتكم ترون أن نجري في الغد سياحة صغيرة الى « اهرام الجزيرة » حيث أنه يوم جمعة ونبقى المحاضرة الى يوم السبت فاني أشكر لكم هذا الصنيع والفضل من الخروج معي أى مع استاذكم . . . »

ثم قهقهت الاميرة بصوت أغن لا يفضله أرق نغمات الموسيقى فنفذ في فؤادي كالسهم وقبعت في كرسي ولم أنبس بنبت شفة وقد نسيت وعدي ذلك . . . أما هي فنظرت الى نظرة كادت تقضي على حياء وجعل الشيوخ وباقي الحضور بتلطفون في الجواب وانهم طوع اشارتها ورهينوا أمرها فلم ترد على أحد وقالت وهي تنظر الى كالمعابة

— وأنت أيها الصديق ما رأيك . فقلت :

— رأيي . . . أنه لا بأس . . . أذهب معكم . . . أنا رهين الامر . . . وا . . .

— كفي كفي اننا نذهب منذ الصباح الساعة السابعة وقد أعددت كل

شئ هناك . . . فالى المتقى

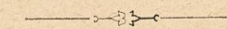
عند ذلك قام كل منا وبادرت كعادتي فقبات يد الاميرة يراعة قبل القوم وبودى ان لا اترك تلكم اليد من يدي فشعرت بارتحافها وسحبها بسرعة . . . ما هذا الهم صبراً ولقد وعدت الاميرة ووعدت زوجتي بذلك المبدأ . . . ولكن تقسى عادت تحدى بالآمال ولا بأس بما احله الله وليس على المسلم غضاضة في الزوج باكثر من الواحدة . . . لكن كيف تقبل هذه الاميرة بل كيف يكون حال زوجتي وأولادى اذا رأوني تزوجت وهجرت أسرتي ورأوا الأهم ضررة بيد ان ضررتها ان صح أملي بل حلمي هي من ؟ هي الاميرة

براعة هي ملاك هذا العصر جمالا ودلالا وعزاً ووقاراً . . .

وعند ما خرجنا كانت افكارى متجهة بكليتها الى تلك الاميره وجمالها
وسحر عيونها وقوة يانها وعذب منطقتها وفصاحة لسانها وتضلعها أوا، انى
احبتها ويئست . . . ثم هاهو ذا قد عاودني غرامي وآمالى . . . أتشفق على؟
أتقبلني لها بعلا أترضى بان تكون لها ضره . . . ؟»

وصلت الدار وانا بين لواهج هذه الافكار وتلاعها بلي ولقد كانت
قرينتى غائبة فحضرت ورأتني مضطجعا على مقعد طويل وبصرى شاخصاً
الى السقف فتأملتنى طويلاً ثم صرخت قائلة

— أراك عاشقاً يا صديقى لاني دخلت عليك فلم ترنى وكلمتك فلم ترد
على بل كنت تائمها في بحر افكارك شاخصاً بصرك الى السقف لا يتحرك
فانت ولا ريب عاشق تلك التى تدعي أنها عالمة بعلوم الاولين والآخرين!
فارتبكت فى أمرى وأغضيت حياء ومن ذلك الحين ما عاد يطيب
لامرأتى عيش ولا تلذ لها حياة وقد دخلها الريب والشكوك ولكنى لم أعبا
بها فى تلك الحال من تعلق نفسى بالحال



تحت سفح الهرم

في صبيحة يوم الجمعة ٢٥ ديسمبر عام ١٩٠٨ أشرقت الغزاة على ربوع
القاهرة قوية الأشعة بهية الطلعة كعادتها في هذا الاقليم الجميل وأصبحت

الطيور تغرد والناس في الشوارع الى الاعمال تركض وأخذت قطارات الترام تنساب في فروعها بشوارع العاصمة كالآفاعي — فكنا نحن تلاميذ الاميرة يراعة وهي بيننا بالزى الافرنكى وعلى وجهها خمار كثيف وقوفا في محطة العتبة الخضراء تنتظر ترام الاهرام ومعنا بعض الخدم والوصائف يحملون سلالا فيها بعض المأكولات الشهية والازهار العطرية اللطيفة وبعض اشياء مما يتعلق بالاميرة فلما قدم قطار الاهرام ركبناه وشغلنا بجمعنا منه مكانا احطنا فيه بالاميرة احاطة الهالة بالتمرح حتى لا يدنو منها أحد أو يجلس قربها غيرنا انسان ولم نلبث حتى ملئت مركبة الدرجة الاول التي كنا فيها بالسائحين والسائحات فجلسوا ينظرون الينا ويعجبون من وجود هذه الحسناء بيننا لاسيما النساء وهي قاعدة مطردة في بنات حواء . . .

ثم دق الجرس فسار القطار مخترقا شوارع القاهرة ومبانيها الضخمة على الجانبين حتى خرجنا الى كوبرى الجيزة وهناك انشرفت منا الصدور بمراى النيل السعيد والخضرة التي تكسو على الجانبين الطريق مد البصر الى ان وصلنا الاهرام فصعدنا في طريقها الحجرية مشياً على الاقدام ونحن نضحك ونمرح وقد تعب الشيوخ منا فاستأذنوا فى الركوب فظراً بفكرى ان اركب « جملا » من جمال العرب المعدة للركوب بالاجرة هناك فاستحسنتم الاميرة الاقتداء بي وركب باقي القوم الحمير فكانوا أسفل منا ونحن أعلى منهم وصرت وحدى اتمتع بمشاهدة تلك الطلعة المشرقة البهية جنباً الى جنب وقد علا النهار وقويت أشعة الشمس مما زاد وجنتى الاميرة توريداً وعينيها نعساً وقلبي أنا هيأما وأملا . . .

ولقد كنا ونحن نطوف بين تلك الهضاب تحت سفح هرمى خوفو
 وخفرع وحول تمثال أبي الهول والمعبد والعرب ومعهم السياح في حركة من
 صعود الهرم أو دخوله والطواف حول تلك المباني الضخمة العتيقة والمفاخر المصرية
 القديمة كالحيج حول الكعبة أو في الترميل بين الصفا والمروة وما كان
 خشوع النفوس أمام تلك الآثار المصرية العظيمة الا خشوع أولئك النساك
 مع الفارق والكل وجهة هو مواليها... أما انا فكنت أسارق الاميرة النظر
 واخلسها اللحظات وهي تتصنع التجاهل أو لا تكثرث بي أمام تلك المشاهد
 وكانت كثيراً ما تحول وجهها دوني أو تنظر الي كأنها تقول « وأين الوعد
 يا صديقي » غير اني دخلني شيء من الغرور والامل بل خلت نفسي وانا راكب
 جملا وصاعد جبلا والاميرة يراعة راكبة مثلي جملا بشيء من الظفر فجعلت
 العواطف والآمال وأمانى النفس ترمى بي كل مرمى فكنت تارة اضحك كالطفل
 وتارة افكر كالذي أصيب بالسويداء وما كان حالى خافياً على عين ذلك الناقد
 البصير أى أميرتي المحبوبة المفداة بالنفس والنفيس... أما اصدقائنا فكانوا
 كما تقدم أسفل منا وكنا تارة نتقدمهم وأونة نتأخر عنهم وهم في شغل عنا ونحن
 أو انا في شغل عنهم

وختمنا تطوافنا و تفرجنا على تلك المعاهد بالجلوس في كشك من الخشب
 هناك أخلى لنا بالاجرة وقد صار في خدمتنا جماعة من العرب لما رأوه من
 كرمنا كأعظم السياح... وكان هذا الكشك بالقرب من الهرم الكبير
 وترى منه أيضاً باقي تلك الآثار وتمثال أبي الهول الكبير الضاحك الباكي
 من الزمن وهو رابض كالاسد في عرينه يواجه مطلع الشمس منذ الدهر

الاول وعند الظهر تناولنا طعام الغداء وقد أعتل النسيم ورق أديم السماء في تلك الصحراء فطاب لنا الحديث ولذت المحاضرة فنظرت الاميرة يراعة الى تمثال أبي الهول نظرة طويلة تمنيت لو كنت مكانه عندها ثم تبسمت قائلة :
 — من منكم أيها الاصدقاء الافاضل قرأ فصل بيرلوتي الذي دمجته يراعتة العظيمة تحت عنوان « في منتصف ليلة من ليالي الشتاء امام أبي الهول العظيم »
 فجعل كل منا يتذكر انه قرأ ملخصاً من هذا الفصل في اللواء وكنت انا اذكر شيئاً منه قرأته أيضاً بالفرنسية خصوصاً في ذلك السفر الذي وضعه ذلك الكاتب المتفنن واسماه « موت فيلا » أي جزيرة قصر أنس الوجود والتشاؤم بخراب هيكلها الجميل بسبب انشاء الخزان

فقلت الاميرة

— وانا أيضاً قرأت هذا الكتاب وقد جعله بيرلوتي لذكري صديقه المرحوم مصطفى كامل باشا ولقد جمع بيرلوتي في هذا السفر بين محاسن الصناعة وجودة الخيال والوصف ألا تراه قد حسن وصفه لهذا التمثال ولهذه الاهدات ولهذه الرمال ولهؤلاء الاعراب ولهؤلاء السائحين ، ولو كان الوقت ليلاً لشعرنا بما شعر به من البرد القارص في هذه الصحارى والرمال ولكن ما أجمل هذا الصحو وأطف هذه القبة الزرقاء وأعطر هذا الجو وأرق هذا النسيم واكرم هذه الحرارة المنبعثة من الشمس لاجرم ان أولئك السياح عرفوا كيف يختارون أحسن البقاع لتمضية فصل الشتاء . . . فاذا كان للبلاد العامرة بالياه والاشجار مزايها فان لهذه الصحراء فوائدها الجمّة أليس كذلك يا أبا الهول ؟ ألا تدري ان أوروبا تحسدكم على جوكم في الشتاء

وعلى أرزاقكم في الشتاء والصيف؟ ألا تعطف آلهة القدماء فتنفخ في روع
 المتأخرين تلك الروح التي قادت بها مصر زمام العالم القديم حقبة من الدهر؟
 الأدورة من الفلك الدوار تحيي القلوب الميتة وتنعش الآمال وتعيد المياه الى مجاريها
 الأثبات لك يا زمان فكفر ثم التفتت نحوى فرأتني انظر اليها كالابله فضحكت ضحكة
 رن صداها في أركان ذلك الكشك ثم حولت وجهها الي تمثال أبي الهول وهي تقول
 — أيا طلسم الصحراء ورضن القدماء مالك لا تخبرنا بأنا اذا لم نعمل بالعقل
 لن ننجح واذا لزمننا السفساف لن نفلح . . . فوجمت وزاد ارتباكى ولكنى
 بقيت معلقاً أُملي بما علقته به من الخيال وهو لذيذ على النفس فلذلك تجاسرت فقلت
 — لقد وقف أبو الهول والاهرام شاهدين على عواطف الانسان
 وأحوال البشر منذ الدهر الاول

فأجابت الاميرة بسرعة ادهشت كل الحاضرين من اصدقائى وكدت
 آيس منها

— ولكنهما شاهدان عدلان على ضعف هذا الانسان من الوجهة الادبية
 وان أبا الهول بتلك الابتسامة التي تشاهد على وجهه كأنه المحب يراقب حبيبه
 ويستعطفه أكبر شاهد على ان الحب الخالص هو أسمى عاطفة في البشر
 أودعت عقولهم وشغلتهم منذ ان وجدت للعمل ولا اعنى بالحب الا الطاهر
 منه ، الا ما سما وعلا لا ما سفل وتدنى . . . ثم غيرت مجرى الحديث وقد
 شعرت بما ألمنى منه ووبخ ضميرى عليه فقالت

— أئي آسف على قلة خروج المصريين لمشاهدة آثار اجدادهم فانها
 من المتأخر بل الأعلام الناطقة بعظم قدماء المصريين وان المصريين الحاليين

ولا اعنى الا الفلاحين بصرف عن اختلاف الدين والنحلة هم سلالة ركبها الضعف حتى يئس من ارتقاؤها الباحثون فاتهم يا صفوة هذه الامة ولباها عقلا وعلما ومعرفة عليكم انهاض هم اخوانكم ومواطنيكم وتعليمهم وتدريبهم وتقييمهم معنى الحياة ، معنى وجود الامم وكيونها واحتفاظها بحقوقها التي هضمت من قديم الزمان لا لسبب آخر سوى افاضة الطبيعة الخيرات على بلادهم تلك الحقوق هي الحياة ولا معنى لحياة الامم الا بها وانى احمد الله على انه قد وجد فيكم الآن فئة عاملة حنكتها التجارب فقامت بعد ذلك السبات العميق تناضل ومجاهد طالبة لبلادها ما تقضى به روح العصر ومبادئه تلك التي غرس بذورها الاوريون في اقطار المعمورة فأسعوا لانالة الامة حقوقها من طريقة الاسد في هذا التخار كل الفخار كثر الله سواد العاملين منكم وتعلمون اني ما جئت اسكن هذا الوطن العزيز الا للاخذ بناصر هذه النهضة لاني احب الحرية والاحرار وابغض ما يصادهما أو يعيقهما وبالتالي من يعمل على هضم تلك الحقوق ويبخس الناس اشياءهم أو من لا يأتي البيوت من أبوابها فان هذا أيضاً له مضاره .

« بشوا في عقول العامة المعارف الصحيحة علموم مبادئ الحرية والاخاء والديمقراطية ائتوهم من جهة الاخوة التي قررها الاسلام والحقوق التي اقامها والواجبات التي أمر بها والفضائل التي حث عليها والردائل التي نهى عنها فهي خلاصة القديم وواسطة لبث الجديد وقبوله ، اني أرى فيكم رؤوساً مفكرة واقلاماً رشيدة واقلاماً غير رشيدة وهكذا الشأن في كل العالم بعضهم يريد ان يأخذ بالعقل وبعضهم يميل الى العنف وقوم بين بين وهناك فئة تدور مع

الزمان كيف دار وبئست الخصلة خصلة التلون كالحرباء والتاريخ يحفظ
لكل ذكراه

«نعوذ بالله من الشقاق والنفاق وسوء الاخلاق وانحطاط الهمم فانها من
الخصال الذميمة التي متى فشت في أمة فبشرها بالاستعباد وسوء المنقلب ان
لم تداركها العقول الكريمة فترى الهدى من الضلال وتير لها الطريق والا
علمتها الايام والليالي ولكن بعد ان تكون مسودة لا سائدة وشتان بين سيد
ومسود ولا اعني بالاستعباد ما يتعلق منه فقط بالسياسة بل هناك الاستعباد
في الاعمال والاموال ولقد تقدمت الاشارة الى ان ما يرغب فيه من السعادات
انما هي سعادة الرجل الكامل لا الطفل أو الرقيق ورقيق العقل شر من رقيق
الجسم وأسر النفوس بالاموال وفي الاعمال لن يناسب ما يطلب من شرف
الاستقلال واذا استقل الافراد سهل استقلال الجماعات

فقال شيخ من المعممين وكان يتقد غيرة ويتوقد ذكاء وتملاً بين جنبيه
الحكمة وقد تأثر من كلام الاميرة يراعة :

— نعم نحن نذكر ذلك ونشكر الاميرة على تذكيرنا به ولقد كتبت
في الكثير من اسفاري عن ذلك ونشرته ملي الملاء وان اكثر العقلاء لمن
صنك وصني أيها الملك الكريم في هذا الرأي فالاستقلال الذاتي قيل الاستقلال
السياسي « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » وهو قطعة من حديث شريف ترشد
الى ضرورة العمل بهذه القاعدة والاخذ بتلك أيضاً ليكون السعي مزدوجاً
على انا ينقصنا كثير من الهمة والعزيمة والعمل خلاص بلادنا من ربقها
الاقتصادية المالية وحسن القيامة على انفسنا وزرعنا وضرعنا وتديير مصالحنا

ومصالح بلادنا واستثمار خيراتها بانفسنا على الطرائق الناجحة ثم احتد الشيخ
ورفع عمامته وهو هايج كالبعير له رغاء وهو يقول اللهم هبنا عقولا تعقل وافهاما
رجيحة تفهم ونفوساً صحيحة ونشاطا وتقظة وارنا مناسكنا الوطنية وتب علينا من
خمولنا وجودنا وكسلنا وحماقتنا انك أنت التواب الرحيم

فقال رفيق آخر — وقد رأى طيب الوقت والهواء ولذة هذا السمر
تحت سفح الهرم وأمام تمثال أبي الهول الكبير وكان كأنه يسمع لنا ويسم لما
يقول بنو قومه الحاليون

— ألا يمكنى ان استأذن الاميرة بان تعتم هذه الفرصة فتلقي علينا
محاضرتها الثالثة وأنها لفرصة لنا ولها؟

الاميرة — حبا وكرامة اذا رأى ما رأيت باقى اصدقائى ووافقوك عليه
فقلنا بلسان واحد

نعمة الفكرة فهاتى اطر فينا بمحدثك الشهى ...



﴿ محاضرات الاميرة يراعة ﴾

الخيال أو التصور

قالت الاميرة :

— لقد يخطيء أيها السادة الخطأ الجهم ذلك الذي ينكر على الخيال أو

التصور حقه في ترقية أحوال البشر ولولا فائدته لما أودعه الخالق تعالى في أصل الفطر وبرزت آثاره في مثل الشعر والقصص واضرابهما ومن العجيب ان أهل الجديرون في ذلك كله من مبدعات الخيال عدم الفائدة وان لاحكمة فيه ويجتهدون في الآشته من نفوسهم ونفوس غيرهم معهم والانصراف عن أموره بتاتاً ومنهم من تلطف وقال بالاكتفاء بالقليل منه ثم تحديد وقت له كالطعام الذي يتناول في أوقات معينة !

« كبرت كلمة تخرج من افواههم ان ما ينكرون على هذه القوة البشرية من الفضل لهو القوة المحركة للحياة بل المبدأ أي القاعدة التي بنيت عليها كل اعمال العالم وهم في الجملة لان البشر يسعون لغاية ان يصلوا اليها في الجملة الا بالخيال والتصور الذي يزين لهم الاعمال ويحسنها تحسيناً مصدره الخيال وكل له نصيب منه في غايته وقصده فيزين لهذا حب المال ولذلك الحياة والسلطة وهذا مطرد في الافراد والامم فهو باعث الوطنية باعث الحرية بل وسيط الاعمال الجسم قبل التمام فتحض الهمم وتظفر النفوس بواسطته بالمرام فالخيال اذاً بذرة صالحة لمثل المؤلفين والشعراء وارباب المشاريع والصناعات والتجارات والاختراعات يبرقش لهم ويزين بل يغرر ويضلل الي ان تتبعث من وراءه الفكر والرغائب والهمم حتى تكمل ما حسن لها هذا الخيال وصور وسلوا المكتشفين والمخترعين عما اهاجهم وبعث همهم الي اكتشاف تلك الجاهيل الارضية والصحاري والانهار والمخترعات والمكتشفات في الجاذبية والبخار والتلغراف والتلفون ثم تلك الخيالات البديعة في الشعر والموسيقى والادب والتصوير لا جرم ان مبعث ذلك كله الخيال وما صور وبعث عليه

الهمم وحث فيه الرغائب والعزائم فأتجهت اليه العقول والفكر .
 « ان الانسان بفضل الخيال يربط بين الحاضر والمستقبل بقوة الترتيب
 الخيالي وبذلك تنتظم حياته وتقوى آماله وتصلح اعماله ومهما قال الخائقون
 فان الحياة البشرية تصلح بذلك ولولا التصور والخيال والامل الذي يبني عليهما
 لفقدت الحياة لذاتها وحرمت النفوس نشاطها ولدهش الناس من مفاجآت
 الحوادث بما لم يستعدوا لها في خيالهم وتصوراتهم وليس العمل وحده المحتاج
 للخيال بل الفكر أى العقل له اليه أيضاً حاجته اذ هو كثيراً ما يكون رائده
 في اكتشاف الحقائق كما تقدم وارجعوا الى أحوال من شتم من المكتشفين
 والمخترعين تروا للخيال أكبر فضل فيما اهدت اليه قرائحهم وعقولهم من تلك
 الاكتشافات فيوتن وكوفيه ما كان رائدها الا الخيال وما مبهد الطريق
 للنظريات العلمية الا هو وله فضل كبير أيضاً على أعظم الخلال العملية في
 الانسان اغني حب التجديد والتغيير ثم العادة ورسوخها ولهما لذاتهما ومزيتهما
 في هناء النفوس وراحتها وسعادتها ولكل جديد طلاوة كما للعادة حكمها
 وهي تلك الطبيعة الخامسة لكن لكل منهما حداً ولقد يقال ان العادة لا دخل
 للخيال فيها ولا تأثير له عليها لرسوخها والحقيقة انه مصدرها كالرغبة في التجديد
 وما يحسن لنا الجديد يزين لنا القديم ثم ينتقل عنه مجدداً فهو اذاً دافع الترقى
 وعامل من عوامل الحضارة والمدنية بل مانع للظلم لان الجمود على العادات
 أى اكتفاء الخيال بالقديم وعدم تيقظه لصور وخيالات جديدة مفض به الى
 الضيق والجمود ولما لم يجد له مخرجاً ومتسعاً تحول الى ظلم وعسف فالتصور
 أو الخيال عملية ميكانيكية للعقل والفكر ان لم تنطلق دارت على نفسها حتي

تحمد انفسها ويمجد اصحابها .

« وذوق التجديد وسلطان العادة اثرهما في الافراد اثرهما في الامم فالامم النشيطة الكثيرة الخيال تنتقل بالسرعة من حال الى حال تلازمها حيناً كعادة ثم يردفها الخيال باخرى أفضل منها في عرفة بعكس الامم الجمادة وهذا معنى أو سر دقيق في ارتقاء الامم على ان للاعتدال فوائده فسرعة التغيير تبعاً لسرعة الخواطر وقوة الخيال لهما مساويهما وكذلك الرضوخ للعادات والجمود عليها دون نظر الى محاسن التغيير في حينه له أيضاً مضاره

« وهناك الخيال المحلق في جو الآمال وفسيح ملكوت الله فهذا له أيضاً فوائده « وما أقصر العمر لولا فسحة الامل « بل ما أحقر الحياة لولا هذا الخيال الذى يجعلها كبيرة عظيمة وله في الدين والامل بنيل السعادة الاخرية ماله من الاثر الحميد في تهذيب النفوس وانعاشها

« وانظروا رعاكم الله أيها الاصدقاء الى هذه الآثار وتلك المبدعات والمنشآت الخيالية في الفنون الجميلة والشعر والموسيقى ما الذى اهاج عواطف الانسان الى آتيانها واتقانها أليس هو الخيال ؟ وهذا الحب الذى هو اكرم عاطفة أودعت النفوس بالتبعية لقاعدته العامة الموزعة في الكون فان للخيال عليه الايدى البيضاء والآثر الغراء وبناء العالى والقصور من الوصول الى المحبوب والحصول عليه ولذة مشاهدته ومناجاته مما هو اصل فيما يتخيل الانسان من السعادة وكذلك شأنه مع الطبيعة تلك التى تبدى لانظارنا أجمل الصور والمرئيات المتناسبة المتناسقة كأن للخيال وتلك المشاهد علاقة واسراراً في الارتباط والتأثر بالمؤثرات فيها فنفرح لفرحها وازدهامها ونغم اذا أقمت

وبكت ساءواها .

« وللخيال أيضاً علاقة باحوال الاماكن والبقاع التي ننزلها والمدن التي نسكنها فهي تتحرك وتتحول امام ابصارنا وتفضل أو تبغض الينا بما يزينه لنا الخيال وللناس فيما يعشقون مذاهب

« ان البشر بلا تصور أو خيال يرون انفسهم اشباحا قل ان تترك أترأ في الذاكرة وكميات عاطلة وكذلك ما يحيط بهم بعكس ما هم عليه مع الخيال فالعقل يعمل والخيال يؤدي وظيفته التي لها فوائدها

« واختم هذه المحاضرة أيها الاصدقاء الكرام بان اقول لكم ان الخيال في الحد الوسط بين الحواس والعقل فهو سفير بين العالم المرئي وغير المرئي ، بين الحقيقة المحسوسة وغير المحسوسة بل بفضلها تنقي الشهوات وتشرف الرغائب والآمال وترق العواطف فيسمو بالنفس من تلك السفليات الى العلويات ولئن كان لهذا الخيال فضائل ومزايا فان له أيضاً آفات اذا تمودى فيه وخرج به عن حد المنعذ فجاء صاحبه بالضرر والشر وهذا شره يطول وقد اطلت عليكم وأن أوان الرحيل فهل ندخل القاهرة بسلام وموضوع المحاضرة الرابعة الشهوات تلك التي ترتبط بالخيالات . . . »

وكانت الاميرة جالسة وهي تكلمنا القرفصاء على حصير من السمار وسجادة من اللباد أتى بها الينا بعض الاعراب ونحن حولها كحلقة الدرس بالازهر الشريف فحينما أرادت القيام تقدمت اليها وأخذت بيدها فاستندت على وهي تقول

— جزاك الله خيراً أيها الصديق فاني بالحقيقة قد تخدرت اعصابي

من إطالة الجلوس ولو رأيتني في مكاني الخصوصي لوجدتني انما اجلس على هذا النمط وعلى مثل هذه الحصير وتلك السجادة وحولى ما حولى من الاسفار والكتب والصحف أولا ترى انها اعظم راحة من الجلوس على تلك المقاعد والكراسى والفرش الوثير ؟

فقلت — نعم واني علم الله لعل تلك الشاكلة في دارى .

ثم انا اخر جنا بجمعنا من الكشك وامتطينا بعيرينا وركب اصحابنا حمرهم وسرنا قاصدين محطة الترام وقد آذنت شمس اليوم بالمغيب فركبنا القطار فسار بنا في وسط تلك الارجاء من البرسيم والقمح والشعير الى ان وصلنا القاهرة بليل فرأى الرفقة ان نوصل الاميرة الى دارها فشكرت لهم صديعهم ولم تتركها الا امام دارها .

ورجعت الى دارى وقلبي تلعب به لواعج الغرام وكلما زادتنا هذه الاميرة علما ازددت انا لها عشقا وبها هياما . . . وجعلت اوم نفسى على الذهاب اليها والتعارف بها قائلا — ليتني حين جاءني كتابها ضربت به عرض الحائط ولم اذهب اليها فدامت لى راحة نفسى وهناء قلبي . . . اني لشقى ان لم يسعدني زماني . . . او يغير الله حالى ويتقوى عزيمتى . . . رباه ما العمل «
وجعلت افرك يدي واتمشى في غرفتى وقد نسيت ان هناك عيناً تلحظني والسانة تراقب حركاتي وسكناتي اغنى زوجتي وقد فاض بها الوجد فاجهشت بالبكاء وما طرق بكأؤها مسمعي حتي ذهبت خيالاتي أو كما يقال راحت سكرتي وجاءت فكرتي فأسرعت اليها وذنوت منها بالحنان والشفقة وأمسكت بيدها قائلا :

— مالك يا عزيزتي ؟

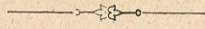
— دعني يا حاتن

— كلا اني على عهدى

فقالت وقد ازداد نحيبها :

— ولكن لا شبهة عندى فى انك تحب هذه المرأة وانك ان قدرت

عليها خنتنى وجعلت لى . . . ضرة ولكن الله معني عليك وناصرى .



﴿ محاضرات الاميرة يراعة ﴾

الشهوات

حالت زوجتى بينى وبين الذهاب الى دار الاميرة يراعة لسماع محاضراتها الطلية وحديثها الشهى ورؤية مجياها الجميل غيرة منها على وقد رأت ارتباك حالى وحي لتلك الاميرة فقامت لتحول بينى وبينها بيدانى لما رأيت ذلك الشر المستطير ارسلت الى الاميرة اتحل الاعذار فى الانقطاع عن ناديها ريثما تهدأ ثورة غضب زوجتى وسخطها فارسلت الى الاميرة جوابا موجزا ارق من النسيم والطف من انفاس الكريم وجعلت طيه ما فاتني من محاضراتها كلاً منها تحت عنوانها وها هو ذلك الجواب بنصه وفصه :

سيدي الفاضل :

تقبلت رسالة اعتذارك عن الحضور فرأيت ان لا أضيع عليك محاضرات
أربع مضت فضمنتها هذه الكراسة وحملتها وجوابي البريد ولقد أسفت حين
رأيت مكانك خالياً وأملي أيها الصديق أن لا تحرمنا رؤيتك وان لا تحرم
نفسك سماع ما بقي من هذه المحاضرات التي كنت أعظم أخوانك شغفا بها
لا سيما وانى قد عزمتم على السفر في النيل لمشاهدة آثار واديه الجميلة فهل
لك ان تكون معي ولا تتردد كباقي اخواننا الذين جعلوا ينتحلون الاعذار
كسلا؟ لا جرم أنى أسر بل ينشرح صدرى كثيراً اذا كنت معنا أجب
ولك الفضل وها هي تلك المحاضرات التي فأتك سماعها فلا يفوتك مطالعتها
أيها الصديق الكريم بامعان

محبتك الاميرة

براعة

الشهوات

أيها السادة : إنا لو نفذنا الى نفس الانسان لرأينا الى جنب الخيال
والتصور الذى أودع مكاناً منها « الشهوات » التي لها محلها من تلك النفس
مرتبطة برباط وثيق مع الخيال ولكل شأنه فى سعادة الحياة وشقاؤها والى
جنبهما أيضاً العواطف مما سأضمنه المحاضرة التالية على نحو ما قررته لكم أيها
الاخوان فى برنامجى على أنه قد يعسر التفريق بين الشهوات والعواطف
لان مصدرهما واحد من نفس الانسان وقلبه وانما هما يتميزان بالدرجة

وظروف الاحوال فالشهوات عنيفة ولا قاعدة لها والعواطف أرق وألطف ،
 الشهوات حادة ذات أنانية والعواطف كريمة نزيهة تأتي على الدوام بالهوادة
 بيد ان الشهوات طائشة تنقطع وتتجدد وتردى . وهناك فارق يميز بين الشهوات
 والعواطف ذلك ان العواطف ميول نحو الاشخاص والمبادئ والشهوات
 اندفاعات نحو الاشخاص والاشياء ولكن نلتخذها لعبة ووسيلة لقضاء
 اللبائات فالشهوات اذاً ميول ولكنها ميول وعواطف عنيفة ذات اثره وكبير
 أنانية فلذلك تلتقي راحة اصحابها اذا تبادت في غيها ولم ترد العقول جماعاتها
 « قلنا ان الشهوات مرتبطة بالخيال الذي قد يعينها كثيراً فلذلك
 يشتركان في المسؤولية فالخيال يزين والشهوات تدفع لكن لولا الشهوات
 للزم الخيال حالة الذكرى فقط ولكن كلا قد يعين صاحبه أو يخدعه وان دافع
 الشهوات أقوى مما يقدر عليه دافع الخيال ، والشهوات تختلف باختلاف
 السن وظروف الاحوال ولوقصر الحال فيها على ما لا ضرر فيه لما عيب عليها
 ولكن هناك الدوافع الكثيرة من الغرور والتهور في الاحساسات بدافع
 الخيال الفاسد فيحسن ويزين ويبدو في الاطفال ساذجاً بسيطاً الى سن المراهقة
 والبلوغ ثم يبدأ عمله بمجرد اشتداد ذلك العود ونماء قواه وفكره ويكون
 مبدأ تولد الشهوات فيه مبدأ نشأة جديدة فيتغير منظر كل شيء أمامه
 وتأخذ مجرى الحياة معه غير مجراها والمرء طفل وتزين امام الانسان الحياة
 بزينة جديدة ويحس باحساسات لم يشعر بها من قبل ويكون له من ذلك
 مبدأ سعادة أو شقاء اذ تتنازع الالهواء والآمال والاحساسات وبالجملة
 تعمل فيه كل قواه على أشدها ويلعب سلطان الحظ في هذا الدور دوره العظيم

فتارة يسعد وتارة يشقى

« تلك حال الشهوات في بداية أمرها وان لها لدرجات ثلاثاً وان هناك لسبباً لجعلها تجرى المجرى المختار بما يلتزمه الانسان من قوة الارادة وحسن التبصر والادراع بالشجاعة الادبية مع الموادة والتكتم أي الحكم على الاحساسات حتى يتغلب عليها واذ كانت القاعدة ان المرء لا يشغل فؤاده في وقت غير شاغل واحد من الشهوة بحكم القاعدة « ما جعل الله لرجل من قليلين في جوفه » لذلك يكون منصرف همه الى وجهة واحدة نعم قد يكون لتلك الشهوة الرئسة اخدان الى جنبها ولكن ذلك لا يكون القصد منه في الحقيقة الا تلك الشهوة الاولى المستحكمة في النفس جذورها فاذا اقتلعت خفت وطأة اخدانها أي ما يطلب منها للاستعانة بها عليها . ثم ان ما يستعصى من الشهوات قد يزداد أمام الصعوبات أي المقاومات ولكن على كل حال فان النفس الكريمة بابداء تلك المقاومات تكسر من شره الشهوات وتلاشيها آخراً .

« وهناك من الشهوات ما يحمد كالتعلق بالخيرات والتجلي بالفضائل فهذه من شريف النزعات وكريم الشهوات لا سيما اذا جاءت بعد ان تكون قد قهرت في النفس اضدادها وخصوصاً فتحلو حينئذ وتلد للنفس وتتحول الى عواطف شريفة وقواعد راسخة أي ملكات كريمة وهذا ما تنتهي اليه الشهوات في النفس اذا لقت مشتهاها أو ترصد عنها ونزول منها اذا قوومت وشررت وعفت منها الا تار على نوع ما

« ولقد يحدث غالباً ان الشهوات عوضاً عن ان تزول تتحول من شكل

الى شكل وانهم لئن سمو الشباب عصر الشهوة وعصر الكهولة دور العقل فهذا لا يدل على فقدان الشهوات بل على أنها قد جرت مجرى آخر بل صارت ما يسمونه انا نافع أو ااصالح فالصالح ليست في اصولها الا شهوات والفرق ان الشهوات تقلق النفوس وتفتح الامور لنيل الاغراض وطلب المصالح يتبع سبل العقل للحصول على تلك الاغراض

« المصلحة تضع للحياة قاعدة ونتيجة فتختلف بذلك عن الشهوات الطائشة وتقدم في أمورها بالهوادة وتمنع السلوك مزية وشكلا يناسب العقل بل تجعل للمرء حرية للتفكير ولارادته وجهة ومنفرجا وترينا الانسان حاكما نفسه بعقله وهداه لا محكوما أسير شهواته وصفوة القول ان المنفعة الصحيحة تعطى الحياة رزانه قل ان تشاهد فيمن يتبعون الشهوات الخرقاء

« أيها السادة ما يرى الانسان الخيط الابيض من الخيط الاسود في شهواته ويعمل بمقتضى مصالحته ومنفعته يقتدل ولا يسرف في شؤونه فاذا عمل عمل عن فكر وروية وبمجموع ما ركب فيه من الخيال والشهوة والعواطف ثم الفكر مما سأشرحه لكم في المحاضرتين التاليتين يرتقى هذا الانسان أيما ارتقاء والخلاصة ان الشهوات مفيدة للبشر ولكنها اذا زادت عن حدها أفسدت على المرء حاله بعكس ما اذا تكيفت واعتدلت فانها تفيد في انالة المرء بعض ما ينشد من السعادة فهي التي كالخيال تسمو بالعقل الى اتيان الاعمال الجسام والمفاخر العظام وتسمو في الحب بالعواطف الكريمة وتعلو بالتفكير الى استنباط الامور واتقانها وتحرك دولا ب التجارة والصناعة أيما حركة ولكن هناك من الشهوات مالا يدخل تحت حصر ويؤول بصاحبه الى الردى كاليسر

وشرب الخمر والاسراف في الزينة والنفقة والانهماك في الفساد والاغراق في غواية الاشياء بعكس مثل شهوة الكسب أو التأليف والتحرير أو الاختراع أو نيل الفخار العسكري أو ما هو أفضل من هذا وذلك من التحلي بالفضائل ومكارم الاخلاق وأبناء انزلة والمحمد عند الله والناس

« تلك أيها السادة محاضرة اليوم في الشهوات واني لموقنة بانها مما يحلو لأسماعكم ولكل جديد طلاوة على ان فيما ترك اسلافنا آثاراً في أدب الباب جميلة انحوا فيها باللوم على رجل الشهوات ، على ذلك الرجل الذي يتبع الهوى ولا يتبع العقل في شأنه كله ولقد وفي الامام الغزالي واضرابه هذا الباب باب الشهوات حقه شرحا على طريقته في الاحياء ولست بذكرة لكم منه شيئاً هنا لانكم ابناء بجدته أيها الاصدقاء »

كنت اقرأ هذه المحاضرة بالصوت الجمهوري لأسمع امرائي وأريها فساد اعتقادها في الاميرة فقالت :

— أصحابك ربه هذا الإبداع ؟

— بلى وما ترين في فلسفتها وعلمها

— نعمت المرأة لولا أنها امرأة ...

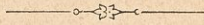
— وماذا يضر يا عزيزتي ... وهذه المرأة آية في الكمال والفضل

لا ريب ان عشرتها لأفضل من عشرة كثير من الرجال واكثر النساء ... لا جرم أن البيت الذي تحمل به يحظى أهله بالسعادة واذا شئت ان أعرفك بها الرايت منها فوق ما أظنت لك فيه من شمائلها وليس الخبر كالبيان ... وأنت عاقلة فطنة لست كماكثر نساءنا الجاهلات فلا تأخذك العزة بالاثم

فتحرميني مشاهدتها وسماع احاديثها العجيبة وها هي محاضرتها الثانية فان
شئت اسمعتك ايها

فتبسمت زوجتي وطفقت تفكر قليلا كمن أهاج عواطفه الاحساسات
الكريمة ثم قالت :

— هات اسمعني تلك المحاضرة الثانية التي ضمنتها أميرتك رسالتها
قلت — والثالثة أيضاً والرابعة وان شئت أطلعتك على محاضراتها
الماضية واللاحقة لتحكي عليها حكمك العادل
قالت — هات هات فاني على كل حال سامعة لك بالسرور والارتياح
وما كنت أصدق أن في بنات حواء مثل هذه الاعجوبة ولكن ...
فلم اعبأ بكلامها وما تعنى وقرأت عليها ما يلي :



﴿ محاضرات الاميرة يراعة ﴾

العواطف

« أيها السادة :

« ان حياة الخيال والشهوات ليست بالحياة الكاملة بل هناك في القلب
الانساني داع آخر كريم هو داعي العواطف والاحساسات التي تربطنا بمن

نحب ونألف من الامهات والاباء والاخوة والابناء الخ فهي أيضاً لها من اياها من سوق النفوس في السبل المتفرقة بين الحب والبغض تبعاً لما في النفس من حب الذات وحفظها الذي بدافعه وبدافع تلك العواطف نسير في حياتنا وشهوات نفوسنا وتصوراتنا مما عليه مع سلطان التفكير أي العقل الآتي ذكره قوام الهيئة الاجتماعية وأرتباط الناس في معاشرتهم ومعاملاتهم وعلى كل فما حكاة لارشفوكلد مخالفاً للصواب في هذا السبيل من ان لا صداقة ولا محبة الا بالاثرة مردود لانه بين الخطأ والمغالطة بما نشاهد عليه جمهور الناس من كريم العواطف وسامي الاحساسات النفسانية فان عمل بعضهم الخيرات بدافع الرياء مثلاً وطلب السمعة أو ما أشبه فان هناك الجمهور العظيم والسواد الاعظم الذي يعمل بعواطفه المرذعة بين جنبيه وهي في الغالب كريئة .

« على ان مما تجب مناهضته بكل الوسائل الممكنة انما هو خصلة احتقار الناس ودفعها عن النفس بقصارى الجهد لان الذي ينتقص الناس يرى في نفسه الكمال ! وهذا الكبر ما هو ببالغه لانه ليس باديء بدء من طينة غير هذه الطينة ولم يؤت ما هو فوق قدرة البشر ويتقرب منه ذلك الذي ينتقص قدر نفسه ويراها أقل الناس خفير الامور الوسط من عدم الكبر والترفع على الناس وترك المهانة وخصلة الحط من النفس وامتهانها . فالانسان ان يكون جديراً باحترام نفسه وبني جنسه الا اذا سلك سبيل الاجماد والعمل بالسداد لنيل الرفعة والعمل الصالح والذكر الحسن ونفى الاكدار عن النفس والحصول على مسرات الحياة فاذا كان لارشفوكلد قال بان لا عواطف عاملة الا بما قال به وذهب اليه من اساءة الظن بالناس فهناك من يرى الشرور الناجمة من

هذه الوجهة إنما مصدرها الاغلاط التي قد يمكن تلافيها ولا يسىء الظن بالطبيعة البشرية والعواطف الكريمة الانسانية المودعة في الناس من مثل الطيبة والمحبة والشفقة والانسانية والا كان لا داعي تهذيب الاخلاق والتعب في تطهير الاعراق وترقيق العواطف والاحساسات وكان الحكم ان لا ملام كما قد لا تلام الذئاب اذا اُكلت الخراف !

« ان العواطف الطبيعية المودعة نفس الانسان هي العواطف العائلية ثم الصداقة والمحبة ثم آخرًا العاطمة الدينية ، ففي العواطف العائلية يظهر ذلك الفرق بين الشبهات والعواطف بمحصر المعنى فمحبة الابن لابيّه والام أو الاخت لولدها أو أخيها تختلف عن الميل الجنسي وشهواته القائمة بين الرجال والنساء مع الفارق أيضاً بين محبة الأزواج ومحبة الفساق في هذا الصدّد على أنه مهما يكن من الاختلاف بين العواطف والشبهات فكلاهما راجع الى أصول واحدة كما تقدم بيانه فلذلك قد يتعاقبان ويختلطان كما قد يفترقان على نحو ما اشرت اليه ويتولدان على ان أفضلهما ما كان سببه العواطف أي الشعور بالواجبات الانسانية السامية فثم أجمل المسرات ودوام تلذذ النفس بها .

« ان الحياة الثمينة ، الحياة العائلية هي ذلك التركيب السعيد الذي اُشربت النفوس حبه أي عاطفته بضرورة الحاجة الى الاجتماع وان لذة الالفة العائلية والعشرة الاهلية لتفضل تلك الاجتماعات والمعاشرات في الهيئة المبنية على أمور الشبهات مما يوقظ في النفوس حب الذات والانانية المتناهية والتزاحم والتدابير فالعشرة العائلية تقيّة خالصة من الشوائب خالية من تلك الاغراض وقضاء اللبائات والشبهات وأما العشرات العامة من ذلك القبيل الدنيوى

فليس فيها غالباً الا التكاف والرياء والنفاق والدهان والخداع دون تبادل صحيح العواطف فلذلك كثيراً ما تتكدر بها النفس وتشتق وان غرقت في لذاتها لنزوعها وتروحها بالعواطف الكريمة النزاعة الي مستوى أرقى من ذلك المستوى

« ويتلو الالفة العائلية في الرتبة عاطفة الصداقة وللنفس لذتها فيها وسعادتها واعتباطها بها، ومصدر هذه العاطفة كالحب يرجع الى الخيال بالاكثير فتتصور فيمن نصادق ونخالل محاسن من الاخلاق والصفات أو اضدادها فنميل اليها بحسب ما فينا منها والطيور على أشكالها تقع . على ان الاخلاص في الصداقة قد يكون أم تن منه في الحب فتتوثق عري الصداقة وتبنى على ثقة لا تشوبها اغراض الا ما هو من متطلباتها وهي بسبيله وافضل الصداقات ما كان مبنياً على المحبات العقلية من تجانس الافكار وتشاكل الآراء كما ان العداوات المبنية على التضاد في المنازع العقلية والآراء شر العداوات ، فعواطف المحبة في الاولى تبنى على الالفة العقلية وتجانس الافكار وعواطف الكراهة في الثانية تحمل على الشقاق والتباين في المنازع والآراء والمعتقدات على ان لهذا كله في هذا العصر آدابه ولا غرو وهو عصر الانسانية والتصرف فيه يجب ان ينظر فيه الي المصاحبة الانسانية العامة لا الي المنازع التافهة الخاصة » ولعاطفة الصداقة ضروب كثيرة وآداب حجة من حسن العشرة والعدالة والمجاملة والتعزيد والمساعدة وأراكم أيها الاصدقاء الكرام أعظم من ان أبين لكم ذلك وكلكم يا تلاميذى الكرام من كبار الاساتذة الداعين الي الخير وكشف غمة الانسانية ومؤاسة جروحها وتوثيق عري الصداقة

العامّة بين أبنائها وانكم لا يهولكم أولئك الخشنيون الذين يرمون الى القسوة ويدعون ان المساعدة معها كانت طرقها ومسالكتها مما يفسد ويدعو الانسان الى الكسل والبطالة وهذا مبحث طويل فلا عطف الآن على العاطفة الدينية « اني غير متوسعة أيها السادة في هذا الصدد لا ذكر لكم تاريخ هذه العاطفة عند كل أمة وكل طائفة بل غاية ما أقول أنها وجدت في البشر منذ وجد البشر ثم تفرقت النحل واختلفت الملل وكل تباين وجهته ووجهة أخيه في هذه العاطفة والانسان هو كما لا يخفي ذلك الكائن الضعيف القوى الذي جمع العالم الاصغر في نفسه مع ذلك ثم يزول ويذهب الى القناء جسده والفكرة باقية والعاطفة هي هي وان تكيفت بحسب ظروف الاحوال واختلاف العقول فلضعف هذا الانسان من جانب تنزع نفسه الى قوة أعلى من قوته وعاطفة من أشرف العواطف أودعت نفسه بين رجاء وخوف وأمل وشوق وتلذذ عقلي هو في الحقيقة أسمى السعادات .

« ومقام الخوف ومقام الرجاء والمحبة والشوق والتفكير قد تترقت فكرة الانسان فيها وهو كلما ازداد علماً بنواميس الكون ازداد يقيناً واستبصاراً وحباً وشوقاً وعظمت فيه تلك العاطفة وترقت طالبة الكمال المنشود لها وللجاهل بهذه العاطفة حكمه وللعالم مقامه ولا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون

« أيها الاخوان : اني لا انازع الغزالي نخار ما استأثر به من الفضل في شرح هذه العواطف أو المقامات والاحوال وأبان عنها بابدع أسلوب وأحكمه حتى اقتضب عنه هنا ما اجاد فيه وأما احيل على احيائه واسفار أمثاله التي صورت

لنا تلك الاحوال والمقامات اى العواطف الدينية بما لا يمكن لغيرهم الاتيان
 بافضل منه ولا غرو فهم السادة القادة الذين نصروا الدين وأعلوا كلمة الحق
 واليقين وجمعوا لها علوم الاولين والآخرين

« فحبة الله تعالى كما أجمعت عليه العقول الكبيرة والعاطفة الدينية هما
 أعلى المحبات واشرف العواطف والاحساسات وليس معنى هذا ان تترك لاجلها
 كل عاطفة اخرى في حين ان الذى اوجدها أو وجد غيرها وأوعدها النفوس الى
 جانبها وواجب العمل بها أيضاً فهو أمرنا بحبة القريب والبعيد وان نعطف على
 مخلوقاته ونشعر قلوبنا بالرحمة — والراحمون يرهمهم الرحمن — على ان هناك
 مقاما في الحب عظيما وهو أن نحب لله وبالله وفى الله وهذا المقام مقام الاستغراق
 جليل جداً وقل ان تصل اليه عقول اكثر الناس حتى من يدعونه وينتحلونه
 فانهم يخبطون فيه خبط عشواء ويفرقون فيه بين الناس والناس اخوة ألهمهم
 واحد ونفسهم واحدة

« أيها السادة هذا ما انتهى اليه من محاضرتي لكم في العواطف تلك
 التى تسير وسطاً بين الخيال والشهوات ثم العقل الحاكم على الجميع المميز بين
 الخير والشر وهو موضوع محاضرة الغد »

فقلت زوجتى حين انتهيت من تلاوة هذه المحاضرة :

— لله در هذه الاميرة فلقد زادت نفسي لها حباً وبها تعلقاً وجعلت
 عواطفى تميل نحوها ميلاً عجيماً أرجوك ان تقرأ لي المحاضرة الثالثة وهاهي بيديك
 وفيما أنا استعد لقراءة المحاضرة الثالثة من محاضرات الاميرة يراعة
 بكر استها وزوجتى تهباً لسماعها بشوق دخلت الخادمة وهي تقول :

— تفضلي بالمجى يا سيدتي فقد جاء بعض الزائرات

فقلت زوجتي مستفهمة — ومن هن؟

الخدامة لا اعرفهن وإنما هما سيدتان عجوز وصبية وضيئة أى آنسة في

سن سيدتي سنية هانم وقد سألت عنها فهل ادعوها لتقابلهما؟

فقلت زوجتي — نعم ولقد عرفتهما فهذه عديلة هانم وامها بهية هانم

فقلت أنا :

— عديلة هانم ابنة جارنا عماد الدين بك اني اراها كثيرة التبرج

والخروج واحب أن لا تصاحبها ابنتنا سنية لان أمثال هذه العادات تعدى

كما يعدى السليم الاجرب نعم ان ابنتى سنية عاقلة رشيدة مترية ولكن من

يضمن لنا بقاءها على تلك الفضائل لان العشرة السوء تأثيرها وللقدوات الفاسدة

عقبهاها وكم اتلف الشبان الشبان والبنات البنات اولست من رأيي يا عزيزتي؟

فأجابت زوجتي — وهل تشك في ذلك أو تظن انى غير ساهرة على

ابنتنا وقد دخلت في دور الشباب فهي لا تخرج الا معي ولا تزور احدى

صديقاتها الا وأنا معها ثم انى دائماً أنبها وألاحظ على ما يخالف الآداب

السامية من ثيابها وزينتها حتى عودتها مع ما استفادته من المدرسة الكمال

فكن مطمئن البال يا صديقي

ثم قامت الى زائرتها وبعد نصف ساعة عادت الى وهي تقول

اطرفنا بقراءة محاضرة الاميرة فاني مصغية اليك فقرأت عليها مايلى .



﴿ محاضرات الاميرة يراعة ﴾

الفكر

« أيها الاصدقاء :

« مهما يكن من سلطان للخيال والشهوات والعواطف فان المالك لقياد الانسان والعامل الاول فيه إنما هو العقل الذي يميز بين الخبيث والطيب والضار والنافع والصواب والخطأ والظلم والعدل وأتانا به تفكير ونحكم ونعمل، ففي الفكر كل مسائل الحياة ومن هذا العقل كل القضايا وسر الحياة الانسانية السامية — وكل الصيد في جوف الفرا — وان غلط الفكر ليسوق الى سلسلة من الاغلاط والضلالات في العمل فيبعد المرء عن سعادته ولقد يستغنى عن الخيال وعلى نوع ماعن الاحساسات والعواطف لكن لا غنى للمرء عن الحكم الصحيح والفكر الرجيح ولقد يعيش المرء بالعقل ولكنه بدونه يقع في المصائب والاختار

« ويختلف الفكر أي الحكم العقلي والادراك بين واضح وسريع وعميق ولا اذكر لكم الذي لا هذا ولا ذاك والاول ضرورى والثاني مفيد والثالث انما يعد من الكماليات اذا صح لى التعبير بذلك ولكل فضائله في الاعمال والهيئة وان الضرورى أي الواضح الصحيح لهو عماد الحياة في العالم وكفى أنه ضرورى وانه بالاكتماب والتجارب يزين الحياة ويرقى البشر .

« التجربة مدرسة لتربية العقول بها تستبان سبل الهداية والمعرفة معرفة الاشخاص والاشياء ثم استخراج قواعد في السلوك منها غاية في السداد لكن من المسلم به أيضاً ان التجربة قد لا تعلمنا كل صحيح بالتبعية للحوادث التي نصادفها بين موهومة أو ساذجة فتبقى العقول أبداً حيال ذلك في خبط وخطوط محوم حول الحقيقة ولا تكاد تقع عليها، وهناك عقول ذات تيقظ وذكاء طبيعي عيب فهذه قد لا تقف عند حد التجارب فتبنى المجهول على المعلوم ووجود ما وهبت من قوة الادراك والاستنتاج تعرف مصادر الامور ومواردها. ومن العقول من تحسن التفكير ولكنها تضعف في الاحكام في استخراج النتائج، تدقق في الافكار ولكنها تقع في الاوهام وتسبح في تيار الخيال وتبقى في الخطأ. وهناك صفتان كريمتان للعقل متجاورتان أعني ما يسمونه بالمهارة والخبرة فالخبرة أو الحكم معرفة الاشياء على حقيقتها والمهارة الحدق في فتح الحيلة للوصول الى الغايات ولكل وجهة هو مولياها وعلى كل فمن يفكر ويعمل خير ممن لا يفكر ولا يعمل ومن يلتزم الحكمة فيما يعمل قل ان يخطئ — ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً والصفات درجات كما ان الناس معادن كعادن الذهب والفضة.

« ان عظمة الفكر الانساني قد تنكشف بما يضحى بعض العقول الكبيرة في سبيل المجد وتقاوم من المصاعب وتذلل من العقبات التي تحول دون الوصول الى الغايات الشريفة وتحرق الحقائق واكتشافها فتسعي وتجتهد وترى السعادة في اكتشافها وبراها ثم يأتي دور التلذذ والاعتباط بالظفر باستكناها وبين ذلك مراحل لاحساسات تلك العقول ومسراتها لا يسعنا بسطها .

« ولنعطف على تلذذ العقول بما تأتي العقول فالعقول الرشيدة قد تراح بما يكون للغير من الافكار الرشيدة والآراء السديدة بل هذا يدل على كفاءة تلك العقول ورجحانها لتلذذها وارتياحها بما هي أهل له فمن ذلك شاعت الافكار الناضجة وخلدت المبادئ الصحيحة والآراء الحكيمة ولو كانت على غير تلك الصفة لما انت بموت اصحابها أو لو لم تكن تلك القاعدة المطردة لاقتصر كل جيل بل كل انسان على ما عنده ولبطل الاطلاع والاشتغال العقلي بما ابرزت العقول مما هو مرق للعقل مثقف للذهن مهذب للنفس

« ان توجيه قوى الفكر بوسائل من الترتيب لا اكتشاف المبادئ هو العلم وهذا هو اسمي وأشرف عمل العقل البشرى لكن كثيرين لا يعرفون قيمة العلوم الا بنتائجها ولهم الحق في ذلك فان لم يروا فيها الفوائد هزأوا بها وسخروا من اصحابها واكثر الناس قد يكونون على تلك الشاكلة في جميع الاشياء والمكتشفات ولا يقرون بها ويعترفون بفضلها الا عند ما تستين لعقولهم فوائدها وهذه الخصال في التعويق قد ترى في الجمهور ثم هي لها مزاياها وواضراها. أما العقول البجائة العاملة فلا تقتصر على القشور والسطحيات أو تتوفر على الفكاهات والنكات بل اكثر ارتياحها للجد والعمل لاكتشاف الحقائق فالعبرة بالغايات لا بالفوائد الوقتية ، فالنقدان الكريمان غايتهما قضاء المصالح فاذا كنزا أو بددا قضى على الغاية الحميدة منهما وكذلك العلم لا ينبغي ان يكون الا غاية في نهاية أمره تسعد به النفس وترقى أدياً ومادياً بالمشارة عليه وادخار نفائسه

« والعلم يشمل شيئين عظيمين الطبيعي والاجتماعي فما منه يشرح العالم

أي الطبيعة فهو العلوم الطبيعية وما يشرح لنا حال النفس والجمعية البشرية والنواميس العاملة فيها فذاك فرع العلوم الأدبية ولكل في النفس لذة وسعادة تودعها العقول وتغتبط بها ، وتعتمد العلوم الطبيعية على الملاحظة والتأمل في نواميس الكون وخصائصه واشيائه البديعة وأموره المدهشة العجيبة الناطقة بافصح لسان بان « ليس في الامكان أبدع مما كان » أما العلوم الادبية فالنفس هي محور البحث فيها والانسان والانسانية هي مدار التنقيب ولذة الباحث أي العالم بذلك قد لا تقل عن لذة العالم الطبيعي ولكل دولته ولكل مملكته يرتع في بحارها ولكل من الطائفتين مزيتهما وفوائدهما العامة الراجعة على الانسان في ترقيه وتمدينه بالاطلاع على النواميس الصحيحة والقواعد الثابتة للاشياء الطبيعية والنفسية واستخدام القوى العقلية والآراء الفلسفية وتبيين صحيح الامور فيها من فاسدها لتربية الملكات الصحيحة والاعتقادات الثابتة ومهما يكن من صعوبة في امتلاك ناصية الحقيقة لدى المفكرين وتكوين الحجج اليينات فان هذا من الممكنات متى ما احرزت النفس القوة والعقل الاتساع وتزول الشكوك وتحل محلها الاقتناعات وبين هذا وذاك مراحل يطول شرحها وعقبات ينبغي تذليلها على كل من أراد السمو بنفسه أي الاستمداد من فكره والاعتماد على عقله وتمكينه من الحقائق وتمحيص الآراء التي تقود الحياة .

على ان أولئك الذين قد يرون لعقولهم تلك السهولة في القبول يجب ان يحذروا من سرعة قابلية العقل فانه قد يتلقف الصحيح وغير الصحيح من الآراء فتتفرق به السبل عن طريق الصواب

« لقد أفسد النظام القديم على الامم حالها وأبقاها في الجهل المطبق

ليسهل عليه رعايتها كالسائمة فما الذي استفادته هذه الامم واكتسبته من ذميم الخصال الشعوب؟ انها جرتها ايها السادة الى التسليم وعدم الفحص أو فقدان قوة التفكير والتمحيص لمعرفة الغث من السمين فهذا برهان جلي على ان سهولة القبول من خصال العقل البشرى وان ما هو خير من ذلك من التحقيق والتدقيق قد يعسر عليه اذا لم تتوفر شروطه في هذا العقل من جراء الركون على الغير وعدم شحذ الازهان والكسل عن التمسك باهداب العلم . أما الآن وقد رجحت كفة حرية الفكر فلا عذر للانسان واذا كان الآراء صحيحة وفسدها بموجب حرية الفكر البقاء فلنفس هذا السبب ينبغي للمرء ان يمحس ما يأتيه منها وأنجع علاج للوصول الى ذلك إنما هو قيام نثة أهل العلم بتنوير الازهان وثقيف العقول — ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف ويهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون

« واذا سألتوني ماهي العلاقة بين حرية الفكر والسعادة في حين انها مما يشوش على الناس بما يتعارض من آراء الناس ويتضارب من افكارهم والسعادة تقتضى الهدو والسكينة ليحظى الانسان بهنائه قلت ان هناك لذة الظفر بالآراء الصحيحة والحقائق الثابتة والافكار الصائبة وان هذه الحياة لتقوى وترتقى بهذه المنافسات أما حياة الهدو والسكينة فليست الا فيما وراء هذا العالم فالانسان خلق مفكراً ولن يعيش أو بالتالى لن يرقى ويسمو الا بالفكر أو العقل :

لولا العقول لكان أدني ضعيف أدني الى شرف من الانسان

فلما اتممت قراءة هذه المحاضرة لامرأتي قالت :

— لقد ازددت إعجاباً بهذه العجوبة ورغبة في مشاهدتها
فقلت — أتريدين رؤيتها ومعرفتها؟

قالت — نعم من صميم فؤادى لولا . . .

فقلت — لا تخافى يا حبيبتي فإنها سيّدة ولا كالسيّدات فإنك لو عاشرتيا
لرأيت منها فوق ما وصفت لك من خلالها وشمائلها الغر الحسان علماً وفضلاً
وكمالاً وجماً . . .

كفي كفي . . . انى أرى بيدك بقية من رسائلها فما فيها؟

— هذه المحاضرة الرابعة التى فاتتني بسبب منعك لى من حضور مجالسها

وقد اخبرتك بها فان شئت تلوتها عليك

فقبضت وقالت :

— اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم

على انى لما رأيت من قرينتى الرغبة فى الذهاب الى الاميرة يراعة اغتمت

فرصة ذلك فقلت

— ومتى تشاءين الذهاب اليها كما ترغيبين؟

— متى شئت أنت وانى أفضل أن أسمع محاضراتها منذ الغد ثم ضربت

على كتفى قائلة :

— ولا تظن يا عزيزى أن جنسنا اللطيف أقل منكم أيها الرجال استحقاقاً

أو كفاءة لسماع الحكم واكتساب العلوم والمعارف !

فقهقته وارتاح فؤادى لانى سأرى الاميرة فى الغد ثم قرأت بصوت جهورى

يتخلله البشر الفصل التالى وزوجتي تنظر الى متعجبة من حالى وفرحى كالطفل . . .



﴿ محاضرات الاميرة براعة ﴾

الحياة العملية

« أيها الاخوان :

« لو أوتي الصياد عفواً بمثل ما خرج لاجله من الصيد وأريح من عناءه لما وجد تلك اللذة التي خرج لها من التعب والنصب لصيد الحيوان كذلك الحياة العملية لولا التعب والنصب فيها لما لذت وأرتاح لها هذا الانسان نعم قد يوجد من الاعمال ما يعد من العبث والامور الباطلة التي لا غاية صحيحة لها ومنها ما يجري بلا ترتيب ولا نظام بل بالخلط والخلط ، نعم هذا وأمثاله موجود في العالم العملي ولكن مما لا ريب فيه ان « في الحركة البركة » على كل حال وان من يعمل خير ممن لا يعمل لان العمل من الحاجيات في الحياة البشرية فالانسان لذلك يعمل ومن لا يعمل فلا نعهده في الاحياء فالعمل له جماله ومزاياه لا لانه يلجئنا فقط الي استخدام قوانا بل لانه يلجئنا الى قياسها أيضاً بقوى الغير وحسب الحساب لذلك ففي عالم الخيال والتمكر قد يكون المجال فسيحاً وحرراً ولكن في عالم الحقيقة ، في عالم العمل قد تصادف ارادتنا في كل خطوة العوائق والصعوبات من الاشخاص والاشياء فمجاهدة هذه العوائق وتبذيل تلكم الصعوبات بالوسائل الشرعية الشريفة المناسبة لقوانا

وحالتنا فيه الصعوبة والتعب كما فيه الفخر والشرف حتى ان أولئك الرجال الذين يسمونهم رجال الاعمال الذين يعيرون على أهل الخيال والمتمسكين بالفلسنة الادبية يخطئون في ظنهم بان هؤلاء لاعمل لهم أو بالتالى يعملون اعمالا تافهة فهذا غلط اذ لكل في العالم وظيفته ولكل غراسه على هذه الكرة ولقد مضت سنة الاولين وتحور النظر وتغيرت الافكار ولم يبق في العالم ذلك الرجل الذى يعيش فى الخيال الصرف ولا يعنى الا بنفسه وما خلق الانسان الا ليعمل وان ظهرت آثار الاعمال المادية فالاعمال الادبية فى النفوس منفعولاتها العجيبة وكل ميسر لما خلق له كما جاء فى الحديث الشريف وان مقارنة بين حياة العمل الحسى والعمل الادبى وتفضيل أيهما على الآخر لما يطول شرحه فللزارع أو الصانع أو التاجر فضله وللشاعر فائدته وللاديب مزيته وللطبيب نفعه كما للعالم الاجتماعى محاسنه وللطبيبى مآثره وقس على هذا سائر الاعمال التى تساق فيها الحياة البشرية فلا ينبغى اذاً ان نقصر المعنى أى مدلول العمل على ما يريد ذوو الاشغال والاعمال انادية

« ان رجل العمل ذلك الذى يجد ويكد ويشحذ قريحته ويبدل قصارى الجهد ويذلل الصعوبات للوصول الى الغايات الشريفة فهذا هو السعيد فى هذا العالم والشاعر العربى يقول — ومن طلب العلى سهر الليالى — ولن يصل المرء الى مبتغاه بالتفكير والتدبير والاستقلال وتحمل المسؤولية الا بالعمل بشرط ان لا يخرج عن القواعد الصحيحة والنظام العملى الرجيح ، ان هذا الرجل المجد اذا تحمل المسؤولية لا عن نفسه فقط بل عن غيره أيضاً فاضحى راعياً — وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته — فهذا لا بد ان تكمل له

صفات وتوفّر فيه شروط من الفضائل الذاتية والاجتماعية يتمكن بها من ادارة مصالحه والمصالح التي تحمل المسؤولية فيها ومن هنا تعلم ان سعادة الرجل بمناها الحقيق المنطبق على وظيفته انما تكون بالنعب والنصب — وتعب كلها الحياة — نخبه اذاً ما صرف في اكتساب المعالي لا ما انهكت فيه القوى من اللذات الفاسدة والامور التافهة . أما مارى اليه الفلاسفة المتقدمون من العمل للذات والبعد عن العالم حتى في الازم متطلبات الحياة بدعوى حب الاستقلال والزهد في شرور العالم فهذا ليس في شيء من معنى الاستقلال بما ينطبق على قوانين الاجتماع الطبيعية ولقد وهموا كذلك في فهم معنى الحرية والسلطة والشرائع التي عبثت بها أيدي ظلمتهم أو تلك الذين لذّ لهم الظلم فاستعبدوا الناس وما ولدتهم أمهاتهم الا احراراً كما في الأثر الشريف ولما كان الاستعلاء من طباع البشر فقد استنبطت الاصول الصحيحة التي تقيّد المستعيلين من ارباب الاعمال وتحسن توزيع السلطة والاختصاص وثمرات الاعمال في البيوت ثم في الهيئة الحاكمة والاعمال فلكل حده ولكل عمله ولكل تعب في هذه الدار ونصبه ثم نصيبه وان سرد ما مر على الحياة العملية من الادوار في العصور الخوالي الى هذا الدور بين قصر العمل الصحيح على الارقاء والاجراء أو تقسيم الامة طوائف فيه ثم التدرج بالعمل الى نظامه الحارحالي لما تقصر عن حصره هذه المحاضرة وكذلك ما قيل في رمى هذا النظام بالعيب واستئثار البعض فيه بالمواريث أو نحوها من المزايا والخيرات بلا عمل ولا نصب فاني استميحكم ان أمرّ على هذا مرّ الكرام فأعيب ما يستحق العيب منه وأمدح ما لا بأس به لان لكل فائدته في الهيئة غير اني أقول ان من يندمج في سلك

العاملين خير ممن ينأى بجانبه ويفضل البطالة والكسل ليكون في النهاية عالية على
 الحياة وكما أنه لا يكفي السفر الى بلد لمعرفة بل يجب العيش فيه كذلك في الحياة
 العملية فلا بد من مزاولتها لينفي المرء عن نفسه معرفة «البطالة» والبطالة شر ما يجنى
 على المرء واللعب والهوى الفاسد ليس من العمل ولا قلامة ظفر بل هو كثيراً
 ما يسلب ذوى العقول عقولهم ويجرد العلماء من علمهم اذا هم هجروه ولم يعملوا
 به ولا تنسوا فضل ما يصح لنا اتيانه من البطالة للاستراحة المعينة على العمل والهوى
 واللعب المسلي الجالب للنشاط فيه وأما مداومة البطالة والقراغ فهما وجدفيها
 ذووها من لذة فهناك هناك الآلام وجر الاسقام من جر اللهو وراء اللهو
 والعب على أثر اللعب وأما لسلسلة تنتهي بصاحبها شر انتهاء . . .

« واني وان فضلت حياة العمل على حياة البطالة لمزاياها التي تكاد تلمس
 باليد ومضار تلك كذلك أحكم بان لكل قاعدة استثناء ولا آتي على الاستثناء
 المقصود ههنا لان كلا قد يراه على ما يوافق هواه وانما الذي أراه صواباً هو
 صرف الوجهة في العمل بحسب القابليات والاستعدادات وكل ميسر لما خلق
 له ، كل يجد الهناء ويطيب له العيش فيما اختار لنفسه من العمل وفي هذا
 أيضاً شذوذ كما في الزواج فقد يختار المرء الفتاة ثم لا يلبث ان يكرها ويبغضها
 ولا يرى سعادته بين ذراعيها من هنا قد يأتي التحوير والتغيير بل السخط
 على الحظوظ كما قد يسخط بعض الناس من عشرة بعض الزوجات وعلاج
 ذلك ميسور أي انه في نفوسنا بشرط ان تحورله التربية العملية لتزيد الكفاية
 والمقدرة في الناس لتأخذ نفوسهم في ذلك الدور ما يحلو لها ويطيب فالتدقيق
 في تعليم المهن والصناعات والاعمال بادئ بدء لا بد ان يراعى فيه بعض الحرية

والتوسع في العموميات وهو ما قد يعرض عنه الناس بدعوى أنه يضر ولا يأتي بالحدق والثمرة المقصودة

« ولقد يرد ههنا سؤال وهو أى أقرب للسعادة أحياء العملية النشيطة المتنوعة أم تلك الحياة البسيطة المتناسبة السائرة بانتظام على وتيره واحدة ؟ أما أنا فأرى لكل محاسنه أي فضائل وما أثر في الهيئة وكل موجود فيها ومع ذلك فلست أنكر فضل الحياة العاملة ببعض التنويع لأنها مما ينمي قوى المرء وبالتالي يدل على نشاطه وان كان لتلك الحياة البسيطة أيضاً مزاياها اذا لم تنته بصاحبها الى الدعة والجمول على ان في حالة الحياة العملية الآن ما هو جامع للاهتمام ولكنه ينحصر في دائرة ضيقه أي لا يتناول غير جزء من عمل واحد بناء على قاعدة توزيع الاعمال وجملة القول ان العادة المتبعة في التعليم وتوزيع العمل والحاجة الى الراحة قد تلزم الانسان بان لا يغير من عمله ووظيفته ولقد أوجب اشتباك المصالح وجود قواعد جزئية وتدقيق في المراقبة والاحتراس فمن ثم لا يكتر الاعتماد على البدائه عند السواد الاعظم من العمال العاملين أما تلك العقول المتنوقة المبرزة على الاقران فلن يقيدوا قيد ولن يحجبها حاجب بل هي مطلقاً تغوص بحار الاكتشافات والاختراعات مما تشاهده وتعمله فتأتي باصدافها حاوية الغوالي من الدرر والآلء بل ما هو اكرم وأسمى من ذلك مما يفيد بني الانسان ولمثل هذا فليعمل العاملون . . . »

وسكت عن المطالعة فقالت زوجتي :

— أنتهت هذه القطعة قلت « نعم » فقالت « ما أجملها من محاضرة

وأبرع صاحبها الاميرة يراعة فأستعد يا صديقي لأخذى معك غداً اليها

كما قلت لك « فأجبت بالايجاب وأبا معجب بتغير رأي زوجتي في الاميرة يراعة ثم جعلت أفكر في طريقة تدلني مأربي في الجمع بينهما بالزواج مهما كلفني ذلك من العناء نعم هذه الطريقة في الزواج مما لا يناسب روح العصر ولكنها جائزة في شرعنا الاغر وانا بحمد الله حري بان أقيم العدل بين الازواج !! لكنني قد نسيت شيئاً ان الاميرة لا تعلم بأني « متزوج ولى أولاد » فربما فشات لذلك إمام من انهزام نفسى أو لرفض الاميرة وعدم رضائها لنفسها بان تكون حلياة لرجل متزوج وذى عيال . . . رباه ما العمل . . . أرحمني يا الهى انى أحب هذه المرأة حباً ذهب بلي ان لم يكن لجمالها فلكمالها . . . ثم انى لا يمكنى ترك زوجتى تلك التى عاشرتها وعاشرتنى وقد مضت لنا أيام هناء وسعادة لا أنساها ولن اكفرها . . . اذاً فلا بد من قصارى جهدى فى نيل ما تصبو اليه نفسى بلا تكدير لصفو اسرتى مع ذلك فلا تحرمنى معونتك وهدايتك يا أرحم الراحمين

اذا لم يكن عون من الله لفتى فأول ما يحى عليه اجتهاده



بين زوجتى والاميرة

بعد ان فكرت على هذا النمط ساعة طراً بخاطرى ان اكتب الى الاميرة يراعة كتاباً أعلمها فيه بان « زوجتى » قرأت مى كتابها وأنها قد أحببتها وترغب ان تذهب معى الى دارها لتتشرّف بمعرفتها وتسمع بقية محاضراتها من فمها الشهى وان تنأى عليها قد أوجب هيام زوجتى بها — والاذن تعشق

قبل العين أحياناً — ضمنت كتابي هذه العبارات اللطيفة والاشارات ذات المعنى على ما توهمته ثم أرسلته مع حوذى مركبتي فغاب عنى ساعة وجاء يحمل جواب الاميرة فاذا فيه :

سيدي العزيز :

ان بيتي لمنفوح لك ولزوجك في كل وقت واني لأسر كثيراً بالتعارف بالسيدة قرينتك الفاضلة واني أكراما لخاطرها قد أعددت لها غرفة على حدة تسمع منها محاضراتنا ولا يراها أحد ولقد سرني جداً علمي بانك متزوج بسيدة فاضلة تميل الي العلم وتكره السفساف أي تلك السذاجات التي يظنها بعض المصريين الآن من الكياسات واذا كانت هي قد أحببتي فاني علم الله قد أحبها قلبي وارتضيتها لي صديقة سلماً وليكن حضور صديقي وقرينته الفاضلة قبل الميعاد المضروب للمحاضرة بنصف ساعة على الاقل حتي أتمكن من التعارف بها وبها ما قد أشعر به نحوها من المحبة والوداد وأقبل أيها الصديق

فائق احترام
المخلصة لك

الاميرة يراعة

فلما قرأت هذا الكتاب ناواه امرأتي بالسرعة فقمر أنه وهي تضحك ثم علت جبينها علامات التفكير والاهتمام فتركتها لافكارها وعكفت على مطالعة الصحف وأخبارها الهامة وحوادث البلاد الجسام وقد ارتاح قلبي بعد ان اتعبه مامر من الحوادث من الحب واباء زوجتي علي الذهاب الى دار الاميرة ثم قبولها الذهاب معي اليها ثم ما في جواب الاميرة من العطف على قرينتي ان في هذا كله نوعاً من الظنن بل مقدمة للسعادة التي أحلم بها . . .

وفي العشاء جمعتنا المائدة أنا وزوجتي وابنتي سنيه وبنى فتحي فلم يخرج موضوع حديثنا عن الاميرة براعة وسعة اطلاعها غزارة علمها ووفرة أدبها فقالت سنية — ألا تأخذاني معكما يا والدي لا ارى هذ: الاميرة التي تمدحها وتطنبان فيها ويمجدها سيدي الوالد بما هو أهله لا أسمع حديثها لعله يفيدني بل أنا بحاجة اليه أكثر منكما

فقل فتحي وكان فتى يفعاً

وأنا يا بابا لماذا تحرمني من سماع تلك المحاضرات فتبسمت وتبسمت والدتهما وأجبت فنجياً

— أما أختك فقد خرجت من المدرسة وصارت فتاة فلا مهابتها الشان في أخذها معها الي دار الاميرة أو تركها أما أنت فمقيد بالمدرسة وهي الآن أفيد لك

فصدع بالامر ونمنا باهنأ ليلة وعند الصباح رأيت امرأتي ترتدي ملابس خروجها وكذلك ابنتي سنية أما فتحي فعلمه بأنه غير ذاهب معنا لذلك قام الي ملابسها فلبسها ثم أخذ محفظته وكتبه وتوجه الي المدرسة ملازماً الصمت وهو ينظر الي أخته من طرف خفي كأنه يقول لها « لم يأخذونك ويتركوني » ونهضت أنا على حركة زوجتي وابنتي وقبل ان تم الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم كنت وأسرتي أمام دار الاميرة براعة تحملنا مركبتنا. وعند ما وطئت قدماي امام زوجتي وابنتي أرض حديقة قصر الاميرة خفق قوادي واضطربت حواسي وتضاربت افكارى قائلاً في سرى « كيف ألقى الاميرة بهذا الاسرة وهي تعلم من نفسى ومن عيني أني أصبو اليها

وأخطب قربها إنها لا جرم تحتقربي وتسيء ظنونها بي . . . ولكن قلبي لا يساعدني . . . » كنت أمام أسرتي أي زوجتي وابنتي سنية وهي تطاول أمها قدماً أفكر في ذلك وعين الاميرة براعة تلاحظنا عن كذب وهي واقفة عند مدخل الدار مستندة على أحد اعمدة المرمر الحاملة للظنف العلوى من القصر فما أشعر الا بصوتها الاغن اللطيف يقول لى فجأة :

-- أهلا بصديقي الناضل وأسرتي الكريمة ومدت الي يدها فقبتها ثم تقدمت هي الى قرينتي فعانقتها وعانقت ابنتي سنية وأخذت بيدهما ودخلت بهما الدار وأنا اسير خلفهن ملازما السكوت مطرقا برأسى الى الارض غير مصغ لما يدور من عبارات المجاملة الرشيدة بين أولئك النسوة وقد جمعن بين التريبة الشرقية والغربية وأخذت أفكارى مجرى آخر كان سبب ذهاب عشقى وقد شاهدت قرينتى تماشى الاميرة وابنتى تقاربهما طولاً فعرانى الخجل من جنوحى الى الحب أو الطمع فيه بميلى الى الاميرة ذلك الميل وجعلت العواطف والاحساسات تروح بي موجاً وتلعب بي رياحها الى ان رجحت فى نفسى كفة الاكتفاء من الاميرة بتلك المحبة الخالصة والصدقة الصحيحة التى « ربما عادت على وعلى أسرتى بالخير والبركة . . . »

وفتحت احدى الوصائف باب غرفة غير الغرفة التى تحاضرنا فيها الاميرة فدخلت هي وقرينتى وابنتى وأنا أتبعهن وحين أخذنا مجالسنا قات الاميرة وهي تنظر الى امرأتى وابنتى باللطف والدعة وقد أبرقت أسرتها — اشكر لصديفى الذى عرفنى بأسرتي الكريمة اشكره الف شكر على تعريفى بك أيتها العقيلة الفاضلة وأنت أيتها الأنسة ابنته إنى بحاجة اليكما . . .

انى أريد أيضاً ان أشاطر بنات جنسى الودة . . . ولقد أكثرت من معاشرة الرجال والآن فيمكن لى مع نساء وطنى العزيز مودة واتصال ما اسم الآنسة كرىمتك أيتها السيدة ؟

— سنية —

— وأين تلتقت دروسها ؟

— فى المدرسة السنية ولما بلغت هذا السن الذى ترينها فيه أيتها الاميرة

أخرجتها لتعينى فى تدبير المنزل وتلقى على دروسه

— أحسنت أحسنت لكن لتسمح لى السيدة الفاضلة ان أعيب على

بنات جنسى فى هذا الوطن ما أضحين فيه ؟ ثم التفتت الى ابنتى وهى تقول —

أو تعجبك حالة فتيات العصر أيتها الفتاة

فقلت ابنتى وقد غلب عليها الحياء فتوردت وجنتها

— لا ياسيدتى أمهن قد شططن كثيراً وغلون فى الزينة وقد افهمتى

والدتى أموراً تحققت منها أنا فى واد والحياة الصحيحة فى واد آخر . . .

ففكرت الاميرة يراعة برهة وهى مطرقة برأسها الى الارض ثم رفعت

رأسها وقالت بصوتها الخنون العذب الذى ينم عما فى تلك النفس من العواطف

الكريمة والاحساسات الشريفة

— ان نقص التربية فى العالم مصدره نفس ابناء العالم ، مصدره نظام

هيئاتهم الاجتماعية الفاسدة وما لحق العقول بالتبعية لذلك من الفساد وانى

أعدك أيتها الآنسة بملاحظات كتبها^(١) وسأجمع لها ان شاء الله تعالى بعض

(١) سأضمن هذه الملاحظات الرواية الثانية التى سأكتبها تحت عنوان (ابنتى سنية) ان شاء الله تعالى

بنات جنسى من فضليات النساء نساء هذا الوطن العزيز وأتقيها عليهن
محاضرات أو مسامرات كالمحاضرات التي أقوم بها الآن للرجال لكنى أوخر
ذلك الى ما بعد عودتي من السياحة بالصعيد ومشاهدة آثاره الجميلة واني أشكر
لصديقي والدك على ما سمحت به مرواته من تعريفى بكما وان كان لك
صديقات على ما أنت عليه من الذكاء والفطنة والتربية والنمض فعرفينى بهن
واحضرين الى فلقد جاء دور النساء . . . نعم وجب ان تهذب بالعلم نفوس
النساء ويعرفن ما يضرهن وما ينفعهن من أمور الحياة
ثم التفتت الاميرة الى وقالت وهي تبسم :

— وما منع سيدى الفاضل من حضور محاضراتي بعد ان كان كلفا بها
حتى اضطرنا الى كتابتها له ؟

فأطرت امرأتى برأسها الى الارض

فقلت أنا وقد غلب على مرة أخرى وربما كان بتانا الاقتناع بصداقة
الاميرة فعادوتى شجاعة نفسى وامتلاك لى شأن كل من يخلص في حبه :
— انه خير ولقد افادنى ذلك تعلق قرينتى بك حين أطلعت على كتابك
ومحاضراتك فرغبت في معرفتك وصداقتك أيتها الاميرة الجميلة . . .

فقلت الاميرة — يالها من سعادة لى أننا معاشر النساء لتتاجي ارواحنا
بعضها بعضاً ولقد عامتني أختى حكمة أننا بنات هذا الجنس تكن نفوسنا
فضائل قل ان تكون في جنس الرجال ولقد نالت النساء في بلاد أوروبا
حظوظهن وحصلن حقوقهن أي عرفت قيمتهن في الهيئة الاجتماعية فلم يبق
الا المرأة الشرقية ولقد جاء في آخر كتاب لأختى حكمة « ان استوصى بنساء

مصر خيراً وأبذلي جهديك في بهن ما علمتكم اياه من الافكار الخبيصة بهن «
وسأقوم بوصيتها ان شاء الله تعالى ولك الفضل أيها الصديق حيث فتحت
لي هذا الباب بتشريفي بمعرفة أسرته . . .

وجاءت القهوة تحملها وصيفة ثم بعد برهة دخلت أخرى فأعلمت سيدتها
بقدم اصدقائها الذين يسمعون محاضراتها وان الوقت قد أزف فاستأذنت
من قرينتي وابنتي وأشارت لهما الى نافذة تطل على مكان المحاضرات خلف
مقعد الاميرة فيه بحيث يسمعان ولا يراهما أحد ثم قالت لي وهي تضحك:
وأما أنت أيها الصديق فتفضل الى كرسيك فانه بانتظارك .

ثم خرجت وخرجت خلفها وقد تركت نفسي أوهامها الفاسدة
وأحلامها الا من حب خالص وصدقة تكاد تكون عبادة . . .

ودخلت القاعة فسلمت على اصدقائي فبشوا لي وبشوا وقد انقطعت
عندهم أربعة أيام فسألوني عن سبب انقطاعي فأعترت بأن اشغالا منعتني ثم
أقبلت الاميرة يراعة متأبطة كتابا في قطعة من الخمل وهو كتاب مذكراتها
فسلمت على الحضور ببشاشتها المعهودة وانطلقت في محاضرتها كالسيل النهدر
ونحن سكوت كأن على رؤسنا الطير قائلة بصوتها الجمهوري العذب



١٣

﴿ محاضرات الاميرة براعة ﴾

الاخلاق والفضائل

« أعلموا أيها الاخوان العظام والاصدقاء الكرام أن محور الحياة العملية والسلوك في هذه الحياة الدنيا انما عماده الاخلاق أي ذلك المجموع من الميول والعادات التي تميز بين الرجل والرجل وتظهر فيه آثارها فالخلق في علم أدب النفس كالبنية والمزاج في تركيب الجسم البشري في الطبيعة وعليه حفظ البشر في حياتهم جله معلق باخلاقهم التي اضطروا في الجملة اضطراباً الى اكتسابها بمتضى أحوال البيئة والعادات لكن مهما كانت الاحوال فهناك قاعدة المسؤولية الادبية عن الاحوال فاغلاط المرء لذلك تحسب عليه كما يحسب له فضله وذكاؤه وما السخط على المقادير أو التحويل عليها فيما قد يفرض من الانسان الامن قبيل التنصل ورمي الغير بمساوية النفس تبرؤاً، فأستعدادنا العادي في ميولنا وأخلاقنا قد ينتهي في الجملة الى قيادة حالنا ووظيفتنا في الحياة وكل ظروف الاحوال الساتحة قد نتجهد في جعلها تناسب تلك الميول الباطنة وهذه الظروف بتواليها علينا وجرها بعضها بعضاً تربطنا بالاحوال التي نحن عليها سواء وافقت أو خالفت أغراضنا لان مبنائها في في الاصل على تلك الاغراض والشهوات فالطامع الحريص على جمع المال

قد لا تقوته أية فرصة لانماء ثروته نجحت أو لم تنجح مساعيه فتكون حياته حياة صراع مستمر لنوال بعثته وقضاء شهواته وتخطى طوره طمعاً فيما طمع فيه من المركز ومع ذلك فقد تكون ظروف الاحوال المحدقة غير مساعدة لما يكون عليه المرء من السجايا والطباع فيكون كل مسعي له فيما يعارضها وبالاعلى عليه ومن المنغصات عليه ، ومن الوهم ادعاء أن الانسان قد يكون على وتيرة واحدة في خلقه فهذا غلط بل ان النفس كثيراً ما تحمل انتقاضات من الخصال والمعتقدات من الاخلاق لاختلاف الاحوال والشهوات وكم تتصارع فيه الميول وتتغالب كأنها الوحوش الكاسرة أو تكون كللائكة الطاهرة الظاهرة على ان في الخلق شيئين متميزين الاول استعداد المرء بالعادة لتحديد الافعال فهذا هو السجية والقطرة والثاني الاستعداد كذلك فيما تؤخذ فيه الاشياء وتعامل به الحوادث والناس وهذا هو الخلق

« ولقد ينقسم الخلق الى حسن ورتدىء فالحسن ما سلس طبع صاحبه وانطلق وجهه بشراً ونظر الى الاشياء من وجهها السار وبالجملة فهو الذي يقدم الخير على الشر ويقابل الاسآت ومعاكسات الاحوال الدهرية بالسهولة ويعرف يتميم ينسطف في الهيئة ويعجب به فيها ويجب الاسرات الصحيحة ويعرف كيف كعبها ويجب للناس ما يجب لنفسه . وهذا الخلق درجات . أما الخلق الرديء فبعبكسه في كل الاحوال وهو درجات أيضاً — أنا بالتماسنا من الخلق ما قد يطلبه أكثر الناس من الحظ والبخت لم نكن بالواهمين مشلهم لان الخلق نتيجة مناعيل كثيرة كما تقدم وليس في صر كباته ما هو بالمطلق الثابت بل جل ما فيه قابل للتغيير بحسب الزمان والمكان وظروف الاحوال والثرية وكذلك نتائجها

وليس من انسان الا وفيه خلال جميلة وأخرى قبيحة وان له حق الاختيار والتفضيل ولقد ينحصر معني الخلق فيما هو من أشرفه وأعلاه وأصقه بقلب الانسان فيسمي حينئذ فضيلة والفضيلة أنتم خيرون بما تحتمها من فضائل ولا بأس ان اذكر مجملها في هذه المحاضرة فهي اسمي ما يرقى اليه القلب البشري من المنازع واذا كانت سعادة أي انسان في ارتقائه فذلك انما يتم له من هذا الجانب أي امداد القلب بامداده وتحلية النفس بالفضائل لنوال السعادة والغبطة في هذا العالم قبل ان نالها فقط في العالم الاخرى أو داخل نفوسنا والا فلا معنى للحياة الدنيا ولقد بينت في محاضرة الخيرات الظاهرة مجملاتها وهنا أقول أنه يجب ان يكون من وراء التحلي بالفضائل نوال الغبطة غبطة العيش بالسعي له من وجوهه والاستقاء له من مصادره الصحيحة أي المؤسسة على العلم والعمل . أما كون المرء يتحلى بالفضائل ويقوم بالواجبات الروحية ويقنع بما يرتاح له ضميره ولورمى بالارزاء والامراض وضيق العيش مقتنعاً من الحياة بتلك الفضائل فهذا ليس من فضائل العصر ولا من مرييات أناسه أي اقوامه على قواعد الجهاد الحيوى الجديدة وماهي بالجديدة عند أهل الاسلام على ما تعلمون أيها الاصدقاء فالبدن له حقوقه والنفس لها حظوظها ومسراتها والفضائل يجب ان تكون كالمشرد الامين لا يتيان ما يصاح منها واجتناب ما لا يصح مع اعتبارها فوق ذلك من السعادات والخيرات في حد ذاتها .

« أننا لا ننكر أن الفضيلة قد تحل بصاحبها أعلى درجات السعادة كما قد ترميه الرذيلة في أحط درجات البؤس والشقاء وأنه لا ينبغي ان ينسى كذلك أن هناك سعادة للعقل قد تجعل المرء يتحمل بالصبر أحوال الهناء

والشقاء الجارية في حياته اتماما للمقادير اللاحقة بها وان المرء لن يكون سعيداً الا اذا كان ما ينبغي ان يكونه بل ما يلزم ان يصل اليه من اكمل الحالات والفضيلة ارقى ما تصل اليه همه الرجل ويبلغ اليه رقيه العقلي فهي اذاً اكبر السعادات فهذه السعادة الجوهرية الملازمة للفضيلة انما محورها العقل فهي لذلك تفضل سعادة الحواس والخيال والشهوات وهو لذلك يتحمل بلذتها كل شقاء وكل صعب ضناً بها لانها السعادة بكل معنى الكلمة . ولقد يعترض معترض بان هذه الفضيلة ليست الا نزعة من منازع العقل يحوم حولها ويتصورها كعبه له فهي امر تجريدي صوري لا حقيقي والانسان لا ينبغي له الا ان يتبع ما فيه الفائدة المحسوسة والنفع المادي وان هذا الامر التجريدي المسمي بالفضيلة تخيله عقلاء البشر وبثوه في العقول فصار ملازماً لها مذكوراً بالاحترام منها؟ قلت هب الامر كذلك أفليس فيما شرحوه من محاسن الفضائل ما يدل على انها أسلم عاقبة في باب نيل الفوائد؟ ألا ترى في التربية والتعليم على ما ترمى اليه الفلسفة الاخلاقية مراعاة ذلك على افضله خصوصاً في هذا العصر الآخذ بأقوى الاسباب وان هناك اتصال بين متخيلات تلك العقول والحقيقة وان حجته قائمة على ضعف بعض النفوس البشرية في ميولها؟ ولقد يقولون أيضاً انه لا معنى للتفرقة بين الاشرار والاخيار اذا كانوا قد جبل كل منهم على ما جبل عليه كما خلق هذا جميل الصورة وذاك دميمها وهذا كبير العقل وذاك سخيفه؟ نقول ان هناك فرقاً وان وجد في الناس من هم كالذئاب ومن هم كالخراف فهناك أيضاً فضيلة وما هي الا خلة ينبغي ان يتصف بها العقل البشري ويتميز بها فترية الهدى من الضلال بعكس ما هو عليه من الصفات الطبيعية وانه كما

لذلك عشاق من حيث الجمال الظاهري جمال الصورة فللفضيلة أيضاً مغرمون يتحلون بها ويحبون من يتحلّى بها من الناس ، ولما كانت الفضيلة بهذه الصفة من الرفعة والصعوبة فلا جرم كانت جهاداً وصراعاً بين الصفات المتباينة في نفس الانسان فتارة يغلب فيه الخير وتارة الشر وان للقوى البشرية من العقل وقوة الارادة والعزيمة والميول والشهوات دخلاً كبيراً في ترجيح الظفر الى أحد الجانبين فنفس الانسان مرسح تمثل فيه بحسب الاحوال والادوار أدوار العمر والآجال وقوة الارادة والعزيمة العقلية روايات تبدو آثارها ومظاهرها لاعين الناظرين فإما عدت على الانسان مساوئ أي رذائل واما حسبت له محاسن أي فضائل ولا نزع البتة ان الفضيلة بأسمى معانيها تتوفر لانسان على التمام — الامن عصم ربك — بل النقص من صفات البشر والضعف من ملازمات هذا الانسان فهذا يكتب في الباب باحراز النفس الفضائل الذاتية واعمالاً تعد من الفضائل ثم تجنب الشر ما أمكن أي اتيان الامور من أبوابها في اسباب المعاش والمعاملة وانما الدين المعاملة .

« ان الانسانية تسعد بالفضائل العملية وتستفيد من النظريات الادبية الرامية الى تلك الغايات الشريفة وكل ما يقال غير ذلك فحجته مدحوضة وأمره آيل للزوال لان محاسن الشيم المعقولة ان غلبت اليوم فستغلب غداً الا فيقل الماديون أو المستمدون من آرائهم ما شاؤوا ان يقولوا وليستندوا على علومهم التي لو تأملوا ورجعوا فيها الى عقولهم السليمة لرأوا ما قد ينقض عليهم آراءهم ويشوش عليهم براهينهم وترجع الانسانية الى احضان الفلسفة الادبية تقول « يا أماه قد اشقاني هو اي في ذهابي الى احضان غيرك فضلت وما أهتديت

فلذلك جئت اليك ارتمي على اقدامك أطلب عفوك وأرجو صفحك» فتقول
تلك الفلسفة — وأنتم تعلمون ما أعني بها هنا — « اني بانتظارك مهما شططت
فانك تجديني أمامك أواسي كلومك وأداوى جروحك فيها انا اذا اعانك
يا ابنتي »

هذا ما أردت اليوم محاضرتكم به أيها السادة واني اعتذر اليكم لان
عندي ضيوف ينتظروني فادركت ما تعني فقامت اليها وقبلت يدها ثم قام باقي
القوم فاستأذنوا وانصرفوا ولقد كنت أود البقاء لاخذ أسرتي غير أنني لم
اشعر الا والاميرة تضرب على كتفي بيدها في الحديقة قائلة :

— اترك اسرتك في ضيافتي اليوم

قلت — ولكن ...

فقالت وهي تبسم

— لا تتعلل اذهب بسلام ...



تعلق أسرتي بالاميرة

وصلت دارى قبيل الظهر وقد اخبرني سائق مركبتي أن سيده أمسته
ان يعود اليها بالركبة قبيل الغروب ويخبرني أنها وكرمتي قد أبقتهما الاميرة
في ضيافتها فدخلت الدار وغيرت ملابسى ولزمت مكثي اطالع في بعض الاسفار

ريثما جهز الغداء فاكت بمفردى وجعلت نفسى تحدثنى « ترى ما الذى تراه قرينتى وابنتى فى الاميرة أيجبانها أم يعيبانها كما هي عادة نساءنا من الانتقاد لنصبر حتى يأتيان وهما بلا ريب سيحدثانى بما يراىنايه قبل ان أسألها رأيهما كما هي عادة بنات حواء . . .

وخرجت عند العصر للرياضة مع ابنى فتحى وكان قد حضر من المدرسة ولما عدنا وجدنا أمه وأخته قد حضرتا وهما بانتظارنا ليحدثانا بما رأينا وارتائيا فى الاميرة فتقدمت ابنتى نحوى وهي تضحك قائلة :

— أننا قد سررنا كثيراً بمعرفة هذه الاميرة معلمتك . . . أنها بالحقيقة فاضلة وعلى جانب من دماثة الاخلاق وقد اكرمتنا اليوم اكراماً عظيماً فقالت والدتها :

— نعم أنها والحق يقال سيدة من كرائم السيدات لم تسمح لنا بالانصراف معك بل أبتقتنا عندها للغداء مغالطة الايمان فى ذلك ولا تسل عما لاطفتنا به وقدرأيت منها ما اغبطها عليه من العلم والفهم ولقد رغبت الى والى سنية ان نحضر محاضراتها أو مسامراتها النسائية التي وطدت العزم على القاها على فضليات النساء بمصر بعد العودة من سياحتها فى الصعيد وأخذت سنية على عهدتها ان تعرفها ببعض الفتيات المهذبات ليسمعن مسامراتها أما أنا فاعتذرت سلفاً بأعمالى ومع ذلك فأسبذل جهدى للذهاب اليها من حين الى حين منتهزة الفرص فرص الفراغ من العمل .

فقلت وقد أبرقت أسرتى :

— لقد أحسنت سنية صنماً فان الاميرة آية من الآيات وقد سمعنا

محاضراتها اليوم وطلاقة لسانها وعدوبة الفاظها ولا شك أنها ستحاضر أولئك الفتيات بما يفيدهن ويهديهن ويرشدن الى منزلة المرأة ومركزها في هذا العالم وما يجب ان تكون عليه فيه الى أشباه ذلك من محاسن الشيم أي القواعد الصحيحة المطلوبة . . .

فاجابت زوجتي :

— أنتي مذ أمس وقد اسمعتني كتاب هذه الاميرة أحبها نفسي واجلتها وقد زاد تعلقى بها ما رأيته اليوم منها وسمعته من محاضرتها ، أنها في الواقع آية في الكمال والجمال ولقد شاهدت من جنوحها الى سنية وعظفها عليها ما يبشرني بأنها ستعطيني من دروس الحياة النسائية علما وعملا ما أمثلها في هذا البلد الاسيف بحاجة اليه فأبشر يا صديقي بالخير . . .

فقال ابني فتحي وهو يتقد غيرة وشوقا لرؤية الاميرة :

— أولا تأخذوني معكم لأرى هذه السيدة التي اكرتتم أمامى من

مديحها والثناء عليها ؟

فضمته الى صدرى وانا أقول له :

— انك الآن بالمدرسة وهي أهم لك من مثل هذه الدروس العملية فانت اليوم تتلقى أصول العلوم ومبادئ المعارف وانك ستنال حظك من هذه المعلومات عند ما تكبر وتتقدم في السن .

ففكرت أمه ثم قالت : أليس غداً الخميس ؟

قلت : — بلى

قالت — ألا أبشر يا فتحي فستراها وقد وعدتني برد الزيارة عصر

الخميس أي غداً وسأجهد لادعوها للعشاء معنا وفي ذلك الفرصة لك لمشاهدة
الاميرة يراعة وسماع حديثها

فسر فتحي لذلك سروراً عظيماً وجعل يطرب ويلعب مع أخته
وجهن العشاء فاكلت مع أسرتي وظلمنا في السمير لا يخرج حديثنا عن
موضوع الاميرة يراعة الاعدنا اليه بحكم ما سحرت به تلك الامعجوبة عقولنا
وسلبت من ألبابنا وعند ما جاء وقت النوم أخذ كل مضجعه وفي الصباح قمنا
كل الى شأنه وعمله بعد ان تناولنا الفطور وخرج فتحي الى المدرسة وأرتديت
أنا ملابسى للتوجه الى دار الاميرة فلما رأته امرأتى وابنتى متحفزاً للخروج
قالتا بلسان واحد :

— لا تخر منا من محاضرة اليوم

— حباً وكرامة

ثم قالت امرأتى — لقد كان بودى ان أذهب اليوم مع ابنتى اليها لان
محاضراتها مما يهمننا جميعاً فأنها تتكلم فى موضوع الادب النفسى والاجتماعى
وهذا يشترك فيه الرجال والنساء على حد سواء

قلت — نعم

ثم تذكرت امرأتى ما كان من حالى الاولي فقالت لتسد على ذلك
الباب الذى كنت أقفله أنا من قبل

— ان هذه المرأة قل ان يطمع فى زواجها رجل فهى ارفع من ذلك
وظيفة وأسمى مقاماً . . .

فقلت وأنا ضاحك السن غاض الطرف حياء

— انى أعلم ذلك وقد اعلمت بك به فيما اتذكر وأنت تعلمين أيضاً مبدئى...
فقلت — قد علمت مبدأك ومقداره... واذ قد وثقت الآن بما
لا يقوم معه شك في نفسى ولا ريب فقد تحقق لى انك سواء رجعت اليه
أو لم ترجع فلن...

قلت — كفى كفى

قلت — مصحوب بالسلامة يا عزيزى

علم القارىء أنى بالحقيقة كنت رجعت الى نفسى ولقد كان يخيل لى
أنى أحب الاميرة وانى ربما قدرت على الظفر بزواجها ولكن ما صرحت لى
به زوجتى حتى حقق عندى فساد ما كنت اعتقده وأنى عليه آمالا وأمانى ذهبت
ادراج الرياح... ولكن ما هذا أليس لى في صداقة الاميرة وحبها
الخالص ما هو أفضل واغلى قيمة مما كانت توسوس الى به شياطين نفسى؟
الابئس ما وسوست به الامارة بالسوء فهذا كله قطعت في هذه الآونة
حبال أملى واحلامى بنلك الخيالات الكاذبة وركبت عربتى بقدم ثابتة
فقال السائق :

— أ الى دار الاميرة يراعة؟

— نيم واسرع فانه لم يبق على الوقت غير نصف ساعة

وينا أنا في الطريق وقد هب النسيم بارداً وجعلت السماء تمطر رذاذاً
وأخذت السابلة تضع المظلات فوق الرؤوس والمناديل وتسرع فى السير
خشية البلل بصرت باحد اصدقاء الاميرة وزملائى فى سماع محاضراتها
يسرع الخطى قاصداً دارها فاشفقت عليه وكان شيخاً من المعممين فأتم مر

الحوذى ان يقف بي حذاءه ثم اتي ناديته باسمه فاقبل نحوى وقد بلبل المطر ثيابه فقلت :

— تفضل أيها الاستاذ بالركوب معي

— جزاك الله خيراً أيها الصديقي فلقد كنت على وشك الاتناء على عقبي وركوب الترام والعودة الى الدار في هذا اليوم المطير واسكنك اذ ارسلك الله اليّ فلا بأس ان اذهب معك أو لست ذاهباً الى دار الاميرة يراعة ؟

— نعم ياسيدي الاستاذ واني اتعهد لك بارجاعك الي دارك

— اشكرك أيها الفاضل ولا زلت للفضل أهلاً

ثم دار بيننا الحديث في شؤون مختلفة على الطقس فالسياسة فمحصول القطن فنفي الاشقياء ثم عدنا الى الاميرة فقال الشيخ :

— اني عرفت الاميرة منذ سنة من الزمان وهي تبحث وتنقب في الكتب وآثار العلماء ولا تسمع بانسان يميل الى هذا العلم الا خطيت وده ودعته لسماع احاديثها كأن لها في هذا العالم وظيفة من اسمها

قلت — أو لم تباحثك في العلوم العربية على مثال ما يتخذها الآن

الازهريون من البحث والشرح

قال بلهف ان ابغض شيء على سمعها تلك الابحاث العقيمة بل هي تجاهر

بان ما يتخذ من تلك الطرائق لن يفيد المتعلم بل يشوش عليه فكره ويقصر مداركه

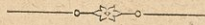
النامية وليس هذا الفكر لها من جهة العلوم الآلية فقط بل هذا هو أيضاً

اعتقادها في غيرها من العلوم أي طريقة وضعها القديمة العقيمة من المتن

المقتضب فالشرح فالحاشية فالتقرير وهي تجاهر على رؤوس الأشهاد بان

التعويق الحاصل في تخريج علماء ذوى براعة ومقدرة فى الازمنة القريية سببه ذلك النظام التعليمي السقيم ، سببه تلك الطرائق التقليدية ، تقول الاميرة ولها الحق ان تقول ان كتباً سهلة يضعها العلماء الحاليون والمدرسون الموجودون تقرر الاصول للمبتدئين وتبسطها تفيد اكثر من المتون القديمة وكتب وسطى اوسع منها توضع بدل الشروح تفضل الشروح القديمة وتكون للمتوسطين من الطلبة ثم يقوم كبار العلماء بتأليف الاسفار الممتعة للقسم العالى كل فى الفن الصليغ فيه وهذا رأيها فى كل العلوم تقول ان هذا يرقى المسلمين ، تقول ما الذى يضر لو خدم السادة العلماء اللغة والشريعة على هذا النمط العصرى فيضعون كتباً جديدة خالية من التعقيد والابهام والتكرار والسند الممل ، تقول ما الذى يقعد بالرؤساء عن حث العلماء وايجاد مطبعة للازهر تطبع له الكتب الجديدة ومالا غنى عنه من الاسفار القديمة ووضع جوائز للمؤلفين من علمائه خاصة لتحصل المنافسة والمباراة ؟ أليس هذا من أفضل الاعمال وأجل الآثار فى خدمة الاسلام ؟ تلك هي أيها الصديق افكار الاميرة براعة وقد اختصرتها لك وها نحن اولاء قد وصلنا أمام دارها . . .

فنزلت عند ذلك من المركبة ونزل الشيخ الوقور ودخلنا القاعة قاعة المحاضرة فوجدنا الاميرة قد أعتلت مكانها والابصار شاخصة اليها وها هي محاضرتها فى ذلك اليوم الشاتى .



— ١٥ —

﴿ محاضرات الاميرة براعة ﴾

العالم والهيئة الاجتماعية

« أني الى هنا أيها السادة من محاضراتي لم اتخط كما تعلمون ما يختص بالانسان في ذاته والآن ليسمح لي ان انتقل الي ما يتعلق به من حيث علاقته بغيره وارتباطه بيني جنسه وهو ما عنونت له بالعالم والهيئة الاجتماعية من حيث ما يتعلق منها بسعادة أو شقاء المرء في دنياه من العوامل الاساسية في وجودنا المركز الذي لنا في الهيئة الاجتماعية أي بين بني جنسنا فاذا قال حكيم القدماء ان هذا قليل الاهمية وان على المرء العاقل العناية بنفسه فقط فهذا مالا يصح ان يقال به في عالم اليوم أو بالنالي في عالم الحقيقة والعمل ومتطلبات الحياة فيه ولنبحث في مقامات الناس في الهيئة وهي عديدة ومختلفة وان في العالم لعوالم كثيرة فما يعد في أحدها الاول قد لا يعتد به في غيره وهي مع ذلك مرتبطة متداخلة لا يمكن الفصل بينها ولقد يشترك المرء في عدة منها والانسان لا نهاية لا طواره واحواله ومراكزه المختلفة ما دام على ظهر هذه البسيطة فلنكتف باهمها مما ترجع اليه المميزات بين الناس في مقاماتهم وهي المولد أي النسب والحظ والسلطة والكفاءة أو العقل ثم المهنة فالترقية . « فالمولد أي النسب قد أعتد به كثيراً في مقامات الناس قديماً ولكن

المبادئ الديمقراطية قد قلت من قيمته في أوروبا والاسلام هدم ركنه الاقوى في بلاد العرب فلقد ضرب عمر ابن الاكرمين وقال رسول الله صلعم « لا فضل لعربي على تركي الا بالتقوى » مصداقا لآية الشريفة « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ولئن كانت النظمات الحديثة وآداب السلوك الجديدة تجل ذوى الحسب والنسب ولكنها لا تجعل لهم تلك المنزلة السامية التي كانوا عليها في العصور السابقة وقد خرجت الامم من اسر الطوائف . أما الحظ أي الغنى والثروة فصاحبه لم تزل له انزلة الرفيعة في أعين الناس وان عده النظام الاشتراكي في الدرجة الثانية من مقامات أبناء الهيئة ومنازلهم فهو عندهم بعد العمل أو العامل في الرتبة ولكنه المال والغني ولا أزيدكم به تعريفا أيها الاخوان . . .

« أما السلطة أو الرياسة فلها أيضاً فخارها ومقامها وهي عبارة عن القهر والاستيلاء حتى عددها بعض الناس في المحل الاول قبل الغنى لاعتبارات كثيرة كما عددها غيرهم لاعتبارات أخرى في الدرجة الثانية اذ كم من ذى سلطة لا كفاءة فيه ولا محبة في قلوب مرؤوسيه له وهو اذا سقط عادت اليه مساويه وما يستحقه من انزلة الحرية به ولكن قل في الناس ممن يعشق السلطة من ياتفت الى هذا فهم لذلك يسعون اليها ويفخرون بألقابها الضخمة ولو كانوا على صفات يضحك الناس عليهم من أجلها وليس هذا بقادح في الرجال رجال السلطة من ذوى الكناء والمقدرة فهم خدمة الامم خدمة الانسانية متى ما غلبت عليهم صفاتها الرئيسة من معرفة الحق والواجب وهنا تعرف فضل مرتبة الكفاءة وان كانت الكفاءة مطلوبة بمحد ذاتها وأنها ذاهبة في الحياة

كل مذهب وممدوحة على كل حال فالعلماء العاملون والسياسيون المخنكون والشعراء المفلقون والكتاب المبرزون كل هؤلاء جردوا من السلطة أو أعطوها فان لهم عند الله والناس منزلة أتم بها من منزلة ومقام أكرم به من مقام فمما تقدم يعلم ان الناس وان تساوا في الحلقة وأمام الخالق والشرائع فقد يختلفون في المراتب والمقامات بالاسباب المختلفة بقي ان ننظر في أمر المهنة والتربية : فمن حيث المهن والمحترفات نشاهد أنها تختلف وان منها ما يتزاحم عليه الناس إما لرفعة مقامها أو لما تعطى من الراحة أو الثروة أو الفخار فمن هذه المهن المهن الحرة كخدمة الحكومة أو القضاء أو المحاماة أو الطب أو التعليم أو الجندية فهذه المهن أو الوظائف قد ترغب النفوس فيها كثيراً ولكثرة الراغبين قد يشاهد لها كثير من الضحايا الذين أعوزهم العمل وتخطاهم الحظ ولو فكر أهل الهيئة وعمت الافكار الصحيحة لما وجدنا غضاضة البتة في جعل أولادنا من الصناع والزراع والتجار ولما وجد بيننا جيش من المستخدمين وجيش من المحامين وجيش من الاطباء الي اشباه ذلك بل لوجد كثير من العمال العاملين اصحاب المعامل والتجارات والمزارع والفايريات النافقة الصناعة واني لا اقدح بذلك في فضل تلك المهن الحرة النافعة وإنما ألوم كثرة التزاحم عليها

أما التربية فليست فقط ما ينحصر في تعلم العلم وانما هي « مجموع أحوال ذلك الرجل » المتشقق المتأدب الذي يرى الناس اخوانا ويعاملهم بالحسنى واللطف والظرف ويعرف كيف يترفع عن الدنيا والسفاسف بلا تكلف ولا تأق . ولقد بدأ يجمع الناس على ما يحسن من الآداب بواسطة ناموس علم سيدسود

مع الزمن فتبتل به التكاليف والتأتقات الكاذبة في السلوك وان التربية الحديثة لتعود الناس على اسمي المبادئ وأعظم القواعد في السلوك وان الامم بأدابها وتربيتها وأخلاقها تلك حقائق راهنة تؤيدها المشاهدات

« وهناك فوق تلك المراتب الاصلية المحسوسة الحيثية الاعتبارية أي الشهرة التي يستمددها المرء من الرأي العام بالنسبة اليه في مهنته وسلوكه وهذه قد تشاهد مجسمة في الاعمال الادبية وغير الادبية وبالجملة فكل له مادح وقادح وسعيد من يحوز اكثرية المدح والثناء من الرأي العام ومبحث الشهرة والغرور بها والاعجاب بالنفس الي اشباه ذلك لما يطول شرحه وقد ترونه حضراتكم مجسما في أحوال هذا المجتمع المصري الذي بدأ يتحرك الي الامام حركة مباركة طيبة ان شاء الله تعالى

« ولندخل الآن في البحث في العالم والهيئة الاجتماعية من وجهة اقرب أعني من حيث مجموع مسراته وأحوال معاشراته فالعالم عبارة عن جمعية تعاون ويلتصق اعضاؤها بعضهم ببعض لتسر وتغبط بالمحاضرات والمسامرات والمعاشرات، الاحتفالات ولكن تختلف الاحوال باختلاف العادات في الامم ففي أوروبا يختلط الرجال بالنساء وفي بلادنا الاسلامية لا يختلط الجنس الا بجنسه الا ما كان مما تجيزه الشرائع ومهما قال الافرنج وعابوا علينا ذلك فان له محاسن كما لعاداتهم مساوىء . . . على أي كما ترون أيها الاصدقاء قد أخذت بالعادتين لان تم اسباباً تحملي على ذلك وأراكم تعرفونها من موقفي هذا بينكم . . . » فالعالم بهذا الاعتبار نتيجة مجهودات كثيرة بذلت للوصول الى الحضارة والمدنية وبذلك ترقى الاحساسات والعواطف والاذواق في المخالطات

والمحادثات وآداب السلوك وافاد ذلك العقول كثيراً ولكن لكل شيء حداً
فالتوغل فيه والتغالى كالاهمال له والنأي عنه مذمومان والاول صفة ملازمة
للشباب والثاني صفة لأولئك الذين سئموا العالم أو تشاءموا منه وكل له
عيوبه وخير الامور الوسط ، ان للمعاشرة والاختلاط لذة وان للاعمال محاسن
فلنأخذ بأحسن الاشياء ولنتعلم باكرم الصفات في العالم والهيئة الاجتماعية «
ثم سكنت الاميرة يراعة وشخصت ببصرها نحو الباب فدخل منه
شاب طويل القامة وسيم الخلقه تلوح عليه ملامح الذكاء والنجابة فصرخت الاميرة
— عقيل بك ! أهلا بك يا ابن أختي ومرحباً . ونزلت اليه فتعانقا
طويلا ونحن ننظر اليهما فالتفتت الأميرة عند ذلك اليها وهي تقول :

— أيها الأصدقاء هذا ابن أختي السيدة « حكمة » وكان قد أرسل
اليّ يخبرني بقدمه الى مصر لزيارتي والمقام معي ولكنني ما كنت أعلم أن هذا
اليوم يكون يوم مقدمه فليسمح لي ساداتي بان أقدمه لهم واعرفه بكم ليحصل
له الشرف بالتعارف بكم أيا صفوة بني مصر وأساطين نهضتها الجديدة
فقمنا جميعا الى ذلك الشاب الوسيم عقيل بك فقدمته الأميرة اليها بوجه
طلق وصاحنا واحداً واحداً وهو يقول :

— لي الشرف أيها الكرام بالتعارف يحضراتكم
فقلنا — ونحن أيضاً نسر كثيراً بمعرفة ابن أخت صديقتنا واستاذتنا
فتبسمت الاميرة يراعة عند سماعها هذا الجواب منا وعلت أسارير وجهها
العظمة والبهاء ثم قالت

— أيها السادة لم يبق من محاضراتنا سوى اثنتين واحدة سألقيا عليكم

يوم السبت القادم ان شاء الله تعالى والاخرى يوم الاحد بعده وقد عزمت
كما تعلمون على السفر الى الصعيد لزيارة آثاره أي آثار اجدادنا العظيمة وقد
استأجرت « ذهبية » لذلك تسعنا جميعاً فهل تكرر مون بمرافقتي في هذه
السفرة كما دعوتكم لها مرة أخرى ؟

فقلت — اما أنا فأود ذلك من صميم فؤادي لولا بعض اشغال تمنعني
فهذا التمس من سيدي العذر والصفح على أي بانتظار رسائلي فلا تقطعها
عني حتى تعود من سياحتها بالسلامة وتقوم بما وعدت به من وعدت . . .
واعذر كذلك باقى الرفقة بسبب الاعمال والاشغال

فقلت الاميرة وعلامات الاسف بادية على محياها الجميل :

— اذاً أسافر مع ابن أختي عقيل بك وهو ما جاء مصر الالمثل تلك

الغاية ثم دنت مني وهمست في أذني قائلة :

أني آتية الى السيدة قرينتك بعيد عصر اليوم لارد لها الزيارة وسأستأذنها

في أمر اطلب معونتك فيه فهل أنت معيني عليها ؟

قلت — وما هو أيتها الاميرة ؟

قالت بلهف — هو ان استصحب معي كريمتك الآنسة سنية فاني أراها خير

رفيق في السفر وفي كريمتك ذكاء وعقل وقد تقيدها هذه السياحة فائدة جلي

وستكون معي باهنأ عيش حتى أردنها اليكما كما أخذتها لا تضحك يا صديقي فأنت

يمكنك ان تسهل الامر على والدتها وما الصعيد بالسفر البعيد ولا الشاق وان

ذهيبتى لمستكملة كل اسباب الراحة ولن يكون معنا غير ابن أختي عقيل وهذا

الشاب قد جمع صفاتا لا اخطيء اذا قلت أنها قل ان توجد في مثله من شبان اليوم

أدباً وكلاماً

فاجبت الاميرة بأني سأنظر في هذا الامر وسأبذل جهدي في مرضاتها
ثم قبلت يدها وصاغت ابن أختها وخرجت فوجدت ذلك الرفيق الذي
كنت اركبته في الصباح معي ووعدته بارجاعه الي داره قدسبقتني الى المركبة
فركبت الى جنبه وساق بنا الحوذى .

— ❖ ١٦ ❖ —

في السيناتوغراف

وصلت دارى بعيد الظهر فرأيت قرينتى وابنتى قد أعدا كل شىء
لاستقبال الاميرة ورتبا غرفة الاستقبال أحسن ترتيب وهما بانتظارى حين
وقعت عيناهما علىّ قالتا بالشغف :

— متى تقدم الاميرة ؟

— الساعة الرابعة من مساء اليوم ولكن أين فتحي أنى قد جعت فهل

أعدتما الغداء ؟

فقالت قرينتى — نيم وها هو ذا فتحي يخلع ثيابه

فدخلنا غرفة الطعام حيث أكلنا وبعد الفراغ منه لزمت غرفتى وذهبت

قرينتى وابنتى ليلبسا ملابسهما استعداداً لاستقبال الاميرة وهمّ فتحي ليخرج

الى بعض رفقاته ليذهبوا معاً للرياضة فى « واحة عين شمس » فذكرته

بمجيء الاميرة يراعة اليوم فخرج الى اصدقائه واعتذر اليهم ثم عاد ولزم الدار

منتظراً وأخته بالجذل والفرح قدوم الاميرة براعة
وفي الساعة الرابعة تماماً أقبلت الاميرة في سيارتها الجميلة فنزلنا جميعاً
لاستقبالها وكان معها ابن أختها عقيل بك فعانقت قرينتي وابنتي وصاحبتها وابن
أختها ثم صعدنا الى أعلى الدار وابنتي وابني وامهما في غاية السرور والابتهاج
وكذلك الاميرة وابن أختها عقيل بك وبعد تناول المرطبات والقهوة لبثنا
في السمر الى قرب العشاء وكانت امرأتي قد أمرت باعداد العشاء طبقاً
لعاداتنا الشرقية فلما هممت الاميرة بالانصراف قالت قرينتي وماء البشري تدفني
في وجهها

— لا أيتها الحبيبة بل لا بد من تناول طعامنا كما تناولنا طعامك وانك
لتزيدين سرورتنا وفرحنا ببقائك معنا لتلك الغاية
فقات الاميرة وهي ضاحكة السن :

— على شرط انا بعد العشاء نذهب الي مشاهدة السينما توغراف أي
الصور المتحركة ومعني ولدك وزوجك أما انت فان شئت البقاء فلا بأس
فقات امرأتي :

— قبلت شرطك أيتها الاميرة ثم ألتفتت اليّ وهي تقول — أليس
كذلك يا عزيزي ؟

قلت — نعم وبكل ارتياح اذهب وولداي مع الاميرة على ان في
السينما توغراف مناظر فيها العبرة والموعظة الحسنة وهي أشبه شئ بخيال الظل
بل هي أرقى منه وأقرب الى فن التمثيل الحقيقي والتشخيص ذلك الثمن الجليل
الجميل الذي يعزى اليه شطر من الفضل في ترقية المدارك وتهذيب الاخلاق.

فقلت الاميرة يراعة — هو كما قلت أيها الصديق ولقد وضعت انا بمساعدة أختي حكمة عدداً من الراويات التمثيلية فراجت رواجاً عظيماً في الغرب ولكنني آسف ان لم اشاهد في مصر من يعنى بمثل هذه الفنون الجميلة ومن يعنى بذلك فانما يعمد الى الروايات الاجنبية فيعربها أما في مصر حياة أي حوادث يمكن جعلها موضوعاً للتمثيل ويكون فيها العبرة ؟

قلت — الحوادث كثيرة ولكن الكسل والوكال أمران مشهوران في عالمنا المصرى والا لما ظلت مدارسنا القديمة كما قلت أنت ولاحظت به تدرس الكتب العتيقة حتى الآن ولا يعنى كبار العلماء والاساتذة بوضع الكتب للدراسة من عند انفسهم وبالاساليب الجديدة .

ثم قمنا الى العشاء وكانت قرينتي والاميرة يراعة تمشيان أمامنا وفتحى وعقيل قد تلازما خلفهما وأنا وابنتي سنية في آخر القوم دخولا الى غرفة الطعام ولقد كانت المائدة على النظام المصرى مع شئ من التحسين في الترتيب فبعد ان أكلنا هنيئاً وشربنا الماء القراح والقهوة والارطبات مريئاً أمرت الاميرة باعداد سيارتها فركبناها بعد ان ودعت امرأتى الاميرة الى السلم وقد صارتا من الصداقة بما لا يمكنى وصفه ولا غرو فللنساء مع بعضهن عواطف ومجاملات لا تدركها عقول الرجال أو لا تقدر ان تأتي بافضل منها .

وصلنا واحة عين شمس أو مصر الجديدة في نصف ساعة وهناك نزلنا من السيارة ودخلنا مكاناً معدداً في أحد ملاعبها للسينماتوغراف ويسمح لى القارئ ان أصف له فصلاً من فصوله أثر في منظره كثيراً وهو يدل على ان الانسان اذا اغرق في حب لعبة من اللعب من مثل النرد أو الورق أو

الشطرنج فقد تأخذ بلبه لدرجة تصرفه عن أعماله أو تتناهب بها المصائب وهو مع ذلك لاه غارق في غوايته

وهذا الفصل الذي أثر فيي كما أثر في كل المتفرجين إنما هو فصل عن لعبة الشطرنج بين اثنين اذ ظهر لنا اثنان أمامهما رقعة الشطرنج وهما منكبان عليهما يلعبان ويحسبان ولا يحولان نظرهما عن الرقعة ولا يلتفتان الى ما حولهما أو الى من يدخل عليهما الغرفة لانشغالهما باللعب لاحتراز الغلب ثم دخلت عليهما الخادم وأعدت لهما طعاما على مائدة ودعتهما بالإشارة ان « ها هو ذا الطعام فتنضلاً كلاً » فلم يعرفها الرجلان أدنى التفاتة فخرجت الخادم وظلا يلعبان وكان معهما في الغرفة كلب فظفق يبصص لهما ويحرك ذنبه كأنه يقول « ها جاء الطعام فكلا وأطعماني » ولكنه لما أعيته الخيلة في تبنيهما وصرهما عن رقعة الشطرنج ورأى أنهما كهما تقدم الى الطعام بمجاش رابط فالتهم كل ما على المائدة منه ثم تمطع وثأب وربض مكانه كأنه يهزأ بهما ويسخر من عقليهما فضحك كل الحضور من هذا المنظر ثم دخلت الخادم فلما شاهدت الصحاف فارغة تحقق لها ان صاحبيها أكلوا فرفعت المائدة وهما لا يلتفتان اليها. ودخل عليها بعد برهة « لص » فجعل ينظر اليهما طويلا واذ رآهما كالصم لاحتراك بهما تجاسر فجمع ما في الغرفة من ثمين المتاع ووضعها في صرة له حتي جمع شيئاً كثيراً مما غلاته وخف حمله كل هذا وهما ساهيان لاهيان عنه ثم تقدم اليهما وخطف من فم احدهما سيجارته المشعلة فلم يتحرك صاحبهما ولا زميله فظفق اللص يدخنها وهو ينظر اليهما ويضحك عليهما مطمئناً ثم أنه بعد ان دخنها طرح عتيها على الارض وأخذ صرته ونصرف بإسلام وانتمرجون

في غاية الدهش والنعجب من أهمك ذينك اللاعين المفتونين على ان تلك
السيجارة التي القاها اللص مشعلة جعلت تحرق بساط الغرفة حتي أحدثت
في النهاية حريقاً هائلاً علا دخانه فشعر به كل من كان بالدار غير صاحبينا
فأتوا ليطفئوه وصاحبانا لا يتحرك حتي جاء رجل من عمال المطافيء وصوب
اليهما خرطوم الماء فنحر كاحينئذ ولكنهما لم يشآ إضاءة ماوصلا اليه في لعبهما
فمسكا بالرقعة بين يديهما باحتراس شديد وخرجا بها من الغرفة الى شاطئ نهر
هناك وجلسا يلعبان فزلت قدم احدهما فسقط في الماء الى وسطه ولكن ما قول
القارئ الكريم أنه لئن كان قد وصل الى تلك الحال من الغرق فقد مد
اصبعه أيضاً الى ناحية الرقعة يشير الي خصمه « انى اتل هنا الفيل . . . وهنا
الرخ . . . » مما أطار لب المتفرجين وجعلهم يغرّبون في الضحك على ما يصل
اليه جنون أولئك الغواة اللاعين وهو سهم . . .

فيرى القارئ من هذا الفصل الذي يرينا أمثاله السينماوغراف درساً
منيفاً في أخلاق أولئك المتدينين وحين خرجنا وركبنا السيارة للعودة
سألني ابني فتحي وهو انما يقصد ان تجيبه الاميرة :

— هل يبلغ الانسان من غواية الاشياء الي هذا الحد حقيقة ؟ هذا
جنون فتبسمت الاميرة براعة وقالت :

— أعلم يا بني أن المدينة الفاسدة بعاداتها الشائنة قد تصل بالعقول الي
أبعد من ذلك أنظر الي هؤلاء الجالسين على المقهاوى والمجتمعين حول موائد
الحانات وهم يلعبون النرد والشطرنج والورق ويتعاطون الخمر فرحون جدلون
بهذه المجالس لرغبتهم فيها وتلذذهم بها مع أنك لو نقبت عن الحقيقة لرأيت في

هذا كثيراً من الشر من الوجوه المائلة والادبية واني بالحقيقة لكأولئك الافرنج
الذين يعيرون على المصريين كثرة غوايتهم ومحبتهم الجلوس هذه المجالس في
القهوات والحانات وعلى قارعة الطرق ليلاً ونهاراً تاركين بيوتهم وانديتهم بل
اعمالهم مع ان في هذا من الابتذال والمهانة وسماع مساوى الاسواق والغوغاء
ما فيه فضلاً عن التلطح بالاثام وارتكاب المحرمات وان خير المجالس لهي
الجلوس إما في البيوت وقضاء الاوقات في العائلات أو في الاندية على الطريقة
الانكليزية الجديدة أو الخروج للرياضة في الغياض والرياض وعلى شواطئ
النيل أو ركوب متنه في القوارب أو ركوب الخيل الى أشباه ذلك ولقد
كان في مصر الى عهد قريب عادة حسنة وهي اجتماع الاصدقاء لقضاء
السهرات عند بعضهم البعض في السمر والمطالعة أو اللعب اللطيف أو سماع
بعض آلات الطرب مما لا يعدصرف الوقت فيه الا من حق النفس أما هذا
التهافت على الشرور والضلالات واضاعة الاموال في الشهوات الكاذبة فهذا
وبال في وبال وهذه الرواية السينماتوغرافية التي شاهدناها هذه الملية لتدل
على ذلك أكبر دلالة فهي تدل على ان الانسان اذا هوى شيئاً أذهب لبه
وأضاع رشده وقتله في النهاية وأغرقه في بحار عظيمة وهو مع ذلك لا يرتدع
ولا يترجر وسبحان مفرق العقول ومقسم الحظوظ «

كانت الاميرة تتكلم وفتحى كله أعين تنظر اليها وآذان تسمع لها وكأنه
ما سمع في عمره ولا من اساتذته مثل هذا الكلام أو الدرس الاخلاقي النافع
وكانت ابنتى سنية مطرقة حياء تلعب بافكارها خواطر كثيرة ولقد كان
النقى عقيل بك جالساً الى جنب السائق وقد أبرقت أسرته مما يسمعه من

حديث خالته الاميرة يراعة وحين وصلنا الى دارنا نزل عميل بك وترجل السائق
 ففتح لنا فنزلت ونزل ولداي فمدت الينا الاميرة يدها مسامة علينا وصاحفنا
 كذلك عميل بك ثم ركب الي جنب الاميرة وعادا الي دارهما وحين لقي فتحي
 وسنية أمهما عاتقاها وطفقا يقصان عليها ما شاهدناه من لاعبي الشطرنج في
 السينما توغراف ثم ما قالته « الفيلسوفة » أي الاميرة يراعة لهما في الطريق
 ثم جعلت وقرينتي نفكر ونتكلم فيما ترغب الاميرة من أخذ ابنتنا سنية معها
 في سياحتها الي الصعيد



﴿ محاضرات الاميرة يراعة ﴾

السعادة في المجتمع الحالي

ظلت يوم الجمعة بداري وقد وافقت زوجتي على سفر ابنتنا سنية مع
 الاميرة للسياحة ولما سمعت سنية بذلك سررت به سرورا عظيما وصارت
 لا تحدث مربيتها ولا خادماتنا الا به أما فتحي فأغتم لذلك وجعل يسكب
 العبرات على حرمانه من هذه « الرياضة الجميلة » ولكني وأمه تغلبنا على فكره
 واقنعناه بأن المدرسة أفضل له الآن وقد تحصل على الشهادة الابتدائية ولم
 يبق عليه لنوال الشهادة الثانوية غير أشهر قليلة فلا معنى اذاً لضياح هذا الفخار

والشرف العظيم وهو خير له اليوم من العالم وما فيه وأن أمامه لتسعاً من الزمان حين يكبر فيسيح كما شاء فاصاخ لنا وأنصاع مر تاحا .

وفي صبيحة السبت خرجت الي دار الاميرة مبكراً كعادتي لسماع محاضرتها العاشرة فجئت كرسى وجلست فيه بعد ان سلمت على اصدقائي ثم دخلت الاميرة وخلفها ابن أختها ووجهها يتلأأ بشراً فحيت الجميع أحسن تحية ثم علت منبر الخطابة وطفقت تسمعنا هذه الدرر الغوالي :

« أيها السادة :

« تكلمت في المحاضرة السابقة على الهيئة الاجتماعية والعالم وعلاقة الانسان بهما من الوجهة الادبية ولا أعطف الآن على السعادة في العالم الخالي وبم ينظر اليها أهله وهذا يقتضى المقام فيه بسط آراء أوسع وافكاراً أعم مما سبق ، مضى على الناس حين من الدهر والرؤساء يقولون للناس بالترام جانب الادب والطاعة للتقاليد التي عليها المجتمع الذي نظمه الخالق وجعل أولئك الرؤساء رعاة له قيمين عليه ولكن الامم سئمت تلك الرعاية والوصاية مما حاق بها من الضيم فكسرت القيود وعصت الرؤساء لتحول من حال الى حال أرقى . وهذا العصيان وان أمحى عليه الادب فقد جاء في كثير من الاحوال بالفوائد والضمانات في تحسين النظام الاجتماعى وهل ترون برهانا محسوساً أقرب مما قامت به الثورات في الامم الراقية وما جاء به هذا الانقلاب العثماني الذي قام بالامس ؟ فقواعد الرقى قاضية بتغير المنظمات سواء بتلك الوسائط القسرية أو غيرها حتى أضحي النظام في التاريخ بفضل ما قامت به الامم صنفين قديماً وحديثاً وللهيئة الاجتماعية ذكرى في الماضى وأمل في المستقبل تلك هي أفكار العالم

الآن فتنة ترى ان القديم ما كان أحسنه وقتة ترى في المستقبل آمالا كباراً
ترى اليها وتصوب نحوها بتهيئة النفوس لها والكل يرى مع ذلك الحاضر
بالسوء ، حجة الاولين ان النظام القديم كان ينحصر في سيد ومسود أو قوى
وضيف وان القوى كان يعطف على الضيف ويعينه لينتفع به والضعيف يلجأ
لي القوى بالحاجة كما يحتاج الطفل الى عناية والديه والمرأة الى مساعدة زوجها
وحمايته ولكن لهذا النظام عيوباً كثيرة والا لما قامت عليه قيامة الامم ونبذته
نبد النواة وبدل ما كان الامر للسيادة صار الشأن للحقوق والواجبات التي
أوجدتها الثورة الفرنسية وقررها الاسلام من قبل ضمن قواعده وان خالفها
مجريات حوادث أهله فالنظام الحديث يرجع الى تقوية الحرية الشخصية بالقدر
اللازم في كنف النظام العام وحمايته والانسان بمقتضى هذا حر في عمله وحالته
ومسؤول أمام نفسه ضمن تلك الدائرة التي حددها له ذلك النظام وان المساعدة
المطلوبة في التضامن ترجع في مثل الاحوال الطبيعية الى حماية الوالدين لأولادهم
ومديد المساعدة من افراد الهيئة للمحتاجين من بينها بما فرض عليهم من مثل الزكاة
والصدقات وبذلك يتم التضامن والمساعدة في الهيئة بلامساس بالحرية الشخصية
يبد ان من يعيب هذا النظام حباً بالقديم يرون ان الحرية أساءت الى القوى
وأضاعت الضيف وأضرت به ويشرحون ذلك شرحاً لا حاجة بنا اليه

«أما الذين يعيبون النظام الحاضر طمعاً في نظام أرقى من الموجود فيرون
ان النظام الحالي مجحف بحقوق الضيف أيضاً لانه قد رخص بان يستأثر
البعض بالغنى والثروة ويعتبط بذلك ويتم به والبعض يزرع تحت اقبال الفقر
والشقاء فمن اللازم والحالة هذه توزيع الثروة واشترك العاملين فيها بقدر ما

اعانوا على ايجادها وتكوينها فأهل العالم الحاضر اذاً متألمون منه وغير راضين عنه البعض يتحسر على القديم والبعض يتنى عصراً جديداً

« أيها السادة اننا لا نناقش من يتنى العودة الي القديم لان العالم في ترق مستمر وما يتمونه منه انما ينظرون فيه الي محاسنه فكأنه في الحقيقة طلب للرقى بتمتضي تصورات جديدة . أما أولئك الذين يريدون نظاماً جديداً أرقى من النظام الحالي ويشرحون مبادئهم الاشتراكية شرحاً مؤسسا على قواعد وعمليات حسابية تقرب من الصواب حتى عمت آراؤهم أهل الخافقين فهؤلاء أيها السادة من يجب تصحيح خطأهم فان ما يطلبون « من سيادة الجماعات أو حماية الكافة » قل أن تصح أحلامهم فيه من الوجهة العملية الا بما فيه مراعاة مصلحة الفرد والافسدت الاحوال وتعطل الذكاء الانساني وأعتمد كل على تلك الحماية حماية الكافة وفسدت الاعمال على أيسر سبيل ألتسم من رائى أيها السادة ؟ ألتسم ترون ذلك أم انتم من تلك الشيعة فكل حر في رأيه ومبادئه ولكل وجهة هو مولياها ؟

فأجاب بعض الافاضل من الحضور وهو من المطربشين

— اني من تلك الشيعة ولا غضاضة فيها بل هي عدل صرف ولا تخالف الادب

فقالت الاميرة :

— كلا ان في مبادئكم ما يعبت بالحرية الشخصية ويضيق على الذكاء الانساني الخناق ويخالف الادب لانها تضحى المنفعة الذاتية في سبيل مصلحة الجماعة وتمنع الانسان من الاعتماد على عمله ومسؤوليته واجتناء ثمرته والتعلق باهداب أمل فاسد والركون الي الدعة دون الجهاد الصحيح والحياة كلها جهاد

ولا يمكن ان تكون غير ذلك ولا يمكن ان تكون ثم حرية والحرية عماد الرقي ، فالسعادة المنشودة لكم أيها الاشرافيون مبنية على ان لا سعادة الا في غبطة العيش والدعة ووظيفة الانسان في العالم غير ذلك أي عمادها الكدح والعمل الذاتي رجاء الاستئثار بثمراته دون منازع الابحفة فتحقيق تلك الغبطة للمجموع بما تذهبون اليه من العبت بالملكية مهما كانت أصولها لا يأتي الا بالعكس في اعتقادي وانما يأتي بالغبطة المطلوبة على نوع ما — لانه لا غبطة حقيقية في هذا العالم عالم الشقاء والحنة — الا اعمال القوي بالحرية والكدح العظيم في الارض أما تصور نيل السعادة بلا عناء ولا وصب ولا صراع ولا صدام للشدائد والحن فهذا في اعتقادي محض كذب تريدون ان تحلوننا الجنة ونحن في دار القتة ؟ أترغبون ان تكونوا في دار النعيم ونحن في دار الشقاء ؟ هذا غرور ، هذا غش وخداع وخروج بالانسانية عن نصيبها الطبيعي ان العصر الذهبي لن يوجد في المستقبل على تلك الصورة كما أنه لم يوجد في الماضي على ما يتصوره عاشقو القديم أنه غير موجود في هذا العالم وان يوجد فيه قط . نعم لئن كان يوجد في النظام الاجتماعي الحالي أمور تقتضي الاصلاح والتحسين فهذا سنن مطردة في رقي الانسان وتنمية قواه ولنا جميعاً الحق في الاستعانة على تحوير النظام من هذه الوجة طلباً للرقي ولكن تغيير الاساسات والشرائط الاولى في بناء نظام الجمعية البشرية على الوجه ائتمنى للاشرافيون وغلاشهم فهذا ليس بالامر السهل — وان سهل عليهم تجربة اشياء صحيحة منه — بل ليس هو من مصلحة أفراده وجماعاته فأطلبوا أيها الاشرافيون لا صلاح حال الانسانية وارتقامها غير هذه المبادئ الخيالية ،

اطلبوا لها الارتقاء بما لا يخرج عن الناموس الطبيعي وقواعده العامة ونبذ هذه البدع الخيالية .

« ولعلكم تطالبوني بان اشرح لكم سبل ذلك وبعبارة أخرى ازاين لكم « سلفاً » ما هي شروط نظام المجتمع العتيد فاقول : يجب أولاً الابتعاد عن اخیال أي الفروض الوهمية بل ينبغي للمجتمع ان يشيد مستقبله على الامور الصحيحة الثابتة المطابقة للناموس الطبيعي أي سنة الله في خلقه في الارتقاء وتنمية القوى واستخدامها بهذه الوسيلة تنشأ اجيال من الناس والذراري كاملة الصفات تقرب من السعادة البشرية المنشودة بقدر ما تسمح لها به هذه الحياة الدنيا هذا نخر الجمعية البشرية العتيدة ولكن هذا لن يكون أولن يتوفر الا بتوفر جودة النظام والعدل والمحافظة على الحرية الشخصية والعمل الذاتي أما تلكم الطرائق في الركون على « الهيئة الاجتماعية » فقل ان يأتي بشيء من ذلك البتة مهما قيل عن الدفاع فيه عن الفرد بموجب ذلك النظام الاشتراكي ونوال كل ذي حق حقه . وهل تعطى النفس النشاط الذاتي اذا رأت تقيدها أو ان عملها وتعبها ستصرف ثماره للغير ؟ كلا ثم كلا ان الهيئة الاجتماعية الحالية لن تنال سعادتها الا اذا ترقت في قواها الذاتية افرادها وتهذبت نفوسهم وعظمت مجهوداتهم بهذا تتوفر لها السعادة والراحة والسلام في الارض نعم في بعض ما يبدي المجددون السوسيا ليست حقائق مما يعاب به على النظام الحاضر ووسائل علاج حرية بالاعتبار وربما اعانت على الخير في المجتمع لكن لغلاتهم تهورات وبدعا قد تخرج بالانسانية الى مستوى الفوضى ثم حدثت الاميرة بصرها في صاحبنا الذي يتحلل ذلك المذهب الاشتراكي

المعتدل وقالت له :

— وأنت يا سيدي الفاضل الى أى المذاهب تنتسب ؟

فقال صديقنا وهو يتسم

— أنتى من محبي السلام فى الارض

فقلت الاميرة : — وأنا أيضاً منهم وطوبى لصانعي السلام فى الارض

ثم قامت من على كرسيها وقتنا ثم ودعناها وانصرفنا وقد التف

جمعنا حول صديقنا الاشتراكي فقال له بعضنا ممازحا

— منذ كم أنت اشتراكي يا صديقي ؟

فقال — وهل فى ذلك عيب ؟ أننا نعاشر هؤلاء الاوربين ونقرأ صحفهم

وكتبهم وقد اعجبني مذهبهم هذا الجديد فانتحلته ولا أراه الا قريباً من النظام

الاسلامى لا تعجبوا ايها الاخوان انى كنت أود ان أرد على الاميرة وادحض

اقوالها وأراءها ولكنى رأيتها قد عطفت فى آخر محاضرتها الجميلة علينا

ومدحت المعتدلين من الاشتراكيين ومبادئهم وأنا منهم ولولا ذلك لطل

ببنى وبينها الجدال حتى كنت انتصف لشيعة تلك الشيعة التى لا تريد الا تقوية

الحرية العملية من جهة والانتصاف من جهة أخرى للطوائف العاملة بالمقدار

المناسب حتى لا يمتاز رأس المال بالسلطة ويستأثر بالخيرات وهو لا يعمل الا

فى الدرجة الثانية ثم هي ترمي الى نشر السلام بين الشعوب وإبطال الحروب

من بين الامم

فقلنا جميعاً وقد احدثنا حبنا فى كلامه ونحن نضحك بملء اشد اقلنا :

— آمين .



﴿ محاضرات الاميرة يراعة ﴾

نعيم الحياة وشقاؤها

هاك هي محاضرة الاميرة يراعة الاخيرة التي حاضرنا بها قبل سفرها الى الصعيد ومعها ابنتي مما سأقصه عليك بعد قالت :

« ساداتي : ان للحياة نعيماً كما فيها بؤس وشقاء واكدار واحزان وان ذلك منها ليختلف بحسب الاحوال والاعمار ثم النظر الى جمال العالم الذي يشغله الانسان هنا وفيما وراء هذا العالم ولقد سمعتم في محاضراتي السابقة شيئاً مما يعشى الحياة الانسانية من حيث السعادة والخيال والشهوات والفكر الى آخر ما مر فليسمح لي الآن بان أنظر الى الحياة من وجهة أخرى فلسفية دينية أي إلهية صالحة لكل اصحاب الاديان السماوية لان الانسان في اعتقادهم مخلوق خالق عظيم ونفسه متعلقة بافتها فاذا كان أول حديث له في العالم صراخا فان نفسه وجوارحه ومعالجه لتسبح وتقدس وتشكر خالقه العظيم تعالي وروحه تزرع وتمن الي معدنها حين الفيصل الى أمه وتمزن وتشكو من هذه الحياة الدنيا يتساوى في ذلك الغنى والفقير والعظيم والحقير

ان أول شيء يستوقف نظر المعجب بالحياة جمال « المرشح » الذي وجد عليه الناس أغنى العالم وما يحيط بهم منه ليلعب كل دوره وينكم صديقنا المفضل الشيخ طن . . . فانه من أولئك المغرمين بذلك الجمال والنظام البديع

فتغنى بهما في مؤلفاته متبعاً خطى من سلفه من حكماء الشرق والغرب وبالْحَقِيقَة
فان هؤلاء الحكماء معذورون في افتنائهم بحمالة فان للعالم جمالا مدهشاً كل
ما فيه يروق العيون ويشوق النفوس ويطربها ويدل على حكمة الصانع وقد
ملا القرآن المجيد بالادلال على تلك الآيات في الارض والسموات ، في منافع
الارض والسحاب والجمال والسبل والشمس والقمر والنجوم والزرع والضرع
والبحر والبر فالانسان في هذا البيت الذي سقفه السماء المرفوعة بلا عمد وساحته
الارض متمتع باجل الخيرات واعظم النعم واشاهد ومواد الارزاق التي اعانته
الطبيعة على تحويلها الى منفعة ثم هو متمتع فضلا عن ذلك بعشرة بني جنسه وقد
مدله في الخيال والفكر والعواطف فهو قد وجد ليعيش وأعين على ذلك بما
لا يقوم بشكره ثم ان هناك في الحياة تلك التغيرات من الصحة والمرض والنجاح
والنشل والسفر والاقامة وتحول العمر والارتباطات والمعاشرات والاكدار
والافراح الى غير ذلك من الاحوال مما جعل لهذا الانسان تاريخاً في الارض
وآثاراً دون غيره من جنس الحيوان الذي يساق الي تأدية حياته بالسلايق
فمجرى الحياة البشرية على الارض يشبه سلسلة أو ماء نهر جار يمتلىء ويجرى
ثم هو يتدفق ويصب في المحيط بموت اشخاصه جيلا بعد جيل والانسان
باحواله واجياله الباقية هو هو بالذكر والفكر وأما ما عداها فلا شيء

« يكبر الانسان فتحلوه ذكرى أيام الماضي والامل في المستقبل ولكل
عمر لذاته ومسراته وآماله وذكراه وتفصيل الاحوال في هذا الباب يطول
شرحها بين افراح الطفولة ومسررات الشباب وصحة نظر الكهولة وحكمة
الشيخ ومهما يكن من حال الحياة فانها ظل زائل بل العالم كله كأنه ظلال

سارية والخالق عز وجل تدل عليه عند ذوى البصائر . فمن ثم مالت النفوس نحو مبدعها مسوقة بيد الجاذبية والشوق لذلك المصدر الاسنى للحياة وهو الله سبحانه وتعالى عما يصفون له ما فى السموات والارض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم ، فالانسان ينبغى له ان يقدر تلك الذات العلية ويثني عليها بما هي أهله لما أزم عليه تعالى به من جلائل النعم الظاهرة والباطنة ، نعمة اليجاد ونعمة الرزق ونعمة النفس الناطقة والعقل المتفكر فذلك كانت النفس التي هي قبس من النور الالهى متعلقة أبداً بخالقها متشوقة الي مبدعها ، تلك النفس المخاطبة المكلفة بالعبادة والتقديس له تعالى والرهبه منه والخشية له . من آثار احزان الانبياء والاتقياء والمؤك والسوقة ومخاوفهم فى كل زمان ومكان فى الشرق والغرب وان جحدته تعالى طوائف أخر بغشيان الاوهام والرین على القلوب تعالى عما يصفون .

« كل الكائنات العضوية تموت ويلحقها الفناء ذلك ناموس ثابت وسنة لله مطردة ولكن يمكن ان نقول أيها السادة ان الانسان وحده هو الذي يعرف ما هو الموت وانه من المحتم عليه شرب كأس اللحم وذوق الموتة الاولى ولذلك يسائل نفسه بم يقضى هذه الحياة القصيرة الفانية المملوءة بالا كدار ، هل يقضى حياته ويعيش يوماً بيوم ؟ ان هذا ليس من وظيفة الانسان وانما هو شأن الحيوان الاعجم الذى لا يدرك اسرار تلك النهاية فذكر الموت اذاً يكدر صفو الحياة بل فتنه فينا يروعا ولو بلغنا أرذل العمر بما نفقده من الاخوان وتفارق بالموت كل حين من الاقرباء والانساب واققرار الديار أمام العميرين فالحياة الدنيا اذاً كلها تعب وكدر وبؤس وشقاء مما لا يجلبه علينا غير هذه

الحياة بمجرياتها من نعيم وبؤس وفرح واحزان .

« ولقد ارتأى بعضهم أنه ينبغي للانسان التسلى والتلهي عن تلکم الاكدار والاحزان وتصحيح الاحول بترقية الفكر وثقیف العقل بالعلوم والمعارف حتى تجد النفس فيها العصد والمعين على تقلبات الحوادث وهذا لا غبار عليه بل هذا أعده من أعظم التسلية في الحياة والمعين عليها ولكن أليس كلما ازداد الانسان علما ازدادت افكاره وهو اجسه وبالتالي احزانه ؟ بعكس الجاهل فقد تلذ له الحياة وتطيب بالجهل على ان لهذا الجهل أيضاً مصائب شرا من احزان العلم . وهناك فريق يرى صرف الحياة باللهو واللذات وهذا مهما يكن من نتائج المشؤومة فان له أيضاً حداً فهو كلما ازداد زاد صاحبه سامة وملا فضلاً عما فيه في النهاية من الاكدار والاضرار وصفوة القول ان الاكدار والاحزان التي تلحقنا في الحياة مصدرها النفس وشوقها وثوقها الي أمر اجل مما نحن فيه وان هذه الحياة ليست بما نحس به ونتألم منه بالحياة الصحيحة وان هناك ركناً وسنداً للنفس اذا هي لجأت اليه سرت عنها هموم هذا الحياة القانية بل لذت لها وحسن أملها في تلك الحياة الباقية وأعني بذلك الركن والسند الله تعالى وان حياة من ينكر تلك الذات القدسية انما تصرف أي تقضى حياة الانعام بل هي شر من ذلك .

ولعل قائلًا من أولئك المنكرين لتلك الذات العلية — ولا اخال أحدًا منكم منهم — يقول انا نقدر الانسانية فاقول ماهي تلکم الانسانية ؟ أليست ظلالاً تمر واشباحاً تكرر ثم تبتلعها بطن هذه الغبراء ؟ أو تترك في النفس أثراً كما يتركه ذلك الاعتقاد الكريم بخالق الانسانية ؟ وان قالوا الواجب قلنا

فليكن هذا الواجب ولكن ما الفائدة في القيام به ان لم يحركني له دافع أسمي مما يتوهمون وعامل نفسي أشرف مما يظنون ؟

« ومهما قلبنا مسألة الحياة في نعيمها وبؤسها وفرحها وترحها رأينا فيها سرّاً غامضاً ودافعاً سامياً قد لا يمكن التعبير عنه بأى من الاصطلاحات الاجتماعية فهذا الجزء من النفس يتعلق بافقه ويعتقد بخالفه وما أعد له من حياة أبدية وان الانسان مهما أعطى في هذه الدار فقد لا يرتاح له ويلذ به على التمام ما دامت تلك النفس التي تحس بانها في أسر وسجن تتوق الى الفكك منه ولقد ينتهي علم الفلسفة الى هذا الحد ولا يتعداه أما الدين فيفصل لأهله ويشرح ما وراء هذه الحياة وعلى كل فان الى ربك المنتهي واذا اعتقد الانسان أنه محاسب في آخرته وان حياة إما سعيدة أو شقية تنتظره بعد الموت لاجرم أنه يعمل ليحظى بتلك السعيدة وهذا كافٍ في زرع الخير والصلاح والتقوى ثم الامل ومدافعة الآلام والهموم وفي القرآن المجيد « ألا بذكر الله تطمئن القلوب »

« هذا ما أردت محاضرتكم به أيها الافاضل في هذه المحاضرة التي هي آخر محاضراتي على ما اشترطت فاذا كرروني بها ولا يفوتكم شرحها وبها وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ولقد تعلمون أيها السراة أي قدعولت على القاء محاضرات « عن المرأة » علي فضليات الاوانس والعقائل فهل لكم ان تشرّفوني بالتعارف بأسرّكم ؟

فلم يبق أحد في القاعة الا قال — نعم نعم أيتها الاميرة الجليلة وان شئت فمن الغد نسوق اليك نساءنا وبناتنا

فظهرت على وجه الاميرة علامات الارتياح فقالت :

— ولكنكم تعلمون أني علي وشك السفر يوم الجمعة القادم الى الصعيد
وسأغيب هناك نحو الاربعين يوماً ثم أعود الى القاهرة مملوءة نشاطاً للقيام
بهذا الواجب الا اذا اقعديني حر القاهرة والجائني الى تأخير محاضرات بنات
جنسى الي الشتاء القادم وعلى كل حال فاني شاكرة لكم احساساتكم وحسن
ظنكم بي وقائمة أيضاً بوعدى والوعد دين على الحر .
ثم قالت

— والآن أدعوكم للغداء معي في ذهيبتي يوم الاربعاء القادم فلا يتأخرن
أحد منكم عن هذا الميعاد

فأجاب المعمون والمطربشون من اصدقاء الاميرة بالاجاب ثم قننا على
هذا الموعد وفي نفسى اشياء من اختيار الاميرة أخذ ابنتي معها في هذه
السياحة ولما وصلت دارى جعلت زوجتى وابنتي تسألاني عن الاميرة كعادتهما
فقصصت عليهما ما سمعت وما رأيت واعلمتهما بدعوتنا الي ذهيبتها للغداء
يوم الاربعاء أى قبل السفر

فقالت زوجتى — أما أنت فستعدي وتتعشى أيضاً لانا سنبيت مع
الاميرة تاك الليلة لنودع ابنتنا فما رأيك قلت « رأيتي . . . أي والله لفي حيرة
وبودى ان لاتسافر سنية مع الاميرة بل تبقي معنا الى ان تعود الاميرة . .
فقالت زوجتى « وما العمل فيما وعدت به الاميرة من القبول » قلت « أي
استسمحها واعتذر اليها . . .

وكانت ابنتي سنية تسمع لحديثنا وتضني اليه باهتمام فلما وصلت الى هذا

الحد من كلامي جعلت تجهش بالبكاء فمزعت أمها وفزعت أنا لبكائها وقلنا لها بلسان واحد

— ما يبكيك يا بنية أفضلين السفر مع الاميرة دون البقاء معنا ريثما تحضر فندهين اليها لتسمعي مع أترابك محاضراتها النسوية؟

قلت — نعم أي ارجو كما ان لا تحرماني مشاهدة النيل والسياحة مع الاميرة براعة ذات البراعة

قلت — اني أخاف عليك

فقلت وهي تبسم — لا تخف

— ❧ ١٩ ❧ —

وليمتة الاميرة

ما وافت الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم الاربعاء حتي ركبت عرسي الى الجزيرة لدعوة الاميرة براعة وعند وصولي الى قرب مرسى السفن هناك رأيت مركبات اصدقاء الاميرة من المدعويين تنساب في شوارع تلك الارياض الجميلة تتلو بعضها بعضاً الى المرسى حيث يترجل اصحابها امام ذهبية الاميرة ثم يصعدون اليها الواحد إثر الآخر فدخلت معهم وتنقنا الاميرة وابن أختها كعادتها بالبشر والسرور واجلستنا على ظهر الذهبية على مقاعد جميلة مصنوعة من خشب الجوز على آخر طراز.

وكانت هذه الذهبية التي استأجرتها الاميرة من شركة كوك كبيرة جميلة مستوفاة شروط الراحة فيها الحجرات الكافية ومفروشة بانجر الاثاث وكان مع الاميرة ابن أختها عقيل بك ووصائفها وبعض خدمها من البرابرة وكان المنظر مما يروق الابصار ويشرح الصدور حيث يشاهد النيل أمام القاهرة بكباريه وعلى الجانب الشرقى منه قصور القاهرة الجديدة قائمة كالصروح والى اليسار متزه الجزيرة والجزيرة والنيل ينساب بين تلك المعاهد فترقص له الاشجار وخمائل النخيل طرباً وتغرد الزراير وتسبح لربها بكرة وعشياً والنسيم يلعب بالالباب وينعش الارواح والابدان والشمس ترسل اشعتها الذهبية لا حارة ولا باردة وقد قاربت سمت الرأس والمرسى في حركة عظيمة بسبب سفر السياح فى البواخر النبيلة التابعة لشركة كوك وغيرها الى الصعيد وعربات الفنادق الكبيرة تحمل الكثيرين منهم ومعهم التراجمة والخدم فتزلهم ثم أو تأخذ العائدين منهم والكل فرح جنل برأى هذا النيل وواديه العظيم فى هذا الفصل الجميل فصل الشتاء الذى يفضل فصله فى مصر فصل الربيع فى غير هذه البلاد

فقال أحد الاصدقاء وقد سرتة تلك الحركة وهذا المنظر :

— والله أننا معشر المصريين لفي غفلة عن كل هذه المحاسن التى جمعها الله لنا فى ارضنا وقرها منا نرى قومنا يتهافتون على الذهاب الى القهاوى والحانات ليل نهار فيضرون بانفسهم ويضيعون أموالهم أسرافاً ولا يلتفتون الى التروض فى هذا النيل وعلى حافته فى ساعات الفراغ فتعود اليهم الصحة والنشاط نشاط البدن فيقوى على العمل . أما ما ترونه من شغف بعض الاسر

تتمضية فصل الصيف في النيل فقيه بعض السلوى ولكن فيه مضاراً كثيرة مصدرها التوفر على شرب الخمر واتباع شيطان الشهوات . . .

وجاءت القهوة تحملها احدى الوصائف فادارتها علينا ولها نكهة تفضل سلافة النديم والصبهاء ابنة الكرم وكانت وصيفة أخرى من وصائف الاميرة جالسة على مقربة من مجلسنا تضرب على العود وتغنى القوم غناء جميلاً اذ كرني باحاديث الف ليلة وويله وأيام الرشيد وعهد المأمون وندمائه على متن دجلة وعهود امراء مصر السالفين على متن هذا النيل وكان الامير عقيل يكاد يطير فرحاً بنا والاميرة بيننا كأنها ملكة سبأ على عرشها وهي تنظر الى ابن أختها والينا بعينين ملؤهما الحب والحنان والسرور والاتباع وتحادثنا بمحدثها العذب الطلي .

وجهر الغداء فجاءت احدى الوصائف واعلمت سيدتها بذلك فقامت الينا ودعتنا واحداً واحداً فقمنا معها ونحن جذلون فرحون وهي تهادى بيننا كالقمر حفت به كواكبه أو الملك التفت به مواكبه فدخلنا قاعة الطعام واذا بمائدة علي الطراز الشرقي الراقى وقد كملت القاعة بالازهار العطرية وفرشت باخر الطنائف النارسية وهي علي صغرها بهجة للناظرين جلسنا بلا تكلف والاميرة معنا والى يسارها ابن أختها فكاننا هنيئاً وطاب لنا الحديث والسمير وكانت النوافذ مفتحة يدخل منها النسيم العليل وترينا النيل وما على ظهره من السفن الغادية والرائحة وكان الوقت وقت فتح الكبري لمرور السفن الصاعدة والمهابطة والنوتية في حركة من نشر الشرع أو طيها للمرور فقالت الاميرة : « والله ان أفضل ما ميزت به بلادنا المصرية وضع هذا النيل المبارك

وكانه طريق كبير امتد من اسوان الي الدلتا وهناك لاتساع الارض قسمه مهندسه الحكيم الي طريقين أو اكثر فهل ترون يد العناية قصرت معكم؟ ثم أنه فضلا عن تسهيله المواصلات يأتينا بخيرات حسان فلا غرو اذا قدسه اسلافنا ولكن الذي يحزنني أننا معاصر الخلف لم نزل على اسالينا القديمة في الانتفاع به فسنفتنا لا تكاد تمتاز عن سفن النيل في زمن الفراغة وآلاتنا الزراعية هي تلك الآلات العتيقة مع ان الرقي يقتضى الاخذ بالجديد من الوسائل علما وعملا لزيادة الثروة . . .

ويما الاميرة تتكلم ونحن منصتون اليها معجبون بحسن بيأها وجودة افكارها سمعنا الاستغاثة من جانب النيل فألفتنا الى ناحية الصوت فاذا احد ركاب السفن قد سقط في النيل وتكاد المياه تبتلعه وهو يتخبط بين الامواج لينجو من الغرق فقام عقيل بك عند ذلك كالاسد الغضنفر ورمي فوطته من على صدره وخلع ثيابه باسرع من لمح البصر ثم ألقى بنفسه في اليم يسبح حتى دنا من الغريق وأخذ بيده وانتشله وأتي به الي الذهبية حيث كان الغريق أقرب اليها منه الي السفينة التي كان قد سقط منها ولم ينزل منها أحد مع ذلك ليخلصه وكان قد لحق عقيلاً أحد نوتية الذهبية فتعاونوا على اصعاد ذلك الغريق الينا وكنا نحن قد نهضنا من حول المائدة وأتينا الى مكان ذلك الغريق الذي اصعد اليه من الذهبية وجعلنا والاميرة نباشر علاجه بالوسائل القريبة العادية حتى افاق من غشيته وأمرت الاميرة باعطائه ملابس وطعاماً ومن المضحك المبكي ان السفينة التي كان عليها اسرعت في الهرب وتركته ومن كان على البر وشاهد الحادثة فركان لم يكن ثم انسان غريق يعالج سكرات الموت وكذلك البوليس لم

يكثرث للحادثة . . .

أما نحن فجعل كل منا يشكر عقيل بك ويثنى على غيرته الفائقة وكريم عواطفه وعظم هذا الشاب في عيني فجعلت اطرب في مدح بسالته ومروته واميذه على الكثير من شباننا فتبسم في وجهي وهو مطرق الى الارض حياء ثم قال :

— أى عم انى لم آت غير الواجب الانساني فهذا الواجب يحتم علينا كما تعلم مساعدة كل من نراه من بنى الجنس واقعا في الخطر فاذاً انا لا استحق كل هذا الشكر والاطناب والاعدت الواجبات الاولية من المنفاخر التى تستحق كثرة الثناء والتعظيم .

فازداد اعجابي بهذا الشاب وتحقق لى أنه ليس من أولئك الشبان الخالين من الصفات الانسانية الكريمة فطرحوا الواجبات ظهريا وغرقوا في أمور كاذبة وشبه آداب ليست فى العير ولا فى النفير بل هي مظاهر خداعة كاذبة فلزمت السكوت وجعلت افكر فى نفسى ولما افاق ذلك الرجل واطمان وعادت اليه قواه جعل يحدث الاميرة حديثه فقال :

— أين ذلك الفتى الشهم الذى اتقذنى من شرب كأس المنون لاشكره شكراً يوازى ما اعاد الى من نعمة الحياة ، انى كنت لا محالة من المالكين لانى لا أحسن السباحة ولقد كنت ركبت هذه السفينة مع ابن عمى لى لنعود الى بلدنا بالصعيد وكنت جمعت مقداراً من النقود بالعمل والكدح فى الوجه البحرى فنصحنى ابن عمى ان احفظها عنده حين نزلنا هذه السفينة ولكن الخيث كان يضمري الشمر والملاك بالاغراق لىكى يستأثر بدرامهى التى اقتصدتها ولم يقتصد

هو مثلها من عملة خين رأى النوية مشغولين بشأنهم وأنا جالس الى جانبه على حافة السفينة آمنة مطمئناً دفعتي بكنا يديه فنزلت اهوى في الماء ولولا أطف الله وعناية حضرة البك بي وانتشاله اياي لمت غرقاً في اليم ثم تهد المسكين وسكت

فقال الاميرة يراعة — أبق يا رجل في خدمتي وخدمة هذا الشاب الذى اتقذك من الغرق وأنا اجعل لك مرتباً ونحن مسافرون الآن الى الصعيد فان شئت النزول الي بلدك نزلت

فاتبج الرجل بهذا الكرم من الاميرة وقام اليها فقبل يديها ويدي عقيل بك ثم أمرته الاميرة ان يلحق بالخدم ويجلس معهم وعدنا نحن الي مكاننا والاميرة تقول :

— ما اخسر عمل الانسان اذا فقد الاخلاق الحسنة ، لا جرم انه اذا تجرد من التربية وبقى في الجهل ظل وحشاً لا يعر في بنى جنسه ولا في ذوى قرابته إلا ولا ذمة وهذا ما أرى عليه اكثر فلاحى هذه الديار ، انهم تعودوا أمثال هذه النقائص وصار لا قيمة للفضائل في نفوسهم ، انه ابن عمه وخرجا من بلدهما رفيقين وعملا وكدحا متلازمين ولكن سوت نفس ذلك الخبيث له الا ان يعدم ابن عمه الحياة ليأخذ ما جمعه من دراهم قليلة بئست الخصال ! رباه متى يعلم هؤلاء الناس ان هذه الاعمال من المنكرات والفضائح ، متى يتركون عاداتهم المستقبحة حتى لا يقدح فيهم الاجنبي بعد ان يكون قد مدح فيهم صفات الكرم والصبر والجلد على الاعمال ...

ثم اغرورقت عينا الاميرة بالدموع فقلت وقد تأثرت من تأثرها :

— لا عليك أيتها الاميرة الكريمة الفؤاد فأنا لو نظرنا الى تلك الاحوال تعبنا وليست هي قاصرة على الفلاح المصرى بل لها أمثلة فى جميع العالم

قلت والاسف باد عليها — ولكنها هنا اكثر مما فى غيرها من الاقطار فقلت — على أنها قد قلت عن ذى قبل وسيأتي على هذه الامة زمان تكون فيه ذات صفات حميدة بين الامم واخلاق كريمة متى ما عمم العلم وأزيل غشاء الجهل وسادت بفضل التربية الجيدة الفضائل ونحن الآن ساعون الى تلك الغايات فعلى تمادى الايام تكمل تلك المساعى بالنجاح والفلاح .

وكان الوقت أصيلا وقد تحول قرص الشمس الى ناحية المغرب فنظر كل فى ساعته فاذا هي الرابعة مساء فقمنا مستأذنين بالذهاب فاشارت الى الاميرة « ان أبق لان لى معك كلاما » فخرج كل اصحابي المدعويين وبقيت أنا والاميرة وابن أختها

فقلت الاميرة — الآن ارجوك ان تذهب وتأتي بأسرتك لتبيت معنا هذه الليلة كما اخبرت بذلك السيدة قرينتك ولدينا غرف كثيرة ولبيك تعناد الآنسة كريمتك معاشرتنا بحضوركم . . .

قلت — ألا تسمح لى الاميرة بالاعتذار فاني . . .

فقلت الاميرة وهي تنظر الى بعينين ملوئهما المحبة الخالصة والعناية الزائدة — ثق انى أختك وان أسرتك أسرتي فلا معنى اذاً للامتناع والدلال

تفضل وأتي بصديقتى وابنتها حبيبتى . . .

فقممت وصعدت الى البرور كبت مركبتى الى دارى وأنا فى شغل وتفكير

من جهة سفر ابنتي ولكنني حين دخلت الدار شاهدت قرينتي وابنتي في اهتمام
وشغل فقلت :

— ما تصنعان ؟

فقالتي قرينتي وهي تبسم :

— كما ترى يا عزيزي نجهز ملابس سنوية وحقائبها استعداداً للسفر أو
ليس قد تحدد له ظهر يوم الجمعة بعد غد ؟

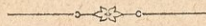
قلت — نعم وانتما مدعوتان للمبيت في ذهبية الاميرة وانا أيضاً واني
والله لست أدري ما هذه . . .

فلم أتم كلامي حتي وضعت امرأتي يدها على فمي وهي تقول

— أسكت الاميرة هنا

قلت — عجب أطارت هي ؟

فقالتي — لا ولكنها سبقتك على سيارتها



— ❖ ٢٠ ❖ —

على ضوء القمر

دخلت غرفة الاستقبال فوجدت الاميرة جالسة ويدها احدى
الصحف تنظر فيها باهتمام فلما أحست بقدومي نهضت اليّ وهي تقول :

— أو ما قرأت أخبار اليوم فأنها هامة ثم جعلت تقرأ لي بصوتها

الجهورى العذب وأنا مصغ اليها الى ان قدمت زوجتي وابنتي وهما بأردية الخروج فألقت الاميرة الصحيفة من يدها وقالت « لنذهب اذاً » فقالت زوجتي « وأين فتحى أنا قد نسيتناه أنه سيسر جداً اذا علم بما عزمنا عليه من المبيت مع الاميرة يراعة في ذهبيتها في النيل » فقلت أنا « اني قد ابصرته جالساً مع أحد رفقائه في « السلامك يتذاكران » فأستدعته أمه واخبرته بما عزمنا عليه فسر جداً ونزل الى صديقه فصرفه وعاد الينا وهو جنل فرح يتأبط كتبه التي يذاكر فيها وكراريسه ثم وقف أمامى وامام والدته ولسان حاله يقول « ها أنا ذا قد جئت فماذا يتعدكم عن الذهاب » فقامت الاميرة يراعة وقمنا نحن ونزلنا جميعاً فركبت الاميرة ومعها زوجتي وابنتي سيارتها وركبت انا وفتحى ومعنا الحقايب مركبتنا الي ان وصلنا شاطئ النيل حيث كانت ذهبية الاميرة راسية وقد كثرت المركبات على الكبرى وتزاحمت في رياض الجزيرة تلك الساعة للريضة كما هي العادة قبيل الغروب كل يوم وكان القمر بدرأ قد بزغ من المشرق يتبع الشمس في خطاها خطوة خطوة كأنه يريد قهرها ومنافستها بضوئه وان كان استفاده منها

فترجلت وابنى وصعدنا الى الذهبية حيث وجدنا الاميرة يراعة وزوجتي وابنتي وعميل بك يتحادثون فلما رأونا قاموا الينا وأخذ عميل بك يمدى قبيلها وسلم على فتحى معانقة ثم جلسنا جميعا وكان صوت المركبات والسيارات وقعقة حوافر الخيل في شوارع الجزيرة وعلى الكبرى يصل دويها الينا وحين أضيئت المصابيح مصابيح الغاز في الطرق وعلى الكبارى وفي شاطئ القاهرة خلنا أنفسنا في زينة بدعية التنسيق شاسعة الاطراف فازدادت بهجة

نفوسنا أما القمر فكان كلما علا وسما في القبة الزرقاء سطع ضوءه على النيل
فجعله كصحيفة من فضة تترقق .

وأعقب رجوع المركبات مركبات المتزهين الي القاهرة وخلو تلك
الارياض من الحركة سكون وهدو شعرت بلذته في نفسى فقامت الي ظهر
السفينة وجلست هناك بمفردي أراقب تارة شاطئ القاهرة وأخرى ناحية
كبرى الجزيرة وآونة أنظر الي هذا القمر كأن لي معه سراً أناجيه به ويناجيني .
هذا القمر عظيم جداً ياجأ اليه العاشقون والمفكرون والشاكون من
متاع الحياة واكدار العالم ثم المتلذذون والمنعمون بالحياة على حد سواء وان
اختلفت فيه أنظارهم فيما أنا على تلك الحال من السرور واللذة والتأمل في صنع
ربنا العظيم الذى اتقن كل شىء خلقه فلا تكاد تقع أبصارنا الا على كل متقن الصنع
بديمه دق أو عظم صغر أو كبر اذ سمعت همساً خافى فأنثفت فاذا الاميرة يراعة
وزوجتى وكأتهما ما رأتا نى وهما تتحاوران باهتمام وبصوت خافت فقلت في نفسى
أما فرصة لسماع حديث تينك المرأتين وهما لا تعلمان بمكاني فسمعت الاميرة
تقول لامرأتى

— والله يا عزيزتى ان ابنتك سنية تصلح لابن أختي ولقد رأيت منه
الميل اليها منذ ان رأها لأول مرة عندك بالدار فهلا ترضينه لأبنتك بعلا ؟
زوجتى — والله يا سيدتى ان هذا لما يسرنى انا أيضاً لانى رأيت من
ابن أختك وادبه الجم ما جعلني أميل اليه بكل جوارحى ولكن . . .

فتقدمت انا وقد عمرانى الغضب وقلت مقاطعاً على زوجتى كلامها — ولكن
أيتها الاميرة يمنع من ذلك اختلاف مقامينا فانت أميرة ونحن من الطبقة الوسطى

ونحن الآن على سفر ولو كنت اعلم . . . لما أذنت لابنتي في السفر معكما . . .
فقهقت الاميرة ثم تقدمت نحوى بمجيا طلق وهي تقول :

— لقد عرفت السر الآن ولئن كنت على وشك اخبارك به فقبل كل
شىء ما رأيك في ابن أختي عقيل بك ؟ أما رأيي انا في ابنتك فانها من أحسن
بنات حواء أدباً وكلاماً فلذلك احببتها واحبها ابن أختي كذلك واعلم أنه ما جاء
عقيل هذه الديار الا للتزوج وحيث أنه قد عثر على الدرّة المنشودة فأنا لذلك
ارتضى ابنتك سنية لابن أختي عقيل بك ابن الاميرة حكمة المشهورة زوجة . .
فما رأيك في هذا الزواج أرفضه ؟

— عفواً أيتها الاميرة أما رأيي في ابن أختك فقد رأيته من أكمل
الشبان وحادثة اليوم من تخليصه الغريق تنبىء عما تكن نفسه من الشهامة
والمروءة مما أحله في قلبي منزلة يعلم الله وحده قدرها

— إذاً لا عذر لك من هذه الوجهة أما ما اشرت اليه من اختلاف
مقامينا فهل ترى له قيمة عندنا نحن معاشر المسلمين ؟ كلا ان الطبقات عندنا
متساوية أما ما لمحت اليه من أننا على سفر أى على غير استعداد فماذا تريد به ؟
أترغب ان تعمل لابنتك عرساً كبيراً تظنن به في الصحف وجهازاً تسوقه
الينا بالموسيقى بنج بنج ما اطرف هذه الاعمال وهذه الافكار أقصد الى الجوهر
يا صديقي ودع الاعراض في كل أمورك

فألتفت الى امرأتى وقد سرى عنى غضبي كالمستفهم عما اذا كانت ابنتي
ترضى بعقيل بك لما بعلا فأدركت زوجتي ما قصدت فقالت :

— ان ابنتي لا ترفض عقيلاً لانها تحب الاميرة حباً جما وترى ابن أختها

مثلاً في الفضل ولكن هل عقيل بك راض بها حقيقة؟ فضحكت الاميرة ثم ضربت بيدها على كتفي وهي تقول:

— أنه قد اختاركم دون بنات خالاته من الاميرات لانه رأى فيكم آداباً وفضائل أنا أول من يعترف بها ويتغلبها على طباعكم أما الاسر الكبيرة فأنأزراها قد شطت وضلت بناتهن سواء السبيل فتفرجن وافرطن في البدخ والترف السمج وتغالين في الصلف

فقلت — اذا كان الامر كذلك فعلام لا تقضى هذه المهمة قبل السفر بان نعقد على العروسين وحين يعودا من السفر بالسلامة ان شاء الله يكون منزلهما قد أعد لهما؟

الاميرة — حسناً حسناً تقول يا صديقي

زوجتي بلهف — اني لم أعد شيئاً ليوم العقد

الاميرة — وماذا تريدن اعداده؟ تريدن اعداد هدايا وتحفاً

للمدعوين ومرطبات يتعاطونها وموسيقى تستقبلهم وتشنف آذانهم؟ ان في ذهبيتي كل شيء من أنواع المرطبات وعوداة ماهرة ثم ضحكت وألقت الى كآتها تستفتاني في إنهاء الامر

أما أنا ففكرت قليلا وكانت الساعة الثامنة مساء وقد جهز لنا العشاء بجاءت الوصيفة واعلمتنا بذلك فزلنا والتفننا حول مائدة الطعام انا والاميرة وزوجتي وعقيل وفتحي وسنية امامنا وكان أولئك الشباب في غاية البسط والانشراح الا ان سنية كانت تكاد تذوب حياء أما نحن الكبار فكنا نضرب اخماساً لاسداس في تدبير أمر هذا الزواج العتيد وجعلت الافكار تغشاني

كالا مواج : عرفت الاميرة فأحببتها . . . ثم انقلب حبي لها الي صداقة متينة وتحول ذلك الحب من قلبي على ما يظهر الى قلب ابنتي وقلب ابن أخت الاميرة وها هو ذا باد على الوجوه وتهش له الاميرة وتفرح به زوجتي وسبحان مقلب القلوب فعلام « لا ابترج أنا أيضاً بهذا الزواج وعقيل بك خير كقولاً بنتي » وقتنا من على المائدة وبعد ان اكلت وصائف الاميرة وخدمها اجتمعن يضربن على العود ويغنين غناء عربياً مشجياً فأشارت الاميرة الى والى زوجتي « ان هلم نتحدث على اتفراد » فتركنا مجلس الغناء لعقيل وفتحى وسنية والوصائف وصعدنا على ظهر السفينة فجلسنا على مقاعدها الخشبية الجميلة وكان القمر قد بلغ سمت الرأس تقريباً وازدهي نوره فقلب النيل الى صحيفة ساطعة من الانوار المترقرة فقالت الاميرة

— ما أحسن هذا المنظر وانعش هذا النسيم على الابدان وكم يستنشق الناس داخل البلد وفي الحانات في هذه الساعة من سموم قتالة والخرقة فاسدة مساكين والله أهل هذه المدينة الفاسدة والحضارة الكاذبة ثم غيرت مجرى الحديث فقالت

— انى ما أشرت اليكما لنصعد الى هنا الا للتحدث بامر هذا الزواج الذى ارانى سعيدة باختيارى فيه ابنتكما لابن أختى وهو به أيضاً من أسعد الناس وان أمه لتسر اذا علمت به واخواتي أو لا يمكن يا صديق ان نحضر غداً عالماً من علماء الازهر ليعقد العقد ؟

قلت — هذا ما كنت أفكر فيه أيتها الاميرة فلنذهب في الغد فيدعو عقيل بك مع مأذون الشرع أحد علماء الازهر وأنا وأسرتي نذهب الي

دارنا تنتظر قدمكم

الاميرة — ليكن ما ذكرت واطن أنه يحسن بنا ان ندعوا اصدقاءنا أولئك

قلت — السمع والطاعة

ولما جاءت الساعة العاشرة قمنا الى مضاجعنا فمنا براحة وهناء وفي

الصباح توجهت وأسرتي الى دارى حيث اعددنا كل شيء لعقد زواج ابنتى

ولحقت بنا الاميرة وابن أخيها بعد ان أرسلنا فاستدعيا مأذون الشرع وأحد

العلماء ليتولى العقد وما جاءت الساعة الحادية عشرة من يوم الجمعة حتى اكتظت

دارى بالاخصاء من اصدقائى واصدقاء الاميرة أولئك الافاضل الذين كانوا

يسمعون محاضراتها والكل يهنئنى بتزويج ابنتى من عقيل بك ابن الاميرة

حكمة شقيقة الاميرة يراعة وبعد الانتهاء من صيغة العقد تناول المدعوون

المرطبات والهدايا الثمينة التى كانت أبت على زوجتى الا مشتراها ثم مدت

موائد الطعام فاكل المدعوون وطربوا وكان يوما عظيما سروره فى دارى

وبعد انصراف المدعوين قامت الاميرة وقالت ضاحكة مستبشرة :

— الآن قد صارت الانسة سذية من حقنا فسواء جئنا للمبيت معنا

لوداعنا أولم تأتيا فهى ستذهب معنا ولقد أخرجت سفرى كما تعلمان اليوم لهذا

الغرض الكريم وبما انكما بافيان بمصر لتهيئة بيت ابنتكما العتيد فها هو ذا مفتاح

بىتي وهناك شقة قد أعددتها لسكنى ابن أخيتى فافر شاها بما يحلو لذوقكما واتما

لا تجهلان أنى وابن أخيتى نحب الجيد من الاثاث والنفيس من الامتعة

ثم ذهبت الى سنية فألبستها ملابسها وأخذت بيدها وأنا وأمها لانبدى

حراكا لذكرى الفراق والوحشة من ابنتنا ثم تقدمت الاميرة فصاغتني

وتقدمت سنية فعانقتها وقبلتها ودعوت لها واجهشت أمها بالبكاء وبكت سنية
لبكاء أمها وهي تعانقتها الي ان فصلت الاميرة بينهما وهي تقول :

— نستودعكما الله وامسكت بيدسنية وخرجت يتبعها زوجها عقيل بك
وهو يكاد يطير بعروسه فرحا

أما امرأتى فألقت بنفسها حينئذ على مقعد وهي تنظر الي وتقول وعلامات
الحزن والاسف بادية على وجهها :

— أتفارقنا سنية ؟

قلت — وماذا تريدن أليس هذا شأن كل بني آدم اجتمع وفرقة وفرقة
واجتمع ثم هي ستعود الينا والعود أحمد ان شاء الله تعالى .



كتاب ابنتي وعودها

بعد ذهاب الاميرة يراعة وابنتي وزوجها وسفرهم في صباح اليوم التالي
الى الصعيد وقد ودعهم وامراتى وابني في الصباح أحسن وداع وأوقعه
في النفس ظلال أسبوعا انا وزوجتي في دهش من ألم الفراق ولوعة الوحشة
من سفر ابنتنا مما انسانا القيام بواجب تهيئة منزلها الجديد وتأنيته كما اشترطت
الاميرة واختارت وقد تركزت لنا مفتاح بيتها وما كان فكر امرأتى وحديثها
الامثل قولها « أين منزلهم اليوم ؟ أين رست بهم السفينة في هذه الساعة ؟

ترى ما حال سنية مع زوجها والاميرة؟ ليتنا حجزناها عندنا حتى ترجع الاميرة من رحلتها ثم ادخلناها على عروسها؟ ما الذي يقعدنا عن ارسال كتاب تطمين به خواطرنا؟» وكان عملي انا حيال تبليل أفكار امرأتي قاصراً على تطيب خواطرها وتسليتها. لبثنا على ذلك أسبوعاً وبينا نحن على تلك الحال جاءنا البريد يحمل رسالة عرفت من عنوانها خط ابنتي وكانت امرأتي مع اضياف لها في تلك الساعة وهن عديلة هانم وأمها وصديقة أخرى فدعوتها بالسرعة فجاءت وهي تنتفض فرقا وتقول «ماذا جرى؟» قلت «خير هذه رسالة من ابنتك فاطمىنى» قالت «اقرأها لى» ففضضتها وتلوتها عليها فاذا فيها ما نصه :

«والدى العزيز ووالدى الشفوقة :

«استهل كتابي بتقبيل أيديكما ووجنتى أخى فتحى واشكما لواعيج اشواقي واعلمكما أننا قد قضينا الاربعة الايام الاولى من سفرتنا فى اتم هناء وصفاء ولقد رأيت من الاميرة وعميل بك ما مثل لى المرؤة وعلو الهمة واللطف وسمو العواطف والافكار تمثيلاً مجسماً وخفف عنى ألم فراق أسرتى ولقد شاقنى هذا السفر الذى شاهدت فيه بلاد الصعيد ونحن الآن امام أسيوط وشمالى خزائنها أوقناطرها الجسيمة الحديثة العبد، والهواء هنا فى هذا الفصل ألطف ما يكون عليه وادفاً منه بالقاهرة وروائح الزرع تعطر ارجأ الجوبشيمها الذكي واني غير شارحة لكما ما شاهدناه من البلاد والآثار فى سفرنا الى هذا اليوم فقد تكفمت بذلك كتب الرحلات وقد اخبرتنى الاميرة بعزمها على تأليف رسالة تضمنها ما شاهدت وتشاهد من آثار وادى النيل العجيبة

وهي الآن تجمع لها الملاحظات في كراسة ولا غرو فهذه الآثار منفرة الوطن العزيز وحرية بان يكتب فيها مثل الاميرة ولقد دهشنا من كثرة عدد السياح الاوروبيين الصاعدين في النيل والعائدين من مشاهدة تلك الآثار البديعة بطيبة والصعيد الاعلى وجزيرة أنس الوجود مما سنشاهده نحن أيضاً ان شاء الله تعالى أما ما بسطه لكما في هذه الرسالة فهو شيء عن اخلاق الفلاحين واحوالهم مما علق بخاطري من اقوال للاميرة فيها ولها كما تعلمان أيها الوالد العزيز وأيتها الوالدة الكريمة اطلاع واسع وبصيرة ثاقبة : سأتها وعقيل بك بكرة يوم صفا اديمه واعتل نسيمه ونحن وقوف على ظهر السفينة وبلاد النيل على الجانبين منبسطة أمامنا من الجبل الشرقي الى الغربي « ما رأيك أيها الاميرة في سكان هذا الوادي العتيق وهم أشهر فلاحى الدنيا كدحاً وعملاً ومستغلات زراعية ؟ » فقالت الاميرة بنطقها العذب :

— أعلم يا ابني ان سكان هذا الوادي متمتعين في الواقع بخيرات حسان ولكن ما يجنونه ويحصلونه كثيراً ما يذهب من أيديهم للجبل اللاحق بهم ، ان مزارعي هذا الوادي ينقسمون الى طبقات ، الطبقة العليا ، والطبقة الوسطى ، ثم الطبقة الدنيا فالطبقة العليا لا سيما في هذه البلاد القبلية على جانب من اليسار والكرم والمتانة ولم تزل لها شبه سيادة وسلطة تستعملها بين الفلاحين ولكن المدنية الجديدة بدأت تدخل هذه النواحي فتفسد على اصحابها ان لم يحسنوا استعمالها ما اعتادوه من الصفات الحسنة وتعودوا السرف والفساد ولكن هذه الطبقة على كل حال امتن اخلاقاً من أختها في الوجه البحرى .

« والطبقة الوسطى بالصعيد هي كذلك أعظم اخلاقاً الى الآن من أختها

في الوجه البحرى ولكن ضمان البقاء على هذا الحال مما يشك فيه بحكم البيئة والتقليد لاسيا وقد سهلت عليها وسائط الانتقال الى الاوساط الكبيرة المملوءة بالفساد والصلاح أيضاً فهي قد تضع ارزاقها في الفساد كما يمكنها ان تستفيد من خيراتها ، أما الطبقة الدنيا فهي ذلك الفلاح المسكين الذى نبت على حافة النيل ولا ناقة له فيه مع ذلك ولا جمل وهو في هذه الجهات القبلية أفقر منه في الجهات البحرية ولكنه اقدر على العمل وأنشط فيه وأجراً على الرحلة في طلب الرزق انظرا هذه الزمر التى تعمل فى الجسور وهذه الزمر الاخر التى تسير على أثر بعضها كسرب القطا أو كقطع الغنم منكسة رؤوسها الى الارض هادئة وديعة تحمل ازوادها فوق اكتافها فهذه الزمر من الرجال هي مثال محسوس لعظم كدح الفلاح الصعيدي الفقير الذى يعمل هنا وفي كل المدن ويسافر فى الصيف الى الجهات البحرية للارتزاق وبالجملة فرجال هذه الطبقة الدنيا بالصعيد أنشط منهم فى الوجه البحرى

« ثم ان اخلاق أهل هذه الجهات ترمى الى الجفاء والشدة وامزجتهم أحد من امزجة أهل الوجه البحرى وأبدانهم انحف وعضلاتهم اقوى ولكلا الجهتين محاسن ومعايب وعادات بعضها من العهد القديم وبعضها طرأت عليهم بحكم ظروف الاحوال الطارئة وتبعاً للوسط ، نتم ان حالة اليسر والمدنية قد هذبت كثيراً من تلك الاخلاق الجافة ولكنها قد جلبت أيضاً شروراً ومصائب واختراع اساليب للشر لا حاجة لسطها لكما فقد قرأتما عنها كثيراً فيما تشره الصحف وتعالجه التعاليم الحديثة التى يقوم بها من حين الى حين بعض الافاضل من المصريين وتتخذله الحكومة الوسائل الرادعة والمعقوبات الزاجرة »

« هذا ما حدثتنا به الاميرة في ذلك اليوم نقلته اليكما بمعناه الرائق ومبناه الشائق ولقد يحلو لكما الآن ان اصف لكما معيشتي مع الاميرة وزوجي : ان الاميرة اعلمتني انها وابن اختها يمتقان عادة كثرة الزينة والتحلل بالحلي الكثيرة مما تنبوعه الاذواق السليمة ولا يجبان غير الزينة المناسبة للكمال والادب فالتمت بكل ارتياح ان اسير معهما على تلك العادة وهي كما تعلمان مما تميل اليه نفسى وقد طابت لى تلك المعيشة ومعاشرة الاميرة وابن اختها زوجى بلا تكلف ولا عناء . تقوم في الصباح فبعد ان نتناول الفطور نطالع الكتب والمجلات التى لا تفارق الاميرة الى الساعة العاشرة وبعد ذلك نصعد على ظهر السفينة حيث دفء الهواء وحرارة الشمس ينشطان الاجسام وعند الظهر نتناول الغداء واذا كان ثم ما يدعو الى النزول الى البر لمشاهدة أثر أو زيارة بلد أو رياضة نزلنا نحن وعقيل بك تحف بنا الخدم والنوتية وذلك الرجل الذى انقذه عقيل بك من الغرق فانه فوق ما يوصف امانة واخلاصاً لسيده وفي الظهر أو عند الغروب نعود من رياضتنا الى الذهبية فنتناول العشاء ونشرف الاسماع بالعود والغناء وقد بدأت اتعلم الضرب على العود من تلك الوصيصة الماهرة بديمة فهي عوادة من الطراز الاول بين العوادات ولكنى على كل حال أفضل على العود البيانو وعند ما تأتى الساعة العاشرة نذهب الى مضاجعنا تلك هي حالتى واني لسعيدة مغتبطة داعية لكما ولا يشغلنى سوى الشوق الى رؤيتكما ورؤية أخى فتجى وربما كانت عودتنا اليكم بعد الاربعين من الايام حيث أننا مطردون السياحة ببطء الى اصوان وزيارة الخزان وقصر أنس الوجود وجزيرة فيلة (سنية)

(حاشية) لعلكما قد عنيما بتأنيث بيتي فاسرعا بذلك ونظماه ونسقاها بالله عليكم بما يحلو لذوقي وذوق الاميرة واسرعا بذلك واعلاماني به وأنا سخط الرحال بالاقصر بضعة أيام وانا بانتظار اخباركما»

هكذا كان آخر كتاب ابنتي فهي في سرور مع زوجها والاميرة ونحن هنا في شغل عليها فكان أول من تكلم بعد تلاوة كتاب سنية امرأتي حيث قالت وهي تضحك بملء شديها

— أنها في ارتياح فعلام نشغل نحن انفسنا من جهتها ونهمل هذا الواجب الذي ذكرتنا به وقد تمر الايام التي ضربتها موعداً لرجوعهم سريعاً أو لا ترى يا عزيزي ان نسرع في عمل الجهاز منذ اليوم؟

— نعم هذا ما ينبغي لنا الآن القيام به وقد كنا نسيناه

— اذا اذهب يا عزيزي فاحضر ما عليك مشتراه واليوم أنا مشغلة بهؤلاء الضيوف عديلة هانم وأمها زوجة عماد الدين بك وقد جاءتا تهنئاني بزواج سنية فدعوتهما للغداء ولقد تسران كثيراً اذا سمعتاهذه الاخبار السارة عن سنية لان عديلة هانم صديقتها كما تعلم وان كانتا مختلفتين في السير والطباع. فلم انبس بينت شفة وانما قمت الى ملابسى فلبستها واسرعت فركبت مركبتى الى دار الاميرة فتلقاني البواب بالشوق فطلبت اليه ان يذهب بي الى ذلك المسكن الخالي من دار الاميرة يراعة فصعد بي اليه وهو الطابق العلوى وله مدخل من الخلف على حدة ففتحته بالفتاح الذي كان معي فرأيت مسكناً فسيحاً لا يقل في البهاء والرواء والنقوش عن مسكن الاميرة ويساويه في عدد الغرف والحجرات والمنافع فسلمت البواب المفتاح وامرته ان يستلم

كل ما أرسله اليه من الاثاث والرياش فصدع بالامر وناولته وأنا خارج نقوداً ففش لها وبش وجاء البستاني وكأنه شم رائحة النقود كما شممت أنا رائحة الازهار التي احضرها لي فنفتحته هو أيضاً ببدرة من الدراهم وركبت مركبتى الى محال التجار فاشترت طقومة من الاثاث والفرش الجيد والابسطة العجمية والستائر والخزائن والكراسى من أحسن طرز واجوده وبالجملة اشترت في بضعة أيام كل ما يحتاج اليه بيت ابنتى ما عدا الملابس والحلي وأدوات الزينة والفضيات فقد اشترتها قرينتى بنفسها

ولم يمض على مباشرتنا العمل عشرون يوماً حتى فرشت دار ابنتى وعمر وسها بالاثاث الجيد والرياش الحسن كما يرغبان وترغب الاميرة يراعة ثم لبثنا في الانتظار وقد ارسلت اليها جواباً وكان فتحى يسألنى لماذا غابت الاميرة وأختى وعميل بك كل هذا الغياب فأقول أنهم سيحضرون قريباً فيسر بذلك سروراً عظيماً ويثني على الاميرة وعميل بك فسألته يوماً كالمختبر

— أحب هذا الشاب الامير عميل بك ؟

فقال وهو يتبسم — كيف لا أحبه يا والدى العزيز وهو زوج أختى وفضلاً عن ذلك فانى ما سألته مسألة الا اجابني عنها باللطف والرفقة ولقد رأيت له افكاراً لم اسمعها من معلمى قط

قلت — وما هي هذه الافكار ؟

فقال — أنها آراء جماعة من فلاسفة أوروبا فى التربية وخلاصة ما انتهى اليه العقل البشرى فى هذا العصر من الابحاث العلمية وقد وعدني بان يمل على دروساً منها حين يعود

قلت — اذا فانت تحبه لذلك لانك من قتيان العصر الجانحين الي الجديد
والكل جديد طلاوة

فقال وقد أحمرت وجنتاه

— انى أحبه لذلك ولكونه زوج أختي أو ليس له هذا الحق من حبي له ؟
فعاقت ابني عند ذلك وبينما نحن على هذا الحال واذا بساعي التلغراف
يحمل الينار رسالة برقية وكانت من الاميرة يراعة تعلمنا بحضورها وابنتي
والامير عميل في قطار الصعيد القادم مساء اليوم فتوجهنا للقائهم على المحطة
وحين وقف القطار والتقت الاميرة يراعة واسرتها بنا تعانقنا طويلا وركبنا
المركبات الى دارها وقدم اصحابها يهنئونها بالعودة ولزمت ابنتي وزوجها
مسكنهما وأحيت الاميرة يراعة ليلة أنس كانت آية في البهجة والرواء وخالية
من كل تكلف

وعاشت أسرتانا في اتم صناء واهناً عيش أما ما وعدت به الاميرة من
محاضراتها لبنات جنسها كما سلف فمستكفل بذكره ابنتي في سيرتها التي
ستكتبها عن نفسها بيدها وهي ما سأجعلها ان شاء الله تعالى رواية تالية لرواية
« الاميرة يراعة » تحت عنوان « ابنتي سنية »

البائسات (١)

﴿ مقال أدبي عصري يتضمن قصة خيالية ﴾

﴿ وموعظة أخلاقية ﴾

خرجت في أصيل يوم من أيام هذا الاسبوع أمشي الى شاطئ النيل لأروض الجسم وأروح النفس باستنشاق نسيمه العليل ، وأمتع الطرف بمراى الماء والخضرة ، وانعش الفؤاد بمنظر محاسن الطبيعة الحية ، فلم تكعد قدماي تطان ارض « جزيرة الروضة » الحديثة عهد الاتصال بمدينة القاهرة حتى سمعت من خلفي صوت امرأة تناديني « يا سيدي البك ، يا سيدي البك » فالتفت اليها فهالني منظرها في زينتها وتبرجها : منزر خفيف لطيف تظهر منه كل ملابسها المزركشة ، وتقاب شفاف انتقشت فيه صورة «طبق الاصل» بل هي أجمل من وجهها وقد ابدعت فيه يد الصناعة النسائية أيما ابداع بالطلاء والدهان والتزجيج كما كانت كل حلها وحلاها وشكلها وهندامها دالة على تلك العناية المفرطة بالترزين والتبرج واتقان صناعته وان كانت وأيم الحق خالية بالمرّة مما قد تستحسنه الاذواق السليمة

عند ذلك وقفت مكاني وقد عرتني دهشة بل ارتباك وخجل وجعلت التفت يمينا وشمالا لثلاثا يكون ثم صديق يعرفني أو صاحب خليع ينتقدني وانا كهمل قد حل المشيب بعارضي ومفرق ويشهد لي كل صحبي وخلاني بالبعد عن هذه السفاسف والنفار من امثال هذه الحماقة حماقة مغازلة النساء في الطرق ومسامرة بنات حراء على وؤوس الاشهاد !! أما هي فلم تكترث لمالي وتقدمت نحوي بجأش را بط وجنان ثابت وعينين براقتين وهي تمايل في مشيها وتثني من عطفها وممشوق قوامها حتى دنت مني فسلمت على بأدب واجلال قائلة : — ألم تعرفني يا سيدي ؟ أنا فلانة التي كانت خادمة صغيرة عندكم منذ عامين فعرتني دهشة اخرى لانها كانت غير ما هي عليه الآن ، خرجت من عندنا فتاة بضعة ممثلة الجسم ومؤدبة يقطر ماء الحياء من وجهها وقد تزوجت بقى يناسب حالها

(١) هي أول تظمة لي من هذا النوع وقد نشرت لأول مرة بالمؤيد بالعدد ٥٤٨٠ الصادر

في ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٢٦

ولكن اليوم ماذا ارى أممي ؟ ارى فتاة يدل تبرجها وزينتها على سعة ويسار مصدره حال من الابتدال يناسب ذلك الشكل والمهتام . . .

وكأنها أدركت تعجبي وفظنت لاستغرابي فقالت بتحسر :

— ان زوجي قد طلقني بعد ان أساء معاملتي وباع كل متاعى وقد توفيت امي فعدت الى الخدمة وصرت كما ترى . . . ثم علت وجها حمرة الخجل فتحقق لدى ان المسكينة إنما تعني انها قد لحقت بتلك الطائفة من الخادمت اللاتي يصح لنا ان نسمين « زمرة الرقيق الابيض المصرى » وقد اوضحت بسبب فساد نظامنا الاجتماعى جيشاً عمرماً من النساء البائسات اللواتى ابتدأن فيترين ويتبرجن ويطفن على (الخدمين) ليخدمن فى بيوت أبى أهلها الا الدوس على الفضيلة بالاقدام والعبت بعفة أمثال هؤلاء النسوة الفقيرات الجاهلات فيقعن من ثم فى التهتك وخلع العذار ويخرجن الى الشوارع والاسواق والمتنزهات بالملابس الفاخرة والازياء الجميلة مما قد ربحنه من غواتهن فيظنهن جهال الشبان من الأسر العالية والبيوت الكريمة فيقعون فى شراكهن وحبائلهن ويخال هؤلاء وهؤلاء أن فى ذلك منتهى الهناء وسعادة الحياة !!! وشر من هذا ان النساء المصريات الجاهلات قد يحسبن ان الازياء التى يختارها هؤلاء النسوة وغيرهن من ربات الخلاعة والدعارة هي الازياء التى يصح النسج على منوالها ولعباوتهن ينزلن بلاحياء ولا مراعاة ذوق الى ذلك المستوى فى زينهن ! فيلبس الامر وتتشابه الحال ولو كن مهذبات مربيات لترفعن عن ذلك ولا تفن من تلك الازياء القبيحة التى قد تجلب عليهن مصيبة سماع بذاء أهل البذاءه ووقاحة ذوى الوقاحة وهن لسن كاولئك اللواتى سهل عليهن الهوان .

مرت هذه الخواطر بفكرى كأمح البصر فعدت قشعيرة وكآبة وأسف من هذه الاحوال وشفقة وحنان على هؤلاء النسوة البائسات أمثال هذه الفتاة التى أمامى وقد اوقعهن سوء الطالع وفساد الوسط فى تلك الامور المردية والاحوال المزرية فقلت حينئذ للفتاة لا تعرف ما تشعر به فى نفسها نحوها :

— ولكنك قد استبدلت الخبيث بالطيب فاذا كان زوجك طلقك فلقد كان

لك سبيل الى التزوج بغيره او الدخول في خدمة بيت لهر به وفيه اسرة تعيشين معها بسلام
فتنفست الصعداء عند ذلك وقالت :

— قد سمعت ياسيدى قد سميت واجتهدت كثيرا ولكن غلبت على شقوتى وسوء
طالعي وحكم الظروف بله قوة الاغراء خصوصا بان اكون من زمرة اولئك البائسات
فالذى يرانى يخالني فرحة مسرورة بما أنا فيه والحققة انها «رقصة الطير من ألم الذبح»
واغرورقت عينها بالدموع وأجهشت بالبكاء
فازددت عند ذلك عطفاً عليها وشققة فقلت :

— هونى عليك فانى لم أقصد ضررك باستخبارك البتة وإنما قصدت فقط معرفة
مقدار ما تشعرين به نحو تلك الحال التعيسة والوقوف خصوصا على السبب الذى قد
حملك عليها أو جعلك تختارينها .

فكفكت دمعها ونظرت الى طويلا كأنها تقول «أو تخنى عليك حالتنا الاجتماعية
وسوء معاملة الرجال للنساء؟ أو لست ترى ان الخير والرحمة قد صارا في حكم المعدم
من هذه القلوب القاسية اللهم الا لتحصل أربة أو قضاء لبانة؟»

فشجعتها بنظرة فهبت منها أنى موافقها على ما تشعر به نحو هذا العالم وما اضحت
فيه حالة اهله فطقت عند ذلك تقص على بالايجاز قصتها وتبت الى لوعتها فقالت :

* * *

« كنت عندكم يا سيدى فتاة صغيرة طاهرة القلب تقيّة النفس لا احمل للدنيا
هما ولا احسب لأموها حساباً وقد تعلمت كثيرا من فن تدبير المنزل بفضل عناية
السيدة قرينتكم وأنا جذله مسرورة وليت تلك الايام دامت لي محاسنها ... ليتها لم
تتقص ... لكن جاء ذلك الذى خطبني الى امي ففرحت بزواجي وسرت به كثيرا
لانها حسبته منتهى السعادة لي ولها وكنت وحيدتها رحمها الله ، على انها ما لبثت ان
أدركت خطاها اذ صار ما خالته السعادة منتهى الشقاء والتعاسة وقد القنتي بيدها فى
أحضانها لان ذلك الرجل الغليظ القلب كان كالكثير من أهل طبقته فاسد التربية سكيما
يسىء معاملة أهله فلحق السكر والنغم باهى فأتت بحسرتى وازداد هو شرا مئى وضرا

لي وقد صرت وحيدة لا قريب لي يدافع عني ولا عائل يعولني الجأ اليه .
 « وحدث أنه تعطل عن العمل فصار يأخذ من متاعي يبيعه لثمنات بئس منه لان
 العمال بمصر جهلة كما لا يخفى عليك لا يعرفون للتوفير قيمة ولا للدخار من أيام الغنى
 للفقر معنى فاذا ما تبطلوا أو تعطلوا عن العمل لأى سبب اضطروا الى بيع أمتعتهم
 لينفقوا منها على أنفسهم وأهليهم — فجعل يبيع من متاعي الذي دخلت به عليه الى
 أن نفذ كله تقريباً وكأنه ارتاح لذلك أو كان يقصده قصداً ونسى واجبه في العمل
 والكدح على نفسه وأهله أما أنا فاعتصمت لذلك نغماً شديداً ولسوء معاملته لي وتعاطيه
 المسكر كل ليلة زهقت روحي فاحيت ان انصحته واحته على العمل بدلا من هذه
 العطلة والتردد على القهاوي ليل نهار فما كان منه الا أن قبض بيده على عصا غليظة
 وأوسعني بها ضرباً حتى أشرفت على الهلاك وأغنى على من شدة الألم ولم يخلصني
 من يده الاثيمة غير الجيران ثم أنه طلقني وتركني في اسوأ الحالات

* * *

« بقيت مدة بمفردي لا أجد من يعولني سوى صاحبة البيت الذي كنت أسكنه
 فكانت تأتيني بشئ من طعامها اتبغ به وكثيراً ما كانت تحادثني نفسي بالذهاب الى
 داركم ولكن كان يمنعني الحياء والخجل من العودة على تلك الحال ، فلما رأيت نفسي في
 حاجة الى العمل للقوت طراً بخاطري الزواج مرة اخرى غير أنى لما كنت عليه من
 الفقر المدقع كان كل من يأتي يخطبني لا يعود الى على أنى أنا نفسي لسوء معاملة
 زوجي الاول كنت أشعر في نفسي بكرهه ونفور من الزواج لولا الحاجة الشديدة ثم
 هدتني الفكرة الى ان أتوجه الى احد « المحمديين » ليدخلني بيتاً أخدم فيه بالاجرة وكان
 هذا بدء حياتي الشقية فلبست ثيابي وارتزت بمزى البالي وتوجهت الى بعض الخدمات
 بارشاد صاحبة البيت وتوصيتها فأخذتني هذه المرأة وتوجهت بي الى بعض البيوت
 فاستخبرت ربة الدار عن حالى فقصصت عليها قصتي وأخبرتها بخبري فاشفقت على
 وابتعتني عندها فصرت أخدم بالاجرة في بيتها وكان لها زوج كهل كريم وابن شابان
 وفتاة بضعة في سن المراهمة فاجبتني هذه الفتاة حباً جماً وصرت أنا أخدمها وأعينها في

كل شأنها وطابت نفسي بحالتي ورجعت الى صحتي وعافيتي الا أن كبير الشايعين شقيق الفتاة جعل يرمقني ويسارقني النظر فقطات أنا لشأنه وجعت أتغاضى عنه واعرض فلم يزد الا تشبثاً وجرأة ولحظ اخوه الاصغر حاله فاسر الامر معكوساً الى امه فرأت « حسماً للشر » ان تخرجني من بيتها فاعطتني باقى حسابي وصرفتني فذهبت الى بيتي حزينة مكسورة الحاطر وبقيت مدة بلا عمل فكنت فيها أتردد على الخادمة لكي تجدد لي عملاً واستخرجت لي في هذه الاثناء رخصة وتحقق لي وأنا أتردد على محلها امور كثيرة كنت اجهلها وكانت نفسي تشتمز منها وتأنف . . . »

ثم تنهدت واستأنفت حديثها قائلة

« لكن المذرب يا سيدي لا يمنع القدر فاني لم البث طويلاً حتى أخذتني الخادمة الى بيت في حلوان ولكني لم أجد فيه انساناً سوى عجوز شمطاء هي « مربية » صاحب البيت على ما علمت فبعد ان نظرت اليّ طويلاً قالت له الخادمة « موافقة » فتركنتي الخادمة عند ذلك وانصرفت أما هذه العجوز فأمرتني بان اهيئ نفسي لخدمة ابنها كما كانت تسميه وادخلتني غرفته فيها ادوات زينة للنساء وأرتي كذلك مخدعا آخر حيث ينام ابنها ثم قالت لي وهي تبسم « هذه هي كل خدمتك في هذا البيت » فادركت ما تعنى وعلمت اني قد وقعت في ما كنت اخشاه واعيه فقلت لها عند ذلك « اني يا سيدي لم احضر هنا لمثل هذه الخادمة ولا أنا من اهلها »

فقات العجوز - وما الذي يضرك منها وقد تأخذين مرتباً كبيراً فضلاً عن الكسوة على ما تشتهي نفسك وتقر عينك والخروج الى « التزهة والفسحة » كما تشاءين بلا حرج ولا تحرج لان خدمتك تافية

« تصور يا سيدي ما قام بنفسى وخاطرى عند سماع هذه التزيينات والتعيريات المغريات من الحرب العوان بين اختيار الفضيلة مع الفقر والرذيلة جارة وراءها العبطة والسعادة فأسندت رأسي بيدي عند ذلك وصررت اجول بفكرى تارة في حالة يؤسي وشقائى الماضي وتارة فيما قد يستقبلني من الرفاهية والنعيم اذا أنا ضحيت عفتي مكثت هذه الافكار تنازعني ساعة زمانية وأنا شاخصة بصرى الى الارض مسندة رأسي

بيدي لكن عقلي كان شديد الكراهة لهذه الامور فغلب في النهاية شيطان نفسي فقلت « لا لا أنا لا اقبل » وقت مسرعة الى العجوز فقلت لها وقد التفتت بازاري ووضعت تقابى على وجهي :

— لتسمح لى سيدتى بالانصراف فانى لا اريد ان اخدم مثل هذه الخدمة فقالت العجوز :

— ولكنك ترفضين نعمة كبيرة

— كلا يا سيدتى ليس ما تدعيني اليه نعمة ولكنه في الحقيقة نعمة بل هو شقاء الابد

فحملت الى بعينين كبيرتين مستغربة شأنى ولكنها اذ رأت مقلتي مغرورقتين بالدمع رقت لحالى ثم ناولتني بعض الدراهم وهي تقول :

— انصرفي راشدة واستعيني بهذه الدراهم على السفر الى بلدك

فلما رجعت الى غرفتي مساء جاءتى صاحبة الدار فحدثتها بما حدث لى اليوم وانى استبحن تلك الاحوال فضحكت مني وقالت .

— والله انك لساذجة انى اعرف كثيرات يخدمن الان على هذه الصورة فأضحين بعد التعاسة والفقر لا يلبسن غير الحرير ولا يتجاينن الا بالذهب الوهاج والماس (البرلنت) وهل تظاينن ان الخدمة البسيطة تصلح الا للدميات الخلة أو الطاعنات فى السن أما من كانت مثلك « شابة جميلة » فلا يجوز لها الا ان تتبزز هذه الفرصة لتتمتع بميزات الحياة على أية صورة اقبلت فأراك قد اسأت الاختيار لنفسك اساءة كبيرة لا يكفرها الا التنازل عن هذه الكبرياء اللهم الا اذا كنت تفضاين البقاء فى البؤس والشقاء !

* * *

دخلت غرفتى لأخذ راحتي من النوم بعد انتضاء السهرة فأرقت وجعلت هذه الافكار تلعب بلي فاطاردها وأزن واقيس بين الاحوال وكان حب الفضيلة تارة يغلب وتارة يغلب لكن لا اكنتمك ياسيدى حالى بل اقول انه انتصر اخيرا شيطان

الطمع وحب الدنيا على حب الفضيلة في نفسي وكان ناصره كلمات هذه الداهية صاحبة البيت ونصائحها الشيطانية (اراك قد اسأت الاختيار لنفسك اساءة كبيرة لا يكفرها الا التنازل عن هذه الكبرياء اللهم الا اذا كنت تفضلين البقاء في البؤس والشقاء » فعشيني النوم ونفسي تقول « علام عدم الخضوع لاحكام الزمان انى سأعمل بأشارتك ايتها المرأة واتنازل عن كبريائي وسأوفي لك اجرتك المتأخرة عندى كلها والديون التي على غيرك ... »

« فلما اصبح الصباح تزيت ولبدت اخزما عندى من الثياب وانا مصممة في نفسي على الرضا بحكم الظروف وتصور ياسيدي كم كوّن عندى الخيال في هذه الحال من ضروب الآمال وتبدل الحال من بؤس الى نعم ومن فقر الى رخاء وغبطة ... » « توجهت بهذه العزيمة وتلك الآمال الكبار الى مكان الخدمة فلما رأيتي اسمعتنى كلاما قارصاً ووبختنى توبيخاً شديدا لاضاعتي ماسمتها (الفرصة التي كانت لى بحلوان) فاعتذرت واطهرت لها انى انما استقلت المرتب وما اتحت الاسباب الاخرى الا لذلك » وجاءت نسوة كثيرات وهن باختر الحلي والحلل فانضممت اليهن وصرت تحجب لهن واتودد اليهن بعد أن كنت اشمئز من رؤيتهن فأخذن يتحدثن فيما بينهن بما يصنعن ويلعبن بألباب الرجال ويقارن بين حالتهن الحاضرة وحالتهن التعيسة الماضية جذلات فرحات ممتخرات فازدادت نفسي تشبثاً بالآمال وتوقاً الى السعادات واللذات وما كانت يا سيدى علم الله الا التسجيل على نفسي بالبؤس والشقاء بل والتعجيل بالعمر وهنا اتعبها الكلام مرة اخرى فاستراحت هنيئة جعلت في اثنائها تسعل سعالا دلتى على ما دخل صدرها من الداء العضال فجعلت انظر اليها بعين ملؤها الشفقة فاهمت ذلك منى وقالت :

لا تعجب يا سيدى فان من يسلك تلك الطرائق القدد الفاسدة يعرض نفسه للامراض الخطرة والادواء القتالة من كل نوع لانه لما لم يملك لنفسه راحتها اضطرارا لا جرم يصيبه ما قد اصابنى ... ولأعد الى اتمام حديثي :

« مكثت اسبوعا بين تلك الغوانى بلا عمل فعلمت منهن اشياء كثيرة من اتقان

الزينة والتبرج بل وتعاطى الخمر وكنت اخرج مع بعضهن الى الاسواق والمنزهات تارة ماشيات على الاقدام وتارة راكبات المركبات او الترام وايما سرنا نكن موضع استلغات الانظار ومغازلة الرجال . . .

« ثم دخلت الخدمة عند بعض الشبان في حي الظاهر فكنت فيها لا موضع عناية واكرام بل موضع ذل في الحقيقة وامتهان فزلت وضيت من السهر والشرب والتدخين وبالرغم عما نلت من الثياب والحلي والدرهم فاني كنت لا اقدر ان اسدد ما ركبني من الديون وفضلا عن ذلك فقد تسلط علي صويحباتي ممن كن على شاكتي فكُن يأتيني يتترضن مني تقودا ويستعرن مني حلياً ويكافئني بالذهب معهن الى الرياضة والنزهة بالمركبات في الجزيرة وأثرن بالتملق والدهاء على عقلي واسرن بالخداع لي في الجرى على أهوائن فاعتراى من هذا وذاك مرض شديد لم يسع من كنت اخدمه ازاءه الاطردى فذهبت الى بيتي وبقيت زمناً اتقلب على فراش الموت لا يزورني احد ولا يسأل عنى انسان من صويحباتي اولئك اللاتي كن وكنت اتودد اليهن ثم ابليت من عناني الا ان السعال لزمى والحمي صارت من حين الى حين تعاودنى لكن لما انا فيه من الفقر والعدر صرت البس ملابسى واتبرج تبرجى واتوجه الي الخدمة الا ان هذه المرأة القاسية القلب لما تحققت من مرضي جفتى وطردتني وجفاني صديقاتي وجعلن يبتعدن عني وينفرن مني ولا تأخذهن الشفقة عليّ وقد امرنى الطبيب بالتروض والابتعاد عما كان السبب في اعتلال صحتي من الامور . . . وان آكل واتعدى ولكن ما الحيلة والي من الجأ ومن من الناس بشفق عليّ ويسولنى برا بالانسانية وجبا بوجه الله تعالى ؟ فنحن نحن التعميسات البائسات . . .

فما كادت تم هذه العبارة حتى ذرفت عيناى الدموع تأثراً وحزناً على ماسمعت من حديثها فمدت اليها يدي ونفحتها بشيء من الدراهم تستعين به في الحال وانصرفت مسرعاً وانا اقول في نفسي « تبا لآباء هذا العالم تخدعهم الظواهر ويعددهم عن الخير حب الذات ويشقون باتباع الشهوات وامثال هذه الفتاة هن كما قالت هن باخقيقة التعميسات بيدنا البائسات»

تم الجزء الاول من أحسن القصص والحمد لله

	صفحة	فصول
التعارف	٣	١
ومن يعشق يلد له الغرام	٩	٢
بين الوهم والحقيقة	١٤	٣
محاضرات الاميرة يراعة (السعادة)	٢١	٤
محاضرات الاميرة يراعة (الخيرات الظاهرة)	٢٧	٥
تحت سفح الهرم	٣٢	٦
محاضرات الاميرة يراعة (الخيال أو التصور)	٣٩	٧
محاضرات الاميرة يراعة (الشهوات)	٤٥	٨
محاضرات الاميرة يراعة (العواطف)	٥١	٩
محاضرات الاميرة يراعة (الفكر)	٥٨	١٠
محاضرات الاميرة يراعة (الحياة العملية)	٦٤	١١
بين زوجتي والاميرة	٦٩	١٢
محاضرات الاميرة يراعة (الاخلاق والفضائل)	٧٦	١٣
تعلق اسرتي بالاميرة	٨١	١٤
محاضرات الاميرة يراعة (العالم وهيئة الاجتماعية)	٨٨	١٥
في السينما وجراف	٩٤	١٦
محاضرات الاميرة يراعة (السعادة في المجتمع الحالي)	١٠٠	١٧
محاضرات الاميرة يراعة (نعيم الحياة وشقاؤها)	١٠٧	١٨
وليمة الاميرة	١١٣	١٩
على ضوء القمر	١٢٠	٢٠
كتاب ابنتي وعودها	١٢٧	٢١
البأسات	١٣٥	

— ❧ — جدول بعض الخطأ وصوابه ❧ —

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	٩	ففضتها	ففضتها
٥	١٨	فلتقتي	فلتقتي
٨	١٦	هنيية	هنيية
١١	٧	اذا	اذ
١٨	١٦	اخوة	اخوات
»	١٩	اخوتي	اخواتي
١٩	١٠	»	»
٢٠	١	الجمال	الخيال
٣٥	٨	فيلا	فيلة
٣٧	١	يصرف	بصرف النظر
»	٤	كيوتها	كينوتها
٤٠	١١	الحبابة	الحباه
٤٥	١٤	ثورة	سورة
٦١	٢٠	المطبق	المطبق
٧١	٢	غزارة	وغزارة
٩٤	٨	أعدا	أعدتا

وقد أهملنا بعضاً من الاغلاط المطبعية كما لم نذكر ما تدورك تصحيحه في بعض النسخ فنسأل القارئ المعذرة .

أَسْرَارُ الْقَصَصِ

على يد

رواية

أبنتي سنية

(تأليف)

صاحبة السنين

﴿ حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ﴾

(الجزء الثاني)

﴿ القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ — ١٩١٠ م ﴾

من النسخة ٦ صاغ

مُطْبَعَةُ مَدْرَسَةِ وَالِدَةِ عَبْدِ الْأَوْلَى

(بادارة اوقاف الحامية بشارع خيرت بالطريقه الشرقيه بالناهره)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ﴾

رواية ابنتي سنينة

— ❖ — ١ — ❖ —

نشأتي

منذ أحسست بوجودي في هذا العالم وعرفت ذاتي رأيت اسرتي
تتركب من ام كانت تعطف علي عطفاً تكاد تلمس سعادة نفسي به باليد وأب
يحبني حبا جما تنفذ سهام نظراته الحنونة الى أعماق قلبي فأسر بذلك وأغبط به
وأشب بين ذراعي هذه الام العطوف وذلك الوالد الحنون لا ينازعني هذه
السعادة والتدلل بها الا أخ صغير كنت أحبه من كل قلبي أيضاً
ولقد كان أبي يتولى تعليمي القراءة والكتابة بنفسه وامي تربيتي التربية
الانزلية الاولى اللاتقة بسني ولكن لاشتغال أبي بالنأليف والتصنيف أشار
عليه بعض الاصدقاء ان يرسلني الى المدرسة السنينة منذ افتتاح السنة الدراسية

القادمة ولكي اكون على استعداد لسنها الاولى الابتدائية أشار عليه ذلك الصديق أن يحضر لي معلماً « يرضى بالقليل » فألتقى عليه ما يؤهلني لتلك السنة المكتيبة فسمع أبي مشورة صديقه وعمل بها وشاركني أخي الصغير في تلقي الدروس على ذلك المعلم الماهر الذي أحضره أبي

وفي أوائل شهر اكتوبر عام ١٨٩٩ دخلت المدرسة السنية وهناك اكبت على تلقي دروسها بالاجتهاد والنشاط التام حتى صرت أولي تلميذات فرقتي وظللت في هذه المدرسة أربع سنوات كنت انتقل فيها من سنة لسنة حتى حصلت الشهادة الابتدائية ولى من العمر أربعة عشر ربيعاً كما تدل عليه تلك الشهادة وكنت أبيت بدارنا التي كانت على مقربة من المدرسة وعند ما حصلت على تلك الشهادة ورأى أبي في الجريدة الرسمية اسمي في الناجحين حضر اليّ وهو يكاد يطير فرحاً فدخل عليّ وعلى والدتي ونحن جلوس في غرفة جلوسنا الاعتيادية ونخيط بعض الملابس فقال بغير باسم ومحيا طلق :

— اهنتك يا بنية فقد رأيت اسمك في الناجحين فقامت اليه عند ذلك

وقبلت يديه وشكرته فعانقني وعانقتني امي وطار أخي فرحاً فكان يوم سرور وفرح في دارنا لا مزيد عليه وجعل أخي يقول لابي « وأنا أيضاً يا بابا سأجتهد وأتحصل على هذه الشهادة الابتدائية وما فوقها »

وظفق أبي وامي يتحدثان وقد أشعل أبي سيجارته وأبرقت اسرته فقال لامي :

— ان سنية قد بلغت الآن الرابعة عشر من عمرها وقد حصلت على الشهادة الابتدائية واني افضل الآن أن تبقى بالبيت وتولين أنت تعليمها

وتدريبها على مهامه فان هذا خير مانصنع معها وانك بعنايتك بأخلاقها تصير لك نعم العون ونعم ماتصنعين معها اذا أنت عودتها الفضائل وسموت بنفسها الى مستوى فضليات النساء المتصفات بالمكارم فاصحى نفسها وهذبي خلقها حتى تكون ذات كفاية لتدير بيتها واسعاد حياة ربه ولا أزيدك ...

فشعرت عند ذلك بأني صرت فتاة كاملة لا طفلة صغيرة وان أبي يعنى بقوله « واسعاد حياة ربه » ذلك الزوج الذى سيختاره الله لى وأعيش معه تحت سقف واحد سنة الله في بنات حواء وان التربية لا يقصد بها بالنسبة لنا معاشر القتيات في الغالب الا تلك الغاية

مرت هذه الخواطر على فكرى وكنت أتلذذ بها وافكر في تلك الحياة المستقبلية بكل هدو وسرور أما امى فجعلت تنظر الى كآنها تستكته ما يجيش بصدري من تلك الافكار ثم أجابت أبى قائلة :

— سأبذل جهدى يا عزيزى لتدريب ابنتي وتعويدها ما ذكرت على انى أرى من خصالها وسلوكها الى اليوم ما يسرنى ويعيننا على ما نطلب لها من الحياة السعيدة ، ان الحياة كلها سلسلة من التربية فكل سنة من وجودنا انما تكون خلاصة ما سبقها من سنيننا وتمهيداً لما يستقبلنا من الايام وكل سن يا عزيزى له وظيفته وارتباطه بما بعده من العمر والحوادث حوادث العالم بين هذا وذاك عبر لا تنتهي ودروس لا تنفد والقلب البشرى اما ينبوع كريم أو مصدر خيىث تبعاً لمنازع نفوسنا حيال الحوادث والاحوال الاستفادة منها وانى موقنة بأن قلب ابنتي لا يحوي غير ما يسرنا اليس كذلك ياسنية ؟
فعراني الحياء واحمرت وجنناى خجلا وقد نفذت كلمات امى الحكيمة

الى أعماق قلبي فأجبت متلعثمة :

— نعم يا اماه ... اني عند ظنك بي

فقال فتحي أخي وهو يضحك ملء شذقيه :

— وأنا أيضاً يا اماه قلبي لا يجب الا الجهد والاجتهاد والخير ويكره

الشر ، أنا كذلك عند ظنك بي .

فتبسم أبي واما وقاما الينا فعاتفانا ولا تسل عما لحقنا جميعاً تلك الساعة

من السرور والسعادة ثم دار الحديث في شؤون اخرى لم تعلق بدا كررتي

لأنني كنت في واد آخر من الافكار ، كنت افكر فيما يجب على القيام به

تتيمنا لرغبة والدي ولكي ازكي شهادة تلك الام الحنون في أمام أبي ذلك

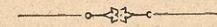
الرجل البار الذي أراه دائماً مكباً على المدرس والتأليف ليخرج للناس جواهر

ما عنده من ضروب الادب وعيون الحكمة ، فلم لا اكون ابنته الصالحة ،

لم لا اكون انثال الحي والنموذج الصحيح لما تحوى نفسه من الفضائل

ويخرجه للناس من الحكمة ؟ تلك كانت خطرات افكاري هذه الساعة

والهناء والسرور والأمل يملأ قلبي



زواجي

أقمت مع والدي في أهنأ عيش وأطيبه أتلقى دروس البيت العملية على

والدي وأسمع من أبي أكرم الآداب والحكم مدة ست سنوات اخر الى

أنت تعرف أبي بأميرة لا كالأمرء ، أميرة حوت الفضل والنبيل والعلم الصحيح فنبتت من أجله زخارف الدنيا ولذات العالم ، أميرة لها من اسمها العجيب البديع أوفر نصيب أعنى بها الأميرة يراعة ذات البراعة . تعرف أبي بهذه الاميرة حيث أرسلت له رسالة دعته فيها الى حضور ناديها في أواخر عام ١٩٠٨ لما بلغها عنه من الفضل فجعل يتردد بالزيارة عليها في جمع من فضلاء المصريين يتلقى عنها دروس الفلسفة العالية والآداب والحكم الغربية والشرقية السامية ثم أتبع لي ان تعارفت أنا وامي بهذه الاميرة بواسطة أبي فرأيت فيها فوق ما كان يصف لنا من علمها وفضلها وكان لها ابن اخت يقال له الامير عقيل رأيت فيه ورأى في ما تشد من الاخلاق الطاهرة وكان اسرتينا لحظنا منا العطف والحب فأسرعتا بتزويجي به

ولقد سافرت معه على أثر زواجنا ومعنا الاميرة خالته الى الصعيد لمشاهدة آثاره البديعة على ذهبية في النيل وكان ذلك على أثر عقد زواجنا بيوم واحد مما كدر امي وأبي كثيراً كما ظهر لي من حالتها حين ودعاني لانهما لم يعتادا فراقى منذ رزقهما الله بي على أني لم البث ان أرسلت اليهما رسالة من أسبوط فاطمأنا وقاما بما كان مطلوباً منهما من تهيئة بيتي وتأثيثه كما هي العادة الى حين عودتي الى القاهرة

ولا أطيل على القارئ في ذلك وانما أعود الى سيرتي مع زوجي الامير عقيل بك ابن الاميرة حكمة الشهيرة باوروبا وخالته الاميرة يراعة وما شاهدته من أحوالهما وكريم عواطفهما وحالتي في بيتي الجديد مما جعلني سعيدة بهذا الزواج الذي أتاحت لي يد المقادير وما اختارت لي الا ما كنت أصبو اليه

وتمناه اسرتي لي من السعادة والهناء

لما ارتبطت بالاميرة يراعة وابن اختها عقيل بك وسافرت معها الى الصعيد ولا أحد من اسرتي معي زاد تطفهما وعنايتهما بي وكانت الاميرة تقوم لي مقام الام الحنون وزوجي الامير عقيل يكاد يطير بي فرحاً وسروراً وقد رأيت منهما أدباً جماً وفكراً سامياً خففاً عنى فراق بيت أبي وحينما عدنا من سياحنتنا الى القاهرة رأيت بيتي أي مسكني بدار الاميرة قد فرش باجمل ما كانت تصبو اليه نفسى من الأثاث والرياش الفاخر ونسق كل شئ فيه باتقان وحسن ذوق ارتاحت له الاميرة وزوجى وزاد سرورى اجتماعي بابى وامى وأخي وكانت الاميرة لفرط حبها لي لاتفارقني ولا افارقها وكان يزداد سرورها عند ما تزورني امى وابى الذى كانت تجله الاميرة وتفضله على الكثيرين من أصدقائها وكنا نقضى مجالسنا وسهراتنا تارة بمنزلى وتارة عند أبي وكثيراً بنادي الاميرة يراعة لاتعدى أحاديثنا وسمرنا أرق ما يعهد فى الباب وأسماها فكراً وأدباً مما شعرت معه باتساع نطاق معلوماتى ومعارفى وسعادتى

وعند ما كان يحضر الى نادى الاميرة أصدقاءؤها تنزل اليهم فتسمعهم ويسمعونها من درر الاحاديث ما لا أقدر أن اصف اغتباط نفسي به وبالجملة فانى صرت بهذا الزواج والارتباط بالاميرة يراعة سعيدة : زوج يحبني وأحبه واميرة قريبة له جمعت علوم الاولين والآخريين وأب وام عواطفهما نحوى هي عواطفهما

ولقد كان يزورنى في غضون ذلك الكثيرات من صديقاتى وصديقات

اسرتى مهنئات لنا فاجتمع عندى ذات يوم سبع زائرات من اولئك الصديقات المتعلمات والامهات الكريمات فدخلت علينا الاميرة فقمت ووقن لها فسلمت عليهن بدشاتها المعهودة ثم جلست وجلسن وهي بينهن كالقمر حفت به الكواكب السبعة وكأنها تذكرت وعداً وعدتية من أمها ستقوم لنا معاشر بنات مصر بمحاضرات كمحاضرتها التي ألقتها على أصدقائها من الرجال وقد تحدثت بذكرها الركبان .

فقالت وهي تبسم — أذكرين يا عزيزتى ما كنت عاهدتك عليه من القاء محاضرات تتعلق ببنات جنسنا اللطيف ؟
قلت — نعم أيتها الاميرة الجليلة ونعم ما تغالين
فقالت وقد التفتت الى اولئك الصديقات :

— وهل يشرفنا بحضورهن هؤلاء السيدات كما سيسمعها كثيرات من اسر أصدقائى ؟

فأجاب اولئك الأوانس والسيدات، من أصدقائى بالرضا والارتياح فقالت الاميرة وقد ابرقت اسرتها كمن ظفر بالمبتغى
— اذاً فلنبتدىء منذ يوم السبت القادم أى بعد غد ولنجعل ميعاد مسامراتنا أيتها السيدات من الساعة الثالثة بعد الظهر أى بعد أن تكون قد انتهيتن من مهام بيوتكن واولمن انى موجزة مسامراتى هذه مقسمة مباحثها أقساما عن حالة المرأة بوجه عام فيما يختص بحالتها وما لها من الاعتبار فى الهيئة الآن وما ينبغي ان يكون لها من المنزلة ثم طفولة البنات وسن بلوغهن وما يندمج تحت هذا من ضروب التربية ثم فى الزواج وواجباته والامومة

والكهولة والشيخوخة شيخوخة المرأة ولقد قدرت عدد هذه المحاضرات أو المسامرات الموجزة المنقيدة بخمس عشرة مسامرة أو درسا تستغرق من أوقاتكن خمسة عشر يوما أو ساعة من يوم فهل تسمحن لي بها من أوقاتكن الثمينة لأسمعكن تلك المسامرات ونحن في بلد أحوج ما يكون أهله الى تربية نسائهم وبناتهم؟

فقلن جميعاً وقد علت وجوههن علامات البشر والارتياح
نم أيتها الاميرة الجليلة ونحن نشكر لك عنايتك ثم قام اوائك الزائرات
من صديقاتي وهن يهنئن أنفسهن سلماً بسماع أحاديث الاميرة يراعة الشائقة
وعاهدت أنا نفسي بان أوشي هذه السيرة وأزينها بها



حالة النساء الحاضرة^(١)

﴿ من مسامرات الأميرة يراعة ﴾

ما وافت الساعة الساعة الثالثة من أصيل يوم السبت الذي ضربته
الاميرة يراعة موعداً لمحاضراتها النسائية حتى اكتظت القاعة المعدة للخطابة
بدارها بفضليات الفتيات وكرائم السيدات وكنت أنا اقابل كلا منهن بما
يليق بمقامها وأجلسها المجلس اللائى بها كما أوصتني الاميرة التي لم تلبث ان

(١) هذه المسامرات ملخصة مما كتبه مدام نيكر وغيرها ومشاهدات وآراء لمؤلف هذه الرواية

أقبلت علينا تحف بها المبهابة والجلال فقام لها اولئك السيدات وصاحفها وصاحفهن
 يبشأها المعهودة وأدبها الجلم ثم جلست يمين برهة تحيين وتلاضفن حتى سبت
 عقولهن ثم اعتلت منبر الخطابة الذى كانت أعدته لتلك الغاية فانصت لها
 الحضور وشخصت اليها الابصار فقالت بطلاقتها المشهورة وبلاغتها المعهودة :
 « أيتها السيدات الفاضلات :

« لست في حاجة الى تعريفكن ان في درس حياة بنات جنسنا معرفة
 حظ الوجود الانسانى وسعادة الجنس البشرى برمته ولا أنطوح بكن في
 مجاهل التاريخ وانما أعطف على حالة المرأة الراهنة فأقول انها قد فككت على
 نوع ما من عقالها ونالت بعض مالها من الحقوق من حيث التمتع بالحرية
 الشرعية نعم ان الذماء قد خرجن بموجب النظام من حق تدبير المهام السياسيه
 وخفت عن العالم وطأتهن فيها كما خفت عنهن أثقال ثقافته ودهانه من هذه
 الوجهة فاقصر حالهن على ما هو اليق بهن وأجل لهن وما كانت تلك الحال
 لهن الا اغتصابا لحق الغير في رأى حتى لا أجرح احساسات المطالبات بحقوق
 الانتخاب الآن في انكثرا (ضحك) ان للنساء في اعتقادي عملا غير هذا في
 الهيئة وأثراً اجل وأعظم وان الهيئة الاجتماعية اني حاجة اليوم الى اتقان ذلك
 العمل من جانبنا كواجب علينا وأن ننبذ الشطط باغتصاب حق الغير والافراط
 في الامور الفارغة ولن يكون ذلك على أحسنه الا بالتوفر على الدين والادب
 وذات الدين ممدوحة — لانه يعصمها من الشطط والزلال والخروج عن القيام
 بواجباتها وأعمالها وصونها .

« لكن توفر هيئتنا الراهنة على امور الحضارة الكاذبة قد أفسد حالة

النساء وكل من تعلمن ما أعنى به من التبرج السمج والزينة الباردة والارتياح لسماع اطراء ومدح الرجال الكاذب الخادع أما ذات الدين والأدب فلا يغرر بها قط ذلك السراب ندم المرأة خلقت شديدة العواطف عظيمة الحب كثيرة الاعجاب بنفسها والدل ليعطف عليها قلب الرجل فيكون لها ثم القوة لكن ذلك قد بينت الشرائع والنظامات مواضعه الموجبة لتآلف الجنس البشرى وتحابه أما لو صار الامر فيه فوضى فلا جرم يفسد النظام وتتداعى ابنية الهيئة الاجتماعية وتسقط الى الخيض لهذا كله وجب الرجوع الى التربية ولا أعنى بها التعليم المدرسى السطحي وإنما أعنى تربية الاحساسات الفاضلة والعواطف الدينية الكريمة والتوفر على الكمالات النسائية وحالة المرأة الراهنة ليسمح لى بنات جنسى ان أعيها عليهن ولا أعيب مدارس البنات لان لها بروجرامات محدودة وقاصرة وإنما أعيب الاسر ذوات المصلحة ، اعيب الهيئة الاجتماعية الحاضرة التي ساعدت أو نافقت أو حطت من منزلة المرأة فأوقعها في الحالة المرزية التي هي عليها الآن .

« فالمرأة اما ملك كريم أو شيطان رجيم وانا لو عيننا بيناتنا وسهرنا على تربيتهن وتهذيب نفوسهن بصرف النظر عن العلم لنمت فيهن الاحساسات الكريمة ولعظمت حياتهن الادبية ووزناتهن في أعين أبناء الهيئة ولسمت آداب هذه الهيئة وصلحت أحوالها وقلت شياطينها من الرجال والنساء . . . »

« لا تضحكن أيها السيدات فاني اقرر حقائى راهنة تؤيدها المشاهدات الكثيرة ان المدينة ليست فى التبرج وكثرة الزينة وإنما هي فى ايداع النفس الكمالات واشعار القلوب بالآداب السامية الدينية والديوية أى فرق عظيم

ترين حضراتكن بين فتاة متعلمة تعليماً كثيراً يساعدها على مطالعة الكتب والروايات والصحف بسهولة ويمكنها بواسطته أن تكتب برشاقة فتقضي أوقاتها لتجرد نفسها من الكمالات النفسية الصحيحة في مطالعة أخبار العشق والغرام ومراسلة الاخذان والتوفر على الزينة والتبرج والخروج الى الاسواق بلا احتشام لتسمع النفاق أى الشناء عليها بكل شفة ولسان بارتياح وبين تلك الفتاة البسيطة التي لا تعرف غير تدبير المنزل مع امها والكمال النفسي فيعروها الحياء حتى من ظلها فاذا خرجت الى الاسواق أنت مما تسمع ومررت به من الكرام ألا ترين حضراتكن ان هذه الفتاة البسيطة الجاهلة المحافظة لكمالها النفسى أفضل من تلك المتعلمة الطائشة الحمقاء ؟ اني لا اقرر ذلك حياً بالجهل أو تفضيلاً له على العلم كما سترين وانما أبسطه لآظهر ان العلم المدرسى غير ما يراد من التربية للبنات بل وللصبيان وان هذه الاحوال المرزية المشاهدة لا بد لنا من مناهضتها بكل الوسائل حتى تزول من بيننا ، اننا نعيب على نساء اوربا بسبب كثرة الفساد الضارب أطنا به هناك ولكن قارن بين تبرج الاوروبيات وتبرج المصريات ترين اننا قد فقناهن في الزينة والتبرج وجمعنا بين مساوى الشرق والغرب معاً

« هذا ما قصدت مسامرتكن به اليوم أيتها السيدات الفاضلات فمكرن فيه جيداً ولا تؤاخذننى اذا كنت قد آلمتكن أو جرحت احساساتكن به واعلمن أنى من بنات جنسكن فما طعنت به عليهن فهو موجه الى واني لم أرد به الا الاصلاح فهل ترغبن عنه ؟

فقلت النسوة المجتمعات وقد نزلت الاميرة عن منصة الخطابة وتحفرن

للخروج — حاشا وكلا وانما نحن نرغب فيه من صميم أفئدتنا « فلتعش
الاميرة يراعة »



الحط بمنزلة المرأة

﴿ من مسامرات الاميرة ﴾

جاء ميعاد محاضرة الاميرة في اليوم التالى فحضر السيدات وامتلات
بهن القاعة وكلهن فرحات جذلات متشوقات لسماع الاميرة يراعة ثم جاءت
هذه الاميرة فحيت الجميع بثغر باسم وصعدت منصتها وانطلقت في محاضرتها
بما نصه :

« أيتها الكريمات :

« احدثكن اليوم عن الوهم السائد في الحط بمنزلة المرأة وتاريخ هذا
الانتقاص من اقدارنا يرجع الى ضعف المرأة عن الرجل طبيعياً ولكن هل
هذا يمنع من النظر اليها نظر النظير الى النظير والنساء نصف الجنس البشرى
وعليهن نصف حمله ثم ايجاده ؟ هذا سؤال يجب العناية بحله واحلاله مكانه
« يقولون ان المرأة ما خلقت الا ظرفاً أو معوناً أى اداة يمكن استبدالها
فهي بهذا الاعتبار لا قيمة لا وهذا الوهم السائد في منزلة المرأة قد بنى عليه
كثير من شقاء العالم واضطرت معه المرأة ان تتصنع وتجمل لتعجب حتى

تعيش مع الرجل الذي يحط بقدرها ويخسها حقها ويرميها مع ذلك بالتقائص في حين أنه لو عني بها وعرف لها قدرها ومقامها لانتفى كثير من الشرور في هذا العالم وبؤس أناسه ولكن يا الأثرة أثرة الرجال وهضمهم لحقوق تلك البضعة منهم مما يصنعان !

« ان مساواة المرأة بالرجل مما نزلت به الشرائع السماوية الا في أمور جزئية تافهة وقد عرف لها الشرع الاسلامي حقوقها وأوصى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ولكن العادات والتقاليد الموروثة عن الجاهلية باينت الحكم الشرعي وسلطات القوى على الضعيف فضعف الاثنان وشقى الجنسان واذا كان الشرع انزل والسنة المطهرة يرميان الى التسوية لحكمة سامية ومقاصد شريفة لصالح حال المجتمع فالواجب اذاً ان يؤخذ بالجواهر مما يرمي اليه الشرع ، الواجب ان تكون تربية النساء عمادها كتربية الرجال تنمية القوى الرئيسة في الجنس اللطيف حتى لا يعيش مع الجنس القوى معيشة خوف بل يعيش معه عيشة من يعمل بوظيفة له شاعراً بعظم مسؤوليتها ومصالحه يرتجى نفعها فمن تم توفر السعادة ويشد عضد القوى العاملة في الهيئة بالاخلاص » فما ورثته الهيئة الاجتماعية من الحط بمقام المرأة شائن ثم ضار لانه يلجئ المرأة ان تعمل بالخوف ثم بالحيلة وان تصنع وتتجمل لتعجب الرجال بجملها الظاهر لمصالحهم هم لا لمصالحها هي كما قال الفيلسوف روسو « كل تربية للنساء ينبغي ان يقصد بها مصاحبة الرجال حتى يهجنهم وينفخهم ويحبين اليهم وتعظم اقدارهن في اعينهم فيرينهم صغاراً ويمنين بهم كباراً وينصحنهم ويسلينهم ويزين حياتهم ويلطفنها تلك هي واجبات النساء في كل زمان ومكان وهذا

ما يجب تعليمهن اياه منذ الصغر» أقول نعم ولكن للمرأة حقوقاً فلها أن تعمل لذاتها وللرجل كما ان للرجل ان يعمل لذاته وللمرأة والا انتفى العدل وترجحت كفة موازينه لجانب الرجل

« ان للمرأة نفساً وبدناً وحقوقاً والرجل في العالم ما برح يعتبر المرأة ما خلقت الاله ولكنه لم يفقه الى الآن أنه ما خلق هو أيضاً الا لها وبعبارة أخرى ان لا يخسها اشياءها ويعرف لها قدرها بهذا يسقط عن المرأة كثير من الجهودات أو السفاسف التي تأتيها لتعجب ، بهذا يمكنها ان تثق بنفسها وتؤدى وظيفتها كاحسن ما يكون، بهذا أخيراً تصلح أحوال الهيئة والذرارى ولا يقع الحيف والظلم وانتقاص الاقدار والحط من منزلة المرأة وهضم حقوقها وهي لعمر الحق والانسانية تصف هذا الجنس البشرى الذى كرمه الله

« ما هذه الضجة التي نراها حول مسألة الحجاب أو النقاب واقترح تغييره وجعله سميكا أو خفيفاً أو أبيض أو اسود؟ أليس هذا من وجه من قبيل الدفاع عن النفس والخوف على سلب اشياء الغير ؟ فلو عرف الرجل للمرأة حقوقها أترين حضراتكن أنها كانت تحتاج الى كل هذا العناء؟ أترين ان الرجال لو أنزلوا المرأة منزلة الند للند كانت تحتقر عندهم لدرجة التعدى عليها والضحك منها أو اعتبارها فتنة وما الفتنة الا ما حوت نفوس الرجال من هضم حقوق النساء وامتهانهن والنظر اليهن آخرأً بالاحتقار»

وما أتت الاميرة يراعة الى هذا الحد من كلامها حتى اغر ورقت عيناها بالدموع فتأثرت السيدات المستمعات وبكين ولكن الاميرة ما لبثت أن امتلكت نفسها فقالت اتزيل اكدار هؤلاء السيدات

« واكننا بحمد الله قد اضحينا في عصر يمكننا فيه نيل حقوقنا معشر النساء ،
 انا لا نريد ان ننازع الرجال حقوقهم الخصيصة بهم ولكن يمكننا ان نعرفهم
 اقدارنا ومنزلتنا في الوجود وان لنا تقوساً وحقوقاً وهذا نناله بالتعاقد فيما
 بيننا على ازالة الاوهام السائدة والفساسف المنتشرة وليس واحده منكن
 تجهل ما اريد من بذل الجهد لانماء قوانا والتغلب على أنانية الرجال باللجوء
 الى ساحة العلم والادب والدين فتصالح احوال الاسر والبيوت صلاحاً ما بعده
 صلاح فهل أنتن توافقتن ؟ »

فاهزت أركان القاعة بقول السيدات الحاضرات « نعم نعم انا نريد
 ما أردت ونعمل بما به أشرت »

وقامت عقيلة فاضلة من الحاضرات فشكرت للاميرة راعة بكلام عذب
 استحسنته جميع السيدات وتحسنت له ولقد كان من مقالها « الى متى أيتها السيدات
 البقاء في هذا الشقاء فالاميرة قد بينت لنا بافصح مقال ما لنا وما علينا فلنجهتد
 اذا ولنسعى لانفسنا بانفسنا » فقالت الاميرة عند ذلك

— وهذا قليل من كثير مما سأحدثكن به وستسمعن مني في مسامرة
 الغد ان شاء الله تعالى ما يطر بكن عن حقيقة وظيفة المرأة
 ثم قامت وقام السيدات وكنت أنا في غاية السرور والاعجاب والافتخار
 بالاميرة ونسبها مما زاد اعتباري في أعين صو محباتي





وظيفة المرأة

﴿ من مسامرات الأميرة ﴾

وفي اليوم التالى اجتمع السيدات وقد زدن تشوقاً الى سماع دروس الاميرة اى مسامراتها فالتقت عليهن هذه المسامرة في وظيفة المرأة وهي المسامرة الثالثة قالت :

« أيتها السيدات :

« ان الرجال قد احدثوا كل ما هو مشاهد من آثار المدينة وهي وظيفتهم اللاتقة بهم ولئن شاركهم النساء فيها فانما ذلك بالتبعية والواسطة في الغالب ولكن العمل الرئيسى الذى قام به النساء في العالم انما هو انجاب الرجال الذين اثاروا الارض وعمروها فالمرأة بما تعطى العالم من الاولاد وبما تمنح أولئك الاولاد من العواطف ذات تأثير في العالم ولئن كان خفياً لكنه هام جداً وعليه شيد ارتقاء الانسانية أيضاً فهما أي الرجل والمرأة امام الله لذلك متساويان وعلى عملهما بالجزاء الواحد مجزيان ولذلك اتحدت واجباتهما الدينية الا من جزئيات تناسب كلا من حيث خلقته وفطرته

« أن مهام الحياة الكبيرة مسؤولة منها الرجال كحماية الاسرة والدفاع عن الاوطان ولكن هناك الى جانبها مهام النساء الجزئية اللازمة لتلك الحياة فالمرأة عليها واجباتها كما أن لها في مقابلها حقوقها ليتعادل الصنفان . وتأثير

المرأة من هذه الوجهة عظيم في اسعاد حال المجتمع ما دام العمل قائماً بالعدل أى بمعرفة كل حق صاحبه ، وظيفة المرأة تحسين الحياة البشرية ضمن حدود الشرع المشروع بلا استثناء فقيادة الأسر متعلقة بالنساء في الغالب كما أن قيادة الدولة من متعلقات الرجال ، وظيفة النساء تتعلق بتلطيف الحياة الخاصة وتهذيب النفوس ولا علاقة لهن أو بالتالي لا راسة لاحد عليهن الا لمثل الأب أو الزوج ضمن تلك الحدود المشروعة

« هذه الوظيفة هامة جداً وشريفة وثقيلة العبء في الواقع فاسعاد حال الأزواج والاسر وحسن تدبير البيوت وتربية الاولاد كل هذه أعمال تحتاج الى عناية ودقة لان الاخلال بها يجب من الشرور على المجتمع ما الله أعلم بمقدار ضرره والمرأة التي تؤدى وظيفتها على التمام لهي التي يعظم تأثيرها الحسن في محيطها وكلما عظم ذلك المحيط بمثل الزواج وايجاد الاولاد عظم ذلك التأثير وكبر حمله على ربه بشرط أن تكون على استعداد له بالتربية الحسنة والمملكات الصحيحة والدين والتقوى حتى يكون أمرها وأثمارها مبنيين على قواعد صحيحة وتقدير للوظيفة حق قدرها فيكون بيت المرأة التي على هذه الشاكلة جنة بدلا من ان يكون جحيماً على أهله .

« أيتها السيدات لقد تبين لكن وظيفتكن في هذا المجتمع وما كنت لا تطفل على فضلكن بهذا البيان وأنتن بنات بجدته لولا سياق هذه المسامرات على الترتيب الذى اشترطته ولا هميتها على أنى أرى في نساء مصر كثيرات جهلن وظائفهن وهذا ظاهر من كثرة خروجهن من دورهن للزيارات والسير في الطرق بلا موجب في حين ان بيوتهن قد تكون في حاجة اليهن

وشر من ذلك كسهن حتى عن خياطة ملابسهن فمألن جيوب الخياطات الاوروبيات واخلين جيوب أزواجهن ، فمن تكون وظيفتها اسعاد حال الاسر وقيادتها لا ينبغي لها أن تكسل عن خياطة ملابسها وهي من أهم وظيفتها واذا كان الاقدمون قد قالوا — وهو معنى حديث نبوى أيضا — زينة المرأة مغز لها فلنجعل نحن بنات العصر زينتنا « ماكينات » خياطتنا ومن كانت لهذا الواجب مضية فهي لغيره من مهام البيوت أضيع ومن لا تتوفر على عملها لا جرم صح للناس انتقاصها

« أيتها السيدات ليس بيننا الا ان رجل نحشى انتقاده اذا نحن عاتبنا أنفسنا وأظهرنا عيوبنا لتلافيا فاذا قمنا في وجه الرجال مطالبين بحقوقنا المهضومة فلنعرف قبل ذلك واجباتنا اذ الغم بالغرم والاحقت علينا كلمة العذاب أو التعذيب بالجهل ورمينا بانتقاص القدر من قبل الرجال وهذا فيما أرى لا ترضاه امرأة وهننا باب أيضا لمناهضة الرجال حتى تضعف أرتهم وتبطل علينا حججهم . « كم يكون المجتمع سعيداً اذا كانت نساؤه شاعرات بمسؤوليتهن في وظيفتهن عاملات فيها على اسعاده حقيقة ، الأترين انه قد ينقلب احتقاره وخداعه الى احترام واكبار واعظام واجلال فمن المهم والحالة هذه أن تعرف النساء تلك الواجبات بالدقة وأن نشعرها نفوسنا مع الحقوق وان معرفة هذا وذلك والقيام به يقتضى التحلى بصفات فاضلة لا توجدتها التربية المدرسية السطحية وانما توجدتها تربية عائلية ودينية مبنية على الحقائق ، ان المرأة ذات ذكاء وعواطف كريمة ولا ينقصها غير المحرك لا كسابها الملكات الفاضلة والاذواق السليمة وهذا يقتضى عناية أمثالكن لبث المبادئ القويمة والآراء

السيدة والقذوة العملية الحسنة »

وسكتت الاميرة يراعة عن الكلام دلالة على انتهاء مسامرتها في هذا اليوم وكان بودى وبود السيدات جميعاً ان لا تنتهى فقمنا وخرج السيدات وصعدت أنا الى مسكني فلقبني زوجي الامير عقيل بك فقال وهو يضحك:

— ما قالت خالتي لكن اليوم ؟

فأثيت على مسامرتها خيراً فأزداد ضحكاً وقال :

انها انما تعب نفسها معكن أيتها السيدات

فقلت — ولم ؟

قال — لا في كلما ازداد اختباري بالنساء تبين لي أشياء ما كنت أود أن

تكون في نساء هذه الديار خصوصاً

فأجبتة وقد علتني حمرة الخجل والحياء

— كل يعمل على شاكلته يا عزيزي

فنظر الى طويلاً ولم يتكلم .



قوى النساء المميّزة

﴿ من مسامرات الأميرة ﴾

فكرت بعد العشاء قليلاً فيما عنى زوجي بكلامه ولما لم أجد له سبباً في
نفسى نمت مرتاحة كعادتي لسماع مسامرة الاميرة في الغد فلما جاء الغد وجاء وقت

هذه المحاضرة كنت كعادتي على قدم الاستعداد في استقبال السيدات فكانت أول من حضرت آنسة من صديقتي تدعى عديلة هانم وهي ابنة جار لنا يقال له عماد الدين بك وهي لابسة أنفخ الحلل والحلى وقد تعطرت وتزينت وخلعت حين أطلت من باب الحديقة نقابها وأبطأت في مشيها وجعلت تتلفت ذات اليمين وذات اليسار كمن يبحث عن انسان وتضحك ضحكا يسترعى الاسماع مع صديقة لها فرايني شأها وتذكرت كلام زوجي غير أنى لم اعبأ بها لانها كانت مشتهرة بين أربابها بالانزق والطيش فلذلك قابلتها كالعادة وحيثها بالاعتناء ولم أبد لها أقل ملاحظة على حالتها ولبستها التي تنكرها الاميرة وتعيب على النساء المصريات بها ثم جاءت غيرها من الاوانس والعقائل وما أزعج وقت المحاضرة حتى كانت القاعة قد اكتظت بالسيدات وقدمت الأميرة فسلمت عليهن بلطفها المشهور ثم ساقت مسامرتها والعيون شاخصة اليها والقلوب متنفذة حولها فقالت :

« أيتها السيدات المهذبات :

« ان درس المواهب التي وهبها البارى تعالى للناس من حيث القوى العقلية والصفات النفسية من الالهية بمكان عظيم نعم انه لا فرق في الخلقة بين الرجل والمرأة وان مواهب العقل والنفس واحدة في الجنسين ولكن هناك الاختلافات النسبية التي أوجدتها مجريات الحوادث وصارت لازمة على نوع ما أو عرضية يسهل ازلتها أو تنويمها فلقد نرى بالمشاهدة من أحوال الحضارة ان هذه الاختلافات قد عظمت فالنساء مثلاً في تلقين عاداتهن وتربيتهم عن بعضهم البعض واعتياد تزويجهم باكراً أى في أعمار تقل عن أعمار

الرجال لذلك لحقت سرعة التقدم في العمر جنسهن أى النضوج ولكونهن يلدن باكراً أسرع اليهن عواطف الحب البنوى ونحوها ولازمتهن باكراً محبة الزينة والتبرج لانهن رأين ان محاسنهن الظاهرة مما يجلب لمن عطف الرجال ورضاءهم ومن هنا يمكننا أن نحكم بان المرأة الصحيحة السليمة عقلا وبدنا ذهبت وعوض عنها المجتمع . تتحضر صورة من النساء ليست من كل الوجوه طبق الاصل . نعم تلك هي حالة جنسنا في هذا العصر فيجب علينا كما تقدم ان نبين نحن مالا فائدة منه من تلك الاحوال لتعود الينا سيرتنا الاولى المؤسسة على الحقى والواجب المنشود وقد ملكنا الأول وتحتم علينا الثاني . فى النساء تبعاً لتلك الاحوال الموروثة ميل الى التغالي بالاشياء الطبيعية لنيل الرضا والارتياح أى الظنفر الجنى وفيهن تبعاً لذلك عواطف رقيقة قامت فيهن بالحاجة ليحصلن النجاح الذى توهمنه الى الآن وفى هذا الخطر اننا بصفتنا طالبات حق يجب علينا أن يكون التحسين المنشود رامياً الى تحسين النفس والعقل ، المشهور عن المرأة كثرة التأثر والانفعال والمقصود انما هو تقوية العمل فيها فلا ينبغي صرف العناية الى تحسين الظاهر ما لم يكن للباطن أمثالها « على ان هذا المجموع من الصفات التى امتازت بها المرأة مما يسهل عليها قبول الحقائق وعظم التأثر بها ومع أن الرجل اقوى منها على كل حال ويميب عليها نظرهما فى احساساتها وتصوراتها بل ادراكها للحقائق فهى بما أودعت نفسها من الرقة قابلية لان تبهز فى مضمار الحياة من حيث ما يتعاقب منها بها على الاقل ان لم نقل انه قد برع من النساء كثيرات فى كثير من الشؤون وفقن الرجال والتاريخ مملوء بذكرهن على انا لسنا ممن يميل الى

التوسع في تعليم النساء بما لا فائدة لا كثرهن منه بل غاية ما نراه ان يشعرن بوجودهن ويعرفن حقائق الكون الحري بالانسان معرفتها ثم شأنهن الخالص الحسي والمعنوى أى المادى والادبي وهذا كاف ولا أقول للمرأة فقط بل للرجل أيضاً حتى تهض من نفسها وتكون على بصيرة من أمرها

« نحن على يقين من ان تربية عقلية صحيحة حرية بالنفوس الآدمية الخالدة قد تنمي مواهب المرأة وتصلح عواطفها وتسوسها وتؤدى بها الى ما فيه خير الهيئة مما سلبته وظلمت فيه من قبلها حتى الآن وبخست أشتاؤها ، ان في النساء من تسأل بمَ يفضلنا الرجال ونحن وهم مشتركون في كل الصفات الخلقية والخلقية وفيهم كما فينا كثير من الفضائل والذائل أما من حيث القوة العضلية فهناك من هم أقوى منهم وأشد بطشاً ولئن كانوا أخط منهم في التربية والقوى فهناك المتوحشون وهناك الحيوانات العجم فالثور والحصان والحمار أقوى بكثير من هؤلاء الرجال . . .

« فضحك السيدات وقلن اذاً لا فضل للرجال علينا وانا وهم متساوون

في المواهب الانسانية الصحيحة

فقلت الاميرة — نعم ولكن لتلك الوظيفة التي في رقبتنا وللخيرات التي جبلنا عليها والمزايا التي أورثناها ينبغي لنا أن نقف عند حدودنا أى أن نعرف ما لنا وما علينا فالوجود لم يخلق للرجل وحده ولم يعمل فيه بمفرده بل ان جنسنا اللطيف شاركه وسيشاركه فيه الي ماشاء الله تعالى واذا كان الرجال يسعون لاصلاح شؤونهم فعلا مَ لا نقوم نحن أيضاً باصلاح شؤوننا غير متخطيات حدودنا ومقدورنا وما تقتضت به علينا يد القدرة الالهية من العناية

والرعاية وخصتنا به من كرم العواطف فانشكر الله تعالى عليها ونحمده ونعمل
بما وهبنا لخيري الدنيا والآخرة



نقص التريبة النسوية

﴿ من مسامرات الأميرة ﴾

لما انتهت الاميرة يراعة من محاضرتها السابقة صعدت الى مسكني
فوجدت زوجي يطل على الحديقة من الطنف ينظر الى السيدات في خروجهن
حين دخلت عليه قال « أوجئت يا عزيزتي » قلت « نعم » فسكت ثم جاء أبي
فلبث معنا الى قريب من العشاء وكانت بادية عليه علامات الكدر وحين
انصرف همس في أذني قائلاً « يا بنتي احذري بعض صديقاتك » فدهشت
من كلامه ولبثت طول ليلي اضرب احماساً لاسداس « ترى من أى وجهة
احذر وما يقصد أبي بذلك ومن يعنى » فتمت على أحر من الجمر على أني في
الصباح رأيت زوجي يهش لى وحضرت الاميرة فدخلنا في حديث كريم
انساني ما حذرني أبى منه اذا كان ما يعنى انما هو من حيث بث الدسائس
والوشايات من بعض صديقاتي في أذن الاميرة أو زوجي فذلك عدت الى
شوقي وبهجتي لسماع مسامرات الاميرة واستقبال اضيافها أو تلميذاتها وهالك
مسامرتها الخامسة التي سمعتها وأولئك النسوة بلذة وارتياح وختمت بحادثة

دلتنى على من يعينها أبى قالت الاميرة يراعة
« أيتها العقائل والاوانس الفاضلات :

« ان نقص التربية النسوية ظاهر عندنا ظهوراً يكاد يلمس باليد ، اذا
كان الولد سراييه فالبنت لاجرم سرامها أى صورتها الآتية على مثلها وان
شدة عطف النساء على بناتهن وعطف البنات على أمهاتهن لهو السبب الجوهري
في اختلاف التربية عندنا ثم نقصها في الجملة

« بنت لحضرتكن أن النساء أرق عواطف واحساسات وأكثر تصورات
من الرجال وهذا من halمن اذا حسن قيادهن فيه قادهن الى الخير والصلاح .
نعم أن للعادات حكماً عظيماً وتأثيراً كبيراً ولكن هناك في الضمائر مهما كانت
العادات والعواطف والتصورات ما يحكم حكماً صحيحاً على الافعال بالحسن أو
القبح فعلى هذا ينبغي للام ان لا تكون أسيرة العادات الفاسدة في تربية ابنتها
لتخرج مستكملة صفات النساء الصحيحة وهذا من اشرف الاغراض في حياة
المرأة المستقبلية ، ويكبسها القدوة الحسنة في الامور الظاهرة والباطنة ما ترى
عليه أمها . منها فهل الامهات عندنا يصالحن ان يكن قدوات لبناتهن ؟ ان
العواطف والنيات حسنة ولكن الافعال التي تراول لتسمية قوى الفتاة وتربيتها
غير حسنة فالأم تود ان تقدم الى الهيئة من ابنتها فتاة مستكملة الصفات ولكنها
بما قدمت واسلفت من قدواتها التي تأصلت في بنتها لم تقدم للهيئة الفتاة
كغيرها من الفتيات الناقصات فتارة تقدم من ابنتها فتاة صالحة متكبرة معجبة
بنفسها أو بغناها أو نسبها أو بزيتها وجمال صورتها ، وتارة تقدم للهيئة فتاة
حمقاء رعاء طائشة أو جاهلة لا تدرى من أمور العالم شيئاً ولا تعرف من

مصالح البيت أمراً وتارة تقدم لها من ابنتها فتاة ثرثارة أو مهداة أو سبابة
فخاشة وتارة وتارة

« هنا أقف بكن برهة أيتها السيدات لتنظر الذى يجب علينا اذا عملناه ازاء
هذا الحال التعس الفاشى ونحن نريد أن «نصدر» للعالم بنات أى نساء يؤدين
وظائفهن فيه خير اداء؟ ان سبيل ذلك أن تعين الأم المدرسة أو نفسها على
أن تكون بنتها التى تبرزها الى العالم عالم العمل متصفة على قدر الامكان بالمحاسن
والفضائل المرضية ، أن فى هذا النجاح الحقيقى لجنسنا ، ان فى هذا السبيل
الوحيد لنيل الحقوق واجلال الاقدار ، ولو قيل ان العالم بحسب عادته قد
لا يقبل الا ما اعتاده قلت هذا وهم فاسد فان الصفات الحسنة لا تلبث أن
تسود ويعرف لها فضلها ومزيتها بعكس تلك الاحوال التى طالما أرادت اصحابها
سواء كانوا من الرجال أو النساء .

« ليس من صفة فى البنات افضل من الحشمة والوداعة فان صاحبتهما
بتأنيها وتأديها تدرك ما عليها وما لها بعكس الحمقاء والمتكابرة أو تلك التى
طاشت سهامها فى المسرات واندفعت فى تيار النزق وتلير كشبان اليوم وشاباته
شعاعا فالحشمة التى يصحبها الوقار والوداعة التى يحليها الادب هما زينة البنت
بل هما الملجأ الوحيد الذى تلجأ اليه فى الفتن والتجارب اذا نصبت لها شرا كها
فانها قد لا تعبأ بها ولا تلتفت اليها وتمر بخائنات الاعين وسفاسف الرجال
مر الكرام فتصير محفوظة الشرف منظوراً اليها بعين التجلة والاحترام

« ان الفتاة ذات العقل الخيالى والتصور الغريب الاطوار والعجب والخيلاء
مما فشا داؤه بيننا كثيراً الآن انما نعدّها مريضة بمرض المدنية الحديثة

وخداها وغش أناسها وان نقص التربية وضعفها لما يساعد على استفحال الداء
فينتشر العشق الكاذب والهوى الفاسد مما لا يرتاح له الا اصحاب القلوب
الشريرة والنفوس الدنيئة وتفضل معه كما تقدم لى بيانه الفتاة الجاهلة البسيطة
على تلك التى تتربى هذه التربية الناقصة .

فقالت احدى السيدات وهى أم صديقتى عديلة هانم تلك التى لمح
القاري من وصفى لها عند دخولها الحديقة أول أمس أنها من تلك النخلة المطعون
فى تربيتها وصفاتها وكثرة تبرجها وزينها وقلة احتشامها :

— ولكن ما العمل يا سيدتى الاميرة وقد استفحل الداء وتأصل فى
النفوس وجاءته القدوات السيئة من الوسط المحيط لانى ما كنت شهد الله
لابنتى الا خير قدوة ومثال ولكنها نبذت تعاليمى وقدوتى واتبعت سبلا تكاد
تكون كالتى وصفت لنا شرورها وعيوبها

وكانت ابنتها عديلة الى جانبها فامتقع لونها ثم احمرت وجنتاها حياءً
ولكنها لحماقة نفسها التفت الى أمها وقالت بوقاحة

— أنك تعيينى ولكنك تخرفين فلا تصدقها أيتها الاميرة وكونى على
ثقة بأبى لا اقل فضلا عن صديقتى امرأة ابن أخيك

ونظرت الى نظرة بغض وحسد علمت منها فى هذا الوقت ما عني أبى
بقوله « احذرى بعض صديقاتك » وانتهت المحاضرة والسيدات فى دهش
من وقوع هذه الحادثة ولكنهن قن جذلات وودعن الاميرة وانصرفن





مقومات التربية النسوية

﴿ من مسامرات الأميرة ﴾

اترك ذكر شأني مع تلك الفتاة التي كانت عدوآلى في ثياب صديق الى ما بعد الانتهاء من سرد مسامرات الاميرة تقديما للأهم على المهم ففي اليوم التالى قدم السيدان فى الميعاد المحدد فقابلتهن كعادتي بالبشر واللفظ وجاءت الاميرة فألقت هذه المحاضرة وهي السادسة من محاضراتها النسوية الشائقة قالت حفظها الله :

« سيداتي : ان قوى النساء الموجبة لرقين متوفرة فيهن لانها لم تؤد وظيفتها بعد على التمام ففي كل اقطار العالم ما فتئت تربية النساء أحط من تربية الرجال فلم تجد تلك القوى فيهن مندوحة للعمل والاستفراغ فالصعوبات أى الحوائل اذاً خارجية ومرتبطة بنظام الهيئة واعظما قصر الزمن الذى يعنى فيه بتربية الفتاة اذ هي قد لا تتخطى نصف العقد الثانى من عمرها حتى ترشح للزواج فقصر الزمن وضيقه من العوامل الرئيسة في عدم تنمية قوى النساء بعكس الرجل الذى قد يعنى به باطول من ذلك حتى يزاول عمله والمهنة التي يختارها على ان الفتاة فضلا عما تستلزمه تربيتها من التعليم المدرسى فان امامها تعلم التدبير المنزلى ومعرفة واجباتها فى الهيئة الاجتماعية وامام الخالق تعالى ثم تعلم بعض القنون الجميلة لتجميل حياة زوجها فهذا كله قد يفتقر الى زمن وعناية

ثم رغبة وشوق من الفتاة نفسها وأني يكون لها ذلك وهي تعتقد أنها إنما تهذب وتجمل لغيرها وهذه الحالة الاخيرة من الاعتقاد من شر الاعتقادات التي قد تخرج بها عما تقتضيه تقوية صحة ابدان أمهات المستقبل وتهذيب نفوسهن ويضعف اجسامهن ويضلل احلامهن .

« وهذا الحال مما يوجب في الطبقات العالية خصوصاً اهمال التدريب على الامور البيتية اكتفاء بحشو العقل بالمعلومات والمعارف الدنيوية والتجمل باجمل الحلي والحلل والازياء ليكون لفتيات تلك الطبقات صدور المجالس والتبريز على القرينات في الكلام والزي حتى يكون لهن التأثير الأعظم على العقول ! سخائف وتكليف ما أنزل الله بها من سلطان وجملة القول أن العوامل في نظام الهيئة الحالى يرمي بالأسف الى تقوية جانب غيرهم أى ما قد يكون في اعتبارنا على أحسنه من مجريات الاحوال التي تسوقها الحياة بطبيعتها فيما بعد لو روعى جانب الأهم . على أن ما أشرنا اليه من قصر الوقت الذي تربي فيه الفتاة لعل الناس يشعرون بخطأهم فيه فيعدلون عن تزويج الفتيات في سن الطيش وانزق وهو ما يجب أن تساس الفتاة فيه بالاساليب الحكيمة الي أن تعود اليها هوادتها فاذا تزوجت كان منها امرأة عاقلة رشيدة » ولا يمكننا أن نجعل الشريعة من تلك الصعوبات الحائلة دون احسان تربية البنات فان شرعنا الاسلامى وما بنى عليه وعلى المدنية الصحيحة العصرية يأمران باصلاح أحوال النساء وتربية البنات ولا حرج فيها ولا تحريم اذا أخذت نساؤنا باسباب الرقي واصلاح الشأن ثم هما لا يحتمان على الآباء تزويج بناتهم في سن معين ولا يجيزان له ارهاقها بالتعالم أو حرمانها منه أو تكليفها

فوق مقدورها في خدمة المنزل وتديره وانما هو يأمر « باحسان التريية » وما جعل الحجاب عند ذوى الالباب الا من قبيل الدفاع عن حقوق النساء فاذا أمن الفتنة باحسان التريية خصوصاً فلا حرج على المرأة أن لا تحجب من نفسها الا ما هو عورة وقبيح اظهاره في عرف الآداب الانسانية من الزينة والمحاسن

« هذه أيتها السيدات رقائق أسوقها اليكن ففهمنها وتعقلنها واحكمن لأنفسكن بما شئتن واعلمن ان النساء اذا بلغن مستوى شعرن فيه بحقوقهن وواجباتهن سهل عليهن حينئذ تذلل الصعاب أمام بنات جنسهن وعظفن على شؤونهن وملن الى طلب المزيد من العلم والعلم والادب والادب والحقيقة للحقيقة أى لا ليقل عنهن عالمات متفقيات . ان النبوغ العقلى فى الرجال كما فى النساء يختص به الله من يشاء من عباده وانما المراد بالعلم لكل الناس اصلاح الاحوال الدنيوية والدينية ونوال بعض الغبطة والسعادة فى هذا العالم . فالاطراف أى الافراط والتفريط مضران وخير الامور اوساطها ونحن مأمورون باحترام حقوق الازواج واصلاح احوال البيوت وتربية الاولاد واحصان النفوس وعدم اظهار الزينة للاجانب وعبادة الله وتقواه كالرجال فهذه كلها تقتضى علما وعملا حتى يحترم شأننا فهل التتقر وادعاء العلم وتحسين الازياء والتبرج فى الاسواق مما يعمل الرجال يحترمتنا أو بالتالى يساعدننا ؟ كلا والى مرة كلا ان تمضية الأوقات فى السفساف سواء كان ذلك للشبان أو للفتيات ضار وان مسرات الحياة التى تطاب بهذه السفساف قصيرة بل اهنأ أوقات الحياة وأحوالها ما كان أشرف غاية وأسمى مقصداً فهذا ما ينبغى ان يتحرى لفتيات

العصر ، هذا ما ينبغي أن تزال من أمامه العقبات وتذلل فيه الصعاب سواء كانت صحيحة أو مبنية على العادات والاهوام »
ثم سكتت الاميرة يراعة ولكنها كانت لا يفوتها من حين الى حين النظر الى تلك الفتاة عديلة هأم التي سفهت امها بالامس ولم يلحظ ذلك غيرى لاني كنت مثل الاميرة اراقب حركات تلك الصديقة العدو التي حذرني أبي منها أما هي فتغافلت عن نظرات الأميرة الحادة وقامت مع السيدات اللواتي ودعننا وانصرفن



تربية البنات الاديبة

﴿ من مسامرات الأميرة ﴾

كانت محاضرة الاميرة يراعة السابعة في اليوم التالي كما يأتي :
« أيتها السيدات الفاضلات : قد أتيت في المحاضرات السالفة على عموميات بالصدد الذي اسامركن به وها أنا اريد أن احدثكن عن تربية البنات من سن عشر سنوات الى سن السادسة عشرة لان ما قبل هذا السن قد يتساوى بالتربية فيه الذكور والاناث ولا حاجة لنا بالتكلم عنه ههنا في الجملة فأول ما ينبغي ان تشب عليه الفتاة معرفة الله تعالى وأن يتشرب قلبها حبه وتعظيمه ومحبة رسله والتأدب بأدب شرعه وسنن أنبيائه صلوات الله عليهم

أجمعين ، فهذه المعرفة الدينية متى ماخالطت القلوب علما وعملا بالقدوة الحسنة خصوصا من الامهات أينعت وأثمرت أجمل الثمر من الفضائل وحات النفوس نفوس القتيات بالمكارم لاسيما اذا شبت البنات وقد أشعرت نفسها مبادئ ذلك منذ نعومة الاظفار

« ومع بذل العناية عناية الوالدات لانماء الفضائل وبث المكارم في نفوس بناتهن فان أمامهن واجبا آخر وهو مناهضة الخصال الذميمة والردائل النابتة في نفوسهن بالنظر الى أحوال الوسط المحقق بهن خصوصا الميول الرديئة التي هي شر من غيرها . وهنا ينبغي أن تعلمن أيتها السيدات الفاضلات — وكلكن امهات أو في حكم الامهات — ان التسوية بين الاولاد صبيانا كانوا أو بنات لازمة فيما يتعلق بالواجبات الواحدة من حيث التعويد على العدل والحقيقة اللذين هما الوسيطين الوحيدتين لحسن سياسة الاطفال وتربيتهم التي ينبغي أن يراعى فيها الحزم والتهذيب والارهاب وأن يسلك بالاطفال سبل الخير والعقل والحقيقة والادب ولا معنى للتمييز في هذه السن بين الصبيان والبنات لان البنات اذا شاهدن تفضيلهن وتميزهن بالشفقة والحنان حسبن أنهن مختارات مفضلات في كل شئ فيعدلن من ثم عن العدالة وينحى ذلك في نفوسهن الاثرة وحب الذات والعجب والخيلاء الى اشباه ذلك من الخصال الذميمة .

« أما الحقيقة أى الصراحة فهي ما ينقص النساء كثيرا ويفوتهن غالبا وهي مما يجب أن يحصلنه ويلزم من أنفسهن اياه لتصلح لهن صفاتهن ومحاسن أخلاقهن ، أنهن لا يجهران ان ما يظهر على الرجال من شبه الكذب قد يعود

عليهم بشر النتائج ولكن هلا يعلمن مقدار الشرور التي تتجم عنه بالنسبة الى المرأة؟ قد يتلافى الرجل أمره ويدارى حاله ولكن المرأة ان لم يكن شعارها الصدق والاخلاص فلا مناص لها من احتقار الناس لها فينبغي لذلك تعويد الفتاة على الصدق والصراحة ونبد الكذب والغش والخداع والتزام الحذر بلا ضعف مما يحيط بالفتاة من الوسط حتى لا تعتاد ذلك البتة وكم من فتيات اتقن تلك الحصال فيخدعن ذويهن ويفغشهن بالألسنة وحشو القلوب ما حشوها! فتعساً لهذه الاحوال وليعلم ان تصورنا اذا اشتغل بأمر أثار لبائنا فان لم يصرف الى الحقيقة ويوجه فيها ضللاً بعيداً وتبع سبل الغواية فاعظم فضيلة يجب تعويد البنات عليها منذ حداثة العهد الصدق والاخلاص ونبد الكذب والغش والخداع وأفضل ما يعالج به ذلك انما يكون بالعناية بالنقاء والصراحة التي توجد في البنت بحكم السن فلا تستعمل معهن طرق الحيلة والغش في التربية البيتية وتكن الامهات قدوة للبنات في الصدق والاخلاص والصراحة والفروع غالباً تشب على ما عليه الأصول وباللطفة والاخلاص وجمال الصراحة وجمال الصدق في الاقوال والافعال

« ثم ان الطاعة شرط من شروط التربية التي يجب اشعار نفوس الفتيات اياها بل هي من أول الواجبات التي ينبغي تعليمها وتعويد البنات عليها كما يعود عليها الصبيان على أن الوداعة التي ينبغي ان تكون أساس هذه الفضيلة مما يجب أن تقوى فيه البنات أكثر من الصبيان لان المذكور شأننا في التقيد بقيود الأعمال الخارجية وقواعدها العملية المتبعة ولكن الفتاة لا تقاد لواجبها في الطاعة والخضوع الا بتخليها بهذه الفضيلة النفسية من الوداعة ، والطاعة لازمة

للنساء لانها من السنن الملازمة لمن في حياتهن مع أزواجهن فمن هذا وذاك
يجب أن تعود الامهات بناتهن عليها كاحسن ما يكون منذ حداثة العهد وبكل
الوسائل الصحيحة وما عماد ذلك الا تبادل المحبة والاخلاص والنفقة التي تحب
امها تطيع لها بلذة وارتياح . وحادار حذار من تعويد فتياتكن المرء والجدل
والعناد بل أن في الطاعة والامثال ايجاد فضائل اخر من الصبر والقناعة
والعفة والنزاهة الى اشباه ذلك . وانك بتعويد ابنتك ذلك بتفهمها دائماً
صواب رأيك وأرجحية فكرك وان فيه من النتائج فوائد هي في مصلحتها
ومنفعها تنقيدها من شر الرذائل فاذا عودت الفتاة كل هذه الفضائل قويت
ارادتها ورغبتها فيما يرغب فيه من الاخلاص والوداعة والقناعة والابتعاد عن
سفاسف الزينة وما يشتكي منه من أحوال النساء اذا هي كبرت ودخلت في
ديوانهن، واذا شهدت من فتاتك البلادة فعالجها بعلاجها الصحيح من التشويق
والترغيب والحث على العمل حتى ترى من تلقاء نفسها سوء حالها المندرى «
والى هنا ختمت الأميرة يراعة مسامرتها فقامت وقنا وارفض جمع
السيدات على وعد الاجتماع لسماع محاضرة الغد



التربية الاديبة أيضا

❖ من مسامرات الأميرة ❖

وفي اليوم التالى كانت محاضرة الاميرة يراعة ذات البراعة على ما يأتي

مما كنت ادونه من مذكراتها ذاتها يوماً فيوماً قالت وقد اشراأت اليها
الاعناق واعجب بها كل السيدات المستمعات

« أيتها المصريات الكريمات : اني عائدة الى تربية النساء اليوم أيضاً
لخطورتها فاذا اشربت نفس الفتاة في هذه السن سن المراهقة الطاعة تلك
الفضيلة اللازمة للاطفال ثم العدالة والصدق تينك الفضيلتين اللتين هما أس
الهيئة الاجتماعية في بنائها جاز حينئذ تقوية ما هو خاص من المواهب والملكات
النسوية فيها لانها في هذه الحالة لا تكون ذات خطر بل ربما كان الخطر في
اهمالها اذ تنعكس حالة النساء ويصرن لا يصلحن لمهنتهن ولقد سلف ان أغلب
مواهب النساء انما مصدرها رقة عواطفهن ودقة احساسهن الخسيس بجنسهن
اللطيف فوجب من ثم اما تقوية هذه العواطف فيهن أو تلطيفها بحسب السن
وظروف الاحوال ، فما امتاز به جنس النساء الحب ثم عظم التأثير بالانفعالات
الشديدة فالحب يضاد الاثرة ولكن في تلك الانفعالات ما يرمي الى الاثرة
أو الانانية ولهذا الانانية فائدة تعود الى نفع الذات ومتى ما هذبت تلك
الخصلة أفادت كما أن الحب متى ما كان حقاً وصالحاً رجع بأفضل الثمر وان
كلامي عن سن لا أعني بالحب فيها غير شأنه البسيط العادي من التعلق بالاشياء
والاشخاص تعلقاً خالياً من تلك العلائق وكذلك التأثيرات والانفعالات
بالانانية لا اريد بها الا الغيرة البسيطة ومع كل فهذه وتلك أصل لما بعدها
من الحب والتأثيرات النسوية فهذا نطق الكلام ليكون أشمل وأعم وأترك
لفطنتكن التحديد والتخصيص بحسب ظروف الاحوال

« فالرغبة في الخطوة بالحب والامل والخوف اللذان يحدوان الفتاة ويربطان

عقدة اتصالنا بالغير احساسات طبيعية وذات فائدة للذات وهنا تمثل لنا أيضا الحب الوالدى ذلك الذى يمثل لنا على نوع ما حب الله لعباده فكل ما يريح الاطفال تميل اليه الوالدات ويسعدن به ويفرحن به بالاخص بخلاف غيره من الحب فانه قد لا يخلو من الاثره وهذا مبحث طويل وانما نقول ان الرغبة في اكتساب حب الغير واعمجابه بنا كما يظهر من احوال الامم الراقية واحوال شبانها وشاباتها ترجح في الغالب كفة خاصية الحب الخالص ومصدر هذا العجب والانانية مما يضعف عاطفة الحب الصحيح ولقد قالت الكاتبة المحيطة مدام دوستايل « ان القلوب قد تجرح بالحب ولكن الانانية تفرغ فيها سموها » فلا غضاضة على الانسان ذى الشعور الحى ان يسعى في ان يحب ويحب مما هو من سنن الكون وسعادة الحياة وكريم عواطف الوجود ولكن على كل حال ينبغي ان توجه العناية الى محبة الخير وافعال الخير ومعاشرة أهل الخير ثم تعود الخير واذا صرفت العناية في مناهضة الانانية فليكن ذلك لتحويلها وصرفها الى ما هو من قبيل رد الشر ودفع الاذى ، فعودن بناتكن ايتها العقائل وانفسكن ايتها الاوانس حسن التأمل والمراقبة لاحوال الناس وامورهم وانظرن الى الوجوه تعلمن ما تحوى النفوس نحوكن فتعلمن بما يقضى به خيركن وصالحكن في معاشراتكن وعليكن ان تلزمن الحذر في كلامكن واحكامكن وتعشقن الكمال والجمال من الصفات والاشياء واهجرن ما يشين ويخالف الأذواق وتكن ارادتك وميولكن الى كسب اعجاب الناس الخالص ومحبتك من هذا الجانب أى من جانب ما فيكن من الصفات المحموده والمحبة الخالصة ، روضن بناتكن وانفسكن على ذلك لانه ما من

فضيلة الا وتكتسب بالزاوله وقوة العزيمة والارادة فلا تنقصكن ولا تقوتكن
 « ان البيت الذي يكون له نصيب من محبة الدين وعبادة الله تعالى تقوى
 في أطفاله ملكاتها بنسبة ذلك ويزاولون ككباره اموره فيعملون بأوامره
 ويحبتون نواهيها انما ليكن شأنهم في ذلك بالتؤدة والمحبة لا بالعسف والا كراه
 وبث الاوهام والخرافات في العقول فان ضرر هذا يبلغ جداً وان الام التي
 تلو في المصحف وتعود بنتها تلاوته يسعد بيتهما ويغضب سكانه فيكون شأنه
 كمالا في كمال ويزداد جمالا على جمال ونورا على نور .

« لا شيء يضر بالبنت اكثر من افراط امها في محبتها والعطف عليها
 لدرجة تثير في نفس البنت كوامن الرذائل ، هذه البنت تعصى ثم تبذ الترية
 الصحيحة وتتبع مع آرائها اللواتي على شاكلتها كل شائن ، تعلم الكذب والسفه
 والعناد والتشبث بالسفاسف والمطالب فيشقى بها أبواها ثم اذا هي تزوجت
 كانت شراً دخل بيت رجلها المسكين وكم في العالم من شقاء وبلاء كان سببه
 افراط الامهات في محبة بناتهن ولا تحتجن بان منكن من بذلت جهدها وكل
 مرتخص وغال في تربية بنتها فلم تنجح ولم تقدر على تطبيع بنتها بطباعها الكريمة
 اذ مها كان الحال فلا بد أن يكون هناك سبب من اهمال أو تهامل منشأه
 ماقلت من الافراط في الحب وما هو بالحب في الحقيقة وانما العداوة خير منه
 ثم سكت الاميرة براعة فرأيت الكثيرات من الحاضرات قد اغرورقت
 أعينهن بالدموع وتأثرن حزنا مما سمعن في هذه المحاضرة الصادرة عن اخلاص
 من ذلك الملاك الكريم وأبصرت تلك السيدة امرأة عماد الدين بك وام
 صديقتي أو عدوتي عذيلة هانم تخرج مندليها وتكفكف مدامها مراراً وقام

السيدات وانتهت المحاضرة وكلهن مع ذلك معجبات بالأميرة مثنيات على علمها وفضلها ولعمري أنها كانت في الواقع آية في الذكاء وأعجوبة من أعاجيب الزمن في حسن اللقاء



روح التربية العقلية

﴿ من مسامرات الأميرة ﴾

وكانت محاضرة الاميرة يراعة التاسعة في اليوم التالي وتحت هذا العنوان على هذا النمط البديع قالت :

« أيتها السيدات الفاضلات : ان شغفكن بهذه المسامرات المختصرة والمحاضرات الموجزة البسيطة يدلني دلالة واضحة على ما تحوى نفوس السيدات المصريات من الميل الى تعليم بناتهن وهذا ما تمدحن عليه خصوصاً وانكن تردن نبذ الكثير من سفاسف العصور الماضية وانكن قد بدأتن تقمن في هذا البلد بواجباتكن كغيركن من أهله ولقد بذل أهل هذا العصر قصارى الجهد لتحسين تربية البنات ورغبوا فيها فهل هذه المساعي منصرفه في السبيل الاسد ؟ ذلك ما أشك فيه فمعارف النساء كلها منصرفه الى تحسين الظاهر في الزينة والحديث الى أشباه ذلك من الآداب الظاهرة استجابلاً للانظار وأنهن ينقصن في الحقيقة روح التربية الصحيحة كما يعوزهن التوفر على الكمال

الحقيقي والابقي عقل النساء متشبهاً بتلك الأمور التافهة غير عامل عمله ولا مؤد وظيفته الصحيحة

« نحن لا نناقش في قصر الوقت في تربية البنات فقد وفيناها في السابق حقه ولا يمكن تغييره بالاسف ما دامت العادات هي العادات في الجملة بقي أنه على كل حال ينبغي انتهاز الفرص السانحة لاستكمال تربية البنات بالاخذ بالانفع والاولى مما يتعلق بخيرى الدنيا والآخرة وقولي بالانفع والاولى حتى لا يقعن في المحظورات من التعمق في النظريات بما يتعب الفتاة ويضعف بدنها ويذهب بهجة نفسها الطبيعية فيجب التوسط في تربية القوى والمكاتب والاذواق ليصلح شأن الفتاة وتقدر ان تلبس لكل حال من أحوال الحياة ومقاماتها لبوسها فالرجل قد تخصص لمهنة واحدة ولكن المرأة عليها مهام كثيرة في البيت والاسرة وتربية الاولاد ، فلو وصول الى تلك الغاية وللحصول عليها يجب بذل الجهد وحث البنت لتقدر تلك التربية قدرها بل ليقبل لها ذووها وقد تعلمت التعليم المدرسى واستعدت لغيره

« انا أيتها الابنة الكريمة قد عيننا بك الى الآن وان ما قد أعمرته التفاتك من التعليم وحصلته من المعارف ليس الا الشئ القليل مما يطلب منك في حياتك فتعلمك الحساب والقراءة والكتابة الى اشباه ذلك ليست الا وسائل لعلمك العتيد الذى قد فتح أبوابه الآن أمامك على وأنت عتبتة فلو لوج هذا الباب يجب عليك أن تبذلى شيئاً من القوة

« ان هذا التعليم يابنية ابتدائي وباضافته الى ما كسبته من التعليم الديني له مزيته فان قواك الاديبة وملكاتك التي لم تنزل ضعيفة قد تحركت بذلك

على كل حال فانت قد أحيت الله تعالى وعرفت صفاته وعرفت واجباتك نحو ذوى قرابتك والعالم وزاولت بعد اصول المعارف والفنون وقويت ذاكرتك بل عظم حكمتك على الاشياء وبالجملة فليس فيك شىء تأخر عن التهذيب والتدريب فالآن يجب تقوية ذلك كله بالعمل الصالح في الحياة الدنيا « انك لذلك بقيت وتبين زمناً شغلنا الشاغل لاتمام تربيتك فاجتهدى في تحصيل المعارف واذ ليس في وسعنا أن نكملك فيها فعليك أنت في المرحلة الثانية من حياتك وتربيتك ان تعتمدى على نفسك حينما تعظم قواك الادبية والطبيعية فهذه التربية هي الوحيدة التي تثرك الثمار اليانعة فنحن غرسنا الغرس وأنت عليك بنفسك تعهده ، فتعليمك في هذا الدور غير محتاج الى دروس مكتوبة أو تعاليم يلقن وإنما هو مفتقر الى تقوية القوى والممكات بالمران والمزاولة ولقد يفوتك أحياناً ادراك العلاقة وسر الارتباط بين التعليم الحقيقي وما خصصت له في المستقبل فاعلمى أنك إنما يراد بك في المستقبل النفع فنحن قد اعددناك له ورشحناك وأنت عليك وحدك ان تكوني نافعة « أنك منتدبة بحكم وظيفتك في الدنيا ان تعملى الخير من وجوه شتى فيها أى ان تصالحى وتهذبى نفوس دافئة من بنينا ممن ستكونين لهم أما وتعينهم فينبغى لذلك ان يكون عقلك ونفسك كبيرين عظيمين أى مستعدين عاملين مشعين أنوارهما في تلك الدائرة وما في حكمها وان تكون كل قواك على تمام الالهة والاستعداد لتأدية ما يطالب منها فمن ثم نؤمل ان ما تلقينه وتبديله من النعب والنصب في التلقى والتحصيل تأخذينه بقوة وعزيمة وارتياح والا فأنك ان لم يكن شأنك منذ الآن على هذا المثال بل كانت البلاده

ديدتك والرقاعة التي تعدى فيها بنات حواء بعضهم البعض شعارك فاعلمي
يا بنية أنك تبيقين طول عمرك حقيراً شأنك تافهاً نفوذك باطلاً سلطانك «
» أيها السيدات أنه اذا امكن النساء ان يؤثرن على عقول بناتهن بمثل
هذا الكلام جلبن لهن السعادة والخير مع الثغلب أيضاً على خصلة الكبر
والعجب في نفوس بعضهم وان هناك لطرائق شتى ووسائل حجة لتربية النفوس
وتهذيب العقول عقول التتيات على الخير بالمحادثات والمحاورات وسماع شهى
احاديث السيدات . . .

فقلت عند ذلك احدى الحاضرات مقاطعة كلام الأميرة
— ومن لنا بمثل أحاديثك العذبة المملوءة بالحكمة أيتها الاميرة فقلت
الأميرة وهي تبسم وملء عينيها الشكر لثلك السيدة
— اشكرك أيتها الفاضلة فكلمكن تفضلتنى ثم ختمت الاميرة مسامرتها
وقام السيدات فودعننا وخرجن

— ❖ ١٢ ❖ —

تقوية ملكة التعقل

❖ من مسامرات الأميرة ❖

وفي اليوم التالى كانت مسامرة الاميرة العاشرة كما يأتي :
« أيتها السيدات المحترمات : كلنا نميل الى احراز المعارف وحشو العقول

بالمعلومات ولكن هناك أمراً جديراً بالعناية والرعاية الا وهو الاختيار والتنسيق وتقديم الالم على المهم ثم تعقل الاشياء لان الوهم كثيراً ما يشوش على العقول سبيله والبنات اكثرهن خياليات بالرغم عما قد يتخذ معهن من نصح وارشاد ويلقى عليهن من علم وحكمة ذلك لانهن لم تمرن عقولهن على ملكة التعقل لحقائق الاشياء أو لم تستوف نفوسهن شرائطه تلك التي من أهمها هدو العقل والنظر في حقائق الاشياء وأوجه المسائل ولن يحرزن ذلك بالتوفر على ما قد فرغ منه من الامور الادبية والنظرية مما لا كتبه الألسن وأتت عليه القرائح فقط فعرف فيه الخير من الشر والصحيح من الفاسد نظرياً وانما ميدان ذلك الاوسع أشياء الطبيعة الحية ونواميس الخالق تعالى التي تديرها فتم الساحة العظمى لتقوية ملكة التعقل بالنظر بالهدو والسكينة في حقائق الاشياء بالذات مما لا يشوش على العقل ولا تضرب منه الافكار

« لا تندهشن أيها السيدات ولا تعجبين من قولي وتستغربه عقولكن فتقلن وما تقصد الخطيئة أريد ان نعلم بناتنا التاريخ الطبيعي ومذهب النشوء والارتقاء أو النظر في علم الفلك والطبيعات ؟ فأقول كلا يا سيداتي اني لا أريد أن يهجمن على تلك العلوم ويتبحرن فيها وانما أريد ان تبعثقن جمال الطبيعة بالارتكان على الاصول أى المبادئ التي تعلم لهن بالبساطة وهن محبات للجمال ولا جمال أفضل وأعظم من هذا الجمال وان في تعقلهن حقائق الاشياء لسلامة لهن وتربية لاذواقهن أحسن تربية وتقوية لابداهن وعقولهن وتوسيعاً لصدورهن في معترك الحياة المملوءة بالاكدار والشواثب وانى لمجربة ذلك في نفسى فكثيراً ما لا يفرج كربوني واحزاني الا رؤية أشياء الطبيعة فيسرى

عنى ذلك ويعود الى نشاطى الحسى والعنوى وان هذا العقل المتأمل ليس
كثيراً بتعقل تلك الاشياء الجميلة التى لا يشبع النظر من جمالها بين أزهار
وأشجار وأهوار ورياض وطيور تغرد وشموس وأقمار تبدو للانظار فتناجى
العقول وتناجىها الارواح بما لا أقدر ان أصف لذته لعقولكن المستغربة لكلامى
على ما أشاهد في عيونكن أيتها السيدات

« أنى بنصحى لكن على تعويد فتياتكن محبة الطبيعة وذوق لذة النظر
فيها منذ حداثة السن كما يصنع الرجال فانما أقصد بذلك ان تتربي فيهن ملكة
المراقبة فالتعقل والانصراف الى ما هو خير فان رؤية الاشياء الطبيعية ومشاهدتها
تسوق العقل الى تصور كنهها أي تعقلها واستخراج النتائج الصحيحة في أحوالها
ومنافعها وليس أفضل في الباب كذلك أى في باب تربية ملكة التعقل من
درس الرياضيات بالمقدار المناسب مما يعين الفتاة على اكتساب تلك الملكة
العقلية الرئيسة ثم تعلم مبادئ التاريخ الطبيعى والطبيعات والكيمياء
والكوسموغرافيا كذلك لتوفير الاصول في الاذهان كما لا يخفى وان الفتيات
ليفرحن ويسرن كثيراً اذا عودن الخروج الى الحدائق النضرة والخلاء للتطبيق
بالملاحظة والمراقبة ورؤية الزرع والضرع والحيوانات تعمل في الحقول وهذا
كله يسوقهن بارشاد المعلمين الماهرين الى معرفة الاسباب والمسببات والظواهر
الجوية والعوامل الطبيعية من الحرارة والنور والرطوبة رطوبة الهواء الخ
« ولقد طرأ بخاطرى أنه ربما اعترض معترض باننا اذا توسعنا مع الفتيات
في هذا الصدد وقعن في المحظورات فيستغرقن في العلم وادعائه ويتكبرن به
ويتعاليين على الناس كما هي شيمتهن ؟ أقول أنى قد نهتكن أنى لا أقصد التوسع

ولا أريده وإنما أرى من المفيد تعليمهن كما قررت آتفا مبادئ تفيدهن في التريية ملكة التعقل وتكسبن اياها على أحسن حال وتعينهن مع ذلك في شأنهن كما تعلم دروس الاشياء بالتطبيق للصبيان لتلك الغاية نفسها وهم مع ذلك أو فريق منهم مخصصون بكل معنى الكامة للتبحر في العلوم فعلا م محرم منه من ليس عنده الوقت الكافي لتمية ملكة التعقل وهذا سبيلها الوحيد؟ لعمري أن في هذا أحجاف وظلم بين فلا تعن الرجال على أتسكن باستغراب هذه الافكار أو الخط منها بل لا تجملن الغريبات يضحكن منكن ويرمينكن بالغباوة وحقارة الشأن والانحطاط وأعنى بالغريبات ذوات الاسر المتعلقات المهذبات فان لهن من هذا القليل منزلة كبيرة في بلادهن ولقد قاتل احدى الفرنسيات المهذبات في خطبة لها خطبتها بنادى الجريدة في العام الماضى وهي مدموازيل كليمان في تعليم البنات في البلاد الفرنسية ما نصه « فهم يعلمون الصبي الحساب والجبر والهندسة وغيرها ليستطيع بعد صراية المدرسة أن يبنى الجسور والمحطات ويعلمونها البنات لتستطيع بها أن تفكر تفكيراً قويا فتعليم البنات هو فى الظاهر كتعليم الرجل ولكن روحه تختلف عن روح تعليم الصبيان » فترين حضراتكن ان العناية هناك بتلك العلوم بالنسبة الى جنسنا إنما يقصد بها ما قصدت اليه فى مسامرتى هذه من تربية ملكة التعقل أى التفكير ونحن كذلك يجب علينا ان نفعل «

فقلت احدى الفتيات المهذبات من السيدات الحاضرات :

— ولكن مدارسنا لا تعلم الا شطراً من ذلك فتبسمت الاميرة

يراعة وقالت :

— ولكن الشطر الآخر ستتضى الضرورة ضرورة الرقي بوجوده
ان كنهاله عاملين
وانتهت المحاضرة وخرج السيدات

— ❖ ١٣ ❖ —

تعليم اللغته والتاريخ والشعر

❖ من مسامرات الأميرة ❖

هذه هي المحاضرة الحادية عشرة من محاضرات الاميرة يراعة على بنات
جنسها المصريات وقد عرفن قدرها وطاب لمن سماع محاضراتها ومسامراتها
الذيذة قالت في اليوم التالي :

« أيتها السيدات ان تقوية ملكة التخيل والتذكر ضرورى فى البنات
بعد تقوية ملكة التعقل والتفكير واذا كان سبيل هذه العلوم الطبيعية والرياضية
فوسيلة تلك انما هو تعلم اللغة والتاريخ والجغرافية ثم الشعر لا تندهن من
غرابة هذه الافكار عليكن فانما هي حقائق استخرجها حكماء الغرب وعملت
بها أمه وشعوبه فى تربية ناشئتهم صبيانا وبنات فاحرزوا لذلك قصب السبق
فى مضمار الحياة على الشرقيين ولم تحظ أمم الغرب بالقوة والسعادة فى حياتها
العائلية مع التضع من فن تدبير المنزل الا بالعلم والمعرفة فنمت فيهم ملكات
التعقل والتفكير والتخيل والتذكر وكل هذا قد وسع عقولهم وفتق أذهانهم

وأتمهم به السعادة والغبطة منقادة تجر ذبولها
« ان تعلم اللغة لازم للنساء ان لم يكن لفائدتهن فلفائدة أولادهن إذ
وظيفة الامهات الاعانة على تربية أولادهن على كل حال ولسنا نريد الا ما يصاح
لسانهم وقراءتهم وكتابتهن مما يسهل عليهن معه تلقين صغارهن تلك المبادئ
الاولية ولقد يستحسن ان تتعلم الفتاة لغة فوق لغتها الاصلية فان هذا مما يزيد
معلوماتها وتصوراتها ويزين حياتها ويحسن ان تكون تلك اللغة من اللغات
الغنية بالآداب الحافلة بالحكمة كالفرنسية أو الانكليزية واذا ما قدرت
الفتاة على فهم ما تقرأ فلتعص بالنواجذ على التقاط درر الآداب والحكم
المودعة في لغتها أو في تلك اللغة التي تتعلمها فان هذا فضلاً عما ينمى المرءى
تقوية العقل وتهذيب النفس واجادة التصور والتيخل يساعداً كذلك على تقوية
ملكة الصبر والتؤدة خصوصاً في النساء المشهورات بالقلق وخفة الحركة ،
ومن كريم الاعمال التي تنمى العقول ترجمة قطع مما تقرأ الفتاة في اللغة الاجنبية
الى اللغة الشريفة العربية وبالعكس فكل هذا مفيد وكل هذا يعين على تقوية
العقل والخيال معاً .

« والتاريخ قديمين على ملكة الحفظ فهو يقوى الحافظة والذاكرة للاحتياج
الى تذكر الحوادث المرتسمة في الذهن ناهيك بما فيه من عبر وحكم واتعاظ
بالحوادث حوادث الايام ومعرفة تاريخ الاوطان وسير أعظم الرجال
وفضليات النساء اللاتي شغلن مكاناً من هذا التاريخ ثم قصص الانبياء عليهم
الصلاة والسلام ، والحاجة الى التاريخ تجر الى معرفة تخطيط البلدان اى جغرافية
البلاد التي كانت ميداناً ومرسحاً لحوادث الانام فضلاً عما في الجغرافية من

وصف ما حوت الاقطار من بدائع الآثار الطبيعية والانسانية وتصوير الارض وطبائع البلدان وأوضاعها ورسم خرائطها الى اشباه ذلك مما يشهد الأذهان وينير القرائح وتقوى الذاكرة .

« ثم اذا اضيف الى هذا في اعتمادى مجموعة من مختارات الاشعار وروائع الآداب وعيون الحكم البشرية بين منظوم ومشور تمت للفتاة سعادتها في التربية من هذه الوجهة

« سيداتى هذا الذى احدثكن به قد جرت عليه كما تقدم اوروبا فسعدت ولكن نحن ينقصنا وجود طبقة من الامهات متعلمة على هذا النمط حتى تقدر أن تعلم بناتها ليس هذا فقط وما سبقت الاشارة اليه بل ما تقتضيه حاجة البيوت نفسها من التطبير والترتيب والتنسيق والطبخ والتدبير أركان تضحكن وتهزأن بقولى وما قولى علم الله الا في مصلحتكن أيا بنات جنسى وما كنت لاقف هذه المواقف بينكن لغاية أشرف من هذه الغاية

« انه اذا وجدت بينكن امهات قادرات على تربية بناتهن امكنهن تقسيم زمن تعليم بناتهن اربعة أقسام أو حصص خاصة لا تزيد عن ساعة لدراسة العلوم الطبيعية والرياضية وحصه للغة والأدب كذلك وحصه للتاريخ والجغرافيا وحصه للتدبير المنزلى وما فى حكمه من الرياضة أو الموسيقى التى سأخصص لها المسامرة الآتية على أنى أستدرك على ما قدمت بان مهام البيوت قد تستغرق أوقات السيدات فيحتجن الى معلمات لبناتهن اذا كن موسرات يقدرن على نفقات التعليم الخالص والا فالمدرسة كفيلة بثلاثة أرباع ذلك فقالت احدى السيدات وهي تضحك مدهوشة

— يا سيدتى الاميرة تعلمين أننا تعودنا تربية بناتنا على هذه الصورة
ولا مدارسنا فكرت فيها الا منذ عهد قريب وكل الامهات الحاضرات
هنا — أقول ولا أخشى لوما — يجهلن القيام بمثل تلك الاعباء وليس عندنا
أيتها الأميرة من المعلمات من استكملن كل الفنون التي إليها أشرت فلم يبق
امامنا غير المدارس مدارس البنات وبروجرامها عندنا على ما يظهر ينقصه شئ
كثير من ذلك حتى أن المتخرجات منها وزاولن صناعة التعليم يعوزهن التعليم
فيما أشرت إليه فما العمل اذن وما الحيلة ؟

قالت الأميرة برقتها المعهودة وحنانها المشهور على بنات جنسنا :

— على رسلك أيتها السيدة الكريمة أن الضرورة العصرية لا بد أن
تلجى الحكومة والأمة الى اتخاذ التدابير الصحيحة في تربية البنات حتى
يخرجن مستكملات والا فلا معنى للحياة أو البقاء على هذا الحال منها وها هي
الجامعة بدأت تسد على نوع ما هذا النقص وأنتن لو تحررتن أى عملتن بما
أرشدت إليه لانبثت الارض لكن المعلمات الماهرات من تحتها واتسمح لى
سيدتى أن أقول لها أننا واقعات في الالهال والتقصير والغفلة فاسعين تجدن
وحسبي هذا القدر من تقريرمكن أى توبيخ أنفسنا . . . »

ثم سكتت الأميرة وانتهت المحاضرة فقامت السيدات وودعن وانصرفن
جدلات مسرورات ولجأت أنا الى زوجي ليوف لى علم ذلك



تعليم الفنون الجميلة

﴿ من مسامرات الأميرة ﴾

وجاء وقت المحاضرة الثانية عشرة فحضرت السيدات وحضرت الاميرة بوجهها الباش ومحياتها الطلق خيت وانطلقت فى مسامرتنا قائلة :

« أيتها الفاضلات : ان النساء مشهورات برقة الاحساسات والعواطف ومن هذا صاحن لتعلم اشهر فروع الفنون الجميلة أعنى الموسيقى وبعبارة أخرى البيانو أو ما فى حكمها تهذيب النفوس وترطيب القلوب واسعاد حياة أزواجهن . وهذا ربما قال بعض العلماء بحرمة أو كراهته ولكن اذا ترجح عندنا قول من قال منهم بجواز الغناء والسماع جاز لنا ان نعلم بناتنا هذا الفرع من الفنون الجميلة المرطب للعقول الروح للافئدة المسلى للنفوس والمنشط لها لان النفس ملول وما لم تجد ما يسرها ويروحها من مثل هذا وأمثاله مما لا بأس به ضعف شأنها فى حياتها الجديدة فتبلدت وتبرمت ولم تعمل عملا صالحا أو انصرفت الى الحرام منه

« أنى ليسرنى ان أرى بنات مصر قد بدأ الكثيرات منهن يتعشقن هذا الفن الجميل ويتعلمنه على القواعد الجديدة أى بالنوطة فنعم ما يفعلن ولكن ينبغى ان يخترن من الادوار والقطع الموسيقية ما يصح سماعه وتوقعه لامثالهن ولينبذن مالا ذوق فيه ولا أدب فالغناء كما لا يخفى كن لم يقصر قديماً على

ما فيه العشق والغزل السمج الا في مصر الاسيفة ولكن سيأتي زمان على أهلها
تصلح فيه أذواقهم ويدركون خطاءهم وأهم لا ينبغي لهم ان يفسدوا أذواقهم
وآدابهم بانفسهم وما يقال في الموسيقى يقال في التطريز ونحوه مما يلحق بهذه
الفنون الجميلة وفيه تربية الاذواق على تعشق الاشياء الجميلة النساءية

« سيداتي أي لا أرى فيما تعودته العاميات من النقر على الدفوف
والطبول (الدربكة) والرقص المعلوم بالصناعات الا ما أعده من شر
أنواع هذا الفن لخدشه آداب البنات ولا أعده من المسرات بل أراه من
الافات نعم فيه للفقيرات بعض تسلية وترويح للنفوس ولكن يجب ان يشعرن
بما فيه من الضرر فيتحاشينه ويتوقينه أما الرقص الاوربي فلا اقره البتة بل
أرى ما فيه من اجتماع الرجال بالنساء والابتدال بالرقص في حفلاته المشهورة
الأمر الويل والشر المستطير الذي ليس بعده على البنات شر الاشر « الزار »
وما أدراكن ما الزار وحفلاته الموسيقية .

« كل شيء جاوز الحد انقلب الى الضد فالحميد عن الاعتدال في كل أمر
فيه الضرر فهذا اذا جاز لي ان أحث بنات جنسى على تعلم الموسيقى على نحو
ما أشرت اليه فلا يجوز لمن البتة الافراط فيها حتى يهمان واجباتهن الاخرى
وانى لا انصح لمن أيضاً برياضة الابدان فهي خير معوان كالموسيقا على تقوية
الابدان وتنشيط النفوس وخير أوقات الرياضة الصباح أو الاصيل بمقدار
ساعة من الزمان أو ساعة ونصفا تخرج الفتاة مع أحد محارمها أو أمها فتستنشق
الهواء النقي وتنزه طرفها برأي الرياضة أو الخلاء وخير الرياضة ما كان مشياً
على الاقدام كما يشاهد من الانكليزيات اللواتي يكثرن كالرجال من الرياضة

وعلى ملاحظتهن الوقار والحشمة بما لا يمكن لارباب الدعارة مغازلتهم معه فلماذا لا يكون لنا مثل هذا الوقار وهذا الشمم وذلك النشاط ؟ »

وسكنت الاميرة قليلا كالمتمذكرة ثم تنهدت وقالت « ومن شرعادات النساء عندنا ما يمكن أن اسميه التروض فى المعازى أو المآثم والخروج خلف الجنائز بالصراخ والعويل والندب والجلوس فى تلك المعازى لشرب القهوة والدخان ومطابقة بعضهم الحديث فى السفساف واكل لحوم النساء أمثالهن ورجالهن ميتافاسعين لابطال هذه المآثم أو على الأقل لتكن كما يصنع الرجال من سماع القرآن والجلوس كأن على رؤسهم الطير وابطان الندب والعويل فانه حرام « وكل ندابة فى النار » ولا تظن ان العديد وأقوال النادبات والمعددات مما يفرج الكرب بل هو مما يضنى الاجسام ويكلم القلوب ويزيد الهموم .
فضحك السيدات وقهقهن وقلن للأميرة جميعاً كالمستغربات لهذه الافكار المستبعدات لتحقيقها :

— وما العمل بالعادات ولا سبيل الى ابطالها

فقالت الاميرة :

— العادات ؟ العادات ؟ ماهي هذه العادات التى تخالف الدين والذوق السليم ومن أين جاءتنا فلا هي عربية ولا هي غربية ومهما يكن من حالها فلا بد من أن تعزم على ابطالها بارادة قوية وتبذنها نبذ النواة واذا كنا نعيب الافراط فى عمل الأعراس وحفلات الافراح أفلا نعيب على تلك المآثم التى ما أنزل الله بها من سلطان ؟ لم لا يكون لنا فى الرجال قدوة حسنة انهم قد ابطالوا عادة التطويل فى هذه المآثم واقتصروا على احياء الثلاث ليال الاولى

فقط ثم انهم يذهبون الى المآتم فيجلسون يستمعون القرآن ساعة يتعظون ثم يودعون وينصرفون فهل هم اجنبيون عنا اولسنا نساءهم ولنا فيهم قدوة حسنة؟ فجعل السيدات ينظرن الى بعضهم البعض كأنهن يستصعبن الخروج من أسر تلك التقاليد الراسخة فقالت الاميرة وقد لحظت ذلك منهن :

— لا تستصعبن كلامى أيتها الفاضلات الحازمات ولا يعسر عليكم تنفيذه فهو سهل جداً لا يحتاج الا الى عزيمة وحسن ارادة كما المعت اليه آنفاً وما توهمنه من الانتقاد عليكم فيه من النساء اذا اتن عملتن به فهو لاشئ في جانب المنافع التى تعود منه على بنات جنسنا واعلمن انى في مقام تقرير حقائق في تربية البنات وتدريب أذواقهن فتشجعن يا سيداتى واعلمن بما فيه المصلحة لكن ولهيأتكن وبناتكن ، اجتهدن في تعليمهن الموسيقى على نحو ما أشرت اليه واسعين فى أن لا يكون لهن الا اكل الآداب والاذواق فى المعاشرات والمجاملات فى الافراح والاحزان ومطلق المخالطات واحرصن على ترويض أبدانهن وأبدانكن .

وختمت مسامرتها على هذا النمط والسيدات معجبات بها مدهوشات مما تلقى عليهن من هذه الافكار ثم ودعن وانصرفن .



— ١٥ —

مراقبة الفتيات

﴿ من مسامرات الأميرة ﴾

وفي اليوم التالي كانت محاضرة الاميرة يراعة الثالثة عشرة كالاتي :
« سيداتي : إن ما قررته لحضراتكن من الاصول الواجبة في تربية البنات لن يكون على افضله الا بالعمل أى التنفيذ ولن تصالح حالهن في معاشراتهن ومخالطاتهن الا بالمراقبة لهن

« كل قرين بالمقارن يقتدى تلك حكمة نطق بها الشاعر العربي القديم فكانت حقيقة راهنة فلا شاب الا وهو مكتسب من أخلاق معاشريه ولا فتاة الا وتقتدى بعمادات صومجباتها ، اذا كانت الفتاة بالمدرسة أمنا عليها على نوع ما ولكنها حين تخرج منها الى البيت فقد تعديها أخلاق معاشراتها من الخادومات أو الصديقات فما تكتسبه من الفضائل في المدرسة أو من سلوك أمها يذهب سدى اذا لم يكن لها من أمها رقيب عليها عتيد

« كم افسدت المعاشرات الرديئة أخلاق الفتيات الطاهرات وكم أردت بخلال الفتيات النقيات تلك الابتسامات والتلميقات الكاذبات فخير وسيلة لدرء الشر المراقبة للفتيات لا سيما في دور دخولهن سن البلوغ .

« ولعلكن تسألننى ما أعنى بالمراقبة أهى ان نلزم الفتاة البقاء معنا ليل نهار في هذا الدور ؟ أقول أن المراقبة ليست كذلك ولكنها التيقظ للأخلاق

ومعرفة التغيرات الطارئة على البنت من العيون والاحاديث والتطورات والمطالب فلتعد الأم لكل حال من تلك الاحوال الشائعة عدتها وسلاحها الذي يمكنها به مناهضة تلك التهيجات حتى تخرج البنت من ما ذق هذا الدور نقية سليمة من التعلق باهداب النقائص والشوائب

« فاذا رأيت ابنتك تقول: أن فلانة تلبس كيت وكيت من الثياب وأنا أريد ان ألبس مثلها وكنت أيتها الأم ترين ذلك الثوب الذي تشبهه ابنتك يخالف الذوق والحشمة إما في لونه أو كسمه فاعلمي ابنتك بلطف ذلك واطهرى لها أنه مخالف حتى لما يعجب الناس وليكن حكمك مبنياً على الاسباب المعقولة

« واذا رأيت فتاتك تميل الى الخروج الى السوق بلا موجب أو بانتحال الاسباب التافهة فقفي في وجهها وقفه الاسد المصور وأريها ان هذا وبال عليها في المستقبل لان البنت التي تعتاد الجيران على رؤيتها كثيراً في الشارع هي البنت التي لا تصلح لان تكون زوجة وربة بيت ثم لا معنى لهذا الخروج وأنت أو واحدة من قريباتها تخرجن معها للرياضة واذا كان ثم للزيارة موجب فلتؤددها معك وبالجملة لا تجعلي فتاتك تخرج الى السوق الا للضرورة وتحت المراقبة ولا يعدن أحد هذا حبساً للحرية أو قلة ثقة توجب وجود الرغبة في هذا الممتع فهذا ليس منه وانما هذا توجيه للميول في مجاريها الصحيحة والمياه المتدفقة ان لم توجه في السبل النافعة ضاعت أو طغت

« ليس افضل في الباب من تعليم البنت الفضائل الدينية فالدين يعلم البنات العفة والصيانة والطهارة ، يعلمها الطاعة والعبادة ومعرفة الخالق وخشيته

وإذا عودت بنت في تلك السن سن البلوغ ما عليها من الواجبات في الاعتقادات والطهارة والصلاة والزكاة ومكارم الأخلاق وتلاوة القرآن والخروج الى المساجد بالازياء المناسبة للحشمة والورع كما كان يخرج النساء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضرن الجماعات ويسمعن العلم ويتفقهن في الدين من غير مازينة ولا تبرج ولا تعطر مستقبح تهذبت نفسها وعظم وجدانها وترقت مشاعرها واستقام عودها وتربت لها ملكات وأذواق تشعر بلذتها في المستقبل

« نعم ان ما أقوله هنا لكن أيتها السيدات صحيح مجرب أعدن نظر كن الى الزمن الماضي وانظرن الى أحوال الزمن الحاضر وأحكمن أى نساء الزمنين أملك لانفسهن وصيانتهم ولا تصدقن من يقول في هذا الزمن ان الحجاب الشرعي من الوحشية والبربرية وانما هو ما جعل الال للصيانة من الوحشية والبربرية فاذا أمنت الفتاة لحسن تربيتها وقوة عزمها الفتنة والافتتان بالزينة الفارغة فلا حرج عليها من الرجوع الى الاصل فيه ، افهمن كلامى وانبذن ما يقول الاغبياء والحمقى من الرجال يقولون أننا نريد أن تسعد المرأة وتخرج الى العالم وتعاشر الناس وتخالط الرجال ونحن نقول أن المقدار المعطى لها في الشريعة الاسلامية هو أفضل من غيره فحقوقها معترف بها وواجباتها منصوص عنها ولولا ما يعرف عن المنازع الشيطانية في كل أين وأن من العبث بحقوق النساء والتغريبهن لقلنا لا بأس بذلك ولكن هيبات هيبات وقدطفح الكأس في أوروبا بشرور تلك العادات التي يريدونها لنا أو أئلك الاغبياء حتى صرخ منها حكماؤهم وودوا لو كان لهم من شريعتهم ما يحجب النساء عن الاجانب من الرجال

لذلك تراهم يحذرون الناس بان لا يدخل المرء داره لمعاشرته اسرته والاختلاط بأهله الا من يثق به من كرام الاصدقاء والاخلاء فما معنى هذا أيتها السيدات الفاضلات ؟ أليس هو خوفا على الاعراض ان تبذل وتنهك بهذه الخلطات الخاسرة التى حشوها النفاق والفساد وظاهرها اللطف والأدب واحترام الجنس اللطيف ... فاعتصمن بالحجاب وليكن لبناتكن منه نصيب ثم ليكن لهن مما تحوى نفوسهن من الفضائل ما هو أصون لهن وقد أضحى الوسط عندنا بحكم ظروف الاحوال من المدينة الفاسدة فاسداً ترى النساء يخرجن متبرجات متزينات والرجال حتى الصغار منهم يقولون « ياسلام ما هذا الجمال » « ما هذا الدلال » قبحت فئة تعودت مغازلة النساء فى الطرق وقبحت امرأة سمعت لنفاق الرجال وضلالهم المردي للجميع فعليكن بمراقبة فتياتكن فهذا الوسط جرثومة فساد فلا تتركهن يخرجن الى هذه البؤرات الفاسدة من الاسواق الا وهن تحت مراقبتكن ومحجبات فذلك أطهر لقلوبهن وأصون لحقوقهن وحرتهن وآدابهن فالحجاب ما وضع اسلامياً الا لتلك الغاية السامية فقط لاجلس حرية المرأة كما يقول المبطلون »

فبكت عند سماع هذا الكلام السيدة ام صديقتى عديلة هانم بكاء مرّاً فنزلت الاميرة من على منبرها وجاءت اليها تؤاسيها وتنظر الى ابنتها عديلة هانم وهى جالسة الى جنبها غير متأثرة بشئ ولما رأته عطف الاميرة على امها وأسرت فأخذت بيد امها وخرجتا مع باقى السيدات وجعلت الاميرة تشيعهما بالانظار وتأسف لحال تلك الفتاة التى لا تؤثر فيها المواعظ ولكن هل كانت الاميرة تعلم ما كان يشير بلبالي أنا من جهة هذه الفتاة ؟ ذلك

ما ستكشفه الايام فلنستمر على سرد مسامرات أميرتنا المحبوبة كما اسمعنا
اياها لا سيما وانه لم يبق منها غير مسامرتين ثم أقص على قارئ سيرتي
حوادث عديدة هانم معي وما انتهت اليه

— ❖ ١٦ ❖ —

حول الزواج والامومة

❖ من مسامرات الأميرة ❖

في اليوم الرابع عشر من قيام الاميرة بالقاء هذه الدروس الجميلة علينا
معشر بنات جنسها كانت مسامرتها (حول الزواج والامومة) كما يأتي
قالت حفظها الله :

« سيداتي : كل بنت تصل الى سن البلوغ قد تزدهي بجمال طبيعي
يلفت الأنظار ويكون لها في هذا السن أحوال ومنازع وخيالات وآمال
تذهب بها المذاهب الشتى وتقذف بها أمواج قلبها ورياح عواطفها في كل واد
ويبدو عليها نشاط وخفة في الحركات وترعرع وازدهاء وهنا يحسن بي أن
أقول لكن انها قد صارت في دور الزواج وهو بحسب العادات تقع بين
السنة الرابعة عشرة والسنة السابعة عشرة من عمر الفتاة فعلى الامهات في هذا
الدور حتى يتم أمره واجبات دقيقة يصددن بها تياره ويدفعن عنها شروره حتى
يجرى مجراه الخليق به وان ما قدمته عن المراقبة والواجبات الدينية وغيرها

كاف في شغل الفتاة بما يسعدها وما على الفتاة المرشحة للزواج الاعتقاد الفضائل النسوية مما يجعلها في أعين الناس مثال الكمال والفضل فإذا ما عاشرت النساء أو الاوانس أمثالها فليكن شأنها مما يمدح وإذا ساعدت أمها في مهام بيتها فليكن بما يعتقد معه انها التي تتبحر في بيتها وتقدر على تدبيره وادارته بمفردها « ثم اذا أذن الله وتزوجت بالكفو من الرجال فهناك هناك الدخول في غمار الحياة الصحيحة النسوية من حيث القيام بالواجبات البيتية وتبادل الحقوق والواجبات مع زوجها بالادب والكمال .

« ان الزواج اذا شمر فلا بأس باقامة الاعراس لانه من السنن البشرية وانما يعلم يا سيداتي ان خير ما يكون من ذلك ما كان مراعي فيه الأذواق السليمة والمصلحة المالية وتجنب الاسراف في الجهاز والحفلة لتأمن الأسر مغاب ذلك السيئة ويعمل كل على قدر ثروته ولا تتطلعن الفقيرة الى ما تعمل الموسرة لان في هذا الخسران المبين والحسرة والندامة .

« لتعلم الفتاة التي تزوج ان مصالحها ومصالح زوجها قد ارتبطت بالزواج وانها صارت مسؤولة أمام الله عن بيته كما هو مسؤول أمامه تعالى عن حقوقها قبله ، ما الذي يسعد البيوت وبالتالي الا زواج ؟ هذا ما اريد بيانه بالايجاز واثن كنتن حضراتكن تعرفنه وانما آتي عليه ههنا حتى لا تخلو مسامرتي هذه من روحها ولبابها ولباب ما في الباب من الآداب ان الذي يسعد الأزواج الكمال والادب والحشمة ثم الطاعة وحسن القيام بمهام البيت كل على قدر حاله ثم جعل الحياة البيتية سارة قارة في أعين الأزواج حتى لا يكون لهم حجة في هجران البيوت . بم تنال الشابة المتزوجة ذلك ؟ قدمت لحضراتكن

شيئاً عن تربية البنت الادبية والعقلية وان ما تكون قد كسبته من الاخلاق الكريمة أو القبيحة تظهر نتائجه ههنا على أشدها وتعامل زوجها واسرته بحسبه ولما كان كل إناء بالذي فيه ينضح فهي من ثم إما اكتسبت الثقة والاحترام واما باءت بالخسران والاحتقار واما كيل لها بمثل الكيل الذي تكيل به والطيور على أشكالها تقع .

« أيتها الفتيات المتربات المهدبات ماذا تختزن إذاً؟ فهناك في الحياة طرفان من الافراط والتفريط وخيرهما الوسط فاعددن له عدته واعملن بالحكمة والادب والحشمة والوداعة والطاعة من غير ما تدن بالنفس الى ما يوجب امتهاها تظفرن بالعيش الرغيد أما السفاهة والكبر أو عدم القيام بتدبير المنزل الى أشباه ذلك فهذا عواقبه وخيمة ونتائجه ذميمة لا على المرأة فقط بل على الرجال والاسر والهئية الاجتماعية فالقلب المملوء بالحكمة والأدب الديني والديوى فهذا ينيل صاحبه السعادة والحظوة من الناس ورب الناس أينما كان وحيثما وجد أما النفس المحشوة بالذائل فهذه قد تخرج بصاحبها الى الشقاء وتلقى به في التهلكة والله يقول ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة .

« واذا رزقت المرأة الرشيدة الولد عرفت كيف تربيته وتحسن القيام عليه وتكون شفقتها أى حنانها الطبيعي موجهاً معه خير وجهة بعكس الرعناء والخرقاء فانها قد تضر بولدها وتفسد أحواله ولا اذكر نكراً أولئك الجاهلات من النساء اللواتي يهلكن أولادهن ويعدمنهن الحياة أو الصحة بايديهن لجهلن بالواجبات واجبات الامومة وتربية الاطفال

« ان النساء من عادتهن الافتخار اذا رزقن الصبيان والاكدار اذا حرمن

الامن البنات نعم هذه سنة موروثه لان الصبي من الجنس القوى والبنات من الجنس الضعيف وكل انما يريد القوة حتى كان العرب قديما يثدون بناتهم (أى يقتلونهن) ولكن الشريعة الاسلامية السمحاء والمدنية الصحيحة الحديثة لانظر الي تلك الاعترافات بما ينظر اليها به الجاهلون بل تعتبر الانسان متساوية ذكوره وأناته وان لكل نفعه وحقوقه وواجباته والمخالق تعالى لم نره يوماً ما اعطى المجتمع البشرى من الاولاد الا بمقدار النصف من الذكور والنصف من الاناث ثم ما الذى يهمننا من ذلك ونحن ما علينا الا أن نربي من يأتينا بحسب ما يصلح له أما المستقبل فلا يهمننا لانه لله وبالله وعلى الله . . .

فقلت احدى السيدات وكان لها أربع بنات ولم ترزق صبياً عليهن — ولكن ياسيدتى الاميرة نرى الرجال يفتمون لذلك ويهتمون النساء أو يتشاءمون منهن

فقلت الاميرة وهي تضحك

— هذا من الجهل السائد بحسب العادات ولقد بينت لكن الصواب والحق فلا تغرنك أيتها السيدة أحوال مثل هذه الاحوال واهواء ما أنزل الله بها من سلطان ولكن عليك وعلى زوجك اذا كان عاقلاً مثلك واجب العناية فقط بما رزقناه

فقلت تلك السيدة وقد غلب عليها الحياء

— هذا ما تقوم به ولكن فى النفس حاجات . . .

فاغربت الاميرة فى الضحك ثم علت جبينها المهابة وقالت لتلك السيدة :

— لله ملك السموات والارض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء انا وإيهب

لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرا نا وانا نا ويجعل من يشاء عقيما أفهمت
أيتها السيدة؟

وانتهت المحاضرة في الساعة الرابعة كالعادة فقامت الأميرة بهائها
وعظمتها وقام السيدات فسلمن وانصرفن الى بيوتهن



سن الكهولة والشيخوخة

﴿ من مسامرات الأميرة ﴾

ولما وافت الساعة الثالثة من اليوم التالى وفد السيدات لسماع المسامرة
الخامسة عشرة من مسامرات الاميرة وهي المسامرة الاخيرة من تلك
المسامرات النسائية الشائقة فصعدت الأميرة يراعة منصة الخطابة وقالت
بصوتها الرخيم:

« أيتها السيدات

« اذا مضت على المرأة منا أيام شبابها وأيام الامومة الاولى على النمط
الصالح والمثال الحسن الذى الممت الى محاسنه أتى عليها زمان فقدت فيه بحكم
الطبيعة وسنن الايام شبابها الغض ودخلت في دور الكهولة فالشيخوخة وانتقل
ما تدل وتعجب به من الجمال الى بناتها وأبنائها وتخلصن في الغالب بخصالها
ولكن في هذا الدور وان فقدت المرأة الجمال فن تفقد الكمال بل هو بالضد

يزداد لديها قوة ويعظم في نفسها وتشعر معه حيا لها بالمسؤولية العظيمة من الاخذ معهم باقوى الاسباب هي ورجلها الذى يكون تداضحى مثلها شيخاً بحكم السن

« أن القيام بالتربية التي سلف لى بيائها انما يكون بالطبع من وظائف السيدات في هذا السن لان من تكون لها بنات كبار مرشحات للزواج هي في الواقع من الكهول ولا يصح أن تعمل عمل الشابات بل عليها أن تصلح من أحوالهن وتصحح من اغلاطهن ولكنى أقول بالاسف أنه للجهد السائد أو للتجاهل الخائق بنا معاشر بنات حواء قل أن تشعر المرأة منا بأنها كهلة وانه لا ينبغي لها الا القيام بوظائف الكهلات من النساء .

« أن لهذا الدور بحكم السن هراة من سكون العقل واعتدال العواطف فالمرأة الصالحة تكون فيه خير مثال للمرأة بكل معنى الكلمة أى المرأة الشاعرة بواجباتها العاملة بمصاحبة بيتها وعيالها وهيئتها الاجتماعية أن الكهلة التي أحسنت تربية بناتها بالقدوة الحسنة والتعليم الجيد تسر بذلك وتستريح من كثير من أعباء العمل فبماذا تقضى أوقاتها اللهم الا في المراقبة والملاحظة وتصحيح اغلاط أولادها وأعانة زوجها في كل ما يقوم به بوجه عام والقيام بما فيه خير الهيئة الاجتماعية بمد يد المساعدة للفقراء من أبناء الهيئة والعمل بنشاط في تأدية الواجبات الدينية ومعاشرة الاصدقاء وذوى القربى بكل لطف وأدب .

« واذا تجاوزت المرأة هذه المرحلة وصارت بين الكهولة والشيخوخة لا جرم ازداد سكونها الى الكمال وخفت عنها اعباء الاعمال وقد تصير جدة لاطفال وفي هذا لذة وسعادة تتضاعف بها مسرات نفسها وانها في هذا الدور

يحسن بها أن تقوى فيها ملكة الدرس والمطالعة وتعليم الاولاد وأولاد الاولاد كل ما يصلح شأنهم عن خبرة وتجربة بالايام وحنكة بالسنين وتكون الزينة في هذا كله الجمال العقلي والكمال النفسى بالرضا والارتياح وقد مضت زهرة العمر ونضرة الشباب ونذقه

« أيتها السيدات ان النفوذ الادبى للنساء ذوات الاعمار لا يعدهل نفوذ لان له تأثيراً عظيماً فى نفوس الفتيات وان تأثيرهن الدينى — ولا أقصد به دجل الدجالات ممن يتخذنه مهنة وانما كلامى على امهات العائلات — ليفضل كل تأثير لا سيما اذا كن متعلقات متضلعات عارفات بما على النساء وما لهن من الحقوق والواجبات الدينية وأية ابنة أو ابنة ابن أو ابنة بنت لا تقف موقف التعظيم والاجلال أمام جدتها أو جدها الكبير وهو ينثر عليها من فيه درر الحكمة ثراً يفضل حلى الذهب وعمود اللؤلؤ

« ولقد يأتي على المرأة الكبيرة كالرجل الكبير زمان وقد اشرفت فيه على حافة القبر فتساوى فيه لذلك لديها الحياة والموت وانما يكون أملها في لقاء الله تعالى والدخول في جواره بمقدار ما حوت نفسها من فضائل وخيرات وما قدمت لنفسها بنفسها والجزاء من جنس العمل .

« سيداتى اننا معشر الحاضرات ههنا لم نصل بعد الى ذلك السن وانما حكمتنا على تصورات أصحابه وأحوالهم وما ينتابهم من صحة وسقم وعوارض من المشاهدات التى نشاهدها فكل من وصل الى ذلك العمر وأضحى معلقاً بين الحياتين أى غشيته عوارض الشيخوخة وأوصابها يزهد في لذات هذا العالم ونعيمه وينظر اليه نظر اشفاق وحنان وعطف على ناسه حتى يستزبدوا

من الخيرات وان بلوغ هذا المقام انما يرجع الى معرفة سر الحياة بما جرى لهم فيها واختبروه منها وان افضلها ما كان افضلها في اعتبار أهل الصلاح والتقوى الذين حاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا فغرفوا غث الامور من سميتها وصححها من زائفها وخرها من خلتها وحلوها من مرها .

« سيداتي في الحديث الشريف «خيركم من طال عمره وحسن عمله» وان على المرأت لو اجبات واعمالا قد سردت على مسامعكن شيئاً منها واني لافضل مثل تلك النساء وما في حكمها من غرر الآداب ودرر الحكم على ما تحلى به صدوركن ونحو ركن من عقود الجواهر والماس فاخرصن يا سيداتي على الخير واعملن به واعلمن أننا كالرجال ما خلقنا عبثاً ، ما خلقنا الا للعمل الصالح في هذا العالم وأتينا مجزيات باعمالنا فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »
ثم اعلنت الأميرة ختام هذه المحاضرات فقامت السيدات يودعنها ويعانقنها وجعلت النقيات يقبلن أيديها وقد تأثر اكثرهن واغرو رقت عيون جمهورهن بالدموع ووعدن الاميرة يراعة بالعمل بنصائحها ما عدا تلك الفتاة عديلة هانم فانها لم تتأثر بل ابرقت أسرتها وجعلت وهي خارجة مع أمها ترمقني والاميرة شذراً كأنها تقول « انتظرا مني حربا عوانا سألصليكما نارها »

— ❖ ١٨ ❖ —

عديلة هانم

ان اسباب عداوة هذه الفتاة لي انما ترجع الى الحسد من زواجي قبلها أو بالتالى من زواجي بذلك الشاب المهذب الامير عقيل بك ابن أخت الاميرة

يراعة التي طبقت شهرتها مصر فحين رأت عديلة هانم بيتى ومنزلاتى ومنزلة
أسرتى عند الاميرة وزوجى دبت فى نفسها عوامل الغيرة والحسد واشتغل
قلبا حقداً وهكذا فى البشر من يحسدون الناس على ما أأنهم الله من فضله
بلا سابقه عداه حتى يفسدون عليهم وينغصون عيشهم

ولقد كانت هذه الفتاة وأسرتها من معارفنا وجيراننا فقد كانت أمها
بهية هانم وقد عرف القارىء طيب قلبها وسلامة نيتها مما سبق من كلامها
صديقه لأمى وكان أبوها عماد الدين بك من كبار التجار الموسرين من اصداق
أبى وكانت هي صديقتى بالمدرسة وبعد الخروج منها والى قبل الساعة التى
جرت لى معها فيها الحادثة الآتية .

قال لى أبى على ما يذكر القارىء فى أحد الايام التى كانت تلقى علينا فيها
الأميرة يراعة مسامراتها أودروسها النسوية « يا بنيتى احذرى بعض
صديقاتك » وقال لى زوجى كما سبق أيضاً فى محاضرات خالته الاميرة لنا
معشر النساء « أنها تعب نفسها معكن » ورأيت من صديقتى أو عدوتى عديلة
أموراً انكرتها عليها فجعلت هو اجسى تكبر وتعظم بما لم افهمه « ترى أتريد
صديقتى معاكستى من قبل زوجى لتعكر على صنفوى ؟ أهى تجرأ على ...
مكاتبته أو مغالته ... أو اه ما هذه الافكار ولكن صديقتى اجمل منى ...
هب أنها كذلك أيدنى زوجى نفسه ... أترضى هي بمبادلة زوج صديقتها
الجب ... ألم تسمع دروس الاميرة ... ؟ »

هذه كانت هو اجس افكارى من يوم ان عرفت فى عديلة هانم عدوة لى
فى ثياب صديق تحسدنى وترتعش حين ترانى وتنظر اليّ والى الاميرة يراعة

شذراً وتأتي لسماع محاضراتها بالزبي الفاحش وتلتفت في الحديقة كأنها تريد لقاء أحد . . . فمن هذا كله من حالها معي حمدت الله على انتهاء الاميرة من مسامرتها لاني ظننت اني ما عدت ارى عديلة هانم في بيتي كل يوم وأنها قد تأتي فقط لزيارتي من حين الى حين بعيد

كانت عديلة هانم في سنى ولكنها كانت تبنزي في الجمال ثم كانت في المدرسة امهر منى ولكنها كانت على الدوام مشتهرة بالخفة والطيش والرعونة بعكس ما كنت عليه من الوداعة والاحتشام وكانت تلك الخصال فيها سبباً لكدر أمها وأبيها لانها ما كادت تخرج من المدرسة حتى صارت تخرج مع صويحبات لها على شاكلتها - والطيور على اشكالها تقع - يتزاورن وكانت تزورني فلا أزورها في مقابل زياراتها العديدة الا مرة كل حين طويل أى حين تتوجه أى لزيارة أمها .

وكانت تميل الى التبرج والتصنع لدرجة عظيمة بالرغم عن زجر أمها وأبيها وكنت أعيب عليها نزعها ولكنها كانت لا تكترث للكلامى وكلام اسرتها فذلك كله سقطت في أعين الكثير من الاسر من معارفها ورمينها بما فيها من الخفة والنزق والرعونة وألسنة الخلق أقلام الحق

ولقد خطيت الى أبيها مرة فرضي بزواجها وكاد يتم العقد ولكن بلغ خاطبها ما هي عليه فامتنع وترك لاسرتها الهدايا الاولى التي قدمها لها مما شاع ذكره في الحي بيد أنها لم تمعاً بكلام الناس وجاراتها واطردت سيرتها الممقوتة فلما تزوجت أنا على الصورة التي علمها القارىء جعلت بادئ بدء تعيب على أسرتي عدم احتفالها بعرسى ثم جعلت تنتقد سفرى مع زوجى يوم زواجى

وتعيب دون غيرها من صديقاتي أناث بيتي وصورة زوجي ... حين رآته قائلة وهي تضحك « ان زوجك غير جميل ولا حسن البزة والمندام » قالت ذلك كلما مزحة لي وكانت عقارب الغيرة في الحقيقة تنهش في صدرها ولا اكرم القارئء أحوالنا معشر النساء . . .

ولما بدأت الأميرة تلقى علينا مسامراتها صارت تأتي وتسمعها مع امها وهي كل يوم في زى جديد وحين تدخل الحديقة تخلع عذارها وتقبها الهلاهل مما يظهر أنه أثار شهوات زوجي ومخاوف أبي فقالا لي ما قالا

على ان ما كنت حسبه صارفا عنى زيارتها ورؤيتها من انقطاع الاميرة عن محاضراتها الشائقة جاء بضد ما كنت أحسب اذ جعلت تلك الصديقة العدوّة تزورنى في كل يوم في ميعاد تلك المسامرات وتتودد الى وتحب وتطلب منى ان أخرج معها الى الرياضة في مركبتها الجميلة فلا اطأوعها

أما زوجي فكان لا يحفل بها على ما يظهر لي وكان أبي يسألنى كثيراً عنها ويطلب منى أن لا أخرج معها وان أجفوها ولولا صداقته مع أبيها وصداقة امى لامها « لطر دشر طردة تلك الفتاة الطائشة الفاسدة » كما كان يقول لي ولكن تلك الصداقة وما تكلمت به نفسه من الآداب كان يمنعه من ذلك فما أطيب خيمك أيها الاب الكريم وأرق عواطفك واحساساتك .
أما أنا فكنت اكرم غيظي وغيرتى منها واعلل النفس بأنه « ربما أتى عليها يوم تعرف فيه خطاها وتعود الى صوابها . . . »

وفي ذات يوم أقبلت علىّ وهي تتبختر وتهادى في مشيتها وقد لبست

أبهي حلالها وحلاها فبعد التحية قالت بسرعة وهي تتصنع الضحك :

— أين زوجك يا صديقتي سنية ؟

قلت — قد خرج في هذه الساعة وما ترغين منه ؟

قالت — لدي كتاب تركي العبارة من صديقة لي ولقد سمعت أنه يحسن هذه اللغة التركية فإريد أن يقرأه لي تباً لهذه الصديقة أنها تعلم جهلي بهذه اللغة ومع ذلك تكاتبني بها لتغيظني ...

قلت — اذا كان الامر ضروريا فابق أيتها الصديقة هذا المكتوب

عندي وأنا أكلفه حين يعود أن يعرّب لك واسلمك اياه مع ترجمته غداً

قالت — أشكرك أيتها العزيزة الف شكر

ثم مدت اليّ يدها المرتعشة بذلك الكتاب وقد فض ختامه فتناولته منها ولم أنظر فيه ثم وضعته في حقبتى وبعد برهة استأذنت وانصرفت وقد ابرقت اسرتها

ولم تبعد عن الباب خطوات حتى قلت في نفسي لا أنظر في هذا المكتوب لعلّي أتعلم منه بعض الفاظ اللغة التركية ولكنني دهشت جداً إذ عرفت فيه خط زوجي الامير عقيل بك ففتحتّه بالشغف فاذا فيه مغازلة منه الى صديقتي هذه رأيتها في تلك الحالة أرق من النسيم وأحلى من السلسبيل فانتفضت انتفاضة غيظ واغمي عليّ فسقطت على الارض لا أعي



— ١٩ —

معاتبه زوجى

لما أفقت من غشيتى وجدتنى فى فراشى وأمامى امى والأميرة يراعى
وزوجى ، زوجى ذلك الخائن ... جالس على مقربة من سريرى ويده احدى
الصحف ينظر فيها فقالت امى حين رأتنى قد استيقظت : .

— ما الذى أصابك يا بنتى ؟

— دوار يا اماء ، دوار وأظنه بسبب الوحى فلقد لبثت يومين وأنا أتقيأ

والدوار يغشائى فاحسب هذا من ذلك

ونظرت الى زوجى فوجدته يغطي وجهه بالصحيفة التى بيده ليدارى
خجله كأنه لحظ انى عرفت سره وعشقه لصديقتى عديلة هانم

وتلطفت الاميرة يراعى بي كثيراً ولما رأتنى وامى قد أفقت وعادت الى

قواى ذهبتا وتركتانى مع زوجى عقيل بك بمفردنا فحدثت فيه ببصرى حينئذ
ثم خنقتنى العبرات فبكيت فقام وأنى الى وهو يقول :

— ما بك يا عزيزتى ؟

قلت — أو تصنع جهل ما بى ... انى قد علمت باتصال حبل ودك

بتلك الخائنة ... وقد بلغ من قحتها أو ضحكها واستهزائها بك وبى انها

سلمتى رسالتك التى تطارحها فيها الغرام وتبثها الحب ...

فاسقط فى يده ولم يجر جوابا بادىء بدء فاستطردت قائلة :

— أقول لك انها قد سخرت بك لتتشفى مني والا لو كانت تحبك على ما توهمت أنت لما جاءتني برسالتك اليها لتوقع بيننا العداوة والبغضاء ففكر عقيل قليلا ثم قال وقد علت جبينه آثار الاهتمام :

— صدقت يا عزيزتي واني أعتذر اليك وأقسم لك برأس الاميرة يراعة اني ما كاتبها الا لما اتخذت معي كل حيلة ووسيلة لتكاتبنى وتعارف بي ولم تكن هذه الرسالة الا الوحيدة التي حررتها اليها واني علم الله ما قصدت بها الا المجاورة بمثل ما كتبت لي به مرارا من التافهات تافهات بنات هذه الايام على انى اعاهدك الله انى لا أعود الى مثلها أبداً ولقد جاءتك الفرصة لعدم السماح لها بدخول بيتنا أنا أحمد الله الذى نجاني ونجاك من مكرها فلا تسكدرى ولا تغمى نفسك واعلمى أنك حامل فيضرك ذلك باننا القادم تم ضغط على يدي متجيباً متودداً فسكت وجعلت افكر في حالة تلك الفتاة وقبحها وفي طريقة أقطع بها علاقتها بنا ورد كيدها عنانم بعد برهة قلت لزوجي :

— قم الآن واكتب أمامي كتابا اليها ضمنه انك غير عائد الى مكاتبها وأن لا تدخل بيتنا وقد بلغت بها الجرأة والوقاحة لدرجة ارادة افساد قلب امرأتك عليك . . .

فقل — سمعاً وطاعة يا عزيزتي

ثم قام فخر رسالة بمعنى ما أشرت اليه وأمضاها وسلمها اليّ ولكن لما كان الوقت ليلاً أبقيتها عندي الى الصباح ثم سلمتها الى خادمة صغيرة من خادماتنا تدعى خديجة وأمرتها أن تذهب الى عديلة هانم وتسلمها اليها يداً بيد فصعدت الفتاة بالامر وبعد ساعة عادت الينا وهي تضحك ملء شديها فقلت لها :

— ممّ تضحكين يا خديجة ؟

— ان عديلة هانم قد خرجت من دور العقل ياسيديتي الى دور الجنون
وكأن في الرسالة التي سلمتها اليها سحراً أطار لبها أو مارداً صرعها فجعلت على
أثر قراءتها تشتم .. وتلعن .. وتتوعد وتتهدد وتذرف العبرات مرة وتضحك
أخرى ثم مزقت الرسالة شر ممزق وقامت اليّ متهددة بالضرب فما وسعني
سوى الهرب من وجهها فجعلت أعدو حتى وصلت الى محطة الترمواي فركبته
وأيتت وأنا لا أملك نفسي من الضحك

— لا عليك يا خديجة أما هي فقد نالت جزاءها وكفها خزياً ما لحقها
من اطلاعي على الأعييبا ...

ثم سكت خشية أن يفضح السر ولكن خديجة كانت عالمة به فتبسمت
ونظرت اليّ كأنها تقول « لا عليك أنت منها » ثم خرجت تعجب من
جنون بعض نساء الطبقات الرفيعة .

أما أنا فجعلت فرائصي ترتعد من عداوة عديلة هانم لي وجاءت امي في
هذه الساعة فرائتي قد عوفيت فسرت بذلك ولكني كتمت عنها ما جرى
فجلست معي كعادتها تتحدث وتحسب لي أيام حملي وصعدت الينا الأميرة
وخلفها عقيل بك ثم جاء أبي فلبثنا في الحديث والسمر الشهي الى قرب الظهر
وقد تطرق بنا الحديث الى دخول فصل الصيف وانا ينبغي لنا أن نصطاف
إما في الاسكندرية أو في رأس البر فقالت الاميرة

— أما أنا فوجهتي زيارة شقيقاتي والسياحة باوروبا كعادتي ولولا أن
زوجة ابن أختي حامل لاخذتها معي لتزور حماها على الاقل في هذا الصيف

فقال عميل بك — اننى أقوم مقامها ولعلى أُلح على والدتى فنأتى معى

لتزورنا ههنا

فقال أبى بعد أن فكر قليلا

إذا كان الامر كذلك وان الاميرة وصهرى يسافران الى اوربا في هذا الصيف فاني أبعث معهما فتحياً ابني ليأتى فن الطب وها هو ذا قد تحصل في هذه السنة على شهادة الدراسة الثانوية وأرى له ميلا عجيبياً الى تلقى هذا الفن واعجابا باسم « الدكتور » نخذاه معكما وادخله احدى كليات الطب الفرنسية الموثوق بها .

ودخل علينا أخى فتحي في هذه الساعة وهو يترنم ببعض الأناشيد الوطنية فقلنا له جميعاً :

— أهلاً بحضرة الدكتور وأعلمناه بما عزم عليه والده فقال وهو يكاد يطير فرحاً

— لتحي اوروبا ليحي الوطن ليحي والدى لتحي الأميرة يراعة . . .
فمررنا جميعاً وكانت ساعة ما أحلاها نسيت فيها بعض همومى وأتراحى



في رمل الاسكندرية

ما انتصف شهر يونيو عام ١٩٠٩ حتى كنا جميعاً بدار رحبة في رمل الاسكندرية تطل على البحر بأواجه البيضاء وهوائه المنعش ولهذا الدار

حديقة غناء تفرد فيها اصناف الزراير وتسبح خالقها باصواتها الشجية فين
استقر بنا المقام فيها أنا وزوجى والاميرة ووالداي واخي جعلنا نخرج للنزهة على
شاطئ البحر نستنشق هواءه البليل وقد طاب لنا الحال ولذت لنا المعيشة وكنت
أنا قدتم لى من حملى ثلاثة اشهر وصفالى الوقت ونسيت عديلة على نوع ما .

لكنى بينما كنت ذات يوم اتمشى كعادتى على شاطئ البحر أنا وزوجى لمخنا
من بعيد فتاة مقبلة نحونا ومعها أخرى وهما لابستان الملابس الاوروبية ومتخمرتان
على عادة الاوربيات فلما اقتربتا منا اقشعر بدنى وارتعدت فرائصى اذ عرفت
في احدهما « عديلة » بعينها فوقفت مبهوتة فدنا زوجى منى وهو يقول مبتسما
— أعرفها ؟

قلت — نعم

قال — انها لم تنزل فى جنونها ولولا ان اشق عليك لأريتك عجباً من رسائلك
وتهديداتها لى ولك ولكنى أظن ان بعقل هذه الفتاة دخلا

قلت — أظن ذلك ؟ مسكينة صديقتى عديلة ولطالما كنت أنصح لها
ونحن بالمدسة ان تبعد عن طيشها وهوسها خوفا على صحتها من الاعتلال .

قال — لا ريب ان هذا الصنف من النساء كالرجال الذين على تلك الشاكلة
لما يذهب التعب فى نصحه سدى أو لا تذكرين ما قلت لك مرة عندما كانت
خالتي الأميرة راعة تحاضر كن بمحاضراتها الشائقة من انها تتعب نفسها معكن
فانى انما كنت أعنى ذلك على أنه ربما قام الزمان تهذيبها وارجاعها الى صوابها ...

قلت — نعم اذكر ذلك وقد ظهر لى الآن مقصدك منه

قال — ان عديلة لم تكده تعلم بهزاتى منك حتى جعلت تشاغنى أو « تعاكسنى »

كما يقول جيل اليوم وتترصد لى أينما حلتت وهي راكبة مركبها أو ماشية على قدميها ولقد اتخذت معي يوما حيلة شيطانية من تصنع السقوط من على مركبتها حتى صار الحوذى يضحك فالتزمت انهاضها فشكرت لى شكراً جزيلاً وبدأت من ذلك اليوم تكاتب « زوج صديقتها العزيزة » كما كانت تسميني بادىء بدء ثم تغيرت لهجة رسائليها مما اضطرني أخيراً الى تحرير تلك الرسالة التي كانت جل منها لتوقع بيننا بها العداوة

قلت - بالله يا عزيزى لا تذكرنى بذلك ولا تثير همومى واشجانى ومخاوفى قال - أو لست واثقة منى ؟

قلت - بلى ولكن هذه الشيطانة لم تقف آثارنا أينما حملنا ولم تعود فتكاتبك متهددة متوعدة أنى خائفة منها ...

فقال زوجي - قلت لك أنه يظهر ان بها دخلاً... وهذا يوجب الشفقة عليها ومن وصل الى هذه الحالة فلا يخاف شره ولقد يهدبها الزمان وحوادث الايام .. وسمعنا في غضون ذلك قهقهة عذيلة وضحكها العالى مع الفتاة التي معها وهما تتمشيان على الشاطئء وتتلفتان نحونا ودخلنا نحن دارنا حيث تناولنا طعام الغداء ثم خرجنا للرياضة ثانية عند الاصيل الي ان غربت الشمس وكان أبى وأمى ينتظران بريد القاهرة لقضاء مصالح أخي حيث عزم أبى على ارساله الى أوربا أما الأميرة يراعة فكان ههما مطالعة بريد أوربا لتقف على أخبار شقيقاتها الاميرة حكمة وعفة وشجاعة وعدالة وما أحلى اسماءهن

وكانت الأميرة وزوجى قد عزمنا على السفر في نهاية الشهر وأبى يستعد كما تقدم لتفسير أخي معهما أما أمى فكانت في غم وكدر على فراق ابنها

متخوفة عليه الاحداث فقالت لها الاميرة يراة يوماً لتطمأن خاطرها
 — ما الذى يخيفك يا عزيزتى من سفر ابنتك؟ أنه ذاهب لتلقى العلم
 وهذا ينبغي لك ان تفرحى به فضلاً عن أنه سينزل عند أختى حكمة واذا كنت
 ترين في فضلها وعلمها فتتى بان اخواتى لا سيما أختى الكبيرة الاميرة حكمة
 أم زوج ابنتك لعلى جانب عظيم من الحكمة والعلم والفضل وأنه اذا عاشر
 اخواتى الاميرات حكمة وغنمة وشجاعة وعدالة فلا ريب أنه يحمد غب سراه
 ثقي يا عزيزتى بما أقول لك ان ابنتك سيعود اليك اذا ما ابتعد عن نقائص
 أوروبا ورجلا بكل معاني الكلمة ان المدارس في أوروبا ليست كما في مصر بل
 هي هناك ارق منها بكثير في هذا القطر نظاماً وترتيباً وعلوماً واذا شئت ان
 يتلقى دروس الفلسفة العالية فهناك الكليات والجامعات الخصيصه بذلك وهناك
 محاضراتها التي لا تذكر في جنبها محاضراتى التي التيقيتها بمصر ولا محاضرات
 جامعتكن المصرية .

فشكرت والدتى للاميرة وسكنت ولكن هي العواطف الوالدية والشفقة
 شفقة الامهات كانت تلعب بلها أمواجها لعباً بيد أنه لم يمض على هذا الحديث
 أسبوع حتى جاء ميعاد سفر الاميرة وزوجى وأخي وكنا قد اعدنا لهم كل
 شيء للسفر وفي صباح يوم الجمعة من هذا الاسبوع سافروا فودعناهم خير
 وداع وعانقت أمى ابنتها طويلاً وهي تبكى وذهب أي معهم الى الميناء فسافروا
 على الباخرة النيجر من بواخر شركة الملاحة الفرنسية ولم نلبث أنا وأمى
 طويلاً حتى عاد أبي وعليه علائم الكدر فسألته أمى وهي تحسب أنه قد جرى
 شر لآخى فقال :

— أنى رأيت بين ركاب السفينة ابنة صديقي . . . عماد الدين فقلت
أنا باللهف مقاطعة عليه :

— أعديلة سافرت معهم ؟
قال — نعم يا ابنتي .



أسرتان تندبان سوء حظهما

ظلت مع أبي وامى نضرب أخماساً لأسداس بعد أن تحقق لنا سفر
هذه الفتاة الطائشة عديلة هانم مع زوجى والاميرة وفتحي في سفينة واحدة
وجعلت وامى تقول « يا للجنون يا للخرق » نعم قد كنا واثقين من أن زوجى
صار يحتقرها وكذلك الاميرة يراة ولكننا نخشى ان هوسها يؤدى بها الى
نصب مكيدة لاحدهما وفضلا عن ذلك فان معهم اخى وهوفتى لا يتجاوز السابعة
عشرة من عمره فاذا لم تصب من زوجى ماربا فأخى شاب صغير فلربما انتقمتم
منا في شخصه فقالت امى وقد لعبت بها الوسوس

— رباه ما العمل انى أخاف على أبى من كيد هذه الفتاة الحمقاء فان
الاميرة وعقيل بك يعلمان حقيقة حال عديلة ولكن ابنى صغير وربما أوقعته
فى شراكها أو دست له السم فى الدسم لتنتقم منا ليتنى أبقيته عندى ولقد كان
قلبي يحدثنى بشؤم هذا السفر عليه ولكنكم كنتم جميعاً تزينون لى سفره وتحسنون

لى تلقيه العلم برؤع فرنسا ما هي فرنسا وما هي أوروبا أو ليست مدنها
وأوساطها الكبيرة لا سيما باريس بؤرات فساد قد تطير احلام الشبان
وتفسدها؟ ان الشاب المجتهد الرشيد يمكنه أن يتعلم هنا كما يتعلم في اوروبا
اذ العلم واحد والتوفر عليه ان لم يكن بدافع النفس فلا يمكن أن يزيد المرء
فيه دخوله أعظم الكليات والجامعات وكم من فتى ذهب ليتلقى العلم باوروبا
فرجع خاسراً على انى واثقة من اجتهاد ابني فتحي من هذه الوجهة ولكنى
منخوفة عليه من عديلة هانم ما العمل الآن ولا تلغراف يوصل رسائلى ولا
بريد يحمل مكاتيبى الى السفينة قبل أن ترسو انى بلاريب أبقي أسبوعين
كاملين بلا خبر يأتينى عن ولدى . . .

ثم أجهشت بالبكاء فقال أبى وقد أتر فيه منظرها وحالتها
— خفنى عنك يا عزيزتى أولاً تعلمين ان الأميرة يراعة معه وكذا
زوج اخته عميلاً وهما يعلمان من حالة ابنة جارنا ما يعلمان وابنى كذلك لا أظنه
يجهل ماجرى لها مع زوج اخته فهو يحذر منها ويتقي مكرها وشرها وسترين
ما سيشرحه لنا من أخبارها . . .

فقلت أنا — انى والله لا أعلم ما تقصد هذه الفتاة من تتبع خطوات
زوجى واقتفاء أثره أتجبه هى بعد ان احتقرها وازدراها؟ ياللعنون وباللحوس
لبئنا على هذا الحال من القلق أسبوعاً وامى لا ترقاً لها دمة وأنا تلعب
بي الوسوس والهواجس ثم جاء أبى البريد يحمل اليه رسالة من صديقه عماد
الدين بك ذلك الشيخ الوقور والدعديلة يخبره فيها بأنها سافرت بلا اذنه الى
الاسكندرية وقد أرسلت اليه رسالة تعلمه فيها بأنها فى الاسكندرية فى ضيافة

بعض صديقاتها المصطفات بالرمال بمحطة بوكلي ويرجوه أن يكلفها بالرجوع
الى بيت أبيها ويريهما ما في مخالفة ذويها من السببة والعار
فلما اطلع أبي على هذا الكتاب وأطلعنا عليه لم نتمالك من الاسف والضحك معاً
فقلت امي وهي تنهد

— مسكينة امها صديقتي بهية هانم فانها الآن مثل على آخر من الجمر ولقد
يزداد خطبها اذا علمت بسفر ابنتها الى أوروبا وأرى ان لا مندوحة لنا من
اخبار أبيها بذلك حتى يتخذ التدابير اللازمة لاعادتها والا فمما للفتيات والسفر
خصوصاً من غير اذن ذويهن ولا مع أحد من محارمهن أعوذ بالله من شر
هذه المدينة الجديدة التي أفسدت عقول النشء ذكوراً واناثاً نتم ان عديلة
حسبت انها اذا سافرت مع الاميرة أو انضمت اليها في الطريق تكون بمأمن
من العار في هذه السياحة فضلاً عما حسبته من معاشره عقيل ومجالسته . . .
ولكنني أخشى ان ما تراه من شمهه وابائه يحملها على الانتقام من ولدى أو
غيره تعساً لهذه الشقية ، اني أظن البريد لا يأتي الا بعد اسبوع آخر
فقال أبي

— ربما وصل بعد يومين أو ثلاثة لان المواصلات قد سهلت بسبب
ازدياد سرعة البواخر الآن

ثم قام فخر الى عماد الدين بك والد عديلة كتابا فلم يمض يومان حتى
كان ذلك الشيخ والسيدة قرينته بهية هانم في ضيافتنا بالاسكندرية
وحين وقعت عين امي على صديقتها والدة عديلة هانم وكنا لم نقطع علاقتنا
بها كما قطعناها مع ابنتها قامت اليها فاحتضنتها وجعلت ترثي لحالها وتقص عليها

بالصراحة حوادث ابنتها وتخوفها منها

فقلت بهيئة هانم وقد خنقتها العبرات

— لا أظن ابنتي تأتي مثل هذا الشر يا عزيزتي نعم انها طائشة ورعناء
وتعمل كل ما يقوم بدماعها من الخيالات والتهوسات ولكني أوكد لك ان
ابنتي لا تقدم على مثل ما تلمحين اليه لأن لها نفساً كريمة وصاحب الدار
أدرى بالذي فيها

فهزت أنا رأسي كأنني أقول انها تقتحم كل خطر لنيل اغراضها ومن
تقدر أن تتغرب على هذه الصورة تقدر على اتيان كل ما يقوم برأسها المحتل
من الشر . لكن تلك السيدة لم تفطن لما كان يدل عليه حالي وما كان يدور بخلدي
وجعل أبي من جهة اخرى يؤاسى صديقه عماد الدين بك ذلك الشيخ
الذي أشرف على السبعين واحتاج الى عصا يتوكأ عليها وايض شعره شيباً
وتقوس ظهره وظهرت عليه آثار التعب والاعياء والمرض ان لم يكن من
الشيخوخة فما تأتيه ابنته وبالرغم عن تسلية أبي له جعل الرجل يبكي وينتحب
ثم اتفق مع أبي على ان يكتب الى الاميرة يراعة لتبذل جهدها حتى ترد اليه
ابنته حيث لا ملجأ له الا هي وما سافرت ابنته الا حباً بها . . . وعاد يبكي
كالطفل ويثأب أبي أحزانه واشجانه ويعتذر اليه ويكثر من الشكوى المرة
من جراء ما عملت معه ابنته وخروجهما عن طاعته متخلصاً بهذه العبار

— لا تلمني يا صديقي على ضعفي ان ابنتي عديلة قد بذلت كما تعلم كل
مرتخص وغال في سبيل تربيتها فهي كانت مع ابنتك في المدرسة وحين خرجت
منها احضرت لها المعلمات الماهرات وفضلاً عن ذلك فاني بفضل ما عندي

من الثروة الطائلة لم أحرمها شيئاً طلبته على أن أخلاقها هذه الطائشة قد أحرمتها
 الزواج مراراً ولقد زادت الطين بلة بسفرها خلف انسان أراه يحتقرها ولا
 يصح لها بوجه من الوجود ان تطمع في الارتباط به بأى رباط فضلاً عن انها
 تمقت ان تكون ضرة . . . ولمن تكون ضرة ؟ لا عز صديقاتها وابنة أعز
 أصدقائى وأحبائى لا والله ان هذا لشر عظيم ولن يكون أبداً . .

ثم سكت عماد الدين بك وقد تقرحت آماقه من البكاء وانتثرت دموعه
 فوق لحيته الطويلة البيضاء كحب اللؤلؤ فوق صحيفة من الفضة ولزم أبى
 الصمت والتفكير متعجباً من أحوال قلوب بنى آدم وكيف ترمي العواطف
 والخيالات بعض الناس فى المآزق الصعبة وتركبهم الحشن من المراكب وقد
 تكون عند النظر الصحيح مما يمكن ان يفتدى به الشرف بل المصلحة الحقيقية .

— ❖ ٢٢ ❖ —

رسالة من الاميرة

مضى أسبوعان ونحن فى هذه الحيرة ثم جاءتنا رسالة من الاميرة يراعة
 باسم والدى فجمعنا وصديقه عماد الدين بك فى بهو الدار وقد فتحنا الكوى
 فدخل نسيم البحر ينعش أفئدتنا المسكومة ويخفف مع رسالة الاميرة يراعة
 بعض ما نجد من الكروب والآلام أما الرسالة فكان فيها ما يأتى :
 صديقى العزيز : ركبنا النيجر كما تعلم من الاسكندرية ووجهتها مسلييا

ولقد ركب معنا كما رأيت وشاهدت بنفسك تلك الفتاة الرعناء تحت اسم مستعار وهو « مسز بوريس » لأنها تتكلم الانجليزية ولقد دهشنا جميعاً حين أبصرناها معنا أما أنت فلم تطق صبراً وانسجبت وبعد ان ودعت وذهبت جعل ابن اختي وابنك يتواريان عنها بين الركاب فلم تر أمامها سوى غير انى لا اکتتمك أمرى فانى اذ رأيتها بمفردها اشفتت عليها وقد وثقت من ابن اختي ومن ابنك ايضاً فعظفت عليها وصرت اجالسها بمدة السفر وتجالسني أما عقيل وفتحي فكانا لا يلتقيان معها الا عند تناول الطعام ثم يهربان في جوانب السفينة وقد رق النسيم وطاب السفر فيجلسان حيث شاءا وكانت تتبعهما بنظراتها وتود من صميم فؤادها ان يجالساها فكنت اشغلها بالحديث حتى تملكك فؤادها وأثرت على افكارها واراها قد عرفت الآن معنى الحياة الشريفة وكأن الغربة والوحشة من الاهل اذ هبتا على ما يظهر لى شياطين نفسها فصرحت لى بالأمها . . .

انها يا عزيزى قبل كل شىء فتاة جميلة وقدرت تربية ناقصة بالرغم عن حرص والديها بالناية بها وارادة تربيتها ولقد اکتسبت اخلاقا فاسدة من العشرة السوء التي لم تلاحظها فيها أمها الملاحظة اللازمة ولم تراقبها المراقبة المطلوبة في الباب وهنا موضع الضعف والداء العضال في تربية البنات مهما انتحلت أمها من الاعذار وادعت لكن هذا كثيراً ما يزول وانى أو مل انها بوجودها معى في ديار الغربة تعود الى أهلها كما يحبون ويتمنون فطمأن أيها الصديق خواطر ابويها واطمأنوا أتم على من لكم معى . . .

« وصلنا باريس فاخذت عديلة معى في مركبة الى دار اختي وركب

عقيل وفتحي مركبة اخرى ولقد أحسنت اختي ملتقانا جميعاً وكنا بحضورتها كالاطفال أمام والدتهم الشفوقة المعظمة وكانت تنثر علينا من حكمتها ماجعلنا السنة تلهج بالثناء ورأيت من ابنتك فتحي اجلالاً وتمظيماً أحله في نفسى وفي نفس اختي منزلة سامية أما عديلة فقد رأيتها تذرف الدموع لشدة تأثرها من كلام اختي التي دعها لان تكون في ضيافتها مدة اقامتها بباريس بعد أن سألتها عن سبب حضورها فتاجلجت في الجواب واتلخت الاسباب من مثل تبديل الهواء والتداوى من مرض . . . أما عقيل وفتحي فدهشنا حين رأيا من عديلة مالم يكونا ينتظرانه من الوداعة والخشوع والدموع . . . فلذلك أشفقنا عليها وان كانا لا يزالا يتجنبانها

« ولقد أوصتني عديلة هانم بان اكتب الى والدها عماد الدين بك وأخبره اننى أنا الذى أخذتها معى وانى سأردها الى والديها سالمة وأرجوهما أن يسامحانى ويسامحها على هذا العمل من أخذ ابنتهما بدون علمهما وبلا اذنهما أما عقيل فسيكتب الى زوجته رسالة خصوصية يضمها أشواقه . وكذلك ولدك النجيب فتحي فقد أخذ على نفسه أن يصف لك ما جاش وما يجيش بخطا طره في رحلته وهو فرح جدل يرى بباريس ام الدنيا

« وعلى ذكر فتحي أقول ان اختي حكمة أشارت عليه بان يدخل كلية الطب بباريس لكي يكون تحت ملاحظتها بمدة الدراسة فطابت نفسه بذلك وطار قلبه فرحاً واخلك يا صديقى توافق على هذه الفكرة وهانحن بانتظار الجواب وانى أقبل في الختام وجنتى سنية وصديقتى والديها المحترمة »

فلما انتهى والدى من تلاوة رسالة الاميرة يراعاة قلقى أنا لوجود عديلة

مع زوجي يظلهما سقف واحد مها قالت الاميرة عن خشوع عديلة وتأديبها
بمحضرة الأميرة حكمة حماتي وتجنب زوجي كلامها ولحظ والدي ذلك مني
فجعل يشير الى بان لا أتكلم ووالداها معنا يسمعان فأدركت اشارته ولزمت
الصمت على أحر من الجمر

فقالت السيدة بهية هانم والدة عديلة لابي

— أو تظن يا صديقتنا ان ابنتي تهذب أخلاقها من معاشرة الأميرة
الكبيرة واختها صديقتنا الاميرة يراعة ... اذا كان الامر كذلك فاني احمد
الله على سفرها وتغربها وانما الواجب الآن أن نرسل لها كتابا نعلمها فيه
والاميرة يراعة بانا راضون عنها ومرسلون لها ما تحتاج اليه من النقود ثم
التفتت الى زوجها وهي تقول ألا تستحسن هذه الفكرة يا سيدى البك ؟
فهبز الشيخ رأسه وقال :

— الأمر اليك والى صديقي فائتما أدري منى وقد صرت أنا شيخاً
كبيراً يؤلمنى على كل حال سماع هذا السفر لما فيه من عيب عدم الاستئذان منا
به وان كان مصاحباً حالها فاني أسأل الله ان يمتعها بالهناء وان كانت في حاجة
الى النقود فاني أرسل لها من الغد ما تريد منها ولا أظن تلك الغيبة الا باعت
بعض حلبيها وسافرت بثمنه ...

فقالت زوجته وقد سرى عنها سماع أخبار ابنتها :

— أتشك في ذلك ؟ انى قد بحثت في خزانها فرائتها خالية خاوية ...

فتهد عماد الدين بك ولم يتكلم فقالت امى لتخفف عنهما مصابهما

— وعلى كل حال فمصيبة المال هيئة اذا كان من ورائها صلاح حال ابنتكما

أما أنا فكنت في غضون الحديث قلقة مضطربة الافكار تلعب بلبى الغيرة
وتذهب بي كل مذهب لاني تصورت عديلة قد ظفرت بمتغاها من كيدى
والاستيلاء على قلب زوجي

— ❖ ٢٣ ❖ —

ليلتي في الاحزان

أرعى الليل سدوله ونام كل من في الدار قير العين مرتاح الخاطر
لورود رسالة الاميرة يراعة السارة المريحة للنفوس نفوس من كانوا معي أبي
وامى وضيفيهما والدي عديلة ما عداى فقد كانت نفسى في اضطراب عظيم
كامواج البحر التي كانت تضطرب أمامى ترعى وتزبد وتعلو وتتخض ويسمع دويها
في هجومها على الشاطىء ثم ارتدادها عنه خاسرة كذلك كانت أفكارى
والآمى تأتي بكثرة مسرعة فيضيق بها صدرى وأنا متكئة على يدي فى نافذة
غرفة نومي أنظر الى البحر والى القمر الساطع بنوره بلا وعي ثم تخسر أى
تفرج عن نفسى بما ينبعث في قلبي من الامل أمل الثقة بزوجي وانه لى دون
عديلة عدوتي اللدود

لقد تمثل لى في هذا الليل الهادى شقاء النساء بالغيرة وعذرتهم فيما
كنت ألومهن عليه في سرى منها وجسمه لى الوهم فى قضية هذه الفتاة فكان
لا يتخطى هذه الافكار التي اصورها للقارىء في هذه السطور بكل صراحة
« أحببت هذه الفتاة زوجي وحسدتى عليه يلا ريب فسعت بادى بدء

لتشغله بذاتها عنى ولما نجحت بمض النجاح بالحصول على تلك الرسالة التي أرسلها اليها اتخذتها سلاحاً للايقاع بينى وبينه حتى أبغضه ويبغضنى فاذا ما وقعت بيننا الشحنة والبغضاء أدت الى الفراق وهناك كل مبتغاهما فتسعى اليه بكل حيلة حتى يتزوجها ولما لم تفجح وطردت شر طردة بما كانته بالرد عليها بتلك الرسالة التي يأمرها فيها بأن لا تدخل دارنا جعلت تحتال حتى جاءت خلفنا الاسكندرية ثم سافرت معه في سفينة واحدة وباللحقة ! ثم هاهي اليوم تقيم معه بين اسرته وأنا هنا بعيدة عنه لا أعلم بم يتحدثان وفيهم يتساران والرجال معها قالوا ومهما حلفوا فلا أمان لهم ولا اثمان :

« ان عديلة كثيرة الخداع والمكر — ولا عبرة بقول زوجي انها محتلة الشعور متهوسة ... فانما هذه أعذار يبدونها ليربحني ويطمأن بها نفسى — وقد تحقق لى ذلك منها مذكنا بالمدرسة ، كانت اذا أرادت أمراً فلاتنك تطلبه بكل حيلة ووسيلة حتى تظفر بمبتغاهها والآن طلبتها زوجى وهي معه وقد بلغ حسدها لى أشده حين رأتنى سافرت معه الى الصعيد ومعنا الاميرة ثم هناعى وسعادتى فى بيتى وقد اخفق سعيها فيما دبرت بحيلة الرسالة وطردها وقد ظفرت الآن بمبتغاهها من التمتع بمراءه الى جانبها دونى رباه أهى تاركة له لبه ؟ أهى لا تقدر على سلبه ارادته وعزيمته بسحر عيونها وعذب منطقها ومعتدل قوامها فينكث عهوده معى ومواثيقه ؟ ولكن بأس للظالمين بدلا

« ان الاميرة وأختها حماتي طيبتا السريرة نقيتا الضمير ومهما كان من تزلعلهما ومعرفتهما فقد تفوتهما هذه الاحوال وتخفى عليهما بل قد تخدع حكمتها ويستعصى داؤها على معرفتهما وخبرتهما ودليل على ذلك رسالة الاميرة

يراعة الى أبى اذ سرعان ما اشفتت هي وأختها الاميرة حكمة على عديلة و عملها معى كاف لان تزدريانها وتحتقرانها من أجله بل تظردانها من دارهما شر طردة بسببه حتى لا تدنسها بمقامها فيها . . . ولو كنت أنا مع زوجى لما خفت عليه كل هذا الخوف ولكنى بعيدة ، بعيدة عنه بمراحل وبيننا هذا البحر العجاج المتلاطم بالامواج . . .

« تبا لك يا زمان أنى لم يمض على اقتراى زوجى الأير عقيل سوى ستة أشهر فسرعان ما قلبت لى ظهر المحن ولكن لا عتاب ولا ملام فليس لك قلب يرحم ولا فؤاد يعطف على ان لى خالقا عظيما رحيما وهو مطلع على خفيات قلبى وما يكلمه من الهموم والاحزان فهو وحده القادر على انقاذى من هذا العناء وذلك الشقاء الذى يهدد حياتى . . .

« ألهى اليك اشكو بئى وحزنى واليك الجأ فى شدتى وكشف كرىى ونصرى على عدوتى التى عادتنى من غير ما سبب سوى ما تحوى نفسها من شر وخبث ، ليت أنى يسمح لى بالسفر فألحق بزوجه حتى لا تغويه حيل هذه الشيطانة ويقع فى حبائل مكرها . . . أنها بالحقيقة جميلة ولكن نفسها لا جمال لها ولا كمال فيها ومن تجردت نفسها من هذا الجمال وذلك الكمال فلا تعد كما قالت الاميرة يراعة الا فى اخريات النساء مهما امتازت به من جمال الصورة الظاهرة .

« أرى أنه يحسن بى الآن ان اكتب الى زوجى كتابا أعاتبه على ضعفه أو ضعف اسرته فى قبول عدوتى لعله يقوم بواجبه فيطردها من دارهم أو يطلع والدته وخالته على رسالتى فتتوليان طردها أو تسفيرها وارجاعها الى

والديها ذينك الشيخين الكبيرين اللذين على وفرة غناها وعظم ثروتها لم يحسنا مع ذلك تربية ابنتهما وتركها تفسد على الناس أمورهم وان كان في نيته غير ذلك فليعلمني حتى أرى رأيي»

صممت على كتابة هذه الرسالة غير منتظرة ورود رسالة زوجي التي أشارت اليها الأميرة في كتابها ثم التفت خافي فرأيت أبي واقفاً ينظر اليّ بالشفقة والحنان ودموعه تبال لحيته فحجبت منه وغطيت وجهي بيدي حياء لا استردموعي عنه فقال بصوت مهدهج:

« ألي هذه الساعة تبقين ساهرة العين يا سنية أولاترين ان الفجر قد لاح وانبلج عمود الصباح ، اشفقي على نفسك يا ابنتي واعلمي ان الله ناصرك لا سيما واني واثق من الاميرة وأسرتها وعقيل
ثم تركني وخرج فوقع كلامه على قلبي موقع الماء الزلال فاطفأ لهيبه فذهبت الى فراشي خجلة من ضعفي واستسلامي للاحزان ونمت نوما عميقاً.

٢٤

يدي وبين أبي

استيقظت من النوم في ضحوة النهار فلبست ثيابي وقد عاد اليّ بعض قوتي وجلدى للقاعدة المشهورة من ان الحوادث المزججة للنفس قد تخفف وطأتها من يوم الى آخر حتى لا تعود تؤلم من اصابته سهامها فدخل عليّ أبي وهو يضحك فقممت اليه وقبلت يديه وأنا أكاد أذوب حياء مما اطلع عليه

من حالتى أمس الدابر ففش لى وبش ثم مد اليه يده برسالة رأيت عليها خط
زوجى وهى باسمى

فقال — اقرأى ما فيها واطمأنى فلا اخال زوجك يرضى بما توشوس
به اليك نفسك من المبل الى تلك الفتاة أتظنين ان سهرك راعية النجم أمس
الا كان من قبيل تلك الوسوس والخيالات السوداء أما أنا فلا أرى الأمور
الا بيضاء نقيه بشرط أن يعمل الانسان بالعقل فان هده لا يخطئ ولكن
الاستسلام للعواطف والخيالات يجسم الأمور فى النفس فتضى وتردى
واعلمى أنك حامل

قلت — أشكرك يا والدى العزيز ولكن خوفى أن جنون أو مكر تلك
الفتاة يفتن زوجى وهو ما ارجحه وقد احتمالت حتى صارت معه فى بلد واحد
وتحت سقف واحد وأنا بعيدة عنه فلا جرم كان لى العذر . . .

فقاطعنى قائلاً — لا تخافى ولقد قلت لك أنى واثق من الأميرة وابن
أختها زوجك وما قولها أنها عظمت على عديلة وان هذه الفتاة قد آبت الى
رشدتها فى الغربة الا من قبيل ما يكن صدر الاميرة من العواطف الكريمة
دون التراخى فى الحق والواجب اذا قامت مضللات أو مغررات من ذلك
الجانب تعاكسها فكونى على ثقة وعلى كل حال فسأخذ أنا كل وسيلة لدرء
الخطر الذى يدور بخلدك خوف وقوعه

ثم سكت وخرج من الغرفة وقد رآنى انظر الى رسالة عقيل بك التى
ناوليتها وقلبها بين يدى أريد قراءتها فاتهمزت أنا فرصة خروجه وفتحت
الرسالة بالشغف وتلوتها وما جئت على آخرها حتى لم أتمالك نفسى من الضحك

وسرى عني بعض همي ونعمي لانها كانت تتضمن بث اشواق نحوى وأملا في المستقبل نحو رؤية ابنتنا العتيدهم وصفامطولا لما تصنع معه عديلة من الالاعيب لاجتذاب قلبه نحوها مما هو حرى بان يصدر من أمثالها الطائشات وأنها لما رأت حيلها لا تنفع معه اظهرت الادب والكمال لتجتذب قلب أمه وخالاته خصوصاً الاميرة يراعة على ان حيلها ربما ظهرت لاسرته قريباً فتضطر الى طرفها واراحته منها...»

هذا مضمون رسالة زوجي التي أزلت بعض همي وما كان ابتسامي الا لبارقة الأمل من بقاء زوجي لى دون تلك العدو وعاد أبى فرآني مشرقة الوجه فقال وهو يتبسم

— لعلك يا بنية قد اطمان قلبك الآن من جهة زوجك أنه شهيم كريم وما كان ابن الأميرة حكمة وابن أخت أميرتنا المحبوبة يراعة الا ليكون كذلك وأمه هي أمه وخالته هي من تعلمين ولكي ازيد اطمان قلبك وابتهاج نفسك فيها هي رسالة من أخيك الى تركي شهادتي في زوجك فتناولت رسالة أخى بيد مرعشة فرأيت فيها ما من شأنه ان يزيد اقتناع نفسي بان لا خوف من تأثير عديلة وان نفسها القلنة ربما جملتها على مغادرة باريس لما لم تجد من وراء مساعيها الا الفشل والخيبة وفي آخر الرسالة وعد باخرى يضمها مشاهداته وملاحظاته وأنه سعيد مسرور الخ

وفيا أنا وأبى تتحدث اقبلت أمي فهمست في أذنه ان عماد الدين بك بانتظاره ليندبها الى مصلحة البريد حيث يريد ان يرسل لابنته حوالة بالتغراف فقام أبى ثم قامت أمي وقت أنا معها الى غرفة السيدة هانم فظلنا في

الحديث والسمر وكان كلام المسكينة لا يتخطى ذكر ابنتها وشوقها الى رؤيتها وتأثرها من سفرها على هذه الصورة المعيبة والاعتذار لنا عما فرط منها وتخوفها من ان لا تهيج بها حالة الطيش والرعونة فتغادر باريس على حين غفلة من الاميرة يراعى فتذهب الى حيث لا يعلم بمكانها انسان ولا أحد من أهلها معها فقلت أنا في سرى « الى حيث القت أم قشتم رحلها »

وبعد ساعة رجع أبى وعماد الدين بك وقد أديا مهمتهما وكان أبى قد أرسل ايضاً نقوداً الى ابنه ورسائل الى الاميرة وفتحي وعقيل ثم رسالة منى كنت حملتها اياه لزوجى جواباً على رسالته ضمنتها أرق العبارات وألطف الاشارات ملمحة من طرف خفى الى عديلة وخوفى من بقائها معه دون زيادة حتى لا أرمي بقلعة المروءة والشفقة ولم أشر بكلمة الى طردها على ما كانت تحدثنى به نفسى في الليلة الماضية لأن الأفكار السوداء التي ياتي بها الخيال والوسواس الخناس في حالة الغضب والكدر الشديد كثيراً ما تذهب سدى متى ما عاد المرء الى ضميره أو عاوده بعض الامل وعلى كل حال فقد صدق من قال « كلام الليل يمحوه النهار »

— ❖ ٢٥ ❖ —

الفيلسوف الصغير

لعل بعض قراء قصتى يندهشون اذا قلت لهم انى أعنى بهذا الفيلسوف أخى فتجيباً ذلك الشاب الذى لم يمض على سفره الى اوروبا شهر كامل ويتساءلون

عن السبب الذي حملني على ان أختار له هذا الاسم : فأقول أن شقيقى فتحياً كان وهو بمصر مثال الطالب المجتهد فكان يقضى اوقات فراغه في الرياضة الخلوية ولا يطالع بعد دروسه الا الكتب العصرية المفيدة فكان لا يسمع بكتاب وضع حديثاً أو عرب جديداً الا سعى في اقتنائه وتوفر على مطالعته فمن هذا تربت له ملكة الاطلاع وقويت ذاكرته واتسع نطاق معلوماته وكان مذهبه السياسى وطنياً عاقلاً يقرأ الصحف ولا يخس الناس أشياءهم وكان لحسن تبصره لا تتعدى وطنيته الدائرة التي ينبغى ان يتقف عندها كل طالب علم فمن ذلك كله كان له مندوحة في امتلاك نفسه وضبط عواطفه والتوفر على دروسه وكان أبغض شئ إليه مطالعة الروايات الفاسدة وكان يناقش أباه والاميرة وعقيلاً في المواضيع الكثيرة ولا يتشبث برأيه اذا رآه خطاء بل كان من عادته الرجوع الى الحق ولسلامة أذواقه وجودة أفكاره واصالة آرائه في الكثير من الامور أطلقنا عليه اسم « الفيلسوف الصغير » فكان أبوه وامه والاميرة وعقيل وانا لانسميه الا به أما هو فكان يضحك من تهكمنا ويقول « بلى وسوف اكون الفيلسوف الكبير » فكنا نتهج بجوابه ويزداد طربنا وضحكنا منه

ذلك هو السبب في تسمية اخى فتحى بهذا الاسم اللطيف ولولا رسالة منه وصلت أبى حديثاً وعلمها على سبيل المزاح هذا الامضاء « ابنك الفيلسوف الصغير » مما اضحكنا كثيراً لما ذكرت هذا الاسم او لما عقدت هذا الفصل تحت عنوانه في حالتي من الخوف واضطراب البال من جهة زوجى ولكن على كل حال فان رسالة اخى أبهجت نفوسنا كثيراً وسرت عنى انا بعض ما أجد من

همومي وأحزاني وكان أبى ما أراد باطلاعنا عليها الا تسليتنا أنا وامى
ولقد كانت هذه الرسالة فاتحة رسائل كثيرة منه ضمنها خلاصة الآراء
الحديثة فى التربية والتعميم وأحوال اوروبا أما هذه الرسالة التى أنا بصدد
هنا فلم تتضمن غير مشاهدات خاصة عن أخلاق الفرنسيين وطبائع
الباريسيين كقوله عن باريس

« لقد جمعت هذه المدينة العظيمة المتناقضات فهى بلد العلوم والمعارف
كما انها مدينة اللذات والمسرات وأرى الاخلاق ههنا تقرب من وجوه من
أخلاق قومى المصريين ولكن هنا العلم والآداب تلتطف تلك الاخلاق
وترينها وترقق الآذواق والمشاعر وتحسنها وعندنا الجهل يسطو على النفوس
فيفضحها ويظهر عيوبنا بين الخليفة العصرية مجسمة . . . »

وقال فى مدارس باريس وكلياتها وصناعتها وملاهيها

« ماذا أصف لكم عن مدارس جمعت الى حسن الترتيب والنظام كمال
العلم والارتقاء به الى السماك الاعزل تأليفاً وتجديداً ولو رأيت رواج العلوم
وسوق المعارف والصحف هنا لقلت ان القوم قد عرفوا بالحقيقة بماذا
يملكون ناصية المدينة وان الصناعة والتجارة فى أعلى درجات الارتقاء والرواج
ولفى الموسيقى والتمثيل هنا جمال لا يفضله جمال وان الناظر الى باريس
ليندهش من حركتها أى توجهها بأهلها والاجانب النازلين فيها وما حوت
من دور العلم والصنائع والمخازن والمراسح الى غير ذلك مما يقصر عنه قلم ضعيف
مثلى وبالجملة فقد صدق من سمي باريس « ام الدنيا »

ثم وصف الفرنسيين بفرط الذكاء ورقة الشعور وحدة المزاج لدرجة

الطيش والتعلق بالتأفهاث لذلك وان جرائد عم وكتابهم يماثلون الرأى العام
ويصانعونه كثيراً ثم ختم رسالته بأنه « دخل كلية الطب بباريس غير منظر
اذن والده اعتماداً على ثقته بما تختاره له الاميرة يراعة وأنه بدأ يستعد لتلقي
علومها من أول السنة المكتبية وأنه مكب الآن على مطالعة ما يساعده على
تلقي دروسه بسهولة وتخلص من ذلك الى ذكر اسرة الاميرة يراعة وان اخها
الاميرة حكمة وباقي شقيقاتها الاميرات عدالة وشجاعة وعفة لمن منزلة عظيمة
في أعين الاوروبين وان دورهن قل أن تخلو من الزوار وكلهن على شاكلة
اخهن يراعة في اللطف والظرف وكمال الآداب وانهن جميعاً وعقيل يهدوننا
تحياتهم القلبية »

ولم يشر في هذه الرسالة بكلمة واحدة الى الأنسة عديلة فنظرت الى
أبي طويلاً كأني استفهم منه عن سبب سكوت أخى عن ذكرها ترى أهى
غادرت باريس وذهبت الى حيث ذهبت كما رجحه هو لها في رسالته الماضية ؟
أم ماهو السبب في عدم ذكره لها في حين أنه معها في دار واحدة وقد أشار
في الرسالة الماضية اليها ؟ فأوماً الى أبي وهو يتشم « ان اسكتى ولا تتكلمى »
فأطعت لاشارته لان أبا الفتاة وامها كانا حاضرين معنا ولكنهما لم يشاركانا
ابتهاجنا بتلاوة هذه الرسالة بل لزمنا السكوت والتفكير وغلب عليها الحياء
حتى يسألا عن ابنتهما لم لم يشر اليها أخى بكلمة مع انها معه في دار واحدة
ولكن خجلهما من سلوكهما وسفرهما ألزمهما السكوت والاطراق الى الارض حياء



— ٢٦ —

معلومات عن عديلة

لم يكن كتاب أخي خالياً بالحقيقة من أخبار هذه الفتاة العسة ولكن أبي أبت عليه مرؤته ان ينقص على والديها بها لانها لم تكن سارة على نحو ما تفاءلت به الاميرة في كتابها منذ ثلاثة أيام فشهادة أخي في رسالته الاولى وهذه الثانية خصوصاً لم تركيا شهادة الاميرة يراعة لانه لما كان الفتيان زوجي وأخي يتلازمان لذلك كانت لا تخفى حركات عديلة على عين الرقيب أى أخي فتحى وهو وان يكن شاباً صغيراً لكنه كان كبير العقل نامى القوى دقيق المراقبة والملاحظة والذى يدل على فضل عواطف هذا الشقيق انه ضمن تلك الاخبار عن عديلة رسالة على حدة وحشاها بملاحظاته على هذه الفتاة ورجا أبي ان يكتب الى والديها بان يستدعيا ابنتهما حتى « لا تطرد شر طردة » من دار الاميرة حكمة لسوء سلوكها وحذر أباه ان يطلعني على اخبارها « لئلا تشور مخاوفي » على انه شهد في نهايتها لزوجي بانه « وان كان لا سبيل لتلك الفتاة ان تغلب على قلبه وانه لاختي دون سواها لكنه لا يضمن له البقاء على هذا المبدأ فالانسب ان يطلب من أبوى عديلة استدعاء ابنتهما حتى لا تطرد أو تظفر بمبتغاها وان كان لا يرجحه »

هذه المعلومات عن عديلة من رسالة أخي اطلعني عليها أبي بالرغم عن طلب أخي ان لا يطلعني عليها لئلا تشور أحزاني فما أشرف عواطفك أيها

الشقيق الشفوق أما أبو عديلة فكانا قد قاهما الى غرفتهما قبل تلاوة هذه الرسالة المفردة وعلامات الكدر والغم بادية على وجبهيهما لا يفارقهما التفكير بحالة ابنتهما التعسة كأنهما كانا يحسان بها وان لم يعلما باخبارها التي تضمنتها هذه الرسالة التي أطلعني أبي عليها ليزيد اطمئنان نفسه لان الرجاء فيها والامل راجح بالنسبة لي على ضدتها فبعد التفكير ساعه فيما بيننا قالت امى :

— انى والله لاخشى على هذا الشيخ أن يردى به الغم وأخشى على صديقتى بهية هانم ان تضربها أحزانها بسبب سوء فعال ابنتها ولكن على كل حال فلا بد من اخبارها حتى يرسل اليها يستقدمانها وانى أنوى اخبارها تلميحاً بتلك المعلومات التي كشف النقاب عنها فتحي

فقال أبى — ان ابنتهما على كل حال فى ضيافة الاميرة وقد علم ابواها بذلك من رسالتها فأرى ان لا تتسرع و تنتظر ريثما يأتي جواب الاميرة أو عديلة نفسها وقد ارسلنا لها النقود البارحة فلا معنى اذاً لان يزيد فى آلامها واكدارها اليوم فسكتت امى طائعة لامر أبى اما انا فحدثنى نفسى بان لا اضيع الفرصة السانحة حتى احمل والدى عديلة على استدعائها ووسوس الى شيطان الغيرة ان ازيد بما شاءت نفسى على هذه المعلومات المستتقة من كتاب اخي حتى يضطرها الى مغادرة بيت الاميرة رجعت الى القاهرة او لم ترجع اذ ذلك لايهمنى بيد انى لم اجد الفرصة سانحة اليوم فان امى كانت لا تقارق صديقتها بهية هانم لحظة و ابى ايضاً كان يجالس عماد الدين بك ويطيب كل خاطر صديقه ويالله من كرامة القلوب وما تفعل نبالة النفوس ، انى أنا ابنتها وقد وجد خطر يهددنى فى زوجي وسلبه منى ومع ذلك فانهما يتوددان الى اقرب

الناس الى عدوة ابنتهما ويضيفانهما ويضرعان الى الله معهما ان ينقذ ابنتهما من خطر « الحب » الذى شغل سويداء قلبها

قلت أنى لم أجد الفرصة سانحة اليوم لاخبار أبوى عديلة فلهذا التزمت الصبر الى الغد ولكن فى الغد رأيتهم جميعاً لا يفترقون أيضاً لا فى الصباح ولا بعد الغداء ثم جاء المساء فبعاد النوم فطراً بخاطرى ان اضمن ما أريد اخبارهما به وادسه لهما فى رسالة اكتبها واضعها فى غرفة نومهما فاذا اطلع عليها الرجل فلا شك أنه يبادر فيرسل الى ابنته يوبخها ويأمرها بالرجوع عن زوجي .. وحين صرت بمفردى فى غرفة نومي سهرت فى كتابة هذه الرسالة ولا اكرم القارئ انى كتبت أربع رسائل ولكنى كنت امرقها الواحدة على أثر الاخرى بعد ان اجيل فيها نظرى مرة اخرى اذ كنت أراها بذئثة أو جارحة لاحساسات ذينك الهرمين وعواطفهما وآخراً استقر رأي أن اكتب رسالة مختصرة اضنها « ان أبى عنده معلومات عن ابنتهما فى سلوكها وانها غير سارة وانه خشية عليهما يكتبها عنهما ولا يبيدهما لهما وان الاوفق لهما ولشرفهما ان يكتبها الى ابنتهما عديلة هانم يستدعيانها » فكتبت الرسالة على هذه الصورة وفى الصباح عند ما اجتمع والدا عديلة بوالدى كعادتهم وجلس الجميع بهو الدار ينتظرون بنافذ الصبر اخبارها انسلت أنا فوضعت رسالتى هذه فى غرفة نوم ضيفينا ورجعت أدراجي وأوصيت الخادمت ان لا تسبها واحدة منهن .

ولما تناولنا الغداء — وكان من عادتنا ان نقيم فى الظهيرة والوقت صيف فيتوجه كل منا الى غرفته ليأخذ راحته الى ما بعد العصر — ذهب أبوا عديلة

الى غرفتهما فعثر أبوها على رسالتي ففتحتها وقرأها وفهم ما فيها فازداد هم المسكين
ونغمه وجعل وامرأته يندبان سوء حظهما وآخرًا صمما على الكتابة لابنتهما
بمعنى ما أشرت عليهما به وان يغادرا دارنا الى القاهرة وقد أحسا بثقل وطأة
الغيرة على قلبي من ابنتهما وان وجودها مع زوجي مما يزيد آلامي ووجودها
معنا على كل حال مما يثير أشجاني

— ❖ ٢٧ ❖ —

اجهاضي

كانت عوامل الرجاء واليأس والحزن والفرح تتناوبني وكان أبي مع
شدة حبه لي وخوفه علىّ يشجعني ويؤاسيني وكانت امي لا تنفك عن تسليتي
وازالة هموم قلبي وأنا بينهما تتراوحني عوامل كثيرة من الغيرة والكمد
والخوف من ان تظفر تلك الفتاة بالاستيلاء على قلب زوجي فمن هذا وذاك
تأثرت نفسي وأثرت بأحوالها في صحتي وصحة حملي فكنت كثيراً ما أشعر
بالآلم يعقبها نزييف وكان الطيب يسر الى أبي وامى بان يتغلبا على أحزاني
والا كانت سبباً لأخطار لا تحمد عقباها . . .

تلك كانت حالتي بعد ان سافر عماد الدين بك ابو عديلة وزوجته بهية
هانم امها على أثر الرسالة التي حملتني الغيرة على دسها اليهما ثم انقطاع أخبار
زوجي عنى مدة تزيد على الخمسة عشر يوماً فزاد اشتغال بالي وأرقى وسهرى

حتى كان أبي ينصحني بان الزم العقل ولا أتعب نفسي وازعج خاطري وكذلك
امى ولكن حالى لم يكن لي الحكيم عليه بل ضعفت ارادتي وتولاني اليأس
والكدر والوسواس وسواس الغيرة وتشعبت في نفسي ضروب الأفكار
والخيالات والتصورات الغريبة التي يجسمها الوهم وكانت أحيانا تخف وأحيانا
تزيد وهي في سيرها تعادها النفس ولكنها على كل حال تضى وتسقم بقدر
ماهي بصدده وبالرغم عما تضمنته رسالة أخي مما يوجب الاطمئنان بالتحقيق
جعلت تلك الاوهام تعظم لي الامور والمهموم تورقني الساعات الطوال حتى
أحسست بالآلام هي آلام الاجهاض فحضر الطيب والطيبية وكان يوما
شديداً حيث اجهضت فيه وغشى علىّ على أثر ذلك ثم عرتني الحمي فلزمت
الفراش اياماً لا أعى فيها وكاد أبي وامى يجناز ويموتان شفقة وحناناً علىّ الى
ان من الله بالشفاء فنقبت من مرضى وابلت من عاتي ورجعت الى عافيتي
وهذو نفسي رويداً رويداً

وكانت أخبار زوجي والأميرة وأخي وعديلة وصل أبي منها الشيء
الكثير بمدة مرضى ولكنها كانت تنكتم بالطبع عنى او لا يلتفت اليها ولا
يعنى بالرد عليها بالنظر للعناية بأمرى حتى كانت الرسائل المعنونة باسمي تفتح
ويقرأها أبى ثم يضمها الى رسائله ويودعها مكاناً من مكتبته
ولبثت ملازمة للراحة والحمية كأمر الطيب نحو الشهر الى ان جاء
شهر اكتوبر وشعر المصطافون ببرد الهواء ورطوبة الجو فبدأت الاسر المصطافة
تعود الى القاهرة وكل يوم ترى الدور تقفر من سكانها الراجعين الى منازلهم
بالعاصمة وغيرها وكان من صنعى أنا انى جعلت لا افكر الا بالهوادة في

شأنى بعد ذلك المرض الطويل وصار لا يعرو نفسي ما كان يعروها قبل من
الغيرة بل سلمت للمقادير تجرى في أعنتها

ولقد كانت امي تلازمني ولا تذكر لي الا كل ما يسر خاطري من الاخبار
فكنت احمل ذلك منها المحمل الحسن من ارادة التخفيف عنى الى أن قالت لي يوما
— اننا يا عزيزتى عائدون الى القاهرة في الاسبوع القادم لان زوجك
سيحضر الى داره مباشرة هو والاميرة يراعة عن طريق بور سعيد أما اخوك
فقد دخل كلية الطب بباريس فهو باق كما تعلمين لتلقى دروسه هناك ولقد
تكدر زوجك وحماتك والاميرة يراعة حين بلغهم خبر اجهاضك ومرضك
فقلت باللهف — وما هي أخبار عديلة ؟

قالت امي وهي تضحك — لا عليك منها جملة وتفصيلا ان اخبارها
يطول عليك سماعها في هذه الساعة وسأقص على مسامعك منها ما تدهشين
منه في غير هذا الوقت وموعدا عصر اليوم حين الخروج الى الرياضة
والجلوس على شاطئ البحر .

وبينما امي تكلمنى دخل أبي مسرعا فلما رآنى قال

— اني وامك سنسافر اليوم الى القاهرة لامر هام أى تلبية لدعوة
عرس . . . بعض الاصدقاء فابق انت مع الخدم هنا وبعد ثلاثة أيام أعود
اليك فاشحن العفش ونسافر عائدين الى دارنا ثم ضحك ملء شديقه
وأوماً الى امي كأنه يقول لا تسألني عما أوجب هذا السفر بغتة فلاحظت
أنا ذلك منه ولم تسأله امي أما انا فعادت الى هواجسى ولكنى كتمت حالي
وسلمت للمقادير في أمرى .

فسافر والداي وتركاني ولقد كانت عندنا خادمة عجوز شمطاء أعهد وجودها في دارنا منذ عهد الصبا فبقيت هذه الخادمة معي وبعض الخدم وكانت امي قد كلفت هذه العجوز بملازمتي وتسليتي وان تسر الى ما كانت تريد اخباري به ريثما يأتي أبي فيأخذنا الى القاهرة فبا خلا البيت لنا جاءتني هذه الخادمة فقالت وهي ضاحكة السن

— ان شئت يا سيدتي خرجنا الى شاطئ البحر وان شئت بقينا ههنا وما علينا الا نسر ونفرح وكفناك يا سيدتي من الهم والنغم وقد جاء الفرج «وكفى الله المؤمنين القتال»

قلت — أي فرج ومم هو وأي قتال كفنا الله إياه

قالت — أو لم تقل لك السيدة والدتك؟ ان عديلة هانم صديقتك ... ستزف الليلة على عروس «مليح جداً» هو شيخ في سن أيها أو يزيد عنه قليلا او ينقص قليلا وعلى كل حال فهو شيخ فان ولست أدري كيف قبلته مهما كانت الاحوال أو قبله أبواها، اني وان كنت خادمة فتيرة لكنني أعتقد ان من تمام الصواب بل من حسن الذوق أن لا تزوج بناتنا الا لمن يقاربونهن في السن لا كما يفعله بعض الناس من الخبط والخلط في الزواج ولقد خطب الى هرم مرة ابنتي بهانة فلم أقبل وطرده والخاطبة شر مطرد مع انه كان رجلا موسراً ولكن لعل لعاماد الدين بك عذراً ونحن نلومه ولعل سيدي لم يخبرك بهذا الخبر حتى لا يزججك السرور به

ثم قهقهت العجوز وضحكت أنا معها لا لما أبدت من الرأي بل لما سمعت

به من زواج عدوتي بغير من هو لي



ما جهلت من الحوادث

لبثت جالسة والعجوز أمامى تبنى من الحركات والاشارات ما يضحك
الثكلى ولكنى كنت في واد آخر من الافكار اتأمل فيما سمعت وعقلى بين
مصدق ومكذب بالخبر ، كيف عدلت عديلة عن حبها ؟ وهى عادت من
سياحتها ولم رضيت بهذا الزوج وهى التى كانت لفرط جمالها لا يعجبها العجب ؟
فادركت العجوز ما يدور بخلدى من المواجس فقالت لىخرجني من افكارى
وتسلىني وتزيد في سرور نفسى بما سمعت

— لا تعجبي ياسيدتى من صنع ربنا القادر وأظنك تجهلين أخبارها من
حين مرضت فلذلك يجلو لك ان أطرف مسامعك بها
— نعم نعم فهل أنت تعلمين بها ؟
— على الخير سقطت ياسيدتى
— اذا أرجوك « يام بهانه » ان تقصي على ما جهلت من تلك الحوادث
فانى مشتاقة لسماعها

— اعلمى أيتها العقيلة الفاضلة ان الانسة عديلة هانم صديقتنا ... ظلت
في باريس في ضيافة الأميرة يراعة هانم ريثما وصلتها النقود من أبيها ولقد
كانت عند الاميرة واخواتها معرزة مكرمة مظهره للخشوع والخضوع ولكن
يظهر ان حيلها لم تنطل عاين أو هي عادت الى طباعها من النرق والطيش وعرفن

منها ما ترمي اليه من مطارحة سيدي البك الغرام فنصحها ولما لم تستمع لنصحهم وارشادهم وكانت جاءت برسالة من أبيها يستدعيها الى مصر ورسالة منه الى الاميرة يرجوها أن ترد اليه ابنته فلذلك رأت الاميرة الفرصة سانحة بتكليفها بالسفر والا اضطرت الى طردها طرداً كأمر أبيها اليها .

« فانصاعت العاشقة المسكينة للامر وسافرت مخفي حنين ومعها أحد أتباع الاميرة الى ان جاء بها مصر وأوصلها دار أبيها وحين وقعت العين على العين ثارت في رأس ذلك الرجل الشهم النخوة العربية والحمية فكلم ابنته كلاماً قارصاً وبنحها توينغاً شديداً وكاد من غيظه ان يبش بها لولا تدخل امها وشفقتها عليها وقد اغمى على الفتاة والام والرجل ولزمت الفتاة بسبب هذه الحادثة الفراش ايما اما أبوها فمضى في غضبه عليها الى ان اتيج لام الفتاة — مسكينة السيدة بهية هانم — يوماً ان تؤثر على ابنتها حتى تدخل معها على أبيها وتقع على قدميه وتقبلها وتستسمحه وتطلب صفحه عما مضى والا جاء غضبه بشر العواقب عليها أي بالحرمان من الميراث وهو عظيم وهي وحيدة . . .

حين سمعت عديلة هذا التهديد وذلك الوعيد عاد اليها صوابها وآب اليها رشدها فقامت مع امها مسرعة ودخلت على أبيها وارتمت على يديه ورجليه تقبلهما كما أشارت عليها امها به وطلبت منه ان يصفح عنها ويقبل توبتها من فعالها فأبى كل الاباء فوقعت الام والبنات على يديه وقدميه مرة ثانية ملحتين ضارعتين اليه في طلب العفو عما سلف وان لا يعود اليه البتة فقال عماد الدين بك حينئذ — اعلم اني كنت عازماً في هذه الساعة على حبس كل ما أملك من عقار وطين على افعال البر والخير وحرمان هذه الفتاة الشريرة من ميراثي

لانها ليست له أهلاً بعد تلك الفعالم . . . ولكن اذا كانت قد عادت الى
رشدھا وطاعتي فاني أترك هذا العزم على شرط لي

فقالت الام والبنت في نفس واحد

— وما هو هذا الشرط أيها السيد؟

فأجاب — هو ان تزوج ابنتي صديق صفي الدين بك

فدهشت الام والبنت ورجعتا الى الوراء خطوات لان « العروس »

هو ذلك الشيخ الهرم جار عماد الدين بك وقالتا ساخرتين

— ذلك الرجل الهرم !

فقال عماد الدين مصمماً

— هو بعينه وأتما وشأنكما

فنظرت الام الى البنت والبنت الى الام برهة ثم أحبت الام ان تفتح

فأھا وتكلم فوضعت البنت يدها على فم امھا فاسكتھا ثم قالت بجرأة عظيمة لایھا

— قد قبلت يا أبي وأنا مطیعة لامرك فافعل ما بدالك

عماد الدين — اذاً يكون العقد في الغد والبناء كما تشاءن

فقالت الام وهي تسكب العبرات :

— يا لشقاء ابنتي يا لشقائي

عماد الدين بك

اسكتی فان حنانك وشفقتك الكاذبين هما اللذان أفسدا على ابنتي وأوجبا . . .

وفيا العجوز تسكلم جاء خادم صغير وناواني تذكرة عرفت فیھا خط

عديلة هانم فتمضضتها فاذا فیھا :

« عزيزتى سنه :

« اهنأى وسرى وأنا قد تزوجت بشيخ » اكل عليه الدهر وشرب »
ولكنه على كل حال قد أضحى لى زوجا وقد دعا أبى كل صحبه وأظن أباك
سيحضر وامك غداً فعلام لا تأتين لتحضرى عرس . صديقتك عديلة

رمىت هذه التذكرة من يدى فقالت تلك العجوز

— أظنها تذكرة منها تدعوك لعرسها الليلة ولكن هيات فقد مضى
الوقت ولم يعد فى القدرة رؤية زفافك يا عديلة هانم ونحن على القرب والبعد
داعونك أيتها الصديقة . . . بالرفاء والبنين . . .

ثم ضحكت أم بهانة « وزغردت » وغنت غناء الفلاحين للمرائس فجاء
الخاديمات على غنائها وقضينا السهرة فى هناء وسرور

— ❖ ٢٩ ❖ —

العودة الى القاهرة

عدت الى القاهرة فى أواسط شهر اكتوبر عام ١٩٠٩ ونزلت دارى
وأعددت كل شىء لاستقبال الأميرة يراعة وزوجى عميل بك وكان موعد
حضورهما أوائل نوفمبر وكان أبى وأمى نزلا بدارهما ولكنهما ما كانا ينقطعان
عن زيارتى وقد عاد لنا صفاء نفوسنا وسرورنا وسمع اصدقاء الأميرة
وصديقاتها بقرب قدومها فجعل الكثيرون منهم يترددون علينا بالزيارة يسألون

عن محيئها وكلنا لهج بالثناء على تلك الأميرة ذاكر مكانها من الفضل شاكر
 ما لها من الأيادى البيضاء على رجال مصر ونساءها بتلك المحاضرات
 والمسامرات السابقة التي رن صداها بمصر وتحدث بها محافلها وجرائدتها
 وأحلت الاميرة من القلوب منزلة خليفة بمثلها وهي ربة الابداع واليراع
 يا للسعادة ويا للهناء خذل الله عدوتى وها هو ذا زوجى باق لى وقدم
 على وها هي الاميرة راعة استاذتى ستعود الى دارها وناديها الزاهر فكيف
 لا اسعد وكيف لا اهنأ وتعود الى صحتى وقوتى ونشاطى وقد كبت الله عدوتى
 ورد كيدها فى نحرها بل ها هي قد وقعت فى شر أعمالها وتزوجت بشيخ فان
 يذيقها العذاب ألوانا وسبحان المنتقم الجبار . . .

ولقد كنت أسأل امى عن حال عديلة فى بيتها فتضحك وتقول «مرغم
 أخاك لا بطل» أنه لولا ما اتخذ أبوها من الحيلة فى اظهار كراهته لها والرغبة فى
 حرمانها من ميراثه الا ان تزوج بمن اختاره لها أ كنت تظنين يا بنيتى ان مثل
 عديلة هانم على جمالها ودلالها تقبل بمثل صفي الدين بك بعلا لها ؟ على أنه وافر
 الغنى وهذا الغنى من الجانبين لهو الذى انام الحية وارضاهها بما هي عليه إنها
 الآن قد اقتنت المركبات الفاخرة والسيارات الجميلة ولا تلبس الا انخر
 الملابس والحلي وتنقى باليمين وبالشمال وحين بلغها خبر قدومك أرادت ان
 تزورك ولكن أمها وأباها أمرها بان تقطع كل علاقة بك . . . ونم ما فعلا
 أما أمها المسكينة فاني أزورها وتزورني ولا يرقأ للمسكينة دمع خوفاً من
 ابنتها أن تأتي مع زوجها أعمالا فظيمة . . . ولكن هذا لا يهمننا نحن أليس
 كذلك يا سنه ؟

قلت — نعم يا أماء فقد أراحنا الله من عنائنا من جهتها ولكني أريد ان أسألك سؤالاً وهو لو كانت هذه الفتاة ظفرت بمبتغاها من زوجي أكان يطلقني ويتزوج بها أم كان يجمع بيننا وعلى كل حال كان قلبي يرتاع لهول الطريقتين ولم يزل يخفق اذا ذكرت ما كان سيصيبني من ذلك

فقلت — أنه الشرع يا ابنتي ولقد أمرنا الله بالصبر والامثال لأمره نعم ان حكمة الطلاق والزواج باكثر من الواحدة قد لا أرى لها وجهها في مسألتك فانك جميلة وفتية وولود ولم تأت أمراً ادا . . . ولكن الشريعة راعت جانب الرجال ثم أمرتهم فيما أباحت لهم بالعدل وهو قيد صعب وبالرغم منه فقد يستسهل الكثير من الناس حتى غير القادرين على الزواج باكثر من واحدة . . ثم ان الاكثار من الزواج والطلاق وأكل حقوق النساء مما افسد أحوال الاسر لجهل الناس بروح الشرع حتى الفقهاء منهم لا يودون ولا يحبون غير الحيل الشرعية ويمرونها وهذا بحث طويل وشقاء الناس به لا يعد له شقاء والجهل بالحقوق والواجبات وعدم مراعاة الأذواق العصرية كل هذا له مضاره في هيئتنا الحالية

قلت — ولم لا تعنى الحكومة باصلاح هذه الاحوال وتضع النظمات المناسبة لامراض هيئتنا؟

فقلت — قلت أنه الشرع أو بالتالى فشوره وفعه التي أمسك بها الفقهاء وتركوا اللب والروح على ان جهاد المجاهدين لازالة تلك المصائب عن الهيئة قد يطول ولو كانت الاميرة يراعى هنا لاسمعتنا من دررها في الصدما كان يزيل لبسنا ويقنع نفوسنا وعلى ذكر الاميرة أقول ان والدك قد جاءته رسالة برقية اليوم

من بور سعيد تبشره بوصول الاميرة وزوجك الى ذلك الثغر بالسلامة في صبيحة اليوم وأنهما قادمان بقطر المساء فهل تتوجهين مع أبيك لمقابلتهما على المحطة ؟ قلت — وما المانع أليس هذا واجباً وأنت يا أماه أتذهبين مع أبى ؟ قالت — أظن انه سيذهب في جمع من اصدقاء الاميرة أولئك العلماء والفضلاء الذين كانوا يسمعون محاضراتها ويطارحونها الافكار فلذلك سابقى أنا ههنا وأما أنت فلا بأس من ذهابك مع أبيك لملاقة زوجك وخالته وحضر أبى فكان أول ما قال لى :

— سأخذك يا عزيزتي معى الى المحطة لمقابلة الاميرة وزوجك أما اصدقاء

الاميرة فسيجتمعون بالمحطة لمقابلتها فيها البسى ثياب خروجك

فاطعت أمر أبى ولبست ملابسى ولم تمض ساعة حتى كنا في سيارة الاميرة قاصدين محطة القاهرة وحين وقفت بنا على افريزها أبصرت أمامنا سيارة جميلة من آخر طراز وأجمله فسألت أبى لمن هذه السيارة فقال بسرعة « لا أدرى » ثم أمسك بيدي وأسرع بي الى داخل المحطة حيث اتباع تذكرتى استقبال وكان القطار على وشك القدوم وهناك جمع من اصدقاء الاميرة بانتظارها والكل فرح طرب فسلموا على أبى وعلى بكل هشاشة وبشاشة واحترام وكان قلبى يخفق طرباً لقدوم زوجى والاميرة ولم نلبث طويلاً حتى اقبل القطار فتقدمنا الى المركبة التى كانت فيها الاميرة وزوجى عقيل بك فنزلت الاميرة منها وصاغت كلاً منا بالشوق واللفظ ثم تقدم زوجى عقيل بك بمدان صافح الحضور وأخذ بيدي وأنا أكاد أطير فرحاً ولكنى ما خطوت معه خطوات يسيرة حتى بهت ووقفت مكانى مرتعشة

خافقة الفؤاد اذا ابصرت عديلة واففة تنظر اليها وقد أزينت أبداع زينة على طريقة نساء اليوم من النقاب الملاهه والحبر المقطع وخلفها صديقة لها تقاربها في الجمال وتدانيها في الزي والدلال فلما شاهدتها عقيل بك الوى بوجهه عنها وقال « اسرعى نخرجنا وركبنا مركبة والدى تاركين سيارة الاميرة لها ولا يى وأمرنا الحوذى بان يسرع بنا الى دارى فامثل الامر ولكننا لم نسر طويلا حتى مرت بنا كالنسيم تلك السيارة الجميلة التى كنت سألت أبى عنها بالمحطة فرأيت فيها عدوتى عديلة هانم وهى ترمقنا شذراً كالتهدة



شؤون وأشواق

لما ترحلنا عن المركبة أمام قصر الاميرة قابل الخدم زوجى أحسن مقابلة وسلموا عليه باحترام ثم صعدنا فقبول من والدى ووصائف الاميرة أحسن مقابلة أما أنا فكنت قد عاودتني همومى فكنت لذلك فى واد آخر فلما رأيت والدى فى وجهى علامات الكدر نظرت الى والى زوجى كالمستفهم « هل تشاحتما فى الطريق » فادرك عقيل بك قصدها فضحك ثم قال بصوت عال ليقطع عنى أسباب غيرتى وأحزاني من رؤية عديلة بالمحطة — من المضحكات يا حماتى الفاضلة اننا لم نكد تطأ أقدامنا أنا وخالتى أرض المحطة ونسلم على اصدقائنا واحبائنا حتى رأيت فى زمرة المستقبلين ولكن « من بعيد » الانسة عديلة تلك التى صحبتنا الى اوروبا وعادت كما

تعلمين بخفي حنين . . .

فقلت والدتي مدهوشة :

— ماذا تقول يا صهرى العزيز أتلک التی لم یمض علی زفافها أسبوعان ؟
زوجي مهترًا :

— ماذا تقولين أنت أنزوجت عديلة هانم ؟ وبمن تزوجت ؟
والدتي :

— نعم انها قد تزوجت وارتاحت وارتاحت غير أنني اری انها لم تنزل . . .
فقاطعها عقيل بك مقهقها ومتعجبًا :

— وبمن تزوجت الآنسة عديلة هانم ؟
فقلت أنا عند ذلك بجدة :

— وما الذى يهيك من زواجها وبمن تزوجت ؟

انها قد تزوجت بصفي الدين بك ذلك الرجل الكامل والموسر الجليل
القدر جار أبيها وصديقه أو ما كفى ما حدث وما انتابني وأصابني أنا من المرض
بسبب تلك المودة وقد حسبتها حين تزوجت لا تعود تتناول على ولكن
مجيئها اليوم الى المحطة لاستقبالك ودهشك أنت عند سماعك بزواجها
يقلقني ويثير أشجاني . . .

فسكت زوجي ونظرت الى امي كالمعابة لى على جنفاء كلامى لزوجي فى

مثل هذا اليوم من قدومه ثم غيرت مجرى الحديث قائلة :

— أظنكما قد سبقتما الاميرة وأشياعها ؟

عقيل بك — نعم ولكنى أراها قد وصلت الآن فاني أسمع صوت

سيارتها بالشارع وأصوات عجل مركبات أصدقائها خلفها
 وكان الامر كما ذكر اذا ما علم ان ترجلت الاميرة يراعة عن انوموبيلها
 فقمنا الى مدخل الدار حيث استقبلناها بالاجلال والاحترام وتعانقت وامي
 طويلا ثم أخذت امي بيدها ودخلتا غرفة الاستقبال يتبعهما زوجي وأبي
 وكان اصدقاؤها قد ودعوها وانصرفوا على موعد اللقاء بناديها الزاهر والكل
 فرح طرب بعودتها بين ظهر انهم بعد طول الغياب مما يدل على اننا قد اضمحنا
 في زمان نقدر فيه اهل البراعة أقدارهم ونزل أرباب العلم والعلماء منازلهم كما
 يجل الاوريون أقدار نوابغهم ونابغاتهم وان شعور الامم بهذا لمهو الشعور بأعلى
 مقتضيات الحياة وكالاتها

ودخل الليل وخيم ظلامه فاستأذن أبي وامي الاميرة في الانصراف
 ودخلت الأميرة مخدعها لتأخذ راحتها من وعشاء السفر فلبثت أنا وزوجي
 جالسين بمفردنا في غرفة الجلوس هو يطالع جرائد المساء المصرية وأنا افكر فيما
 افاتحه به بأمر دهشه عند سماعه خبر زواج عديلة وبودي ان اكثر عتابه
 وملامه واستخرج ما في باطنه نحوها وقد خلا لي الجو معه شأن كل بنات
 حواء مع أزواجهن حين تلعب بهن عوامل الغيرة فقلت وأنا أبتسم
 — كل الناس قد ذهبوا الى اماكنهم ونحن باقون هنا فعلى م لا نصعد

إلى غرفتنا ؟

فقال عميل — نعم يا عزيزتي ولقد والله طالت أشواق اليك ولما بلغني
 الخبر المشؤوم خبر اجهاضك ومنضك كدت أنفطر من البكاء عليك وعلى
 ولدنا المسكين الذي ذهب فداء . . .

قلت — بالله عليك لا تذكرنى بالماضى وانى انى شغل بالحاضر اذ لا معنى
لدهشك عند سماع خبر زواج تلك العدوثة لى فى حين كان ينبغى لك أن
تفرح لفرحى بذلك . . .

فقال وهو ينظر الىّ بالحنان والحب وقد وصلنا غرقتنا .

— اننى لم أدهش الا لانى لم اعلم بالخبر الا فى الساعة التى أخبرتنى به
والدتك لا لشيء آخر كفى أنت لم تزالى تعتمدين فى الليل الى تلك
المرأة وقد رأى اخوك كيف جنوتها واحتقرتها فى باريس وانها لم تفلح معى
حيلها فيئست منى وكان قد جاء كتاب أبها باستدعائها فكنت أول من اشار
بتسفيرها على جناح الطائر اليمون . . .

قلت — ولكنها بالرغم من ذلك ومن تزوجها بذلك الرجل الموسر
الجليل ما فتأت تميل اليك بدليل محبتها اليوم لاستقبالك كأن بينكما موعداً
فتمهقه عقيل بك وأمسك بيدي ثم قال

— لا موعد بينى وبينها . . . وأنا لا قدرة لى على منعها من حبي فلتجبنى
ما شاءت ان تجبنى ولكنى اقسم لك انى لا احبها بل احبك أنت

— ❖ ٢١ ❖ —

فى نادى الاميرة يراعت

استيقظت فى الصباح متأخرة فرأيت دار الاميرة فى حركة حيث أخذ
الخدم يرتبون وينظمون « نادى الاميرة » اى تلك القاعة الواسعة التى جعلتها

الاميرة يراعة مكانا لالقاء خطبها ومحاضراتها ومسامراتها التي اطلع القارى على الشئ الكثير منها مما التفته في العام الماضى فسألت عقيلأ وأنا ضاحكة السن مستبشرة

— هل الاميرة ياعزيزى تنوى ان تحاضر أصدقاءها على نحو ما ساف فى هذه السنة أيضاً ؟
فقال عقيل بك .

— وهل تشكين فى ذلك ؟ ان هذا شأنها وتلك وظيفتها فى العالم فهى انى سارت لا يفوتها ثر ما اشهرت به من الدرر والجواهر ، ان حياتها موقوفة يا حبيبتي هي واخواتها على هذا الصنيع ولقد ربتهما والدي خير تربية وعلمتها أحسن تعليم .

فقلت — ولم ياعزيزى لا تحضر السيدة والدتك الى مصر لتزورنا ؟ قال ان اشغالها واعمالها الكثيرة فى اوروبالآتسمح لها بمغادرة تلك الديار لحظة واحدة وان لآمى مكانة سامية فى نفوس القوم هناك وهي عندهم الثقة فى حل الكثير من المعضلات

ثم قام ونزل الى مسكن خالته فرأى غرفة الاستقبال مكتظة بالزائرين من علماء مصر وفضلائها وادبائها والسكل جذل طرب برؤية الاميرة يراعة وعودها الى ناديتها خيا الجمع وحيوه بوجوه باشة وكان بينهم عماد الدين بك أبو عديلة هانم فدار الحديث بين الجميع فى شؤون العالم وأحواله من الانقلاب العثماني والفارسي وتقدم مصر خطوات فى الصدد ثم حوادث اوروبامن قضية مدام استنهيل ومسألة مجالس اللوردات بانكلا ترا ثم مسألة قناة السويس

ومحصول القطن والنفي الادارى ومجالس المديرىات والانتخابات وتقدم الامة المصرية فى معرفة حقوقها وواجباتها بالمثل الامر الذى تبهج له صدور المحبين الراغبين فى نهضة هذه الامة وبعده حديث طويل خرجت الأميرة يراعة بالقوم الى هذه النتيجة الحسنة والسكل مصغ بالافتخار والاعجاب للحديث عن المجهودات النافعة التى كملت بالنجاح فقالت الأميرة

« والله أيها الاصدقاء أنه ليصح لنا ان نتفاعل خيراً من تنبه الرأى العام المصرى الى مسائله العمومية ومعرفة حقوقه وواجباته فلقد كان الى عهد غير بعيد كأنه فى واد ومجربات العالم فى واد آخر والفضل فى تيقظه انما يرجع الى صحافته تلك الصحافة التى كانت بالحق عماد رقى الأمم ومنبعث نورها وهداياهم لصحافتنا غيوب كثيرة ولكنها على كل حال قد افادت وما أساءت بالقدر الذى قد يتوهم فيها

فقال أحد الحضور من المعممين

— وما رأى الاميرة فى مجلس شورانا فيها هو قد خول حق سؤال النظر ووضعت له لائحة داخلية مستقاة من لوائح المجالس الاوروبية النيابية وصارت جلساته علنية . ؟

الاميرة — كل هذا حسن ومؤد الى ما تطلبون وتنشدون وما اعتبر منحة اليوم سوف يكون نظاماً غداً اذا لا عبرة بالألفاظ على أن الحكومة ساعية فى وضع نظام بهذا يكون ذيولاً للقانون النظامى أما اللائحة الداخلية فانى أراها جيدة ومناسبة الآن للغاية المقصودة منها وكأن فيها ضمناً حقوقاً اكتسبتها الامة وجزى الله الساعين خيراً

الشيخ — وما قول سيدتي الأميرة في رأى جماعة من الاوربيين يرمون أعضاء مجلسنا بعدم الكفاءة على الدوام ؟
الاميرة منهدمة متأسفة

— أن هؤلاء الناس ممن لا يعجبهم العجب نعم ان أعضاء شورانا لم تزل فيهم بمايا غير صالحة ولكن انظروا الى التقدم المحسوس وقد جعلت الجلسات علنية ورأس المجلس أمير مقدام^(١) ان نظرة واحدة في محاضر المجلس تكفى لمعرفة فضله وأنه لا بد بالغ يوما ما تصبو اليه نفس الامة المصرية من الدستور بكل معنى الكلمة ويصبح لهؤلاء الفلاحين السيطرة والسلطة فى بلادهم بعد ان كانت لفضة فلاح محتقرة وهذا هو الحق والصواب وكفى مامضى من الازمان فى احتقار هؤلاء الفلاحين انما يلزم كسب ثقة الأمم العاملة لمصلحتنا حتى يستبدل الجفاء بالصفاء ويصافح الاحرار الاحرار . . . »

ثم سكتت الأميرة وقد اعجب القوم بحكمتها وبيانها وأحب عماد الدين بك أبو عديلة ان ينصرف فى هذه البرهة فقام ليستأذن من الأميرة فقالت له وهي تبسم

— لقد زوجت كريمتك ولكذك لم تدعنى الى عرسها وقد بانغى أنك زوجتها كهلا أو شيخاً . . . أنك اسأت اليها والى نفسك والى صهرك فنظر عماد الدين اليها كأنه يقول « الضرورات تبيح المحظورات ولم آت ما أتيت الا مرضاة لاسرتك ثم شد على يد الأميرة وهو يقول
— ولم أيتها الاميرة أفى هذا عيب ؟

(١) وضع هذا الفصل حين تولى رئاسة مجلس الشورى دولة البرنس حسين باشا كامل

الاميرة — لا عيب فيه ولا حرمة ولكن فيه ضرراً لان مراعاة الاعمار
 فى هذا المضمار شرط للتأديم وحسن العشرة وراحة البال
 عماد الدين بك — اصبت ولكن الضرورة . . . وفضل الرجل . . .
 لا تنسى فضل صهرى صفي الدين بك .
 الاميرة — لا انكر فضل صهرك ولكنه لم يكن تم ضروره له ولا لك ..
 ولم تتم الأميرة كلامها لانها تذكرت ما فعلت عديلة فلذلك اردفته
 بقولها — وعلى كل حال فلا تتكدر أيها الصديق من صراحتى فى افكارى ...
 فما عملته فى محله بالنظر لظروف الاحوال وانى اهنتك وادعوا لكريمتك
 بالرفاء والبنين »

ثم قام الحاضرون منصرفين وقد وعدت الاميرة اصدقاءها بمحاضرات
 فى السياسة ولما كان من بينهم جماعة من كبار الصحافيين وقد وعدوا بنشرها
 فى صحفهم السيارة لذلك لم ارفائدة من تدوينها هنا كتلك الاسامرات النسوية



سلوك عديلة مع زوجها

علم القارئ ان هذه الفتاة تزوجت مكرهة بذلك الشيخ صفي الدين بك
 وان كانت اظهرت لآبائها وقد تهدها بالحرمان من ميراثه الرضاء به وعلم
 أيضاً ان أباه اضطر الى ذلك اضطراراً ليعيد عنا شرها أما ذلك الزوج فكان

ارملا رأى عديلة وهي طفلة تلعب في بيت أبيها فكان كثيراً ما يضحك مع أبيها ويمازحه قائلاً « ألا تزوجني ابنتك عديلة » فيضحك أبوها ويقول له كالحزىء — متى شئت يا صديقي حتى تكون لابنتك فريدة أختاً ! » فيضحك الرجلان ويسران وكل من يكون بمجلسهما

وشاء الله ان تكبر عديلة هانم وتبلغ مبلغ النساء القاتنات وتوفيت زوجة صفي الدين بك فظل عزباً زمناً يعانى ووحيده فريدة أم الوحدة وكانت عديلة لا تفتر عن زيارة فريدة لانها صديقتها فزينت نفس صفي الدين بك ان يفتح عماد الدين بك أبا عديلة في أمر زواجها هذه المرة مجدداً وكانت عديلة قد بدأت تلعب معي أدوارها فكان أبوها يرجئه من يوم لا آخر معللاً نفسه بأنه ربما خطبها اليه الكفو من الشبان على نحو ما سلف له ولكن تلك السيرة لها كانت سبباً قوياً في امتناع ما كان يرجوه أبوها لها الا ما كان من الحاح صديقه صفي الدين بك معللاً نفسه بان غناه وصداقته لاسرتها قد يشفعان لشيخوخته فلما تبادت الفتاة في غيرها معي وسافرت الى باريس وحضرت منها وصفي الدين يجهل أو يتجاهل أعمالها طلبها الى أبيها مرة ثانية فقبل عماد الدين بك متحماً أخف الضررين واحتمل على ابنته حتى قبلت على النمط الذي علمه القارئ .

وخال صفي الدين بك أن السعادة حلت داره حين حلت بها تلك العروس الفتية الجميلة ولكن خاب فأله بل خدعته نفسه واضطرار صديقه الى قبوله عروساً لابنته فلم يمض على المسكين مع عديلة هانم اسبوع واحد حتى شعر بأنه مزدرى به يقابل بالعبوسة تارة وبالتهمك أخرى وقد رأى من ابنته فريدة

بادئ بدء شبه نزوع الى الخروج مع عروسه والتخلق باخلاقها والتزى بازيائها
فزاد همه ونعمه واشتغال باله وكان كل مرة يسألها « أين تذهبان ؟ أين كنتما »
فيجاب بان « الى بيت أبى » أو « فى زيارة بمض الصديقات » فيسكت على
أحرّ من الجمر ولا يحير جوابا اذ يرى ابنته كثيراً ما تؤمن على كلام
امراته حتما للشهر

واجتهد صنفى الدين بك فى فتى الحيلة لترضى تلك الزوجة الشرود فلم
ير واسطة سوى اغداق النفقة عليها وعلى ابنته معها ومشتري الملابس والحلى
والجواهر والمركبات وطلبت اليه عديلة مشتري سيارة « لانها أجمل وأحسن
مركوب فى هذا العصر للسيدات » فلم يسعه سوى التوصية على سيارة من
انفخ طراز مما كلفه فوق الثلاث آلاف ليرة

ولما رأى التمدى فى النغي جعل يؤنب ويزجر ويهدد بالشكوى الى حميه
وحمايه فكان يرد عليه بوقاحة وتوسط ابنته فريده لحسم الشرح حتى كان يسمع
من عديلة الفاظاً مما يقبح قوله للازواج فكانت تقول له « هذا تخريف ،
ما هذا الجنون الا تعرف ما يضر مما ينفع ؟ » ولقرط شغفه بها وتوسط ابنته
كان يكتّم غيظه وينثى عن الشكوى ويعود بخفي حنين ويفشل فى تنفيذ
أوامره مع تلك المرأة ثم توسط ابنته « والكثرة تغلب الشجاعة » اذ هما
اثنان وهو واحد وشيخ مدنف وأب شفوق أمام تداخل وحيدته فريده
ولئن كانت على غير أخلاق عديلة وصفاتها وفضلا عن ذلك فإن كل خدم
بيته كانوا من صف زوجته وابنته لانهم فى تلك الحركات من كثرة المشتريات
والحفلات التى تقام للصديقات فوائدا لا تخفى حتى كان يرمى بالبخل مع

سخائه وأسرافه وبالغظة والنفاظة مع لينة وضعفه . . .
ومما زاد الطين بلة ادعاء هذه الزوجة أن عليها عفريةً من الجن فاعدت
لذلك في بيته حفلة زار ظلت أسبوعاً وابتغت ثققاتها على أقل تقدير القامن
الديرات فاغتبط كل من في البيت من الزوجة والخدم والحشم والشيوخ بذلك
ما عدا صفي الدين بك ثم ابنته فريدة هانم التي بدأت يحاسبها ضميرها الحر
على ما تجنى على أبيها باتباعها خطوات عديلة هانم

واعتادت عديلة الذهاب الى دور التمثيل مستصحبة معها أحياناً فريدة
ابنة زوجها فتجلس في أحد تلك الالواج المغطاء ولكن كتنقباها الملاهه ثم
ترجع في آخر الليل في حالة سكر والرجل نائم ينفخ فتحترس في خلع ملابسها
والتعجيل بالنوم حتى لا يستيقظ المسكين ويسأل أو يصخب ويشتم ولما رأت
فريدة ان نصائحها لا تجدى نفعا بدأت تفكر فيما ينقذ اباهما مما أوقعه فيه
سوء الطالع ولكن بأى طريقة ؟ ذلك ما لم تهتد اليه بعد

وكانت الرياضة اليومية تستغرق الساعات الطويلة وما كنت أطل من
نافذتى يوماً بين الساعة الثالثة والرابعة الا رأيت سيارة عديلة هانم تمر على
دارنا مرة أو مرتين فكنت والأميرة وعقيل نضحك منها ومن الاعيها
الشيطنية وتحقق لى اخلاص زوجي فما عدت اغير منها أو اعيرها غير الاحتقار
والازدراء بالرغم مما كان يطر علينا البريد من رسائنها البذيئة وسفاهاتها
الدالة على نقص نفسها عن الكمال .

وقدر الله ان مات أبوها عماد الدين بك الى رحمة الله تعالى فاحتفل بجنازه
زوجها ووالدى خير احتفال وانحصر ميراثه الواسع في ابنته عديلة هانم وأمها

بهية هانم فزاد طغيانها وشرها وقد اصبحت ذات ثروة طائلة وأموال كثيرة
تنفق منها كيف شاءت بالرغم من نصائح أمها وزوجها الذى صار لها كالوالد
الشفوق والزوج المحب وان كان غير محبوب
هذه نبذة صغيرة عن سلوك عديلة مع زوجها وقد زاد طغيانها وتماديها
وفاة أبيها وما خلف لها من الثروة الطائلة

— ❖ ٣٣ ❖ —

العاشق الجديد

ما كان قصد عديلة من كل هذه الحركات حتى بعد زواجها الا الفات
نظر زوجي اليها وقد تملك حبه فؤادها وكانت حالتها لا تخفى على ابنة زوجها
فريدة هانم على أن تلك الحال من البدخ والفخفة والخروج الى المنزهات
العمومية جعل بعض الشبان ممن يصيدون في المياه العكرة يغاز لها ويترصد
لها انى صارت حتى أوقعها فى شركه ثم اتصل حبل المودة بينهما واللقاء
وكثرت حيلها فى الخروج بمفردها على ان تلك الحيل لم تنطل على فريدة
ابنة زوجها لذلك توترت بينهما العلائق وقامت بينهما الحرب العوان غير
من فريدة على شرف أبيها لان كل ما مضى لها معها كان مما يحتمل ولكن
هذا العشق لم ترضه الفتاة الاية لامرأة أبيها غير أنها ما كانت تجراً على
تكدير صفو أبيها فتخبره بما عليه زوجته بل كانت تكفى بمعاينة عديلة ثم

بالشكوى بالتلميح الى أمها بهية هانم
وهالك ما أخبرتني به صديقة لي كانت تتردد بالزيارة على عديلة هانم
وفريدة هانم ابنة زوجها صفي الدين بك وتأتيني عنهما بخبرها وقد دار
الحديث بين امرأة الرجل وابنته بحضرتها وخرجت فيه عديلة عن حدود
اللياقة وموضوعه المعاتبة على ذلك السلوك :

فريدة — ان أبي غني وهولم يتزوج بعد المرحومة أمي الا لكي يعيش
بهناء وصفاء لا لينقص ثم ...

عديلة — وهل ينقص أباك شيء؟ أنني أسير معه سيراً لا شائبة فيه ...
وان كنت قد تركت الخروج معك فهذا لا يهملك ولا سبيل لك ان تلوميني
عليه اذ هذا حق لي دون أحد من العالمين

فريدة — بالله لا تضطربيني الى التصريح ... وما عليك لو بقيت كما
كنا، نعم كنا تنزهه معاً ونذهب الى الرياضة في الجزيرة ونذهب للفرجة في
التيارو والسينما توغراف ونسر ونلعب ولكن ... لماذا غيرت سلوكك معي
ولماذا تهريين مني وتخرجين بمفردك ... نعم أنك زوجة أبي ولك على حق
ولكن ألسنت من سني؟ ألسنت صديقتك من قبل؟ فأنا لا أقبل على كل
حال ما أنت عليه الآن

عديلة — افعل ما بدالك وما قد يحلو لذوقك أما أنا فليس لأحد على
سلطان أو لا تعلمين ان أبي نفسه رحمه الله ما كان يقدر على لومي أو تأنيبي
بمثل ما تؤنييني به الآن أنك ان كنت تهديني بأبيك فثقي أيتها الفتاة باني
في غني عنه وان كنت تهديني بانه يطلقني اكراما لخاطرك فهذا عندي يوم

المنى بل هذا يوم تجديد الافراح .

فريده — ان مثلك لا يعاتب أتعاب من لم يمض على موت أيها بحسرتها
أربعون صباحاً حتى يكون لها فوق زوجها . . .

عديلة منفعله — ألقى أيتها الفتاة أدبك والا الزمته بالقوة

فريده محتده — أمثلك يهددني ولا يخزى ويضع وجهه في التراب !

عديلة — قبيحة . . .

فريده — لم أك أكثر منك يا . . .

ثم قامت غاضبة فذهبت الى غرفة أيها لتخبره بما عليه تلك الزوجة
فقامت اليها صديقتى التي كانت تسمع حديثهما وأمسكت بذراعها وجرتها
الى حجرة أخرى ولبثت تهديء من حديثها حتى سكن غضبها وهى تقول لها
على ما اخبرتنى :

— اعلمى أيتها الصديقة أنك ان اخبرت أبك بما عليه امرأته وهو على
ما تعلمين من الضعف والشيخوخة فانه يموت كمداً فاصبرى كرامة لخاطر
ذلك الشيخ ان كنت تريدين سلامته .

فاطاعت فريده ولزمت مكانها بيد ان عديلة قامت الى غرفة زينتها
فوقفت أمام المرأة وأزينت كعادتها أبداع زينة ثم أمرت بسيارتها فاعدت
لها كل هذا وصديقتى وفريده تشاهدانها من الغرفة التي كانتا فيها ثم اقبلت
عليهما وقالت

— ها هذا خارجة على رغم أنك فلم اخبرى أبك فاحتدت فريده مرة
أخرى وقامت كاللبوة وهى تقول :

— من أنت ومن تكونين أو لا تعلمين ان أبي قادر على التزوج بافضل

منك الف مرة

عديلة هازئة — ليتزوج بل تفضلي فاخطبي له . . . ثم لك

فريدة — لا عار في الزواج وانما العار كل العار فيما يأتيه أمثالك أو

تظنين أني لست مطاعة على دخائلك ؟

عديلة بعد ضحكة طويلة رنت لها أركان الغرفة

— دخائلي لا تهملك فلست حماي . . . ولا أمي ثم لا أحد له عليّ

سلطان وان كان أبوك زوجي فهو حر ان شاء أمسك وان شاء طلق وها أنا

ذا أقول ذلك بملء صوتي وعلى رؤوس الاشهاد

ثم تركت عديلة المرأتين على احر من الجمر وخرجت تمايل وتثني كالقضب

الخيزران فركبت سيارتها فسارت بها الى حيث أرادت في اقل من لمح البصر

فقالت محدثي لفريدة تلك الفتاة الرشيدة

— ان هذه المرأة طائشة وما كان ينبغي لأبيك أن يتزوجها على أني

لا أظن ان نزعها يؤدي بها الى ما توهمين فانها قد أصيبت بداء الحب

مرة . . . فلما فشلت قصرت حالتها على النزهة والرياضة والزينة لتسلو ذلك

الحبيب الأول . . .

فقالت فريده ساخرة

— أنك يا عنزتي وردة (اسم تلك الصديقة) لا تعلمين من حالها

أكثر مما أعلم ان لها معشوقا جديداً وقد ظفر بها

وردة — ويلها ما اشتقاها كنت اظنك فيما لمحت اليه مازحة
فريدة — نعم أن لها عشيقاً من الطراز الفاسد وأن لها ذاهبة اليه في هذه الساعة

٣٤

بين العاشقين

جاءت عديلة بسياراتها داراً فسيحة حولها حديقة غناء وأمامها الخدم
من البرابرة جالسون فحين ابصرها قادمة قاموا وعم يتضحكون ويتغامزون
فلما نزلت حيوها بالتعظيم كأن لم يضحكوا عليها فدخلت عديلة تلك الدار
وصعدت الدرج بجان ثابت وجأش رابض حتى دخلت على عشيقها « شعيب
بك » فاستقبلها بمقابلة حرية بمثل ما كانا عليه من العشق والغرام وبعد برهة
قال شعيب وهو يتنفس الصعداء ويتكاف اظهار الحب والحنان .

— أراك يا عزيزتي كالمنفعة وآثار الكدر بادية على محياك الجميل هل
هذا الوجه الذي يقطر منه ماء الحسن ينبغي له ان يتكبر منه مخلوق أو يكدره
انسان ؟ الا قاتل الله الوحوش الذين لا يعرفون قيمة هذا الجنس اللطيف
ويحجبونه ويضيقون عليه الخناق بالحجاب والتزام الادب والدين « حديث
خرافة يا أم عمر » خبريني ما الذي اصابك ؟

ثم قهقهه فبانث له نواجز تنبىء عن سيرته من أدمان الخمر وتعاطي المغيبات
فقلت عديلة وقد مالت نحوه فطوقها بذراعيه الغليظتين .

— بالله عليك لا تذكرني بما جرى لى فانا انما أتيت ههنا لاسر وأهلو

لا لأقص أخبار أوائلك الجلاميد رجلا ونساءً
ثم تنهدت ونظرت الى السقف وقد امتلأت عينها بالدموع السخينة
فظن عشيقها أنها انما بكت من فرط حبهال فغنى بها وجعل يمسح دموعها
بوجهه وهو يقول :

— أعندى تبكين وبين ذراعى تذرفين العبرات ؟ ان لهذا سبباً عظيماً
فان كان الحب فها نحن لا يفصلنا فاصل وان كان ثم سبب آخر فلا بد من
اطلاعى عليه لكشف كرتك وازالة غممتك ولو كلفنى هذا فقد الحياة
وبالحقيقة فانه لا معنى لهذه الحياة اذا كنت بصفتى عشيقاً لك لا أبذلها في
سبيل دفع الأذى عنك والضرر الذى يتهددك فقولى لى بالله عليك مايبكيك
فقد أثارَت اشجائى مدامعك وحركت احزانى عبراتك
فقالَت عديلة — لا شىء ؟

قال شعيب بك — لا شىء ؟ كيف تقولين لاشىء وهذه الدموع السخينة
وهذا الكدر الظاهر فى وجهك الصبيح أزوجك كلك ؟ أأكتشف سرنا ؟
فقالَت عديلة — أنه فى حكم ذلك فلقد علمت تلك الحمقاء ابنته بجنبا ...
أو باتصال جبلنا من يوم ان وقعت بيدها رسالة من رسائلك ثم رؤيتك تشير
الىّ وأشير اليك بالسلام فى التياترو واليوم كنت جالسة معها وعندنا صديقة
لنا فجرى بيننا حديث كاد يفضى الى الغراك وتهددتى باخبار أبيها لولا منع
تلك الصديقة لها

فقال عشيقها وهو يتصنع شدة الشغف بها
— ليكن ما تريد تلك الحمقاء وهذا هو اليوم الذى اتمناه فيطلقك ذلك

الرجل فلا تمضى أيام العدة حتى تكوني لى عروساً أو لا ترضين بى بعلا لك
يا عزيزتي عديلة ؟

فسكتت عديلة متهددة واطرد عشيقها شعيب بك الكلام فقال
- نيم أنى متزوج ولى أولاد ولكن هذا لا يمنعنى من الاقتران بفاتنة
قلبي وسالبة لى وقد أباح لنا الدين الاقتران باكثر من واحدة ولا سيما انى
بحمد الله فى سعة من العيش وأنت غنية كذلك على أى كنت انتظر ثروة
أخرى تضاف الى ثروتك وقد اشرف زوجك على حافة القبر ولو كنت
منك لدست له السم فى الدسم حتى يستريح ويريح
فقلت عديلة - فكرة شيطانية وحكمة ابليسية
قال شعيب بك - أفى قدرتك تحقيقها فانها على كل حال صالحة
ومفيدة لمستقبلنا ؟

قالت عديلة - يمكن ولكنى لا أقدم على قتل النفس وكفى ما أنا فيه
من الاثام والاوزار بسبب حبي . . .

فقال شعيب مہتما - وان لم يطلقك ذلك الوحش الهرم أفترضين ان تبقى
مع هذا الرجل وابنته البذيئة ما هذا الحال أليس لك فى نفسك حاجة ؟ أنا
ان لم نغتم لذات الحياة بكل الوسائل فلنمت اذا فهو خير لنا وافضل ولو كنت
مكانك لخدعت الرجل حتى ملكت ليه وماله كله وطرردت ابنته ثم ارحته
فى النهاية من متاعب هذه الحياة وبالحميقة فان بقاء امثاله كل على الارض نيم
أنه غنى ولكن ما فائدة الغنى مع الشيخوخة ان الثروة لا ينبغى ان تتعدى
الشباب الذين يرفون قيمتها وأما الشيوخ أو من فى حكمهم من المقترين

فليموتوا أما نحن معشر الشباب فنعرف كيف ننفق الثروة في سبيلها الوجيبة من اللذات والمسرات أنهم يميون علينا ذلك نحن الذين نحب الحياة ونعرف قيمتها مهما افردنا وتمادينا ولكن هل الحياة الا اغتنام اللذات؟ ومن بلغ سن زوجك ألا فيدخل الطريق لغيره وان لم يشأ ذلك بالرضا فليرغم عليه ارغاما وليجرع كأس المنون

فقالت عديلة متبسمة — بمثل ما أشرت به !

قال شعيب بك — نعم بشرط ان تستعمل المهارة حتى لا تظهر آثار الجناية وتجر وراءها اخطارها

فقالت عديلة هانم — أننى لا أصلح لهذا الامر

قال شعيب — عندى خادمة أمينة وهي قادرة على اتيان ما نريد نخفيها خادمة عندك وهي تتولى كبره في حال قيامها بخدمة زوجك على جعل كبير تقدمه لها في نظير ذلك فاذا اقترفت الجريمة فلا تقدر ان تبوح بالسر لانها شريكة لنا أو فاعلة اصلية أما اخفاها فاقول لك انها تسعة وتسعون في المائة ناجحة ناجحة ناجحة

— ٢٥ —

تنفيذ الفكرة الشيطانية

كانت عديلة هانم في خدمة زوجها على أحسن حال منذ اسبوع وهي ملازمة له وعندها خادمة جديدة تدعى حنيفة فُضلت على سائر الخادومات

وهي اطوع من البان في خدمة صفي الدين بك وزوجته حتى أحباها وآثراها على غيرها من الخاديات القديمت وكانت فريدة هانم قد أسكنت داراً بعيدة كما أراد أبوها بدسائس عديلة لأنها « في كل ساعة تنغص عليه وعلى زوجه وتكدر عليهما صفوهما » فحسما للشرب وجلباً لراحة البال اسكنها أبوها بعيداً عنه وهو مسرور من تغير سلوك زوجته أما فريدة فقد علم القارىء اطلاعها على سر زوجة أبيها فلذلك رابها هذا السلوك الجديد لعديلة من العناية بذلك الشيخ وملازمته واعتقدت ان تحته أمراً وطيه سراً آخر وهى وان كانت قد أبعدت عن بيت أبيها بدسائس زوجته الا أنها جعلت تراقب ماتصنع عديلة وتتحرى ما تقصد بواسطة الخاديات اللواتى فضلت عليهن تلك الخادمة الجديدة حنيفة وبعد المراقبة الشديدة رآته انما ينحصر في دهان ونفاق وشر من ارادة حمل الرجل على التنازل عن أمواله للزوجة وحرمان ابنته سيدتهن وابنة سيدتهن المرحومة من الميراث هنالك قامت برأس الفتاة فريدة هانم الحمية وفكرة الدفاع عن الحق والاخذ بالثأر حتى لا تحرم من ميراث أبيها وقد اضحى شيخاً تلعب به زعازع الالهواء والانغراض ولم تعد لنفسه تلك القوة الكافية للتمييز بين صحيح الاعمال من فاسدها وغناها من سمينها ولا سيما وقد سلبت عديلة بدهائها ليه لكن الى من تلجأ ليعينها يأخذ بناصرها حتى يدرك أبوها خطاه ويعدل عن عزمه وقد زينت له تلك الشيطانة عديلة ما ترغب من سلبه ماله وحرمان وحيدته من معين حياتها بعده مظهره له جبا كاذبا وتفاقا وغيوباً في ابنته هي برأء منها؟ قادتها الفكرة في النهاية الى اللجوء الى أم عديلة السيدة بهية هانم لأنها كانت من فضليات النساء

ذهبت فريده اليها فى ضحوة يوم فرأتها مسرورة من سلوك ابنتها الجديد
مع زوجها وعظفها عليه . . . فبعد التحية قالت فريده هانم
— أننى آتية اليك لترجى ابنتك عما وسوست وتوسوس به الى أبى
ليحرمنى من ميراثه وقد القت اليه من الفتنة فى بما أنا بريئة منه
فقلت السيدة بهية هانم مدهوشة :

— ان سلوك ابنتى فى هذين الاسبوعين لما يعجنى ويريجنى ولكن قولك
هذا قد أثار عندى شكوكا واشجاناً .

فريده — لا تشكى ياسيدتى وثقى بان ابنتك انما ترمى بهذا السلوك
الجديد الى مقاصد وغايات على نحو ما قلت لك لتنتقم منى حتى اخرجتنى
من دار أبى وهى الآن تسعى لحرمانى من ميراثه بطريق بيع ممتلكاته اليها
أو ايقافها عليها فانا اتخذك وسيطاً وشفيعاً لتكف عنى شرها فانى امرأة مثلها
ولا معين لى غير ميراث أبى والا اضطرت الى الكتابة الى المجلس الحسبى
ليفحص قوى أبى العقلية ويحجر عليه فى تصرفاته أو اخبره هو باشياء أعلمها .
بهية هانم — بأس ما تفعاين يا عزيزتى فريده أتحجرين على أيبك ؟

أو تظنين ان ابنتى بلغ بها الطمع الى هذا الحد وهى بحمد الله غنية إذ قدرت
لها المرحوم أبوها الاموال الكثيرة ثم ماهو هذا الذى تخبرين أباك به ؟

فريده — هى أشياء أعلمها عن سلوك ابنتك لمحت لك عنها وسوف
يكشفها المستقبل القريب . . . والانسان خلق من طمع فهو يأتى لذلك كل
حيلة ليزيد أمواله واثرواته غير حاسب لمحتى غيره حساباً — ولو أعطى أحدكم

جيلين من ذهب لتمنى الثالث

فطيت بهية هانم خاطر الأنسة فريدة ووعدتها بالمساعدة فانصرفت
هذه الى دارها فوجدت احدى خادمت بيت أبيها بانتظارها على أحر من
الجر وهي ممتعة اللون مرتعشة البدن فتقابلت الأنسة فريدة من السلم وهي
تقول بصوت تخنقه العبرات

— سيدتي الامر اكبر من ذلك ، الخطب عظيم ، الخطر جليل
فدقت فريدة على صدرها وقالت

— مم وماذا جرى أأبي مات ؟ ويلاه ويلاه

الخادمة — لم يمت بعد ياسيدي العزيزة ولكنه ان لم تدرا كيه حالا
وتسهرى عليه فانه قد يقضى عليه لا محالة أنها ياسيدي قد دست له السم في
الدم بواسطه تلك الخادمة حنيفة وكتبته عقداً ببيع كل ممتلكاته اليها بيعاً
صحيحاً شرعياً قبض ثمنه معجلاً فتعالى ياسيدي انتقذى أباك من خطر الموت
الزؤام ومالك الذي سيذهب عليك .

فاسرعت فريدة بانزول وتلك الخادمة خلفها وهما حاسرتا الرأس
مكشوفتا الوجه الى أن وصلتا بيت صفي الدين بك فصعدتا وما كادت تقع
عين فريدة على أبيها وهو في تلك الحال وعديلة وتلك الخادمة حنيفة واقفتان
تنظران اليه بعين جامدة وقلب قد من صخر وهو يتلوى على فراش الموت
من ألم السم حتى غشى عليها ووقعت على الارض لا حراك بها وكانت وصلت في
هذه الساعة السيدة بهية هانم أم عديلة فارسلت الى الطيب فأخذ يباشر علاج
الاثنين وحين افاقت فريدة من غشيتها لم تجد امامها غير ذلك الطيب فقالت له
— أبنى أين أبنى كيف حاله ؟

فنظر اليها الطيب طويلاً ثم قال

— ان أباك ظاهرة عليه اعراض التسمم وهذه جناية جنتها يد أئمة من
سكان هذا القصر ولا بد من تبليغ الحادثة الى البوليس والنيابة العمومية ليحققا

فريدة هانم مغرورقة العينين

ليحققا ما شاء أن يحققا ولكن بعيشك أيها الدكتور هل على حياة أبي

خطر أجب أجب بحق المرؤة والانسانية

الطيب متردداً

— لا يمكنى ان اخبرك اليوم وانما على كل حال فهو قد منع عنه الخطر

الشديد بما عملت له من الوسائل العلاجية الزيلة للمادة السمية من معدته ولكن

النتائج بعد تلك التهيجات لا تعلم الا بعد وعلى كل حال فاطمئني وانما يلزمك

ان تتولى علاجه أى اعطاه الدواء بنفسك

فريدة — سمعاً وطاعاً يا سيدى الطيب

وبعد ساعة كانت خادمت قصر صفى الدين بك وزوجته عديلة هانم

امام مأمور القسم وعضو النيابة يحققان معهن ولما كان المريب يكاد يقول خذوني

عرف الفاعلان وهما عديلة هانم وحنيفة تلك الخادمة الجديدة فجاءت بهية

هانم اليها حاسرة الرأس مكشوفة الوجه وهي تندب سوء حظها وتبكي لما

أصاب ابنتها وتستجير بالأميرة يراعة وأبي وزوجي ليسعوا فى خلاص ابنتها



— ٣٦ —

الجنائفة وتناجها

لما ظهر من التحقيق الابتدائى ان الذى تولى دسم السم فى الطعام لصفى الدين بك هما إما الخادمة حنيفة أو زوجته عديلة هانم افرجت النيابة عن باقى المتهمين لان بعضهم كان خارج الدارحين وقوع الحادثة وبعضهم لا يتعدى عمله دائرة الخدمة خارج غرف رب البيت وزوجته وان المباشرة لخدمة هذه الدائرة والملازم للرجل انما هما زوجته وتلك الخادمة الجديدة حنيفة وقد تلعتما فى الجواب امام التحقيق واتضح أن الطعام المسموم بالزرنيخ قدمته اليه احدهما وان الرجل لولم يتدورك بالعلاج الوقتى لقضى عليه بذلك السم فقال وكيل النائب العمومى لعديلة بعد أن نظر اليها نظراً حاداً كاد يقضى عليها منه

— أصدقينى الحديث ما هو الحامل لك وخدمتك على آيان هذه الجريمة وقد باع لك زوجك كما ظهر من الاوراق المضبوطة عندك كل ماتملك يداه فقالت عديلة منكورة — اى جريمة؟ أنا لا أدرى ولا أعلم ولم أدس السم ولا خلافه لزوجي ولا ينبغي لى آيان هذا المنكر

فقال المحقق — اذاً تكون خادمتك هذه هي الفاعلة؟

فقالت عديلة — لا أدرى

قال المحقق موجهاً الكلام الى حنيفة الخادمة :

— الجريمة لا تتعدى أحدا كما كما ثبت لنا فتقولى لى ما الحامل لك يا حنيفة
أو لكما أنت وسيدتك على اقترافها؟

فقلت حنيفة وهى ممتعة اللون — أنا مظلومة يا سيدى البك
ولم . . . اضع السم

فقال المحقق — وما الذى يضرك لو قلت لنا بالصراحة وهاهى ذى كل
جوارحك تنطق بانك أو انكما الفاعلان فلا تضطر انا لسجنكما وتطويل التحقيق
معكما وسوقكما آخرامام محكمة الجنايات الكبرى ثم أشار الى الخادمة كأنه
يرتاب فى صدق ماقلت عديلة هانم وليكى يشجعها على الاقرار بالحقيقة استطرذ فقال
— ان الانكار يوقع كليكما تحت طائلة العقاب فيؤخذ اثنان بجريرة
واحد ومن كان مدفوعا فعقباه على كل حال أخف بل ربما نالته البراءة

فتشجعت حنيفة ونظرت الى المحقق ثم الى عديلة هانم كأنها تقول أفشى
السر ولما وجدت عديلة هانم تكاد تذوب خوفاً ووجلا تحقق لها البراءة
ووقوع عديلة وشريكها الاصلى شعيب بك دونها فى القصاص فقلت للمحقق
— أيسمح لى سيدى بخلوة معه؟

فقال المحقق — نعم نعم وبكل ارتياح حتى يسهل علينا العمل والخروج
من الشبهات ولا أحسن من الصدق وهو منجاة من العطب

ثم أمر الحارث باخراج عديلة هانم وغلق الباب عليه ومعه حنيفة ولما
صارا بمفردهما قال لها وهو يتنسم ابتسامة الظافر بالقيام بواجبه خير قيام

— هاهو ذا المكان قد خلا لنا كما ترغيبين ولا أحد يسمعك غيرى فاحك

لى بالصراحة التامة . . . على أنى ارى براءتك لانك بالطبع مدفوعة الى العمل

أليس كذلك ؟

فقلت حنيفه وهي مطأطئة الرأس الى الارض
— نعم يا سيدى أننى مدفوعة لا من هذه المرأة وحدها ولكن منها
ومن عشيق لها اغريانى ووعدانى عليه . . .

فقال المحقق — فهت وما هو اسم ذلك العشيق ؟

حنيفه — شعيب بك

المحقق — ذلك المشهور بفساد اخلاقه وكثرة احتياله على النساء ؟

حنيفه — هو بعينه

المحقق — وعلى أى صورة كان هذا الاتفاق ولم ومتى اتصلت علاقة

عديلة هانم بذلك الرجل وكيف استأجراك وبأى كيفية دسست السم لصفي
الدين بك ؟ هذه اسئلة ينبغى أن تجيبينى عليها بالصراحة ولقد كنت من قبل
أرى براءتك وأنتك مسوقة الى العمل مدفوعة عليه بدافع حب الدرهم والدينار
للفقر والعوز

فاندفعت حنيفه الخادمة حينئذ كالسيل تقص على المحقق حوادث عديلة

فى علاقتها بعشيقها شعيب بك وما اتفقا عليه ليخلو لهما الجو ويستأثرا بثروة

الرجل بذلك العقد الذى احتالت زوجته عليه حتى وقع عليه قبل ان يدس له السم

ثم اتفقا عليها معها هي على ان تولى دسم السم للرجل وتخلصت من أقوالها بهذه العبارة

« تلك هي القصة وأنا كما ترى بريئة ولا غاية لي ولم أقدم على العمل الا

بدافع الفقر والعوز أماهما فشأنهما كما قصصت عليك ووطرهما الذى أخبرتك به

فقال المحقق وهو يتسهم — أصبت أصبت

ثم دق الجرس فدخل الحاجب فأمره باحضار عديلة هانم ولما دخلت
أخبرها بدخائها كلها فنظرت الى حنيفة نظرة لوم وحقدهم سقطت مغشياً عليها
ولم يمض يومان حتى قبض على شعيب بك وزوج وعديلة وحنيفة في غيابة
السجن للمحاكمة على ما جنت أيديهم

وبالرغم من شفاء صفى الدين بك كما سيأتي حكمت المحكمة حضورياً
على المتهمين بدس السم له بالاشغال الشاقة بسبع سنوات على شعيب بك وحنيفة
كذلك وعديلة خمس سجنًا بسيطاً نظراً لاعتلال صحتها وكان يحضر المحاكمة
أبي وعقيل بك وهما اللذان أحضرا لهما أشهر المحامين للمرافعة والمدافعة ولكن
لثبوت الجناية على الصورة السالفة حكم عليها بهذا الحكم ولئن كان فيه بعض
التخفيف الا أن والدتها كادت تبجن حين سمعت به وكنت وأمي والاميرة
نعزيمها ونسليها وقد نسينا ماضى لابنتها من الفعالمعنا وهي خلة في الانسان
كريمة تظهر فيه عند وقوع أعدائه في الشدائد والمصائب فينسى لهم السيئات
ويذكر الحسنات وكذلك فعلنا نحن .

— ❖ — ٢٧ — ❖ —

صفى الدين وابنته

اهتمت فريدة هانم بخدمة أبيها بعد تلك الحادثة المحزنة التي أصابته من
يد امرأته ولزمت خدمته ساهرة على علاجه بارشاد الطبيب بعد ان قرر

والطبيب الشرعي للمحاكم ضرورة ابقائه في الراحة وعدم ازعاجه على ان النيابة كانت قد عثرت بأوراق ومكاتبات لعديلة وعشيقها ثم ذلك العقد بالبيع الذي كان قد تم توقيع الرجل عليه ولا ينقصه غير التسجيل وقد تبين من ظروف أحوال الجناية فساد هذا البيع وغش الرجل فيه فأبطل ورجع كل شيء كما كان .

وبعد الاسبوع الاول من الحادثة زال الخطر عن صفي الدين بك وأعلن الطبيب ابنته بذلك فسرت به وابتهح فؤادها ولقد كانت لفرط محبتها لابيها تظل معه في غرفة واحدة في نهاية ذلك الاسبوع الاول استيقظ صفي الدين بك فنظر اليها طويلا بالحنان والشفقة الوالدية ثم قال :

— أنت التي تلازميني يا ابنتي ؟

— فقالت نعم يا والدي العزيز واحمد الله على زوال الخطر عنك فقال صفي الدين — نعم وأنا احمده حمداً يوازي هذه النعمة ثم تذكر زوجته عديلة هانم وكأنه ما كان يعلم انه قد مرض بسبب دس السم له في الطعام بأمرها فقال

— ولكن أين عديلة هانم اني لا أراها أهى غائبة عند والدتها ؟ فسكتت فريدة ولم تحر جواباً فردد صفي الدين بك سؤاله ولكن ابنته كانت في واد سحيق من الافكار بين عاملين : ان هي أخبرت أباها بقصتها وما جنت يداها وسجنها فان هذا ربما يزعمه ويشير أحزانه فينتكس وان هي قالت انها عند والدتها فربما يطلب اليها ان تستدعها له وآخرأ هدتها الفكرة أن تقول — أنها قد سافرت مع أمها لان أمها قد أصيبت بداء عضال ووصف

لها الطيب تغيير الهواء فلذلك لم تر بداً من مصالحتى لاسهر عليك وتسافر هي مع أمها لان مرضها شديد والواجب يقضى عليها بان تلازمها ولقد كلفتني بالعناية بك ريثما تعود أو لا ترضى بي بديلا عنها فى خدمتك ؟

قال — نعم ولكن هل مرض أمها كان أشد وطأة مما أصابني من المرض ؟
أنى كنت أتناول الطعام معها فما اشعر الا بغمص شديد وآلام حادة وقيء
واسهال ثم لم أعلم بنفسى أفى الاموات أنا أم فى الاحياء الا منذ هذا الصباح
حيث عدت الى رشدى

ثم جعل صنى الدين بك يحمد الله ويسبح باسمه تعالى ودخلت فى تلك
البرهة الخادمة واعلنت حضور الطيب فقالت فريدة

— فليات ثم قامت اليه لتقبله وكان هذا الطيب فتى فى ريعان الشباب
اشتغل بمهنته بمصر منذ سنتين ولكنه لمهارته واخلاصه وسمو آدابه واحتشامه
أحبه الناس وكثرت زبائنه وكان يدعى « الدكتور وسيم بك » وكان قد
تخرج من مدرسة الطب الفرنسية بباريس ومارس الصنائة بمستشفياتها مدة
أيضاً حين أبصرت به فريدة تبسمت وقالت بدلال .

— ان والدى قد كلنى اليوم وهو بخير والفضل لله ثم لسيدى الدكتور
فقال وسيم بك - الفضل لله وحده أيتها الآنسة المهذبة وما قال لك وقلت له ؟
فاجابت فريدة — أنه سألنى عن عديلة هانم فرأيت ان لا أزعج
خاطره باخبارها وما جنت عليه

الدكتور — هذا ما كنت اتوسمه فيك لفطنتك لانك لو كنت كدرته
باخبارها لانتكس ورب نكسة شر من الداء وانى لمزيد على حيلتك حيلة

أخرى حتى لا يعود المسكين يذكر تلك الزوجة المنحوسة
ثم دخل الاثنان فريدة والطيب وكان الطيب يتأمل في هذه الفتاة
وشغفها وحنانها على أبيها ويعجب لهذا الكمال والجمال وكان قبلا لا يعتقد
أنه يوجد بمصر من على هذه الشاكلة من الفتيات المصريات فجعل يفكر في
نفسه وشعر بميل قلبى نحو هذه الفتاة التي تسير امامه ظلية تتبختر في مشيها
وقد جمع الله فيها كثيرا من المحاسن الخلقية والخلقية فلم يشعر الا ووالدها
ماداً اليه يده ليصاحفه فاستيقظ وسيم بك من افكاره وتوردت وجناته خجلا
فمد يده مسرعا أما فريدة فاحست بما عليه ذلك الطيب لان للنساء شعوراً
غريباً بادراك ما يدور باخلاق الرجال من الخواطر نحوهن ويرتحن بما لهن
من التأثير من هذه الوجهة في الجنس القوي كما قالت الاميرة يراعة في بعض
مسامراتها الماضية واذ رأى الطيب عيني الوالد والابنة شاخصتين اليه قال
— احمد الله يا سيدى البك على نواك الشفاء ولقد كنت اليوم عند
السيدة قرينتك بلحوان مسكينة أمها مريضة جداً وقررت لها جمعية اطباء
التي جمعتها عندها لفحصها أنه لا بد لها من السفر الى الصعيد وقد سافرتا اليوم
لان الهواء هناك اصلح لها وحيث أنك مريض فقد أشرت على عديلة هانم
بان لا ترسل مكاتباتها الا الى الأنسة فريدة هانم التي يجب يا سيدى البك
ان تجبها من كل قلبك لانها كنزك الثمين ، أنها الدررة التي ينبغي أن تحتفظ بها .
فقال صفي الدين — زم يا سيدى الدكتور بل هي عندي الآن فوق
نفسى وكل مخلوق سواها لدى اليوم دونها أنها سهرت علي ولازمت فراشى
وهي فوق ذلك ابنتى ووحيدتي ولقد كنت سمعت عنها وشايات ولكن

ظهر لى من عنايتها بى بطلانها وقد عادت باذن الله مياها الى مجاريا . . .
 وكانت فريدة فى هذه الساعة بالقرب من أبيتها ممسكة بيده فخذها اليه
 وطوقها بذراعيه وهو يذرف العبرات فبكت فريدة وكانت تود ان تكشف
 أباه بتلك الوشايات ولكن وسيم بك دنا منها وأمك بيدها وهو يقول
 — كفا كما لعباً أنه لا ينبغي له ان يتأثر باكثر من ذلك ثم قال هامساً
 فى أذن فريدة « ليس هذا وقت الشكوى وبث البلوى وقد أراحك الله
 من عدوتك فاصبرى حتى يبل والدك تماماً ثم قصى عليه ما شئت ان تقصى
 فشكرته فريدة بعينها النجلانيين مما أذاب مهجة الدكتور فاسرع
 بوصف العلاج اللازم والحمية الواجبة ثم ودع وانصرف وهو عليل . . .

— ❖ ٢٨ ❖ —

كيف اطلع صفى الدين على السر

ظل صفى الدين بك معتقداً ان امرأته غائبة مع والدتها بهية هانم وظل
 يتماثل الى الشفاء ببطوءٍ بحكم السن سن الشيخوخة وكان الطيب قد أشار عليه
 بان يخرج للرياضة فى مركبة مقفلة وان تلازمه ابنته وقد اطمانت فريدة
 هانم وعاولها سرورها وجمالها ونشاطها مما زاد الدكتور وسيم بك تعلقاً
 وهياماً بها ولكنه كان لا يجراً ان يفتاح أباه بما كان يضمه من خطبتها اليه
 لنفسه بنفسه ويؤخر ذلك من وقت لآخر الى ان يملك الرجل تمام صحته
 ومضى على الحادثة زهاء أربعة اشهر ولما رأته فريدة هانم والدها قد

عاودته عافيته جعلت تفارق غرفته لتدبير شؤون البيت كعادتها قبل زواجه وفيما هي ذات يوم مع الخاديات يعددن لوازم بعض الاثاث ويرتبها جاءت السيدة بهية هانم الى دار زوج ابنتها فصعدت السلم ولما لم تجد امامها أحداً من الخاديات تسأله قصدت تواءم غرفة صفي الدين بك وكان اذ ذاك يطالع بعض روايات مدام جورج ساند الشائقة الدقيقة الصناعة وهو مستغرق في المطالعة متلذذاً بالقراءة فما يشعر بتلك المسكينة التي كانت قد ذهب عقلها بسبب ما أصاب ابنتها الا وهي واضعة يدها على كتفه وتقول له بصوت أجش .
— كيف حالك أنت تنجو أيها الشيخ الهرم وابنتي تسجن ثم ها هي ذى قد اعلن الطيب اصابتها بداء السل الخطر وقد طفحت الدم وقد طلب الطيب اخراجها من السجن وارسالها الى المستشفى . . .

فقاطعها صفي الدين بك وهو يصفق بيديه مدهوشاً

— ما هذا الكلام أو لست أنت المريضة كما قيل لي وأنها ذهبت بك الى الصعيد طلباً للاستشفاء بهوائه الجاف ؟ اذاً كل الناس غشاشون خادعون ! ثم أنك تذكرين السجن وان ابنتك فيه وأنها مريضة مرضاً خطراً وقد طفحت الدم فما هذا الكلام ولم سجنت اكنفى لي الغطاء عن هذه الاسرار ؟

فترددت بهية هانم قليلاً ثم اندفعت تقول والعبرات تخنقها

— أو لم تقل لك ابنتك أنها اتهمت وعشيقها وخادمتها بدس السم لك آه يا ابنتي المسكينة أنك والله قد ذهبت فداء طيشك وحمقك آه يا عرنزتي عذيلة ثم استعبرت فقبع صفي الدين بك في كرسيه وتاه في بحر الافكار وعرف

ان ابنته ما كذبت عليه والطبيب الالكي لا تزعج حوادث تلك المرأة
خاطره وتقلق راحته حتى تعود اليه عافيته ويمتلك قواه فكان ضميره يقول له
حينئذ « ان ابنتي شريفة القلب نبيلة النفس وأما ابنتك أيتها المسكينة فذميمة
الطباع شريرة شريرة وقد عرفت الآن سبب مرضي وسبب عنايتها بي
بالنفاق والدهان هي وتلك الخادمة حنيفة » وبعد برهة رفع رأسه الى حماه
قائلا بالغضب :

— ان ابنتك كانت تريد قتلي وهي التي مع تلك الخادمة وذلك العاشق
اللئيم دبروا حيلة اعدامى الحياة بدس السم لي وفضلا عن ذلك فانها أوقعت
بينى وبين ابنتى واحتالت علىّ حتى اسكنتها خارجا عن دارى وحرمتها من
ميراثها وثمره اتعابى وهو حق لها دون أحد من العالمين هذه فعال ابنتك ثم
ها أنت ذى تأتي اليّ وتحسدني على شفائى وخلاصى مما دبرت لى ابنتك من
الهلاك أهذا كان جزاء معروفى عليكم ؟

فقالت بهية هامم — معروفك ؟ أى معروف عملت ؟ أنت كنت
السبب فى سجن ابنتى أيها الرجل المخرف لماذا سولت لك نفسك التزوج بها
حتى احرمتها من التزوج بنفى يناسبها سنا فتجبه وتعيش معه فى صفاء وهناء ...
فقال صفي الدين بك — أتلومينى على ما جنى غيرى ؟ فهلا ملت زوجك ؟
هلا منعته ؟ اسكتى بالله عليك ولا تضطرينى الى ذكر مساوىء كثيرة لابنتك
ولك لان ابها رحمه الله كان حميد الخصال بعكس ما أنت عليه وابنتك

ثم نظر الى المرأة فشاهد تغير أحوالها فلم يمالك من اظهار الشفقة عليها
والحنان لانه رأى شدة تأثرها وحزنها وتغلب المهذيان على عقلا بسبب مصيبتها

المضاعفة في ابنتها فاطم من حدته وقال

— نيم ان أباهما كان صديقي ولذلك فاني أعفو عن سيئات ابنته ولكن
حيث قد سبق السيف العزل فاني لا أملك لها الآن ضراً ولا نفعاً ولو كنت
أقدر على شيء لقمتم به اكراما للمرحوم والدها

فقامت بهية هانم عند ذلك وارتمت على قدمي صفي الدين بك تقبلهما ثم
رفعت اليه يديها وهي تقول بالضراعة

— يمكنك مساعدتي بمساحتها وطب العنوضها وايجادها بمنزلك للمعالجة
حيث أنها مريضة بذلك الداء العضال
فقال صفي الدين بك

— بالارتياح التام وعند ما يأتي طيبي وسيم بك استفتيه في ذلك وهو

خبير وشهم كريم

فقامت بهية هانم شاكرة وقبل ان تنصرف دخلت فريضة هانم فلما
رأها ارتعشت وامتقع لونها ونظرت الي والدها شفقة عليه أما هو فتبسم
لابنته وقال بصوت كله حنان

لا تخافي يا ابنتي فقد اطلمت على كل شيء واعلمى ان تلك التعسة عديلة
ستحضر الي دارها لا لتكون سيدتها بل لتقضى فقط الأيام القليلة الباقية لها
من الدنيا تحت رحمتك وعنايتك



— ٢٩ —

انقضاء حياة تعسى

لم تكن المسامى التي بذلتها بهية هانم والدة عديلة قاصرة على مكاشفة زوجها واستئذانه في تمريرها بيته كما طلبته عديلة نفسها بل أنها جاءت الى الاميرة ووالدى وتوسلت اليهما في ذلك أيضاً ليساعداها ولما قدمت العريضة صدر العفو وافرغ عن عديلة وأذن لوالدتها بأخذها لتعالجها بمعرفتها أنى شئت وحيث أرادت وعلى ذلك تم لهذه المسكينة وابنتها ما أرادت من عودة عديلة هانم الى دار زوجها صفي الدين بك

ولقد كنت ووالداى والأميرة وعميل لا تقطع عنها زيارتنا ومودتنا وقد اضحت فى حال من المرض يرثى لها أما هي فطابت نفسها برؤيتنا وصارت تنظر الينا بعين المحب المخلص المعترف بالجمل والشكر لما صنعنا ونصنع معها وكانت تتودد الى زوجها وابنته فريدة هانم وقد اضحت على حافة القبر وكانت أمها كالمجنونة تهذى ولا تعى ما تقول ولا ترى انساناً حتى تـآله أليس ثم دواء ينقذ ابنتها وفلذة كبدها ؟

واجتمعنا يوماً عند عديلة هانم وهي على فراشها تعاني آلام المرض وتنظر الى كل واحد منا بالحبة الخالصة والحنان ثم رفعت رأسها الى السقف طويلاً وتمهدت تنهداً عميقاً فقمت أنا اليها وقلت لها — ما بالك يا عزيزتى أترىدين شيئاً ؟

فقلت — لا أريد إلا ان تسامحوني كلكم على ما صنعت معكم من الاساءة
 أنت وزوجي وفريدة وعقيل هذا كل منى منكم نعم أنى قد آتيت معكم فعالا
 شريرة أحببت زوجك ولم اكرم حبي وأردت أذيتك وأذيته وسعيت بينكما
 بالشر واجهدت نفسى بالسفر والتغرب خلفه ولما رجعت بخفي حنين وزوجت
 بهذا الرجل الكريم لم اف بحقه ولم اراع نعمته بل اسأت اليه وعشقت عليه لا رغبة
 منى فى العشق بل لألهو به عن عشقى لعقيل بك ذلك الذى تملك حبه فؤادى
 ثم القيت بين زوجي وابنته العداوة وشر من هذا وذلك سماعى لذلك الوغد شعيب
 فيما زين لى به من دس السم لزوجي بواسطة تلك الخادمة ولكن أراد الله أن
 تجوا جميعاً من شرى وأقع أنا وشركاى فيه وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون
 وجاءها السعال فطال عليها بشدة ولم ترشح منه حتى نثت دماً كثيراً
 وكانت أمها فى غضون ذلك تدور فى البيت كالجنونة تنتف شعرها وتلطم
 وجهها فأثر فينا جميعاً هذا المنظر حتى اذرفنا العبرات نساء ورجالا ثم هدأت
 حالة عداية وانقطع السعال عنها فجعلت تنظر الينا ونحن نعتى بها فتبسمت
 وقالت بصوت ضعيف •

— أنى تعبته فى هذا اليوم وأظنه آخر أيامى من الدنيا ولكن الدنيا
 لا تهمنى لانها متاع قليل والآخرة خير وابقى انما اخشى الحساب والعذاب
 لاننى آتيت الشر والاثم ولقد تبت الى الله ورجعت عما فعلت توبة نصوحاً
 خالصة لوجهه تعالى وهو ارحم الراحمين واطلب اليكم يا أحبائى كما قلت لكم
 ان تسامحونى ان مقامى هذا يقتضى الشفقة والصفح وسكب العبرات وفيه
 اكبر العظة والمعتبر ولا مفر من القدر ولا دافع له اللهم الابالاستسلام والخضوع

وطلب الرحمة والغفرة ومن يغفر الذنوب الا الله تعالى وحده لا شريك له
ثم القت برأسها على الوسادة قليلا وطلبت ماء لتشرب فأثيت به اليها
أنا وفريدة ابنة زوجها فنظرت اليها طويلا ثم قالت

— أختي العزيزتين ساحناني على ما أثيت سعكما واصفحنا عني

فقلت وفريدة في نفس واحد

— ساحنناك من كل جوارحنا وطلب الى الله تعالى ان يشفيك ويمتلك بالعافية

فتبسمت تبسم الظافر بشيء ثمين والتفتت الى ناحية زوجها صفي الدين

بك وزوجي عقيل بك ثم قالت

— وأتما أيها الرجلان الكريمان

فقال صفي الدين بك وعقيل بالسرعة

— ونحن أيضاً قد ساحنناك وشفحننا عنك

ودخلت أمها بهية هانم في هذه البرهة وهي تقول

— أمات ابنتي؟ أهالم تمت ولن تموت ولم تموت؟ أسرت هي في

هذا العالم؟ أشبعت هي من الحياة؟ أيدس هذا الجمال في التراب؟ رباه رباه

أنك أرحم الراحمين

قالت ذلك وخرجت وهي على حالتها من لطم وجهها أما عديلة فكانت

تنظر اليها شذراً كالمؤنبة العاتبة لها ثم أترت فيها تلك الحال فعاودها السعال

بعنف فقمنا اليها لنساعدها على الجلوس فاذا هي جثة هامدة وكانت أمها قد

رجعت ادراجها الى الغرفة فحين أبصرت ابنتها قد ماتت ونحن نبكي حول

سريها صرخت باعلى صوتها

— أمات ابنتى عديلة ؟

ثم دنت منها واحتضنتها وجعلت تقبلها وتقول «عديلة عديلة أين جمالك
أين شبابك الغض فاجيننا ان نرفعها عنها فاذا هي الاخرى قد ماتت وسبحان
الحي الذى لا يموت

وفى اليوم التالى شيعت جنازتهما باحتفال رهيب وأقام لهما صنى الدين
بك مأتماً أمه سراة القوم وأعيانهم يعزونه ويشكرونه على مرؤته



زواج فريدة هانم

مضى على هذه الحادثة أى وفاة عديلة هانم وأمها بهية هانم فى يوم واحد
حوالى الثلاثة اشهر ولقد كنت اتخذت فريدة هانم صديقة لى لاني وجدتها
أهلاً للمودة وقد اعجبتنى فعالها مع أبيها وزوجته المتوفاة وأحبها الأميرة
كذلك فكنا نقضى أكثر الأوقات معاً نتذاكر تارة فى مسامرات الاميرة
التي اسمعتها اياها فى العام الماضى حتى استظهر ناهات تارة فى استماع احاديثها الجديدة
نسيت بفريدة ومثانة صداقتها عداوة عديلة ورأيت فيها مثال الكمال
والحبة الخالصة ولقد كانت هي أيضاً تجبنى وتفضى الي باسرارها فعلمت منها
ضمناً أنها محبوبة من ذلك الطيب وسيم بك حباً خالصاً وأنها تجبه وترى فيه
خير كفو لها فقلت

— اذاً ما المانع من ان يخطبك الى ابيك ؟
قالت — انه يخشى ملام ابي لانه لم يمض على وفاة زوجته وحماته سنة
كاملة كما لا يخفك .

فسكت أنا وجمعت افكر الى ان رأيت خير وسيلة ان اوسط زوجي
وأبى لدى أبيها صفي الدين بك فحين سمعت ذلك منى قالت والحياء يغلبها .
— لا داعى لهذا يا عزيزتى بل لنصبر حتى تمضى أيام حداده على ماهي
العاده وحتى لا يتوهم ان هناك مساعى من قبلى ...

قلت — لنجعلها من قبل وسيم بك نفسه وقد بلغنى من زوجي انه يود
ان يكون فى القريب العاجل عروساً لك ...

فاحمرت وجتتا الأنسة فريده وسكتت حياء ثم قالت بعد برهة
أنا لا أرى داعياً للسرعة واني اعتقد ان والدى حفظه الله لن تتعدى
ارادته رغبتى فليصبر الدكتور ...

ودخلت علينا فى هذه الساعة الأميرة يراعة وهي تقول

— أين صديقتنا فريده هانم ؟

فقالت فريده — لييك يا سيدتى الاميرة ها أنا ذا بين يديك

فقالت الاميرة وهي تضحك ملء فيها

— لقد شغلنا هذا الدكتور وسيم بك بالحاحه لكي نتوسط له لدى

صديقنا والدك حتى يبل صدى حبه بقربك أنت سحرته ؟ ألا تصبران حتى
يجول الحول على وفاة امرأة ابيك ؟

فأجابت فريده بشجاعة — نعم هذا هو الواجب

فقلت الاميرة - أترين يا عزيزتي مثل ان هذا هو الواجب ؟
 فريدة نعم أيتها الاميرة ولقد كنت اليوم اتناقش في هذا الموضوع مع
 صديقتي السيدة سنية هانم امرأة ابن أختك وكانت تود ان توسط أباها أو
 زوجها عند والدي فمنعتها

فقلت الأميرة مقهقة وموجهة الكلام اليّ والى فريدة هانم :

- ولكنكما لا تعلمان فان أبا سنية هانم وزوجها قد كافأنا من قبلي بالراح
 وسيم بك وبالرغم من ملاحظتي عليهم بمثل ما لاحظت به فريدة هانم ولكن
 الحاحه غلب علينا جميعا فأخذ الرجلين وذهب الى صفي الدين بك واطنهم في
 هذه الساعة بين يدي ذلك الصديق الجليل يسترضونه ويخطبون اليه فريده
 لصديقنا الشهم الهام وسيم بك

فاهمرت وجنتا فريدة هانم خجلا ولكن علامات البشر والسرور كانت
 لا تخفي على محياهما الوسيم فاستطردت الأميرة قائلة
 لا عليك أيتها الأنسة المهذبة واني لاهنتك سلفا بهذا الفتى الوسيم فهو
 أولا ذو صناعة شريفة وفضلا عن ذلك فانه من الطراز الاول بين اطباء مصر
 عفة وصيانة وحياء واخلاصاً ومرؤة فلذلك اكتسب فضلا عن مثل قلبك
 الطاهر محبة زبائنه العديدين بحسن سلوكه ومهارته واخلاصه ونزاهته وتساهله
 مع الفقراء حتى اجمع الكل على محبته واني أعرف والدته وأسرته وسوف
 ترين فيه نعم الرجل ونعم الزوج الوفي لا كأولئك الاطباء الذين يقدمون على
 ما يشين ويبررون ما يأتون بان « هكذا يريد العالم وهكذا يجب اكثر الناس »
 ما الذي يحبه الناس ؟ ان الناس لأجل من أن يمدحوا انسانا اتصف بغير

الاستقامة والنزاهة والعتاف مهما كانت ظروف الاحوال المحيطة بالمرء ولا سيما
الاطباء وما النجاح الحقيقي الا بهذا الذي اشرت اليه في أدب الباب ثم بالشفقة
والرحمة لعباد الله الفقراء ...

وبينا الاميرة تتكلم سمعنا وقع اقدام أبي وزوجي وهما صاعدان السلم
فقمنا اليهما وحين دخلا قالت الأميرة

— لعل مهمتكما قد تمت وانتهت على أحسن حال وقبل صديقي صفي
الدين بك رجاءكم وخطبتكم ولكن أين تركتما العروس ؟

فأجاب أبي — في عبادته ووالله أيتها الاميرة لولا تفؤذك وسلطانك على
عقولنا معشر ابناء هذه الامة لما تم ما أردناه وقصدنا اليه ولكن نحمد الله تعالى
فقد قبل صديقنا صفي الدين بك بتزويج ابنته بالدكتور وسيم بك وقد أودعناه
المهر والهدايا التي كان أتى بها معه الدكتور وقرأنا الفاتحة وحددنا يوم الزفاف
ولكنه اشترط ان لا تفارقه ابنته فريدة هانم بل تسكن معه في قصره هي
وزوجها فقبلنا شرطه هذا أيضاً حتى لا يفضب علينا ...

*
**

بعد شهر من هذا الحديث كانت دار صفي الدين بك لابسة حلة
الافراح بالمقدار المناسب مراعاة للحداد على زوجته عديلة هانم وحماته بهية
هانم وبنى الدكتور وسيم بك بعروسه فريدة هانم وعاش معها عيشة رضية
وظلت أسرتانا في مودة وصفاء وسرور وهناء والاميرة يراعى بيننا ملك
كريم يأتينا من حين الى حين بعيون الحكمة بين تالد وطريف

﴿ تمت هذه الرواية والحمد لله ﴾

فهرست

	فصل	صفحة
نشأنى	١	٣
زواجى	٢	٦
حالة النساء الحاضرة { من مسامرات الأميرة يراعة } -	٣	١٠
» » » » الحط بمنزلة المرأة	٤	١٤
» » » » وظيفة المرأة	٥	١٨
» » » » قوى النساء المميّزة	٦	٢١
» » » » نقص التربية النسوية	٧	٢٥
» » » » مقومات التربية النسوية	٨	٢٩
» » » » تربية البنات الادبية	٩	٣٢
» » » » التربية الادبية أيضاً	١٠	٣٥
» » » » روح التربية العقلية	١١	٣٩
» » » » تقوية ملكة التعقل	١٢	٤٢
» » » » تعليم اللغة والتاريخ والشعر	١٣	٤٦
» » » » تعليم الفنون الجميلة	١٤	٥٠
» » » » مراقبة الفتيات	١٥	٥٤
» » » » حول الزواج والامومة	١٦	٥٨
» » » » سن الكهولة والشيخوخة	١٧	٦٢
عديلة هانم	١٨	٦٥
معاينة زوجى	١٩	٧٠
في رمل الاسكندرية	٢٠	٧٣

فصل	صفحة
اسرتان تندبان سوء حظهما	٢١ ٧٧
رسالة من الاميرة	٢٢ ٨١
ليلة فى الاحزان	٢٣ ٨٥
بينى وبين أبى	٢٤ ٨٨
الفلسوف الصغير	٢٥ ٩١
معلومات عن عديلة	٢٦ ٩٥
اجهاضي	٢٧ ٩٨
ما جهلت من الحوادث	٢٨ ١٠٢
العودة الى القاهرة	٢٩ ١٠٥
شؤون مختلفة	٣٠ ١٠٩
فى نادى الاميرة يراعة	٣١ ١١٢
سلوك عديلة مع زوجها	٣٢ ١١٦
العاشق الجديد	٣٣ ١٢٠
بين العاشقين	٣٤ ١٢٤
تنفيذ الفكرة الشيطانية	٣٥ ١٢٧
الجنابة وتناجها	٣٦ ١٣٢
صفى الدين وابنته	٣٧ ١٣٥
كيف اطلع صفى الدين على السر	٣٨ ١٣٩
اتهاء حياة تعسة	٣٩ ١٤٣
زواج فريدة هانم	٤٠ ١٤٦



جدول بعض الخطأ وصوابه

صواب	خطأ	سطر	صفحة
لا	ولا	٣	٤
البت	بنآهن	٢٠	٣٠
الوسيلتان الوحيدتان	الوسيلتين الوحيدتين	١١	٣٣
المزرى	المذرى	١٢	٣٥
ليوفى	ليوف	١٧	٣٩
ونصف	ونصفا	١٨	٥١
والبعض	البعض	٣	٥٣
يفسدوا	يفسدون	٤	٦٦
وينغصوا	وينغصون	٤	٦٦
تثر	تثير	٧	٧٥
تزدرياها وتحتقراها	تزدريانها وتحتقرانها	٢	٨٧
وعقيلاً	وعقيل	٨	٩٤
احمل	لا احمل	١٤	٩٦
عظيمة	عظامه	١٢	١٠٤
كلا	كل (في بعض النسخ)	١٨	١٠٨

(الجزء الثالث)

أَسْرَارُ الْقَصَبِ

على يدي

رواية

بين عاشقين

﴿ من الفقر الى الغنى — فى الريف — س بك ﴾

(تأليف)

محمد عبد الحميد

﴿ حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ﴾

﴿ القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ — ١٩١١ م ﴾

ثمان النسخة ٦ صاغ

مَطْبَعَةُ مَقْدِسِيَّةِ الدِّعْبِ الْأَوَّلِ

﴿ بشارع الصليبية بالقاهرة ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ﴾

القصة الاولى

بين عاشقين

﴿ قصة حكيمية ترسلية ﴾

مقدمة

الحب أصل كبير من اصول العالم العلوي والسفلي وبعبارة أخرى أتلاف الكون وتماسك أجزائه بعضها ببعض ذلك التماسك العجيب المدهش الذي يسمونه الجاذبية العامة ، والحب الجنسي فرع لذلك ، والعشق الطاهر من أشرف أنواع الحب السماوي الخصيصة بالانسان في هذا العالم أى بالنفوس الكريمة والارواح الطاهرة من بنيه ولذلك عرف هذا الحب ليدنيز (Leibenz) بأنه « الانعطاف نحو المحبوب والابتهاج بما فيه خيره وسعادته »

والعشق من هذا النوع وغيره شدة الكلف وعظم الوله بما يراد من
 المحبوب وله اضطراباً لا اختياراً لأن مصدره القلب وميل النفس وعظفها
 ونار الهوى تخفى وفي القلب فعلها كفعل الذى جادت به كف قاذح
 هذا ولقد كنت أظن الحب الطاهر والهوى العذرى أى العشق مع
 العفاف مفقوداً فى هذا العصر وفى هذا المصر لما مئنا به من المدنية الحديثة
 التى ترمى الى الماديات واتباع الشهوات فى كل متطلبات النفوس وشهواتها
 دون النظر الى الكمالات أى اللذات الروحانية ولسكننى وجدتنى واهماً،
 وجدتنى دهشاً متعجباً، بل وجدتنى مفتخراً معجباً إذ ظهر لي ان فى فتياننا
 وفتياننا خصوصاً من يجمان بين جوانحهن قلوباً كبيرة وعواطف أسمى
 وأرقى بكثير من ان تنزل فى حباها أو تمدنى فى عشقها الى التلاخ بالنقائص
 والدناءات .

وأشرف الناس أهل الحب منزلة وأشرف الحب ما غمت سرايره

* * *

أعرف صديقاً لي وهو شاب وسيم يزاول صناعة التعليم من عهد
 قريب كان يعشق فتاة امتازت على نوع ما بالجمال الطبيعي والخلقى لدرجة الهيام
 والوله وكانت هي أيضاً تحبه وتهواه الى حد الشغف والوله فكنت أنصح له
 « أن يرجع عن هذا الحب الفاسد ويتلع عن الشغال البال الكاسد » فى
 اعتبارى أما هو فكان كل مرة افاتحه الكلام فى ترك غرامه والاقلاع عن
 هيامه بهذه الانسة يتبسم وينشد قول الشاعر :

وإذا تألفت القلوب على الهوى فالناس تضرب فى حديد بارد

ثم يقول «وها أنا ذا الحديد البارد مها عتبت وأنت يا صديقي» فكنت أسخر منه وأشفق عليه غير أنه لما رأى من كثرة الحاحي عليه ونصحي له أو بعبارة أخرى أنه لما انتهى هو من غرامه وصرمت من حبيته حبال وصله باح لي بسره وأظفني على مكنون أمره قال وقد علت وجهه علائم الغم والكدر لذكرى حبه :

— والله يا صديقي انى كنت ولم أزل رب الهوى العذرى فى هذا البلد وانى فى عشقى وهيامى بتلك الفتاة الفتاة لم أتعذ قول الشاعر :

ان اكن طامح اللحاظ فاني والذى يملك الفؤاد عفيف

بل اصرح لك بانى فى كل مودتى وصلتى بحبيبتى التى انقضى ما بينى وبينها بسلام لم اكن الا كما كان ذلك العاشق القديم يقول :

وكم خلوت بمن أهوى فيقنعنى منه الفكاهة والتأيس والنظر

على أن مما زادني حبا وهياما بحبيبتى التى لا أنساها مدى عمري وان بعد المزار وافترقت الاجسام انها كانت تفضانى أدبا وكلا وحباً وغراماً وقد علمتني يا صديقي كيف أستطيع الحب الطاهر وكيف استلذ العشق الخالص بل كيف استمرى مرعى العواطف الشريفة والاحساسات المنيفة ، بل كيف آخراً أنظر الى هذا العالم نظر الفيلسوف الحكيم الذى لا يعجب الا بالكريم من الاحوال ولا يرضى الا بالشريف من الخصال والحميد من الفعال ولا غرو فالحب الطاهر تضرب به الامثال شرقا وغربا فى تربية النفوس وتهذيب الاخلاق وتدريب البشر على الفضائل «

ثم أطرق قليلا وكان قد انفعلى فى حديثه فرأيت الدموع تتفرق فى

عينيه ثم تحدر كاللؤلؤ على وجنتيه المحمرتين وشاربيه الاسودين اتملك الذكري
من حبه وانصرام جبل مودته ممن لم يزل ينزل حبا مع ذلك سويداء قلبه
فرثيت لحاله ثم غرقت في بحر من التأملات في الحب واصنافه وفي ضروبه
ومعانيه وأسراره ، وفي هذه الاحوال الزرية التي عليها أهل هذا الجبل في
حبههم، وهل صادق صديقي في حبه أم كان ممن يتصغرون الحب لقضاء ما رب
لهم وشهوات ؟ لبثت أتأمل برهة فلم يرعنى الا صديقي يكفكف عبراته ويتمثل
بقول أحد العاشقين قبله :

سقى الله أياما خلت ولياليا فلم يبق الا عهدا المتذكر
ثم نظر الى وقال :

— ان كنت أيها الصديق في ريب مما حدثتك من حديثي فدونك
نسخة من رواية حبي وقد أسبل عليها الستار بعد ان مثلتها وحينتي على مسرح
الوجود خير تمثيل من الحب الطاهر والمهوى العذرى مما لا يستحق عتابا
ولا تأنيبا من شهيم نبيل مثلك ، هذه النسخة أو الصورة هي كل ما تبودل
بيني وبين محبوبتي من رسائل الحب ومكاتيب الغرام ومنها تعرف كيف بدأ
حبنا وكيف اتصل جبل ودنا بل على م انتهى ما بيننا وسكن الدهر .
فتناولت منه بالشنف كراسة ضخمة قد جمع فيها هذا الصديق ما دار
بينه وبين معشوقته من الرسائل فجعلت اجيل فيها طرفي ولا أخفي القارىء
أننى كنت كلما قرأت رسالة منها تجلت لنفسي عظمة ما كان عليه هذان المحبان
الكريمان والعاشقان الدقان من حب خالص ورفعة نفس وعفاف وقد جمعا
في تلك الرسائل فضلا عما ملاً قلوبهما من ذلك الحب الطاهر ضروبا من

الأفكار السديدة والحكم الرائعة والنصائح الكريمة والانتقادات الحقة على بعض الأحوال والعادات الاجتماعية المصرية مما كان يجيش بخاطرهما بحسب المناسبات وهما يتبادلان غرامهما ويثنان وجدهما ويفكهان جبهما فما أتيت على آخر هذه الرسائل التي لا مسحة عليها من التكلف والتأني حتى وجدتني مسوقاً بدافع الاحساس الشريف والانعطاف نحو ذلك الصديق الشاب فقمتم إليه مسرعاً أعانقه واقبل ما بين عينيه وهو يتبسم لي وأنا أقول له :

— لله أنت أيها الصديق من شهيم كريم ما أشرف نفسك وأطيب خيمك وحبيبتك إن ما حوت رسائل حبكما الطاهر من العواطف والاحساسات الشريفة لجدير بأن يسطر باحرف من نور على صفحات القلوب الكريمة ، خليق ان يذاع ذكره العطر بين الناس ليعرف الناس قيمة ذلك الحب الطاهر وسمو تلك العواطف التي يشرف بالنفس عليها ، أفأذن لي أيها الصديق في اختيار بعض هذه الرسائل اجعل من مجموعها قصة فيها الفكاهة وفيها الموعظة الحسنة ولا سيما أني قد رأيت بعضها يلم بمواضيع شائعة في اخلاقنا ؟

قال — لا بأس بذلك على شرط أن لا تبوح باسمي واسم حبيبتي بل تكتفي بالرمز بالحروف لكل أعلام الاشخاص الواردة في هذه الرسائل اسماؤهم قلت — حباً وكرامة وما كنت لا قدم على غير ذلك فودعني وانصرف وها هي تلك الرسائل المختارات المتضمنات موضوع هذه القصة الصغيرة « بين عاشقين » بنصها وفصها



الرسالة الاولى

— من ش... الى ن... —

أيها الأنسة الفاضلة :

ليتنى لم اعرفك ، ليتنى لم يتصل جبل ودى بشقيقك ر... بك صديق
الجميم وتلميذى بل زميلى بالمدرسة وفي دروسه الخصوصية مما كان سبب
دخولى دارك ومعرفتى بك ورؤيتى لطلعتك الهبة وجمال حياك الفتان وسحر
عيونك النواعس التي نصبت لى شراكها ورمت الى طير قلبى عن قوس حاجبها
حبا فضادت ذلك الضعيف أما صيد :

ان العيون التي فى طرفها حور قتلنا ثم لم يحيين قتلانا
عرفت أخاك بالمدرسة فتى نجيباً وشاباً مهذباً ذكياً تجذب القلوب رقة
آدابه ولطف أخلاقه فاحببته واحبنى فصرتنا من ثمة خلمين وفيين وصديقين
صدوقين واتخذني أخاه الاكبر يستنصحنى فالصح له ويسترشدني فارشده
وقد بلغ من مودتنا ما تعلمين من اختيار والدك المحترم لى استاذاً خصوصياً
لأخيك نقضى أوقات الفراغ فى ناديكم الزاهر فى مدرسة العلم والقاء ذلك
الدرس الخصوصية بين الطروس والاقلام وقد جعلت أيها الأنسة تحضرين
مجالسنا باذن والديك وتسمعين بالشغف ما يدور بيننا من المحاورات العلمية
والمحاضرات الادبية وتجادليننا أحياناً وتناقشيننا بعذب منطقك وقوة حجتك
وتسأليننا عما قد يغمض عليك وينهم ، وقد ألفت مجالسنا واعتمدت مناظرنا

بشجاعة وأدب وجناب والدك الفاضل والسيدة والدتك الكريمة كثيراً
 ما اعطيك الحق كما أهما كثيراً ما نصرانا عليك في المناظرة والمناقشة
 ان ما تحميت به أيتها الأنسة من كريم الصفات والخلال ورقيق الابداب
 في المعاشرة والمحاضرة الى ما يضاف الى ذلك من الجمال الفتان والتناسب الخالق
 الذى يبهز العقول ويفتن الالباب ويجعل نفس الحر الكريم تسبح من أعماق
 القلب الخالق العظيم تعالى الذى صاغك فى أحسن صورة وركبك فى أطف
 شكل كل ذلك جعلك فى عيني « ملاكاً » سماوياً لا انساناً أرضياً كنت
 اشعر بادىء بدء بالليل اليه والحب له حياً عادياً بسيطاً جعلنى اكثر كما تعهدين
 من العجاج فى المناظرة معك لكي استفزك الى الكلام والمناقشة وما كان
 قصدى بل ما كانت كل بعيتى سوى سماع درر الفاظك وغرر معانيك
 ولكن أواه فان هذا المجون بل هذا الجنون منى قد انقلب الى « حب »
 حقيقى وعشق صراح يؤجج النار فى الحشا ويؤلم القواد وكنت الجانى
 فيه على نفسى :

والحب أول ما يكون مجانة فاذا تمكن صار شغلاً شاغلاً
 نعم أيتها الأنسة المهذبة قد برح الخفاء وطفح الكأس ولم يبق فى قوس
 الصبر منزع فانى أحبك حياً سكن سويداء قلبى فأطار اللب واسهر الجنون
 وأسأل فى ظلام الليل العبرات

ظهر الهوى منى وكنت أسره والحب يكتمه الحب فيظهر
 زعمت دموعى أنها لا تنقضى حتى تبوح بما أسر وأضمر
 غير أنه لما تعهدين فى صديقك هذا الضعيف من سمو العواطف وكريم

الخلال بحمد الله حرت في أمري كيف اصنع وماذا اعمل ، وقد شاهدت
 منى الانقطاع عن ناديك العامر وبالرغم عن الحاح صديقي ر . . . شقيقك على
 بالحضور جعلت التحل الاعذار هروباً من حبك ، هروباً من ان يقع نظري
 على نظرك الساحر فازداد ألماً على ألمي وسقماً على سقمي من وقع سهام تلك
 اللواحظ في احشائي . . .

ولقد اخترت في معالجة ما خامر نفسي من داء الحب العياء الذهاب
 الى المنتزهات والرياض ثم قضاء السهرات في المنتديات العمومية ولكن أقول
 بالاسف ان هذا العلاج الذي اخترته في مداواة دائي وقد تحكمت لم يفدني
 اقل فائدة بل زادت عنتي وكثرت اشجاني واحزاني وطغى سيل الوجد على
 قلبي من حبك أيتها الأنسة المهذبة فجعلني كجنون ليلي أو كثير عزة

فلو ان ما بي بالحصا فاق الحصا وبالريح لم يسمع لهن هبوب
 كنت اخرج في هذه الآونة التي شفني فيها حبك وشغفني هوالك الى
 الرياض والغياض فلا أري الطير والشجر والنسيم والماء والخضرة والوجوه
 الحسان الا مذكرة لي بمجمل محياك بل تفوقك . ولقد كنت أمشي مطرقا
 الى الارض بطريق الاهرام أو في أراضي الجزيرة والروضة فاراني قدضلت
 الطريق وتمت وطالما عرضت نفسي للخطر خطر الاصطدام بالدواب والراكبات
 والترام وأنا لا أعني ولا اسمع والناس من حولي تارة يضحكون وتارة يسخطون
 ويلعنون وأنا أنا كما قيل :

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي
 أما أنا فقد تشردت افكارى وختم على سمعي وبصرى الا من حبك

وذكرى محاسنك التي لا تفارق صورتها مخياتي ولقد كنت عندما اذهب الى الأندية العمومية لقضاء سهراتي وتسلية همومي وتمضية أوقاتي التزم في مجلسي الانفراد والعزلة أو الانكماش مع الصحب والخلان ومهما يكن الحال فلا البث طويلا حتى اغرق في بحر افكاري واسبح في تيار خيالاتي وكثيراً ما ينظر الي الناس شزراً واستهزاءً لان تلك الاماكن ليست الا للفرحين الجذلين المغتبطين بلذة الحياة بعكس حالي وقد لامني على تلك الحال كل صبحي وخلائي بل قد دخل بعضهم الشك والارتياب في أمري واني مريض بالجنون وبعضهم نطق بكلمة الحق فقال وهو يضحك ملء شديقه
— لعله عاشق ... أليس كذلك يا سيدي ش ...

أما أنا فلم يستفزني ويثر نفسي للدفاع عن نفسي سوى هذه الكلمة ، هذه الكلمة الحقة فنفيت بالكذب والوقاحة والجرأة عن نفسي « تهمتها الشنيعة » فضحك صبحي من دفاعي بتلك الحدة والشدة وكان ذلك مساء الخميس الماضي بمحاضرة أخيك وفي القهوة المصرية

نعم هذه هي أول مرة تكلمت فيها بالكذب ولكن هي الضرورات تبيح المحذورات وما كانت الا الدفاع عن نفسي وبالتالي انكار حبي لمصاحبة حبي ولو فطن أصدقاؤى لشأني حين نفيت عن نفسي بالشدة تلك التهمة لرأوا من اضطراب حواسي وتلغم لساني « اني كاذب » واني بلا محالة «عاشق» على اني لا أخال أخاك قد فاته شدة انفعالي وتشرد بالي فلقد رأيت يرمقني وينظر الى طويلا ثم جعل يفكر في نفسه نفيل الى انه يفكر في وفي حبي ولما سأني عن سبب انقطاعي عن زيارتك صرت انتحل الاعذار الفارغة وأنا

أُتصّب عرقاً فلم يلبح عليّ كعادته

أما أنا فزادني هذا الصنيع منه حيرة ووهماً وجعلت الهواجس تلعب
بي والتصورات تذهب بي كل مذهب وقامت الحرب العوان في نفسى بين
دواعى الغرام وشمم النفس الذى كان الى ساعة تحرير هذه الرسالة يمسك
بزمامى الا أنه الحب أيتها الأنسة لا يبقى على العقل ولا يذر :

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل فما اختاره مضى به وله عقل
على اننى ما غادرت مجلس اصدقائى هؤلاء حتى همت على وجهي وأينما
توجهت في ذلك الظلام الدامس والليل البهيم تخيلت لى محاسنك وشماتك
الغر فأزداد وجداً وهياماً حتى رجعت الى دارى في آخر الليل ودخلت غرفة
نومي فارتميت على فراشى خائر القوى هامد الاعصاب لا راحة ولا نوم بل
أرق وسهاد ودموع تجري من الاماق غزراً وعشق قاتل قد تمكن من
الفؤاد فاشعله ناراً :

فوالله ما أدري أنفسى ألومها على الحب أم عيني الملوثة م قباي
إذا لمت قلبى قال تفسك أذنت وان لمها قالت خذ العين بالذنب
فقلبي وطرفى قد تشاركن في دمي فيارب كن عوناً على العين والقلب

لبثت على تلك الحال التعسة من مساورة الهموم وعدل النفس وتأنيب
الضمير مدة من الليل ولكن دافع غرامك الكامن كمن النار في فؤادى
أيارية المحاسن دفع بي أخيراً الى النهوض من الفراش في الثلث الاخير من
الليل فذهبت مسرعا الى مكتبي واضأت المصباح وأمسكت القلم فحررت
هذه الرسالة اليك وقد ابى عليّ فؤادى الا تحريرها اليك اكاشفك فيها بحبي

وأبث كمال أدبك وظريف شمائلك غرامى بالرغم مما قام فى نفسى حيال تلك
 الفواعل من دواعى الحياء والشمم أيضاً ولا يخفى ان العواطف اذا تراجمت
 وتنافست فى نفس الانسان وتعارضت غلب افواها وفاز بالسبق أعلاها واذا
 قد بحت لك بغرامى وشكوت اليك ما انتاب قلبي فقد اخضت حياتي رهينة
 اشارتك وما تردين به عليّ من الجواب فاما السعادة وإما الشقاء :

ما للهوى أخذ الهوى بدمى تحمك الحب فى روحى وفى بدني
 ما حل للحب ان الحب اعدمنى صبرى وحرم اجفانى على الوسن

الرسالة الثانية

— من ش... الى ن... —

أيتها الأتسة المهذبة ...

حتى متى اكتب اشكو الهوى ولا تجودين برد الجواب
 وان لم تجيبي بما اشتهى الا فاخبري بوصول الكتاب
 نعم أيتها الحبيبة فقد كتبت اليك بعد رسالتى الاولى ثلاث رسائل
 وأنت لا تردين عليّ ولا تبين صدى حبي وظمأ قلبي ، ويلاه لقد زادت بلائى
 وطفح كأس غرامى ورأيتنى مع ذلك محتقراً مردولاً أمام نفسى بل أمام العالم
 أجمع وخت كل الناس ينظرون اليّ مثلك بالاحتقار والازدراء بل توهمت
 أنهم قد علموا بحالى ووقفوا على دخيلة أمرى من حبي لك واحتقارك لى ،
 فاذا رأيت انسانا يضحك حسبته يستهزئ بي ويضحك منى واذا شاهدت

رجلا مطرقاً برأسة الى الارض يفكر خلته يفكر في وبعبارة اخرى يستنكر
 حيي لك ويحتقر وقاحتي وجراءتي عليك إلا ان الغرام كان في نفسي اقوى
 من كل تلك العوامل التي احسبها من فضيلة النفس ووخز الضمير وأشد فلم
 ابال بها ولم اكثرث لاعتباراتها وصرت كالمجنون أقيس بين خيالاتي الرادعة
 وبين حبك فأراه يرجحها ويفضلها في قلبي فازداد غراما وأهيم على وجهي
 متلذذاً به نشوان من ذكره بالرغم من صدك واعراضك عنى وعدم احتفائك
 برسائلي الغرامية وبل اصداء قلبي وظماً شوقي بالاجابة عليها ولو بالتسوى
 والنهي والزجر ان كان حيي يقتضى الزجر :

الى الله أشكو انه موضع الشكوى فقد ضن عندى بالمودة من أهوى
 لعمرى لأهل العشق فيما يصيبهم أحق بان يبكي عليهم من الموتى
 يميت الهوى قوما فيلقون راحة من الضر والجهد المبرح والبلوى
 ويحيا به قوم أصابوا هوام وقد صرت فيهم لأموت ولا أحيأ
 واني لأشقى الخلق ان دام ما أرى ولم يسعد الوصل المؤمل في الدنيا
 هذا ولقد أدى بي جنوني في غرامى - ولا أخفيك حالي - الى

النزول في ميدان الغوايات واقتحام الشهوات على غير سابقة عهد لي بها لم
 الله لأصرف عن نفسى ما اتابها مداواة للداء بالداء على زعمي فوجدتني واهماً
 وزادت حالتى شراً وهيامي هياماً فكنت اذا جالست بعض الاصدقاء والندماء
 على مائدة الطعام أو سفرة المدام بالازبكية أو مغازلة بنات الهوى ومحدثهن
 يتمثل لى خيالك الجميل وحديثك الشهي وبهاء طاعتك الطاهرة فتعروني عند
 ذلك الرعدة والقشعريرة وتساورني في الحال الافكار والهجوم فنتقبض تسي

بعد شبه الانبساط وتعلوني كآفة وكدر فيعرض عنى صحبي ويستهرى فى
 خصوصاً اولئك النسوة ويسخرن منى ويرمينى بالبلاهة والسذاجة وانه والله
 ليحق لهن ذلك لاني ما جالست مع صحبي واحدة مهن الا وتشرد ففكرى
 متوجهاً نحو قطب رحى حبه أعنى خيالك بل ملاكك الطاهر وينادينى وجدانى
 من أعماق قلبى قائلاً

- مكانك يا هذا أتستبدل الخبيث بالطيب ؟ أترضى ان تسمع حديث
 هؤلاء النسوة الغيبات اللائى يغازلن كل شارذ ووارد بذى المقال وقبيح
 الكلام الذى يحسبه مع ذلك أولئك الشبان المندفعون فى ذلك السبيل من
 الظرف واللاطف والحب بمكان عظيم وما هي الا وسائل سافلة لسلب الدرهم
 والدينار وافرغ الجيوب ؟ أتقبل ان تنزل نفسك هذه المنزلة الحقيرة فى عين
 الاذواق السليمة بدل ما كنت تسمع من عذب الحديث وسامى الآداب
 التى كانت لنفسك شفاء سقامها وبرد أومها ؟

وحديث يشفى السقيم من السقم دواء السقيم كالدرياق
 أحب ان تشاهد هذه الوجوه المستعارة حساً ومعنى والتي تحرك أصحابها
 المصالح لا العواطف مكان ما كنت تشاهد من ذلك الوجه الصبيح والجمال
 الطبيعى والاخلاق التى يقف أمامها عقل الحكيم مسبحاً مقدساً ؟
 فكنت عند ما تخطر ببالي هذه الخطرات وأزن وأقيس بين هذه وتلك
 من الحالات يتكدر على صفائى فأقوم فجأة مستأذناً تارة وغير مستأذن صحبي
 وخلايى أخرى وهم يضحكون منى والنسوة يتغامزن على وضميرى يقول
 لي موبخاً ومؤباً

اني وان عرضت أشياء تضحكني لموجع القلب مطوى على حزن
 « لا لا ليس هذا موضع حبك ، ليس هذا ما ينبغي ان تكون عليه ،
 انه ينبغي ان نختار لقلوبنا كما نختار لشهواتنا المأكلة الطيبة والمشروبات اللذيذة
 ان تلصق النساء التبذلات هنا كالأزهار التي ذبلت من كثرة الشم واللمس
 وأضحت غير صالحة الا لتعود الى مادتها الاولى وأما زهرتك الزاهية فهي
 من أجل الزهر وأزكاه فارجع الى صوابك وضم يا هذا بصدرك على غيرها
 وضم فؤادك عن سواها »

وعليه فلا تذكر مع جرأتي واقتحامي لهذه المجالس المنحطة وغشيانى
 تلك الاندية الفاسدة بالجرأة والوقاحة انى شهد الله شربت كأساً من الخمر
 أو هممت بريبة ولعمري ما عصمتى غير حبك فى حين انه هو هو الذى اضطرني
 الى ممارسة هذه الحياة التعسة لا كثر شباننا اليوم ، حياة كلها شقاء وتعب ،
 حياة يحسبون طها اللذات والمسرات وسعادة النفس وما فيها غير الآلام
 والاصاب وخراب الجيوب والبيوت ، شتان بين هذه الحال وبين حالة الحب
 الطاهر . فأنا ما اقتحمت هذه الاهوال الا لتلهمى ولكن أين الثرى من الثريا :

تلاهيت عنها فى الغرام بغيرها وقلت لقلبي هذه هي زينب
 وقيلت فاها مبرداً لصبابتى فأضمرت ناراً فى الحشا تلهب
 فكنت كمن ألقى غريقاً بلجة تمسك بالمرج الذى يتقلب

ولما لم ترق لى هذه الحياة ورأيتنى غير مستشف بها من داء حبك وقد
 تمكن من فؤادى ولا متطبب خطر ببالى خاطر السياحة والتجوال ونحن
 الآن فى عطلة الصيف لا مدرسة ولا دروس ولا تخفالك فوائد السفر والتنقل

من جهة الى جهة

تنقل فلذات الهوى فى النقل ورد كل صاف لا تفت عند منهل
ففى الارض احباب وفيها منازل فلاتبك من ذكرى حبيب ومنزل

فجهزت أدوات سفرى ويممت طنطا حيث كان المولد «الرجبى»
قائماً ولا تسألينى عما شاهدت هناك من الزحام والصدام وغلبة الاوهام
ومخالفة الشرع والذوق واقتراف الآثام فغادرتها غير آسف على فراقها وأتيت
الاسكندرية وهناك جعلت أمشى على شاطئ البحر وحيداً غارقاً فى لجج
أفكارى التى تزيد على أمواج هذا البحر وتقلباته تاركاً ذلك العالم المتكاثر
زحامه فى كازينو سان استفانو يروح يغدو ويلهو ويطرب ويمتزج ويفترق
كأنه جيش يقوم بمناورة حربية كبيرة بديعة تقتضى الاختلاط والافتراق
وقد تباينت الازياء والصور وعلت الوجوده علام السرور والحبور ودواعى
الانس والانبساط وحب مغازلة الحسان أو جذب قلوب الرجال برشق سهام
العيون وسل سيوف اللواحق ولفقت أنظارهم بالزينة ولدلال حتى ممن قد
تجاوزن السن بحكم الطبيعة ! لكن لا عجب فتلك عادة بنات حواء كأنهن لما
فقدن القوة أحبين ان يستعصن عنها بالتأثير بالجمال والدلال واجادة الكلام
وكثيرته ولا تؤاخذينى فى هذا القول فما هو الا الحقيقة مقررة ومطبقة
على ما قاله أساطين حكماء السلف وكبار الباحثين فى أخلاق جنسكن
اللطيف وقد يستثنى مع ذلك من عصم ربك من أمثالك ربات الحشمة
والاعتدال لان هذا الخلق لمن يعدل ولا ريب من امرجنهن فيغتبطن وتحدث
السعادة الحقيقية فى نفوسهن بعكس اولئك اللواتي لا يملن الا الى الظهور ووجهة

التفوق على الغير والنأثير في النفوس كمن وصفت لك حالهن في نادى سان استفانو
أما أنا فلم ترقى هذه المناظر الجميلة ولم تشقى بل أنها بالصد من ذلك
زادت سقامى وضاعفت غرامى ولقد كنت أرى كل فتاة من الاوربيات
والشقيقات الجميلات وهن يرحن ويجنن على الشاطئ فى دهن و اعجابهن
بجمالهن وازيائهن ولطف محاضرتهن دونك في الجمال والدلال ورقة الحديث
وحلاوته فكنت أزداد تلهباً وحسرة لهذه الذكرى وتلك المقارنة بين «التكاف
والتضع والامر الطبيعي الذي لا تكلف فيه» حتى تأملت كثيراً وعظمت
على الهموم وضائق على الارض بما رحبت وطالما صممت على القاء نفسى
في البحر لشقائى في حبي ولكن الأمل بنوال رضاك واجتلاء محياك كان
يمنعني أيضاً ويفسح لي مجالاً من الاماني بساطة القاهرة ولقد قال حكيم
الفرنسويين « لارشفوقلد » (La Rochefoucauld) مامعناه « ان ساطة
من نحب على نفوسنا لا كبر من سلطتنا عليها » وقال ايضاً « ان الخوف والامل
متلازمان » وهي حقيقة لا مرية فيها خصوصاً في مثل شأني وحالي وعليه
عولت على الرجوع الى القاهرة مصمماً على تحرير هذه الرسالة لأجعلها
الاخيرة اليك واني أيتها الحبيبة غير متهدك فيها الا بفقد حياتي وأراها غير
عزيزة عليك وقد كرهتها أنا ايضاً وأضحت في نظري كشكول آلام وأوصاب
سداها الحب ولحمها الغرام شيبا بالامل تارة وباليأس اخرى وبخوف الاحتقار
منك كثيراً فما أتعسني بهذه الحياة وما أغناني عنها وهي الرخيصة لديك

يا ويح من خبل الاحبة قلبه حتى اذا ظفروا به قتلوه
غدرًا ومال به الهوى فأذله ان العزيز على الدليل يتيه

الرسالة الثالثة

— ❧ من ن... الى ش... ❧ —

سيدي الفاضل :

لقد برح الخفاء وظهر ما كنت أحب كتماناه في أعماق قلبي وطيّ
حشاشتي حتى الممات ولكن أبي الله الا أن يظهره من جانبك أولاً فلم تقو
على كتمان عشقك وما خامر نفسك من الحب لي فكشفتني به حيث حملته
رسائلك الى تترى ولم أتسرع أنا للاجابة عليه بما عندى من اضعافه إلا لا أستوثق
لنفسى من مبلغه بل نوعه عندك لان الدعوى بالغرام وسيلة قد يتخذها الكثيرون
ممن لا خلاق لهم من أرباب التسوق حيلة لاصطياد الفتيات وقد اضحى رجال
« هذا الغرام » في هذا الزمان كثاراً ولا تؤاخذني في شكي وارتبابي في
أمرك بالنظر لهذا الحال التعس . أما هذا الصنيع لهؤلاء الرجال الفاسدى
الاخلاق فاني أعده جريمة لا تغتفر في نظر الآداب الاجتماعية فضلاً عن
الدين لانه يفسد حال النساء وهن عماد الهيئة الاجتماعية وقوامها وينغص بالشقاء
العائلات وهناك البلية وأنا وحق الشهامة والتريبة العالية التي ربيتها لست
ممن يخدعن بزخرف القول ويمان الى مثل ذلك الحب الفاسد

رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم فإنا أرى حباً صحيحاً مسلماً
لما جاءتنى أول رسالة غرامية منك قرأتها بامعان مثني وثلاث ورباع
وأنا ارتعش ثم قلت في نفسى المضطربة ترى أصحيح ما يدعى أم هي حيل

شبان اليوم لافساد حال القتيات ؟ لأصبرن ولا أتروين في أمرى قبل أن أرد عليه ، ثم لم البث ان جاءتني الرسالة الثانية والثالثة فكثرت على الهواجس والهموم وظهر لى من خلال السطور انك على غير ما أخشى او أعتقد فى شبان اليوم وانك على ما أحب وأتمنى وان حبك لى خالص من تلك الشوائب والعيوب والدعاوى الكاذبة والامور المنفسدة فسرتى ذلك عنى همى وأزال بعض شكى وارتيابي فكنت وقد سكن حبك بين الجوانح وأحيت ميت الآمال والاماني رسائلك كثيراً ما انفرد فى غرفتى وأسكب العبرات وأدعو الله فى دجى الليل البهيم وسكونه وقد ساورتنى الاشجان وهموم الغرام « ان يكون من أحبه قلبى على ما تشتهي نفسى ويتمنى على الله فؤادى » فلما بان لى بارقة أمل من جانبك ومن خلال سطور رسائلك بادرت الى اعلانك بحبى فخرت هذه الرسالة اليك بغاية النشاط « لان الحب الخالص يزيد نشاط المحبين وينفي الكسل كما انه يهذب الاخلاق بعكس غيره من الحب الفاسد » قلت بان لى بارقة أمل ولم أقل « تحققت » لان مشاهدات الحوادث الاجتماعية علمتنى من امور كثيرة مما هو مكشوف من أحوال هيئتنا الاجتماعية ان الحب الخالص ، الحب بمعناه الراقى غير موجود لدينا أو هو بعبارة اخرى « أندر من الكبريت الاحمر فى العالم » وعلة ذلك وسببه ماخالج النفوس نفوس الرجال من احتقار النساء أو تمليقهن لقضاء الشهوات واللبنات فقط وهي من عيوب البشر التى يجب ان يهتم بعلاجها وازالتها لتصفو الحياة على نوع ما وتزول المنغصات الكثيرة التى تحيط بها . فان كنت تنزع فى تمسك مثل تلك المنازع وان ما تستعمله من الفاظ الحب والغرام والعشق والهيام

والاطراء والمدح انما هي كلمات تريد بها التغرير والغش والخديعة — وأعيذك من هذا — لمثل تلك المآرب الخسيسة فاعلم أنك قد ضللت ، ضللت كثيراً لان من كاشفتك بمجها وفتحت لك قلبها « أول شرط من شروط حبها أن لا تكون على تلك الحالة المزدراة عندى كثيراً » ولقد صدق الحكيم لابريار (La Bruyère) حيث قال ان النساء متطرفات فهن لذلك أما أفضل من الرجال او اردأ منهم » واني لا جرم غير مستثناء من هذه القاعدة فاني أحب الفضيلة والعفة لدرجة العبادة والتقديس واكره الرذيلة وأمقت الشرور لدرجة الاحتقار والازدراء « وليس من خير في العالم يفضل الشرف كما قال سنيكا الفيلسوف (Sénèque) فكل أحوالنا ينبغي ان تدور حول محور الخير الاسنى تلك هي الحقيقة تنطق بلا تكلف ولا تصنع أو مغالطة يُستخرج من حظها سكر .

ثم أنك بلا ريب تعلم مبلغ تربيتي ومقدار ما تحويه نفسى من الفضيلة والآداب المستفادة والوقوف بالارادة الصادقة والعزيمة الثابتة في وجه كل ما يחדش الشرف أو يحط بالكرامة والسمعة ونحن مأمورون من جانب الحكمة العملية والفلسفة الاخلاقية « ببذل الجهد واستخدام الوسائل الكريمة والتدبر بها لنيل الرفعة والمجد وشرف النفس » أحببتك وأعلتتك بحبي ولكن كن كما اريد ولا اريد غير « الحب الطاهر » الذى يخامر قلبى ومنه يجرى كالتيار الكهربائي في سائر أعضائي وأعصابى فينعشنى وينعش نفسى وينشها ويجمعها تلذ وتسعد سعادة لا تعدلها سعادة ، سعادة تزداد بها جنوحا الى الفضائل وعظفاً على المعالى وهذه هي احدى فضائل الحب الطاهر ومزايا التربية

الصحيحة التي تنتجها أى تجعله هكذا وبعبارة أخرى تسدد خطى المرء فيه هذه هي سبيل في الحب وذلك هو مذهبي فيه فان رأيت في تمسك القدرة و«الكفاءة» ولا أعني بهما الا قوة الارادة على مبادلتى اياه على هذه الصورة وتلك القاعدة التي لا غبار عليها أوصلت حبلي بحبك فيه والافانى اكرم حبي في أعماق قلبي وأترك لك طريقك تسير فيه بمنردك وتضل سبيله وتتيه في دياجيريه وحدك ومعاذ الله ان تكون كذلك وأنت انت تربية وعزة نفس دلتني عليها ليس فقط رسائل عرامك بل أحاديثك العذبة ومسامراتك الطلية من قبل ما أتعبس بنات حواء في هذا البلد وما أشقى النساء مع الرجال ، هؤلاء الرجال الذين قد رسخ في أذهانهم احقار المرأة وأعتبرها من السلع وانتاع الذي يرغب فيه كما يرغب عنه ، هؤلاء الرجال الذين قد وقر في نفوسهم ان النساء ناقصات عقل ودين وان ليس في الالف امرأة واحدة فاضلة !!! من المعلوم في هذا ان صحح ؟ من المسؤول عن شقاء المجتمع من شقاء نصف بني جنسه بايدي النصف الآخر وامتهانه ؟ تعساً تعساً لهذه العادات وقبحاً والف قبح لتلك المجرىات

كثيرون يطرون الفتيات ويظهرن لهن الحب « الاكيد » فتستسلم اوئيك المسكينات لتلك الخديعة فلا يلبثن ان يرين انفسهن مغرورات وان لتلك النفوس الشريرة لبانات تخالف الشرع وتخالف الآداب السامية في باب الحب الطاهر والهوى العذرى ولقد فشا الذاء وعم الخطب لدرجة قبيحة تشين هيئتنا وسمعتنا في أعين النزلاء الاجانب واظنك لا تجبل حال الناس اليوم من مغازلة النساء باقبح الالفاظ واسمجهها في الطرق والاسواق بلا حياء ولا احتشام ولا خوف

خصوصاً من العدوى لصفار الجنسين من سماع بذى الالفاظ وسخيفها مما يؤثر تأثيراً سيئاً في تربيتهم وعقولهم ، ولجهل النساء في هذا البلد وعدم معرفتهن كرامة النفس وماض من لهن القانون من الكرامة يتبرجن ويخلعن العذار ليجذبن قلوب الرجال اليهن ، يحسن ما يسمعن من قبيح تمجيداً لحسنهن وجمالهن ليس بعده اطراء للجهال وان لا احترام لشأن النساء وراء ذلك الاحترام وان شئت فقل الاحترام والامتهان

أما فتيات العصر المتريات المهذبات تهذباً عالياً عرفن به قيمتهن واقدارهن فلقد ادركن تعاسة هذا الحال وشمرن بالنقص وان المجتمع المصرى غير مدرك قيمة المرأة وتأثيرها فيه وان الرجال يعوزهم الادب في معاملة هذا الجنس اللطيف معاملة الزميل للزميل في العمل والشريك للشريك في الحياة واحوالها وان للحب آداباً لا بد ان لا يتخطاها المرء في شرع من الشرائع وسنن من السنن الراقية وان المعاملة بعد ولوج ذلك الباب على صورته الشرعية يجب ان تكون بالحسنى ، يجب أن تكون بمعرفة كل من المرأة والرجل واجباتهما الخليصة بهما فلذلك ترى أولئك الفتيات المتريات مثلى في افكارى فانا في حبي لا أتعدى حدود الادب والكمال مهما صادفتى من زخارف وتملق من الرجال وأنا في واجباتى اذا جاء دورها لا اكون بأذن الله الا كأحسن فتاة شاعرة بعظم عبء مهامها البيتية هذه هي افكارى وتلك هي مبادئى أو بالتالى مبادئى أكثر الفتيات المتريات الآن وأنا للأسف من ان الجهل يضارب اطنا به على الكثيرات من فتيات هذا البلد الاسيف ونسائه يحرمن من تلك الثمار العصرية الكريمة ويوقعهن في رق الرجال ، في رق أولئك الوحوش الضواري الذين يمتنون

البناء ولا يحسنون تربية البنات حتى ترتقى هيئتنا الاجتماعية المصرية وتحسن أذواق مجتمعنا .

ولقد اطلت عليك الكلام بهذا الصدد وان كان هاما يستحق كل عناية فلا أعد لساننا الخالص : انك بانقطاعك عن زيارتنا قد كدرت علينا صفو اجتماعاتنا فان أخي لا يلبث بمجلسنا طويلا حتى يتأعب ويعروه النعاس فينسحب الي غرفته خموصاً وقد فتحت مدرسته ابوابها فأبقى أنا ووالدي وهو من تعلم لا يترك الجرائد من يده لتعلقه بالسياسة وغمراه بما ينجح أعمال الحزب الذي ينتمى اليه وينشر مبادئه حتى ان ببغاءنا « سرور » المعلق في قفصه في هو دارنا صار لا ينطق كما تعلم الا بالسياسة ولا يلهج لسانه الا بالوطن وبقوله ليحيي فلان وليسقط فلان مما يضحك كثير زائرنا وقد رأيت أنت منه مرة ما اضحكك حيث شيعك ليلة بليحي . . . وليسقط . . . الى ان خرجت من باب الدار

هذا ولقد سألت والدتي مرة شقيقي عن سبب انقطاعك عن زيارتنا فمرتني انا عند هذا السؤال رعشة فجعلت اتغاضى واقلب في صفحات كتاب كان امامي وكلى آذان سامعة مع ذلك لما سيجيب به أخي فاعلمها انك مشغول ببعض المهام الخصوصية فألحت عليه بان يتلطف بك حتى تعود الى سابق عهدك ودروسك معه لدينا فطار قلبي فرحا وأظن أنه يطالب اليك ذلك فأرى « انه لا عذر لك اليوم في الاعتذار والتأخر وقد عرفت ما يكن قلبي لك من الحب » ولست أعنى الا ما اشتربت ، الا ذلك الحب الطاهر الذي قوامه العفاف ولباسه الكمال والتقوى

ليس الظريف بكامل في حبه حتى يكون عن الحرام عفيفاً
فتعال تعال أيها الحبيب مسرعاً :
لقد حدثني النفس أن سوف نلتقي ويبدل بعد بيننا بتدان

الرسالة الرابعة

— من ش... الى ن... —

حييتي ن...

وصحيفة تحكي الضمير مليحة نغماتها
جاءت وقد فرح الفؤاد لطول ما استبظأها
فضحكت حين رأيتها وبكيت حين قرأها

كنت اذا ارسلت الدمع مدراراً على الخدين في جنح الليل البهيم افكر
في حبي لك واعراضك عني وجفائك لي وعدم احتفائك برسائلي
الغرامية اتوهم انك انما تعابين ذلك وتأتينه كراهة لي واحتقاراً لشأني غير انه
بالرغم من هذا التوهم كان شيء في نفسي يقول لي « انك واهم يا هذا وانك
محبوب كما انت محب » فكنت لذلك يذهب بعض يأسي ويطمئن لذلك
الخاطر قلبي أما الآن فتمد انجلي شأني وذهب حزني وترحي لاني عرفت
نفسى محبوباً ممن احب وهذا في الحقيقة منهنى سعادة العاشقين .

انك تعهدين في من معاشرتي لكم كراهة السفساف وبعض النفاص

والتعالى بالنفس عن مواطن الريب فلعمر ك أيتها الحبيبة ان من كانت هذه بحمد
الله سبحانه وصفاته لن يكون في حبه الا شهماً كريماً لكني اعذرك أيتها الحبيبة
في تنبيهك لي ونصيحتك اليّ في هذا الحب الذي منى به قلبي فكاد يذهب
بلي وحياتي وقد حدثتك بقصتي فيما صنعت لمدواته فلم افلح ولم انجح وعصمت
الا من داءه الدفين واني لاشكرك من صميم فؤادي المضى وقد زادني هذا
الصنيع منك حباً وهياماً بظرفك ولطفك وسامي آدابك فله أنت والله يوم
عرفتك فيه وما عرفت الا الكمال مجسماً والجمال بصورتيه الحسية والمعنوية ممثلاً
ان فتيات مصر ونساءها لو كن كلهن على شاكلة أيتها الانسة
الكريمة اظن اننا كنا نكون اسعد خلق الله في آدابنا الجامعة بين محاسن
التربية الاسلامية والتربية العصرية . على اني رأيت في خطابك ما يدل على
ان الكثيرات من اترابك الفتيات المهذبات هن على مثل ما انت عليه فبمثلكن
تفتخر وبمثلكن تنتشل المرأة والاداب العمومية من مساوي الحالة الراهنة
وتعرف قيمة النساء وقد عرفن حقوقهن وشعرن بمهمتهن العظيمة في هذا الوجود
ان الرجال بحسب التقاليد الفاسدة والعادات القبيحة والآراء العاطلة
عاملوا النساء معاملة سيئة قاسية فظة ولم يدركوا الى الآن أهمية وجودهن
وفائدة حسن تربية البنات في المجتمع ، فالرجال وان كانوا نظموا العالم الممكن
وحسنوه فان مما لا ريب فيه ان للنساء دخلاً كبيراً واثراً عظيماً في ترقية هيئاته
الاجتماعية أو تقهقرها علم ذلك الرجال أو لجهلهم جهلوه ولا يخفك القول المأثور
الجارى مجرى المثل من ان «المرأة التي تهز السرير يمينها تهز الملك بشمالها» وقال
الحكيم فنلون (Féné'on) في كتابه (تربية البنات) (١) «العالم ليس

قط خيالاً وانما هو مجموع العائلات والبوت ومن ذا الذى يقدر ان يرقى
 أموره ويدبر احواله من الوجهة العائلية بدقة وعناية تنموق عناية النساء ودقهن
 أولئك النساء اللاتي صرف النظر عما لهن من السلطة الطبيعية في بيوتهن
 لهن فوق ذلك مزية أنهن خلقت خصيصات لا ثقات باعمالهن فيها وحسن التبصر
 بتفصيلاتها في كليتها وجزئياتها والحذق والمهارة في صناعاتها وقوة الاقتناع
 وجلب الرضا والارتياح لهن فيها « فعمل المرأة في تدبير المعيشة وتربية
 الاطفال لا يقل أهمية في المجتمع عن عمل الرجل فيه ولكن هذا قد ينسبها
 حقها ويزدري بحسب العادات انفسد شأنها فمن ثم ينقص شأن الهيئة في
 الغالب كما أنها ترتقى بمقدار ما يعنى بالمرأة فتكون سعادة الحياه ثم على اثمها
 قالت مدام « نكيرده سوسير » (Necker de Saussure) « ان المرأة التي تؤدى
 وظيفتها باحسن ما يكون من الاصول تكون ذات أثر حميد جداً في الدائرة
 التي هيئتها لها الظروف ^(٢) وأراك وأترابك أيتها الانسة خير مثال لذلك

واني ليطول بي الشرح لو سردت على مسامعك في هذه الرسالة مائتين
 منه ونشتكى من نقص تربية المرأة المصرية والحط من قدرها وامتهانها بالرغم
 عن نهضتنا الحديثة مما أراك ولا ريب مطالعة عليه متوجعذله أنت وأمثالك من
 النقيات المهنذبات اكثر من اطلاعنا عليه نحن معشر الرجال وهو في اعتبارا اكثر
 العقلاء والمطلعين من الرجال أيضاً السبب الالهم في انحطاط هيئتنا المصرية وشقاء
 العائلات فيها من هذه الوجهة الحيوية واني لاكتفي هنا بالتلميح الى تلك الحالة

(١) عربت هذا الكتاب وقد طبع

(٢) نجد كثيراً من افكار هذه السيدة بروايتى ابنتى سنية اى الجزء الثانى من هذا الكتاب

السيئة من نقص التربية الأدبية فأوقع لذلك الجهل والغباوة وفساد الوسط
بعض المصريات فجهلن قيمتهن وحقوقهن واهملن واجباتهن وجرين في
السفاسف والأوهام واتبعن العواية في التبرج السمج وخلع العذار في الزينة
مع ان زينة المرأة الحقيقية وجمالها الصحيح في نفسها أى اخلاقها ولعمري فأنى
أفخر بأنك أيتها الحبيبة في مقدمة من تحلين بهذه الصفات التى أتباهى من
جهة أخرى بنى ما عشت فيك فى الغالب الا اياها وما هامت نفسى شهد الله الابهة
هذه الصفات التى يجب ان تنشده وتتحرى فى من نهوى ونعاشر فاذا زان الخلق
الخلق لا جرم كان المعشوق مثال الكمال والمحب الطاهر مما انت جديرة به
وقد اشترطه مع ذلك على واختطت لى فيه الخطة المثلى وما كنت علم الله أياقرة
العين وبهجة الفؤاد لا تعدى ما اشترطت أو لأرغب فى غيره وأنت انت
قالبى صباح اليوم اخوك فرآنى ضاحك السن طلق الحيا كعادتى الأولى
فدهش اولاً ثم هشى لى وبش وسر سروراً بانى لى طوالعه فى اسارى وجهه
وأنه وأيم الحق لشهم كريم ففعل من ثمة يتلطف بى ويتودد الى وساقه حب
التطلع الغريزى فى طبع الأناسان الى مفاتحتى فى سبب احزانى واتراحمى الماضية
فجملت كعادتى انتحل الأعذار وفؤادى يطنح سروراً وابتهاجا وفى نهاية
الحديث اتفق معى على معاودة دروسنا الخصوصية وسهراتنا الأعتيادية فى
داركم وأنت تعلمين سر قبولى وما كان علم الله الارساتك الى وقد أبردت
كلومى وشفقت سقامى وانعشت فؤادى وأعادت الى الحياة واحيت ميت
الآمال ويا لها من سعادة

ولقد طلب منى ان اخرج معه الى متزده الجزيرة عصر اليوم فى مركبته

للنزهة والرياضة فقبلت بالآرتياح وخرجنا معاً وكان سروره بعوده سرورى
وانتعاش نفسى بعد ذلك الذبول اضعاف ما كنت انتظره منه وأسر الى ونحن
نتمشى على أفريز جسر الجيزة الجديد وقد لعب النسيم بالنفوس وطابت انفاسنا
للطافته ورقته وسماع خريبر سياه النيل وهي تهدر تحت ذلك الجسر العظيم بما
حسب له مع والده من الشجار فصرت أنصح له بالتؤدة وملازمة الأدب
والطاعة وطفقت اسرد على سمعه ما جاء فى بر الوالدين والطاعة لهما وذم
العقوق ورذيلته من الحكم والآيات الباهرات بين قديمة وحديثة وان اكثر
ما يصيب الشبان من النجاح والفلاح إنما هو باطاعة الوالدين وبالرغم عما رأيت
له من الحق جعلت أهدى من خُلقه وأنهاه عن العناد لأن الانسان لا يكون
مقبولاً محبوباً الا بالأدب والوداعة واللاطف فى المعاملة وان استعمال صوت
الأمر الناهى فى مثل سنه وظروفه لا يناسب البتة وإن التهمك أو الاستزراء
بأفكار من هو اكبر منا سناً معيب مسقط وان المرء لينال باللين والأدب
ما لا يناله بالعرف والفظاظة ولا سيما أن والدى الانسان مهما كان الحال فهما
لا يريدان به الا الخير وانما تختلف الطرق بمقدار ما حازت النفوس من معرفة
أو جهل فحينئذ يجب الرد بلطف والأشارة الى الصواب بالأدب ووالدكم
بحمد الله حائز لجليل الصفات بما لا يصح ان ينبه الى واجباته وهو أدرى بها
ثم أريت أخاك « ان نوال المرء كل ما يشتهى فى مثل سنه قد يكون فيه
الضرر له ولدويه وان الشفقة الوالدية الزائدة التي يتخيلها هو غير محققة ولا هي
بواجبه لأنها كثيرة الأضرار لما ينجم عنها من فساد حال الأولاد ولو
كانوا شبانا رشيدين مثله مطلعين على حقائق الأمور وكنت وقد احتد

الحديث بيننا أضرب له الأمثال بمن أسقطهم انترف من الشبان ومن انتشاهم
من الحضيض حسن سلوكهم ثم عطفت عليك فضربت له امثال بحسن سيرتك
وكال أدبك مع والديك حتى بكى وأذرف الدمع وجعل يعانقني فرق قلبي
له وجعلت أغير موضوع الحديث حتى شاهدنا ونحن فوق الجسر مركباً
وفيه بهض النووية يغنون ويطربون فجعلنا ننظر اليهم ونسر بغناهم ونصغي
اليه وجعلت من ثم ابرء على مسامعه محاسن الطبيعة المصرية والنيل السعيد
حتى سرى عنه كدره وانبسطت نفسه بعد ذلك القبض ويا للانسان يؤثر فيه
الكلام ولا تأثير المدام

ثم قصدنا قبيل الغروب المكان المعد للرياضة البدنية المعروفة باسم
« اسكتنج رنج » بجوار كوبرى قصر النيل من ناحية الجزيرة فأبّت على فرحة
نفسى بك الا ان ألب تلك « اللعبة » فانتعلت « بقبايا » وحشرت نفسى
بين اللاعبين وكانوا جمعاً من الشبان وانتلاميذ فاشرا بّت الى الأعتاق فجعلت
أمشى الهويناً ثم صارت قدماي لا تطاوعانى واناقلنا الى الأرض غير ان جهلى
باساليب اللعب لم يجعانى احجم وانكص على عقبى واتقهقر بانتظام بل أنه بالضد
اضطرنى ان أظهر أمام هؤلاء الشبان والفتيان الناظرين الى مهارتى وحذق
فاسرعت فى المشي بالجرأة فما كدت أتوسط مكان اللعب والابصار شاخصة
الى حتى خارت قواى وفقد جسمى موازنته وكلت قدماى عن حمله وجره
فسقطت الى الأرض سقطة دوى لها المكان وعلت على أثرها اصوات الضجيج
بل الاستحسان والقهقهة من كل مكان

نفجبت خجلاً كبيراً وصار هؤلاء الشبان الأبالسة يتغامزون

بعد تلك القهوة على ويندون بي حتى سمعت بعضهم يقول (غفارم يا استاذ)
وبعضهم يقول (هكذا هكذا السقوط والا فلا) وجعل بعضهم ينشد اصحابه
هذا البيت بالصوت العالى ليسمعنى

تريدن ادراك المعالى رخيصة ولا بددون الشهد من أبر النحل
فقلت فى نفسى وقد ازددت خجلا ثم استشطت غضباً من قلة مروءتهم
لأخذ بيدي (بئست المعالى الصبانية والألعاب الشيطانية الا من احديأخذ
بيدي ويقينى من عثارى) فلم ألبث أن جاءنى أخوك فأخذ بيدي وأقامنى
وجعل ينفض الغبار عن ثيابى فجعلت أنوكأ على ذراعه وقد تأملت قليلا من
ساقى أما هو فصار يبسم ويقول لى ونحن خارجون من ذلك المكان والفتيان
يرمقوننا بالأنظار (ما كان أغناك عن هذا) فقلت له وأنا أضحك (نعم نعم
ما كان أغنائى)

ولما عدنا الى القاهرة وعدته بالحضور الي نادىكم من الغد فسر كثيراً
وودعنى وانصرف ودخلت دارى طرباً جذلاً من لقائك وصرت أناقش نفسى
الحساب بأن تلزم الأذب والرزانة وتمتلك بحضرتكم ذاتها حتى لا تظهر على
دلائل الحب والغرام فيفتضح أمرنا وينكشف ما بيننا من السر الممكنون نعم أنى
أحبك حباً لا يشوبه كما اشترطت أقل ريب وشبهة ولكن العالم قد لا يحسن
الظن إذ هو يجهل وبعبارة أخرى لا يريد ان يفقه معنى الهوى العذرى فلا
يرثى لقلوب العاشقين وبلوى المحبين بل يرى فى عملهم المنكر والأجرام أما
من يتدر هذا الحب قدره فهم المحبون وحدهم

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانها

ولا أخفيك حالي فأني عندما أمسكت القلم لا خط هذه الرسالة اليك
صارت نفسي تحدثني بالغبطة والسعادة وأنا واضع رسالتك بين يدي على
مكتبي أتأمل في محاسنها ومحاسن تلك الأنامل التي نمتها وأقبلها مشئ وثلاث
ورباع حتى سكرت بلاخمر وحرابي في تحرير هذا الرد اليك وجعلت المعاني تهرب
مني فلا يكاد فكري يجمعها وقلمي يتصيد شوارد ما أريد تسطيره منها سروراً
باللقاء بعد طول الجفاء فالى الملتقى أيتها الحبيبة الى الملتقى في الغد وان كان
غد أراه بعيداً على عاشق دنف مثلي

الرسالة الخامسة

— ❧ من ن... الى ش... ❧ —

عزيزي :

ما أطيب هذا العيش وما أسعد هذه الحياة أنك احببتني وأحيتك وقد
رأيت فيك جميع الخلال الكريمة والصفات النبيلة ولا سيما من يوم أن أظهرت
لي حباك واظهرت لك أنا حبي ولقدرأت والدتي منك تلك الصفات الغراء
فجعلت تلهج بالثناء عليك وتطريك اطراء الصديق الصدوق وان كانت تجهل
ما بيننا من صلة الحب وكثيراً ما جعلت تنصح لشقيقي بان يتخذك نموذجاً ،
بان يكون على شاكلك ولقد سمعتها تهنيء بك السيدة والدتك التي اتصل
حبل ودها بنا بواسطةك أما والدتك الفاضلة فانها أخبرتنا بسيرتك الأولى

واطلعتنا كذلك على حياة المرحوم والدك فنعم اولد انت ونعم الوالد كان ولا غره فالولد سر أبيه ومن يشابه أباه فما ظلم

أما أنا فقد عقدت مودة وثيقة العرى معها ولقد رأيتها آية في معرفة واجبات النساء وقد حنكتها التجارب المنزلية فلماذا لم أجلس معها مجلسا الا استفدت منها الفوائد الجملة والارشادات الثمينة واني اذكر لك بعض معلق بذهني من نصائحها الذهبية فلقد قالت لي مرة وكانت أمي غائبة في زيارة بعض صديقاتها « أتظنين أن حالة نساء اليوم تعجبني؟ أمهن أيتها العزيزة قد جهن

الفضائل النسائية جملة وهجرن اكثر واجباتهن التي عليها المعول في تحسين حال الأسرة بل الهيئة الاجتماعية وان كان اللوم واقعاً على الرجال ومجريات الأحوال فانهن أيضاً ملومات ولا عذر لهن الا اذا كان ما يسمونه « حرية اليوم » سلبهن العقول وما التفت الا عائد عليهن قبل كل انسان والخسارة راجعة الى ذرايمهن ولا ذنب للحرية وهي المنوحة لنا منذ ان وجد الاسلام ولكن بواسطة عادل النظام كما كشف لنا الغطاء عن سامي الآدب وأنال كل ذي حق حقه وارشد كلا الى واجباته للرجال نصيب وللنساء نصيب

«ماهي وظيفة المرأة الحقيقية في الوجود أليست هي تدير المنزل وتربية الأطفال؟ لكن اكثر سيداتنا نساء اليوم قد تركن هذه الامور جانباً واتبعن بلا ترو ولا عقل المودة وتعودن كثرة التبرج السمج والزينة (الماسخة) اما تربية الاطفال فتد تركت الى المقادير ولا سيما البنات فلا يستفدن من أمهاتهن غير امور مسترذلة وصرن لا يحتمسمن ولا يتمسكن بالفضائل العائلية ولا يعرفن من امور العلم غير التافه والفاقد وقد ساعد على رسوخ قدم هذه الاحوال

أوجدها أحوال الوسط والتربية والاخلاق الفاسدة التي من بينها قراءة الروايات الفاسدة التي رمانا بها الغرب ولم يحسن الاختيار فيها الشرق

«ان ما ينبغي للنساء معرفته أيتها العزيزة ينقسم بحسب أعمارهن كما لا يخفى عليك الى خمسة أقسام أو أدوار الاول خصيص بالطفولية فيلزم البنت فيه أن تكون وديعة مطيعة لوالدها مكبة على تعليمها

الدور الثاني دور الشباب والاستعداد للزواج فيجب أن تكون البنت فيه مثال الكمال والادب والحشمة ومساعدة والدها في مهام البيت بل والقيام به على احسن حال واكمله

الدور الثالث دور الزواج وهو ان تكون الفتاة في بيت زوجها واسطة عتده تدييرا وصيانة وآداباً وأطاعة لزوجها وشريك حياتها حتى يحظى واياها بالغبطة والسعادة والهناء

الدور الرابع دور الامومة حيث يجب أن تتيقظ المرأة لتربية اولادها تيقظاً يفيدهم في المستقبل ويريح قلبها وقلب زوجها في الحال من جهتهم فيكونون سواء كانوا ذكورا أو اناثا نافعين انفسهم وآباءهم ومجتمعهم مشرفين اسم عائلاتهم وبيوتهم واوطانهم

الدور الخامس دور الشيخوخة حيث تصرف المرأة جل اوقاتها في الانقطاع للعبادة وبث النصائح والارشادات النافعة المبنية على التجارب لاولادها واحفادها وتستقبل منهم احترامهم لها وتبجيلهم لقدرها

فهل نساؤنا يعرفن هذه الواجبات ؟ هل هن شاعرات بأعبائها ؟ يقال كما يقال في الصحف والكتب انه يلزم لذلك أن يتعلمن في المدارس اما أنا

فأقول ان المدارس للبنات لا بأس بها ولكن التربية العائلية ألزم منها وهي سهلة بسيطة لا تحتاج الى مدرسة ولا تقتقر بنوع ما الى كتاب بل هي امور (ينبغي ان تكون نصب أعين كل العائلات وسبيلها المزاولة العملية بحسب الطبقات والأوساط)

ان أمثال هذه التربية قد تعرف فوائدها بل لزومها كل واحدة منا بالعادة الموروثة ولكن لست أدري لم هذا الاغضاء منا عنها ولم كل هذا التماهى فى (المودة) واتباع الالهواء ؟ فى حين أنا نشاهد أضرارها كل يوم فى ازدياد اننا نرى نساء العهد القديم بالبله والسداجة كما يرمى رجالنا رجال ذلك العصر بالسخافة والجهل ولكن ما قولك أيتها الأنسة الرشيدة أنى وقد رأيت العصرين وقارنت ما بين العهدين أفضل « ذلك العصر عصر السداجة فى آدابه وكلماته القومية وفضائله الانسانية والنسائية على هذا العصر عصر النور والعرفان من حيث معرفة النساء خصوصاً لواجبات بيوتهن وازواجهن وتربية أولادهن)

أما انا فنجلت وجمعت أدافع عن نساء اليوم وبالتالى أفضل المدنية العصرية عما كان عليه حال العصر السابق لاعتبارات كثيرة أهمها تقدم العلوم والمعارف فى هذا العصر وتأثيرها فى جمهور الامة واخلاقها غير أن براهينها فيما دافعت عنه كانت تأتي قوية الحجة فهت لها ورأيتنى دونها حجة أنا المترية المتعلمة تعليماً عالياً ! فلزمت السكوت ولحقتى الاسف على ان ليس بين نساتنا كثيرات مثل السيدة والدتك البارة الحكيمة فلذلك مالت اليها جوارحي وأحبها قلبى حباً جماً لا يفضله فى نفسى سوى حبك وحب أبوى والذى زاد قيمتها فى عيني

أنها تبدى هذه الأفكار وترتها ترتيباً منطقياً أو كما يقال افلاطونياً وهي لا تعرف القراءة والكتابة فمن أين جاءها هذا؟ ومن أين حصلته واستفادته؟ لا ريب أنها حصلته من قواها العقلية الرجيحة مطبقة على أحوال المجتمع قديماً حيث كان بطبيعة الأحوال هادئاً وديعاً محباً للفضائل ميالاً للخيرات بحكم الوسط والعزيمة الثابتة مما يدل على ان الفضائل لا تحصل بكثرة العلم والدرس وإنما هي من خصوصيات النفس التابعة للظروف المحددة وعزيمة النفس بعد العلم الضروري بها وإذا داوم الإنسان على ذلك تربت له ملكات الفضائل وبالتالي تحققت له السعادة سعادة الحياة واعتبط بها معه كل معاشريه ومخالطيه فالسيدة والدتك من ذلك الطراز الذي جهل العلم ولكنه علم الفضائل فعاش بها عيشة السعداء المعتبطين بعكس حالتنا اليوم مع كثرة تمدننا ومعارفنا ومع ذلك ترانا كلما زاد تعلمنا وتمدننا زادت شرورنا لأن للمدينة شروراً حجة اختلطت بفضائلها اختلاط الحابل بالنابل فقليل من أدرك ذلك وقليل منا من وقف نفسه بالعزيمة الصادقة موقف الاختيار للأفضل والابقاء على الأصاح لنوافق الطبيعة ذاتها في اختيارها للانسب من الأنواع لنعيش عيشة وفاق معها في معترك الحياة فأبناء العهد القديم كانت ظروف الأحوال مهيئة لهم على نوع ما كل الأحوال الفاضلة من حيث السكون وهدوء الحركة التمدنية ولكن امامنا نحن حركة تيار مدنية جارفة متقلبة فينبغي لنا أن نقابلها بما تستحق من التيقظ والعناية والعزيمة والا سحقتنا شرورها قبل أن نجني ثمارها الدانية القطوف

هذا ما أرى كثيرات مثلي ولا احكم الا على بنات جنسنا اللطيف

شاعرات به عاملات على درئه وكشف ظلماته المتراكمة بعضها فوق بعض بقدر الطاقة وقد سمعت رأى السيدة والدتك فى حالة نساء اليوم وتقصهن عن الكمال فى تأدية واجباتهن أما المسؤولية فهى واقعة فى اعتبارى على الرجال أكثر مما هى واقعة على هؤلاء النسوة الضعيفات

ألك قد وعدتني برسالة تشرح لى بها ما رأيته فى تمثيل رواية جديدة شاهدت تمثيلها فى بعض المراسح وتصف لى أحوال الجمهور جمهور المشاهدين فهل لك ان تفي بالوعد فانى قد حضرت تمثيل رواية زين لى أخى الذهاب اليها ليلة الجمعة الماضية فلما رأيت ما عليه ذلك الجمهور المتفرج من ساقط الحال وفساد الآداب كرهت التمثيل وحرمته على نفسى مرة أخرى

على أنى ما كدت اطأ عتبة دارنا حتى تلقانى مشاهدة تمثيل رواية أخرى من جنس آخر فى دار جارنا ف بك تلك الدار القديمة الواسعة حيث كان تم حفلة (زار) اقيمت للسيدة كريمة صديقتى على نقرات الدفوف واغانى موضوعة بنغمات عجيبة وأقوال غريبة فللصدقة التى بينى وبين تلك المسكينة ولدعتها لى من قبل الى حضور تلك الحفلة التزمت الذهاب اليها بعد ان غيرت ملابسى فشاهدت هناك ما يضحك ويبكى معاً

فان سألتنى أهو احتفال دينى ؟ اجبت لا وان سألتنى أهو مرقص كالمرقص المعروفة عند الغربيين (بالبالو) ربما اجبت نعم ، واذا كان الأمر كذلك وانه ربما كان له بعض الفوائد فى ترويح النفوس وترطيب الاعصاب حكمت لك حكماً لا اضمن الخطأ فيه انه من هذا القبيل بدليل ان كثيرات من النساء الأورويات عند ما يسمعن بعض نغمات الرقص قد يطربن ويملن اليه

مسوقات بدافع اللذة أو بدافع نفسي عصبى فهكذا الحال هنا وهكذا قد يصح ما يقال عن شفاء بعض الأمراض بواسطة الزار كما تراح النفوس للرياضة والطرب والرقص وما مد الموائد في تلك الحفلات الا من قبيل المقاصف التى تهىء في المراقص ولا يخفك تأثير ألوان الملابس المزركشة والظرايش المقصبة والحلي والمصوغات الخبيصة بالزار مما يأخذ بالأبصار وانما العيب الوحيد في هذه الحفلات كمنلات (البالو) أنها لا تناسب علم الاقتصاد إذ هو يجب التوفير وهي تخلى الجيوب وتلقى اصحابها في التبذير

أما أنا في نفسي — والانسان قد يحكم على الاشياء من وجهين بالنسبة الى أثرها وقيمتها في الخارج ومن حيث تأثيرها في ذاته — فلم ترقنى هذه الأمور فمن ثمة حصل لى عند رؤيتها قبض وانزعاج بل خوف مع أنى اعتقد الزار واضرابه من السفاسف النفسانية التى قد تستروح بها بعض النفوس فكنت لذلك كل المدة التى مكثتها في هذه الحملة في غاية القبض والاشمئزاز والتحفظ ثم رجعت الى دارنا قريباً من منتصف الليل وانا غارقة في بحر من الأفكار في غريب تصورات الأُنسان وشطحاته في حين أن أموره الحققة قريبة سهلة لو جرى في حياته وفق نظامها الطبيعي الظاهر له من طبائع شريكه فيها أى الحيوان الأعجم لاستراح من كبير عنائه صحياً ومالياً لبثت افكر في ذلك وأقول في نفسي (أليس من العار ان يظهر ذلك الشريك في الحياة على نوع ما بمبتغاه منها على غاية البساطة بالسليقة ونحن نشقى بعقلنا وتيه في دياجيرها بذكائنا) ولقد بقيت هذه التأملات تتردد بخاطرى وأنا مضطجعة في فراشى شاخصة ببصرى الى السقف حتى ران الكرى على جفنى واستغرقت في النوم

وصرت أحلم بالعرفايت والشياطين و (الكودية) والزار ولم تمر على في عمري
أزعج منها ليلة في اضطراب نفسي

سافر أبي صباح اليوم الى الاسكندرية لسماع خطبة ساسية رنانة سيلقيها
أحد مشاهير حزبه هناك نجح الله لهم المقاصد وأرى ان هذه الاعمال يعوزها
فقط التؤدة وتغليب حكم العقل على حكم العواطف وأراه في هذه الايام شديد
الاهتمام بالسياسة وحوادث الدستور والدولة الخ وأنت تعلم أيها الصديق اني
على غير رأى أبي وحزبه بل اني (متفقة معك في الرأى مشاركة لك في الفكر
من ان الخطة السياسية المثلى انما هي خطة الاعتدال والعمل بالعقل حتى تعرف
الامة من جهة حقوقها وواجباتها وتعلم السلطة القابضة على أزمة الامور
كفاءتنا من الجهة الثانية بالاعمال لا بالاقوال فقط هذا هو السبيل الوحيد لحل
مسألتنا السياسية والاجتماعية على ما يرضينا والاقوال التي تبنى على الرعونة
والطيش (لا تحل ولا تربط) بل هي بالضد تبطل كل المساعي المشكورة
وتعرقها ولكن السهام الصائبة هي ما كان رائدها العقل وقوة الحجة والبرهنة
على الكفاءة العملية من جانب كل المصريين القابضين على زمام الامور وفروع
الاعمال على اختلاف أنواعها والمهارة والنشاط واقامة العدل والدأب على
ما يرقى الامة والافراد اجتماعياً واقتصادياً ولا يخفك اني استفدت هذه
الافكار من آرائك الصائبة ومناقشتك لاني ليلة الاحد الماضية خصوصاً
وان كان لم يرد ان يتشع وجعل ينتحل الاعذار ويقول (لا ينبغي الاعتدال مع
الغتمص) وهو قول لا يصح في قضيتنا فنعم الوطني المحب لوطنه أنت وتعا
لبغائنا (سرور) حيث شيعك كعادته بليحي . . . ويسقط على ان هذه الفوضى

في الافكار والآراء سيأتي عليها زمان تصالح فيه وتجدد (فاما الزبد فيذهب
جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض)

الرسالة السادسة

✽ من ش... الى ن... ✽

عزيزتي ن...

كنت في رياضة خلوية مع بعض الاصدقاء وشقيقك حين وردتني
رسالتك وان سألتني . اذا رأيت في هذه الزهرة أجبته بالاختصار أنا قضيناها
في حديقة الحيوانات بالجيزة وقد زاد سرورنا وجود بعض العلماء ممن درسوا
المواليد الثلاثة الحيوان والنبات والمعدن درس حكيم معنا وهو شاب دمث
الاخلاق نجيب حُبت اليه الطبيعة الحية ودرسها وتطبيق اشائها على ما عنده
من الاصول التي يلقاها في الكتب وهو افضل ما يتخذه الانسان في باب تلقي
العلوم فكان دليلنا ومرشدنا يمشي أمامنا ويشرح لنا صنف كل حيوان وطير
وفصيلته ومن أى الانواع والاجناس هو فكانت لذتنا بذلك الدرس المفيد
مع مشاهدة الحديقة الغناء وزوارها لا يفوقها لذة بعكس ما كنا نرى عليه
حال كثيرين من المتفرجين التلاميذ وغيرهم من الشبان فانهم ما كانوا يظربون
الارؤية تلك الحيوانات الغريبة وسماع اصواتها ثم لا يدققون أو لا يكثرثون
لتلك المعلومات النافعة والتي لاجل التطبيق عليها انشئت حدائق الحيوانات وتربية

النبات في العالم التمدن ولكن العيب أراه في نظام التعليم الناقص عندنا فإنه قد حرم التلاميذ المصريين من دروس الأشياء النافعة بعكس الحال في الغرب حيث للمدارس عناية بمثل تلك الدروس فللمدارس الابتدائية دروسها السهلة من هذا القبيل ثم للمدارس الثانوية دروس أرقى في التاريخ الطبيعي ونحوه وهلم جرا فلماذا كنت آسف عندما اشاهد جهل شباننا وانصرافهم الى كل تافه من المناظر في الحديقة حينئذ لتشبثهم بالعرض دون الجوهر وفرحهم بالقشر دون اللباب

هذه قصة زهتي اليوم بالأيجاز ولقد فارقت رفاقي وشقيقك بالقرب من داري فلما وصلت اليها ناواني البواب كتابك فقضضته بالهف وقد عرفت خطك وصرت اطالع فيه وأنا صاعد السلم وفؤادي طافح سرورا واغترباطا بحبي وسعادتي وكتاب حبيبي اليّ وما تضمن من الأدب الغزير والفكر الراق والحب الخالص والثناء الوفير على والدتي مما أنت آيتها الانسة النبيلة القلب اكرم أهل له ولا غرو فالشيء من معدنه لا يستغرب على أنى لم أفق من لذتي بتلك التلاوة لرسالتك الا على صوت تلك الوالدة وهي واقفة لي بأعلى السلم تناديني بصوتها الرقيق

— أجتت يا ولدي أني كنت اليوم في مناقشة وجدال عنيف مع الآنسة ن ابنة ب باشا وشقيقة صديقك وتلميذك ر بك تماما لمناقشتنا السالفة عن النساء كما اخبرتك وقد ظهر لي يابني أنها فوق ما كنت اتصور وأصف لك علما وأدبا وأنها وان كانت من بنات اليوم في افكارها الا أنها لتفضل عندي الكثيرات في اخلاقها وكملها لاني الفيها تسكلم

بعقل وأدب ياليت الزمان يسمح لنا بمثلها حيلة لك يابني
فعلتني عندسماع هذه العبارة حمرة الحياء وخجل العاشقين حتى اضطربت
حواسي وسقطت رسالتك من يدي الى الارض فطأطأت هامتي فتناولتها
ويدي ترتجف وحالي يكاد ينفضح

دلائل الحب لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخلو من العبق
فنظرت الى أمي عند ذلك نظرة ملؤها الحنان وهي تبسم وكأنها ما قالت
لي ما قالت وفاجأتني بما فاجأتني به الا لمتحنى وتختبرني مع أني اكنتم حبي عنها
كما اكنتمه عن كل العالمين فتجلدت وقلت وأنا مطأطئ الرأس وعلى شفتي
ابتسامة غير القادر على النكران امام تلك الوالدة الشفوقة
— حبذا يا أماء لو كان ذلك

خملقت اليّ بعينين كبيرتين وكأنها تقول لي قد عرفت سر كما وسوف
أعمل لسعادتك وسعادتها وسوف أبذل جهدي لما ينيلكما مرغوبكما فأصبر
صبر الكرام وكن كما أنت وكما أريد مثالا للكمال والشهامة فكانت أممي
أنظر اليها وتنظر الي كأنها ملاك الطاهر يناجيني فيخشع له قلبي وهملت
عيناى بالدموع فلما رأته على تلك الحالة وتحققت من حالى غيرت عند ذلك
حديثها ثم أخذتني من يدي كالطفل وجعلت تمسح رأسي وتطيب خاطرى
وتناغيني مناغاة عائلية أعهدها منها منذ عهد الطفولة حين كانت تقصد ارضائى
بما تشتهى نفسى وتقر عيني فطار عند ذلك قلبي من الفرح وطابت نفسي وصررت
أطرب وامرح كالطفل الصغير

تطلين اليّ ان أصف لك ما شاهدته في تمثيل تلك الرواية الجديدة التي

شاهدت تمثيلها ليلة الاثنين الماضية في مسرح فاقول لك بالاختصار ان الرواية كانت قلباً وقلباً جميلة وان كان ينقص بعض الممثلين المهارة في تمثيل ادوارهم وعدم سطاوعة اميال الجمهور الأبله في قلب كل شئ الى الهزل المضحك ارضاء لخاطره حتى فيما يقتضى التأثير بالحزن أما ما كان بيديه ذلك الجمهور المتفرج فهو المضحك المبكي معاً من حيث الجهل بمواقع الكلام والاعتبار ان الجمهور عندنا يظن المراسح ليست مدارس تهذيب أخلاق الشعب وتعيده على الفضيلة وابعاده عن الرذيلة فلذلك يتخذها هزواً ولعباً يتخيلها أمكنة لهو وضحك ومغازلة نساء ومعاقرة خمر ليس الاثم ان مما زاد تأسفي وتحسرى كثرة اللغظ بين المتفرجين وقيام الشجار بين بعضهم والبعض ولا سيما في أعلى (التيارو) لدرجة استدعت تداخل البوليس لحفظ النظام وسوق المتشاجرين الى خارج المكان مما يدل دلالة واضحة على أنالم نزل بعبيدين عن معرفة الآداب الصحيحة العصرية وحفظ النظام وتكريم النفوس في مثل تلك الامكنة بل اننا نساق الى الشجار والخصام بالاسباب التافهة ولعب الخمر بالرؤس والحشيش بالادمغة خصوصاً بين زوار أعلى التيارو من الطبقة الدنيا غير المترية فيحتاج الامر الى حفظ النظام بالاعمال القسرية والضغط ويلها من حطة امام الاوروبيين الذين يحترمون المراسح وحفلاتها لانها مدارس للشعب بالحقيقة ان للخمر وما شاكلها من المعيبات واندفاعنا فيها ذلك الاندفاع الغريب المدهش كأننا ورثنا محبة الشرب والسكر عن آباءنا واتباع الشهوات عن أجدادنا وهم براء شهد الله من ذلك كله لحرمة قطعاً دينياً ذلك الاثر السي في فساد أخلاقنا وتماديها في الافعال القبيحة والامور السالبة للجمال والكمال

والمسببة فضلا عن ذلك لضياع الأموال والعقار فأدانا التي ورثناها ايتها
الآنسة الرشيدة كما تعلمين تساوى غيرها من الآداب عند الأمم الاخرى
الراقية ان لم اقل انها تفضلها وهي مبنية في كتابنا العزيز وسنة نبينا صلى الله عليه
وسلم ثم في كتب الادب والاخلاق والشعر المبنى على مكارم الاخلاق ومعالي
الامور فكل هذا الذي ورثناه من الذخائر حشوه كما تعلمين ايتها الحبيبة كلما
يكمل النفس ويباعد بها عن النقائص من منهيات ومحرمات وقد تناقها الخلف
عن السلف ولكن لست ادري ولا المنجم يدري ما الذي يدفع بنا الى مخالفتها
والاقدام على ما يئن منه مجتمعنا ويرزح الآن تحته من الرذائل تلك التي
تجاربها ايضا المنظمات الحديثة والآداب العصرية المنيمة فضلا عن انا نشاهد
من يأتي الشهوات من أفراد غيرنا من الأمم انما يأتيها باعتدال أيجوز في شرع
أو عرف ان يقتحم بعض الشبان لدينا الموبقات لدرجة ضياع الثالذ والطريف
من أموالهم في سبيل شهواتهم الفاسدة مما يعقبه السقوط والفقر؟ أليس
هذا من الجنون المحض الذي لأعلم له سبباً وراثياً ان صح ما يقال عن عوامل
الوراثة في الاخلاق؟ أيصح ان يكون (تفرنجنا) أبهظ مما عليه الافرنج انفسهم
ان كنا نريد التفرنج؟ ماهي المدنية أليست هي الترقى في الاخلاق والآداب
والعلوم والمعارف والاخذ باسباب الكمال؟ أليس قول القائل (لا يجوز
الحكم على كفاءة انسان بعظم صفاته ولكن بما يعمل من الاعمال مطابقاً لها
^(١) من الحقائق الراهنة في مدنيتنا وما نعمل؟ لا جرم ان هذا الحال لا بد
ان يلتفت اليه الشبان المصريون الذين يريدون حفظ كرامة جنسنا المصري

وعدم سقوطه بل احتقاره وافقاره في أعين الغربيين هذا هو الاستقلال الحقيقي قبل ان نبحث عن الاستقلال السياسي وقد يكون هذا أو يأتي على افضله اذا أحسننا ذلك

انا نرى بأم رأسنا الغربي يأتي ديارنا فقيراً معوزاً بل أقل منا علماً وفيها فيثري ونحن ندخل ميدان الحياة العملية فنفتقر

انا نشاهد شبان المسيحيين واليهود يأنف أكثرهم من اقتحام مثل هذه المواقف على الشكل الذي نجريه نحن ، يعملون لنوال الغبطة والسعادة والثراء بالجد والاجتهاد وشباننا حرسهم الله يأتون ضد ذلك في كل أعمالهم ، يمتقنون العمل ، يكرهون الشغل ، يزدرون الفضيلة ، يقدمون بالجرأة والوقاحة على اقتحام الرذائل ولتسمح لي سيدتي ان أقول لها ان هذا الحال قد تعدى أيضاً الى بعض النساء الغيبات الجاهلات فسنرن في طريق الرذيلة وتبيد الاموال فما هذه التعاسة الخائفة بنا معشر أبناء هذه الامة ما هذه المفارقات في الحياة الانسانية ! ألسنا معشر المسلمين مثل المسيحيين آداباً ؟ لماذا هم يعملون ونحن نمقت العمل ؟ لماذا هم يدبرون أموالهم احسن تديير ونحن نبدها شر تبيد ؟ لماذا يتهبون الفساد والتمادى في الشهوات ولا يقدمون عليها الا بقدر معلوم وحساب موزون ونحن نرى بيننا العجائب والغرائب من هذا القبيل

لنا كل يوم ساقط من الشبان في مهواته السحيقة وباب مقبول من أبواب البيوتات الرفيعة التي كان ينبغي ان يبنى الخلف لها كما بنى السلف حتى يكون للامة كل يوم مرتق في ذرى المجد والغنى والاعمال المشرفة للامة اذ الزمن زمن عمل وجد لا زمن لعب ولهو والا خسرنا أنفسنا وعزنا وضاعت

بلادنا وان في ذلك لعبرة للأولى الألباب

هذه الاحوال بل هذه المشاهدات لنا كل يوم مما يؤلم النفوس ويكلم
 الافئدة الحريصة على ترقية شأن هذه الامة وهذه البلاد وحفظ كرامة أهلها
 ومعين ثروتها بأيديهم واني لاسائل نفسي وأنا الضعيف بين الأقوياء ترى
 ماهي الاسباب التي تعمل فينا هذا العمل وتؤثر فينا ذلك التأثير السيء وتعكس
 حالنا وتسلب منا أموالنا أهو نظام البلاد الجديد المبني على الحرية ؟ أهو
 نقص نفوسنا عن الكمال الانساني ؟ أهو آت لنا من قبل الوراثة أو جهل
 جمهور الامة حتى اذا انفسح المجال أمام نفوسنا للعمل لم نصرف قوانا الا في
 الفاسد والتافه ولم نعرف الصالح من الطالح من الاحوال فتفسد علينا أسباب
 الحياة الراقية وسعادتها ؟ اني اترك الجواب على ذلك كله لفتنة قومي وهم
 المتعشقون العلم الناشدون بكل شفة ولسان الرقي والاستقلال ومحال ان يستقل
 الانسان في شؤونه العامة فيجيدها وهو لا يحسن ادارة شؤونه الخاصة ، محال
 ان نكون امة صحيحة ما لم يكن ثم تضامن بيننا وتحاب ولنا قوة الارادة وثبات
 العزيمة على كبح جماح نفوسنا واختيار الافضل من الاعمال والانفع وطاب
 الاقوم والاصالح في مناهج السلوك

فرذائلنا لا يمكن عزوها الا الينا وعيوبنا لا سبيل لنسبتها لاحد سوانا
 وان سبب سرعة ما يلحقنا منها مبني بالاكثر على سرعة ذكائنا مع الجهل
 وحب التقليد الاعمى ولقد قال الحكيم لابريار مامعناه (ان من الرذائل ما لا يمكن
 عزوه الى أحد بل هو مما يولد معنا ثم تقويه نحن بالعوائد ولكن هناك رذائل
 اخرى نقتبسها وان كانت غريبة اذ الانسان كثيراً ما يولد وليس فيه سوى

جرائم أخلاق فاضلة والكن المجريات والمعاملات كثيراً ما قد تخرجه عن أطواره بل عن طبيعته) وأراك أيتها الأئمة تقولين اننا لا جرم من هذا القبيل واننا ينبغي لنا الاتباه من غفلتنا حتى لا نقضى على أنفسنا بأنفسنا

الرسالة السابعة

— ❧ من ن... الى ش... ❧ —

عزيزي ش...

لقد تأثرت من رسالتك الاخيرة التي وردتني أمس تأثراً مزمجاً لنفسى وانه ليحزنني وأيم الشرف والاروة أن تكون هيئتنا الاجتماعية قد جمع أفرادها المتناقضات في الاخلاق والصفات فينأهم يتصفون بالذكاء ودمائة الاخلاق ورقتها والكرم الى اشباه ذلك نرى الكثيرين منا قد اتصفوا مع ذلك بالكثير من العيوب الاخلاقية التي تشين ولا تزين مما أطلق الالسنه بدمنا ورمينا بالنقائص وعدم الكفاءة وحب الشهوات والتخازل وليسمح لي عزيزي ان اطفل على فضله بسرد ماجاش بخاطري الضعيف عند مطالعة رسالته (واذا رميت أصابني سهمي)

ان الناظر في احوالنا الأدبية الاجتماعية يرى مخالفة جملة منها لما أمرنا به القرآن المجيد والسنة النبوية المطهرة من التحلي بالأداب والاتصاف بالصفات التي جاء بها الاسلام ومكارم الاخلاق التي بعث بها نبينا صلى الله عليه وسلم القائل

(انما بعثت لاتهم مكارم الاخلاق) وما الآداب العصرية الا نسخة من الآداب النبوية فنحن بتركنا هذه ونبدنا تلك واتباعنا الطرق المعوجة والأهواء الفاسدة من مثل الأثرة والكبر والحسد والغيبة والنميمة والغش والخديعة والكذب والفجور قد خرجنا ولاريب عن آدابنا الحديثة وانسلخنا كذلك عن آدابنا الموروثة ولولا القانون القائم وسيفه المسلول فوق الرؤوس يلمع أما كنا نأكل بعضنا بعضا؟ على ان ذلك القانون وان كان يحول على نوع ما بيننا وبين السقوط الهائل الا ان طالب الحياة الراقية والسعادة الحقيقية من الأمم الحية النشيطة لا بد له من آداب نفسية تكون هي اليزان الحقيقي في سير الاعمال وسيرة الناس حتى لا يحتاج المرء الى ان يساق الى الحق في الشؤون كلها بعضا القانون ولا يخاف الا منه في حين ان عصا القانون لا يساق بها الا عبيد الرذائل المجردين من الصفات الوازنة تلك الصفات الكريمة من الوازع النفسى الخلقى التى هي مشير الاحرار ورائد الاجماد وما كنا وما كان اجدادنا من المصريين الاقدمين والعرب الاكبرمين الا من أحرار الناس وأمجادهم شهد الله

أواه يا عزيزى ماذا أقول لك وماذا أصف من حال قوم كثير ميلهم الى السفاسف ونأوا بالجانب عن الكمالات والحقائق . اذا قال قائل كلمة حق جهوه ونبدوه واذا عادوا انسانا في مبدأ أو فكر شتموه وسبوه وتربصوا به الدوائر ونالوا منه منالا فاحشا تقف حياله النفوس الأبية التى تترفع عن الدنياى متألمة متأففة مطأطئة الهام حياء وخجلا مما ترى وتسمع واذا مراد انسان غبية انسان أو قال كلمة حق وأنصاف بهتوه بفارغ الكلام

وسخيف الرأى هذا في العموميات وأما في الخصوصيات فقد يجر الضغن والعداء أقواما الى نصب المكائد ودس الدسائس وعمل كل حيلة ووسيلة لايقاع المغضوب عليه في الضرر وإبطال حقه أو اغتياله أو اتلافه وهذا نراه مجسما في الريف بين أولئك الفلاحين ثم بين العمال وأرباب الصناعات الواحدة والشؤون المتداخلة في الحقوق المشتركة بلا اعتداد بجمرة أدب أو وخز ضمير أو خشية الله الرقيب على العباد فمن هنا تكثر الجنايات والمشاكل والمشاحنات والقضايا وانه يحزننى ان أشير الى ما نقرأه كل يوم في الصحف عن الجرائم والفظائع والمنكرات مما يدل على استفحال خطب الفساد في النفوس وترعزع الامن العام من جرائمه وهو ما ينبغي بذل الهمة لاستئصال شأفته بكل الوسائل الصحيحة حتى تستريح الامة من عاره وتبطل حجة القائلين بدم كفاءة المصرى أى نقصه عن الكمال فى اسباب الحياة وحالتنا فى خلق الافك والبهتان واستعمال الكذب اشهر من نار على علم مع ان الكذب منهى عنه اشد النهي فى شرعنا كما ان الصدق ممدوح مثاب عليه . سألت السيدة عائشة رضى الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم « بم يعرف المؤمن » فقال « بوقار دولين كلامه وصدق حديثه » وقال ذلك الامين المأمون « اياكم والكذب فان الكذب يهدى الى الفجور والتفجور يهدى الى النار وتحروا الصدق فان الصدق يهدى الى البر والبر يهدى الى الجنة » وقد جعل فى حكمة نبوية اخرى من صفة المؤمن ما معناه « انه اذا عاهد وفى واذا اؤتمن لم يخن واذا حدث لم يكذب » تلك هي أيها الحبيب حكم لنا قديمة وقد لاكتها الالسن من قديم الزمان وورثناها عن أجدادنا متسلسة الرواية محترمة

اللفظ فهل نحن عاملون بها موفون بعهد الله فيها؟ اني أكل الجواب الى فطنتك ان العجب والكبر من آفاتنا المستحكمة في بعض النفوس فقد لا ترى انساناً أوتي نصيباً من الدنيا أو الجاه أو امرأة نالت نعمة الا شمخت بأنفها واستعلت على أترابها فتثور من ثمة كوا من الضغائن والاحقاد والحسد في النفوس في حين ان التواضع والادب ولين الجانب من غير تصغير للنفس ليس أفيد منه وان الفخر كل الفخر والشرف والسؤدد انما هو أمر تقسي قد يعظم صاحبه ويشرف به بالرغم منه فالتودد والتحبب الى الناس بحسب ما تقتضيه ظروف الاحوال من قبيل بس الانسان لكل حال لبوسها ومخاطبة الناس على قدر عقولهم ذلك الذي أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم به

لترك هذا وذاك وارجع الى المعاملات اليومية في البيع والشراء في الاسواق فكم نرى من غبن وخداع وتظيف كيل!!! أهذا ما أمرنا به ديننا؟ أهذا ما جاءتنا به آداب الغرب؟ لعمرى انا جهلنا محجة الهدى والصواب وان ما نرى من عدم نجاحنا ليرجع في الجملة الى امثال هذه النقائص والعيوب ولكن نفوس أهل تلك الطبقة خصوصاً للجهل والغباوة غباوة العادات التي يمدى فيها الاجرب السليم لا تفقه ذلك ولا تدرك مساويه ومغابه السيئة وعلى ذكر الجهل اقول لك أيها العزيز لو كان لبلادنا عناية بالمعارف والآداب الضرورية لقل بيننا امثال تلكم الغباوات المنقصة لحظ تجارنا وباعتنا مما لا تنفنى به تجاراتهم ولراعوا الاذواق المروجة لسلمهم وبضاعاتهم وتضافروا على انشاء الشركات وما قلة الاقبال عليهم الا من هذا القبيل أى رداءة الصنف وقبح السبك الى اشباه ذلك مما لا يخفى على خبير بالاحوال مثلك

اننا ننشد الرقي ولكن لجمود نفوسنا على عاداتها التي لا تقيد ولا تصالح في هذا الزمان نجهد الطريق فلذلك نتفهم والا فأن التصانيف النافعة المجددة لمجد الاسلام وأين الاسفار الادبية المرقية للعواطف العاملة على التأليف بين القلوب وتهذيب الاخلاق وتعليم الامة مالها من الحقوق وما عليها من الواجبات؟ ثم أين الرحمة والشفقة واصطناع المعروف واعمال البر والاحسان المناسبة لروح الزمان؟ أين الكتب في آداب السلوك وحسن المعاشرة؟ ثم أين آخر الغيرة والنخوة الاسلامية والشمم العربي؟ لاجرم اننا أيها الحبيب واهمون في تقدمنا واهمون في نيل استقلالنا واهمون في الوطنية ضاربون فيها بسهم غير صائب

الوطنية الحققة توجب على الامة التكاتف والتعاطف ثم العمل لخير النفس والمجموع بقدر الامكان فنجاح أى وطنى مفيد للوطن ، و احياء الصناعة الاهلية النافعة فى صالح الوطن ، وترويج التجارة الوطنية فى خير الوطن ، ومراعاة الآداب العمومية فى فائدة الوطن ، وتنظيم اعمال البر والاحسان ليس انفع منه لهذا الوطن ، وكل عمل يقوم به العمال الوطنيون والموظفون المصريون بالجد والاجتهاد وعدم المحاباة فى تأدية الواجبات والسهر على المصلحة العامة من هذا القبيل فيه مفخرة الوطن وعز الوطن وبالجملة فكل الاعمال الصالحة التى تتمتع بها الامة أفراداً وجماعات فى خير الوطن وان الوهم يا عزيزى كما قال أحد الحكماء المتقدمين « فوفنارج » (Vauvenargues) لهو ظلام العقول وليلها وكيد نقائها وطهرها

ان الرحمة التى هي فوق القانون أى فى النفوس نفوس أبناء الشعب

حيال بعضهم البعض — والراحمون يرحمهم الرحمن — غير متوفرة على التمام
بالأسف هنا للاوهام اللاحقة وقوة الارتباط مثلها وما دام الكثير منا يعمل
بالآثرة وحب الذات ولا ينقدح له ذهن ولا تتفق له قريحة ولا يبرز في
ميدان هيئتنا الا والكبر شعاره والصلف رائده وشبه حب الغش والخداع
مناره جباً بالنفع الذاتي الحثير في كل ما يأتي به ويقوم بعمله من الأعمال
والمعاملات فمن أين يأتي الرقي وتحفظ الكرامة !!

ان هناك يا عزيزي من الرذائل الفاشية ما لا عديد له فمن كبر و صلف
وطمع وغش وخداع وكذب وتقليق ونميمة وبغضاء وحسد وغدر وكسل
وتواكل وجهل مع ذلك وغباوة فكل هذا يا عزيزي اذا أردنا السعادة سعادة
الحياة الفردية والقومية وجب علينا وتحتم مناهضته واقتلاع جذور أدوائه
من نفوسنا واطراح أمراضه العالقة بها حتى تكتسب الأخلاق الفاضلة
أضداد هذه من مثل الاستقامة والنشاط والصدق والجد والعدل والتعاقد
والرحمة الخ بذلك لعمرى نال امثنا الرقي الحقيقي والسعادة الخالدة لا أقول
ذلك لكي تكون كل النفوس على ماتشتهي نفس الحكيم من الصفات الكاملة
كلا ثم كلا لان ذلك محال وانما لاجل ان تغلب الصفات الفاضلة الصفات
المفضولة وتنمو وتتأصل جراثيمها في النفوس كما كان عليه آباؤنا بل أفضل لاننا
نجمع بين مدينتين شرقية تالدة وغربية طريفة ولمثل هذا فيعمل العاملون
وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وما كانت أفضل النصائح وأجمل الحكم بالمفيدة
كما قلت أنت في أحد دروسك لنا نقلا عن بعض الحكماء ممن تعشق اقوالهم
إلا بلزاوله والخبر .

أما التماهى فى الشهوات الرديئة من شرب الخمر واقتحام الموبقات الى اشباه ذلك فانى لا علم لى به ولا أدرى منه شيئاً لأن أبى بحمد الله وأخى يكرهان ذلك ويمقتانه مقتاً يحمدان عليه وأنت أيها الحبيب على شاكتهما . على انى رأيت بعينى تعدى شر ذلك وعدواه الى بعض النساء ممن لحقهن خدعة المدينة الحديثة وزخارفها فقد شاهدت بعضهن يشربن الخمر ام الخبائث فى بعض حفلات الاعراس فسكرون وظهرت معائب نفوسهن فصرن يضحكن ويقهقهن بالصوت العالى ويشرن من النوافذ الى الرجال المدعويين حتى اضطر رب الحفلة الى الصعود الى دار الحريم وجعل ينبه بالصوت العالى عليهم بأن «يلزم من الادب والا اضطر لطردهن» وجعلت السيدة الفاضلة قرينته تسكته وتريه انهن من نساء ارباب الحثيات وتهدى من غضبه وهو — وله الحق لا يزداد الا تقريعاً وتأنيباً لهن ولكن لا حياة لمن تنادى وقد لعبت الخمرة بالرؤوس ، لا ريب ان الخمر شر آفة منيت بها البلاد فى دورها الحديث وهى فى مقدمة المفاسد التى يجب على الجمهور تجنبها لما فيها من الاضرار الجسيمة الحسية والمعنوية ولا غرو فالخمر أم الخبائث كما أن الميسر داعية الخراب

هذه جملة ساقى حديثك لى عن مثلها فى رسالتك الاخيرة الى كتابتها فاعذرني فى تطرفى واعذرني فى حكمى على أبناء الوطن العزيز وأنت تعلم انى من أحرص الناس على حبي لهم وان ما خطه هذا القلم لا قصد لى به سوى الاصلاح وان كانت رسالتى خاصة أى غير مطلع عليها سواك أيها الحبيب ان اطلاع السيدة والدتك على ما بيننا واستنزاهما الاسرار من قلبك وعطفها مع ذلك علينا ذلك العطف الذى ظهر لى أنا أيضاً منها لما يوجب الفرح

واطمئنان البال ولما يهيء لنا أسباب الخير العتيد ولا عجب فهي الوالدة البارة
والسيدة الحكيمة أعانها الله على ما فيه هئنا وغبطنا

الرسالة الثامنة

— من ن... الى ش... —

عزيزى ش.....

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن
تباً للزمان وغدره ، وتمسا لسوء الطالع وخيبة الرجاء وانعكاس الآمال
ما كنت أحسب أيها الحبيب ان الايام تقطع فى القريب العاجل فضلا عن
الحياة بأكلها جبل ودنا المتصل وأملنا فى المستقبل . ما كنت أظن الدهر خوؤنا
لهذه الدرجة فينصب لنا العداً ويعكر علينا الصفاء ولكن الزمان بالعاشقين
خصوصاً غدار والدهر بالناس قلب يحكم حكمه الجائر بالفراق بين المحبين
ويشتت الشمل شمل العاشقين ويضطرم الى مالا يريدون ويأتى لهم بما لم
يكونوا يحتسبون ...

وبيان ما ألمت اليه وأجملت اكتب اليك أيها الحبيب حوادثه المؤلمة
وأنا بين الموت والحياة — وباليها كانت القاضية — ذلك ان من عادتي منذ
تراسلنا بالغرام انى بعد الانتهاء من دروسنا وسهرتنا وسمرنا كما تعلم أذهب
توآلى غرقتى فاغير ملابسى وأضئ مصباحى الكهربائى على مكنتى الخصوصى

بعد أن أكون قد أغلقت على بابي وهناك أجعل رسائلك سميري قبل النوم ثم اكتب اليك رسائل بلا رقيب غير الله المطلع على السرائر وما تحوى القلوب قلوب العاشقين من لواعج أشواق وآمال . ولحرضي على تلك الرسائل الكريمة أو كما أشرت على أنت به أني جمعتها في كراسة وقد أربت على الثلاثين رسالة تضمنت فوق سفر حبنا أفكاراً لنا وآراء في الكثير من الشؤون الادبية الاجتماعية لامتنا المصرية العزيزة فكنت اذا خلوت تلك الخلوة أنثرها أممي وقد أضحجت روضة غناء يابنة الثمر فاطلع ماشئت ان اطالع فيها وأثفكها ماشئت ان أتفكها واذا كان ثم رسالة جديدة ألحقتها بها يليها ردى اليك عليها تلك هي أيها العزيز حالي منذ أن رسالتك مجي ورسالتى ولقد كانت والدتي كثيراً ما تأتي الى وأنا اكتب اليك رسائل وقد نسيت الباب مفتوحاً فاضطرب في أمرى غير اني سرعان ما امتلك نفسى لعلمى بجهلها القراءة والكتابة كأكثر نساء الجيل الماضى فلذلك كان لا يزيد سؤالها عن « ماذا تصنعين يابنية وماذا تكتسبين أو ما كفاك كتابة وقراءة مع المعلم وقد اشركناك مع أخيك في دورسه » فكنت أريها اني انما أكتب مذكرات بالدروس أو انى اكتب رسائل لبعض صديقاتى وان ما ترى من الرسائل امى انما هو من هذا القبيل مع انى كنت لا اعير كتب صديقاتى سوى نظرة خفيفة ثم اطرحتها في سلة المهملات لثفاهة مادتها وسخافة افكارها وما كنت لارد عليها الا بالنفيد الموجز حتى لا يضيع على وقتى في مراسلتك المفيدة الشاغلة مع ذلك قلبي ولبى

والظاهر ان والدى سامحه الله كان يرتاب في شأننا وانه كان ولا ريب

يلمح منا ونحن جالسون أنك تسارقتي النظر واسارقتك الاحظات فدخله
 بعض الشك من جهة حبنا ونحن لا ندري حتى انه كثيراً ما كلم والدتي امام
 تلك الخادمة الامينة التي اخترناها لامانتها سفيراً بيننا توصل اليك رسائلي
 وتأتيني منك برسائلك (كما اخبرتني هي بذلك كله ولكن بالاسف بعد ان
 سبق السيف العذل) عما يرغب من حجبني عنك وابعادك عني فردته امي
 عن فكره وأثنته مراراً عن عزمه مذكرة له بأدبك واحتشامك و « ان
 الحصاة التي القاك فيها وتلقاني نكون جميعاً وهو كثيراً ما يكون معنا فلا
 داعي اذاً للخوف . . . »

أواه أيخافون علىّ انا ؟ أيمنع المرء ويحميه من النقائص سوى نفسه ؟
 لا جرم ان ابي واهم في افكاره مخطي في نظره في ابنته ولو علم بحبنا الطاهر
 لا عتذر عما فعل ولا عان على ما فيه خيرنا ولكن هي العادات الرديئة تحكم
 على غير ما اعتادت بالشر والتبجح .

ولما لم ينل من امي ما رغباً سألته الله صرف همته الى استخلاص الاسرار
 من تلك الخادمة الامنية فلم تجبه الا بكل ما يرضى ، على ان تلك الخادمة قد
 اخطأت الخطأ الجمل في كونها لم تخبرني بهذا كله الا بعد ان حصل ما حصل مما
 سأقصه عليك .

انا لست ادري لكراهة ابي لك معنى ولا لبغضه اياك سبباً ، ألكونه
 باشا كبير وانت معلم صغير ؟ ألكونه يملك الاطيان والعقار وانت شاب
 متوسط الحال أنسى أنك في اخلاقك وشمائلك وآداب نفسك ومعارفك
 تفضل الكثيرين من الشبان ابناء كبار الذوات الذين لا يرضيهم سوى الترف

والبدخ واللعب والهوى وضياع الاموال في الفساد؟ تلك افكار جاشت بالخاطر
والدمع يسيل من الآماق والقلب يكاد ينفطر من الهموم والاحزان على
ما فات . . . لكن الاسباب التي بنى عليها والذى كراحتك ومخالفة ضميره
في شأنى وشأنك لتلك الدرجة غير كافية لان تحمل الرجل الحر الشمائل ، تحمل
الوالد الشفوق على مثل ما اتى من الانتقام بهذا الشكل الوحشى كما ترى فيما
افصله الآن وأنا فى بأسى وقنوطى وهى وعمى اكاد أجن وأضرع الى
الله تعالى أن يخلصني من هذه الحياة المريرة التي سرعان ما قلبت لى الايام
فيها ظهر الجن ونصبت لي شرك العداة فى حبي الطاهر لك وما كنت علم
الله وشهدت كتي وكتبك بالخاطئة ولا أنت بالذى قد اتي امرأاً إداً وان
كانوا لم يشاؤوا ان يفهموا ذلك ولم يريدوا أن يحكموا فينا بالعدل وينصفونا
بسبب ما تمكن فى نفوسهم من الكراهة واستحكمت فيها من الاستمجان لما أقدمنا
عليه تبعاً لما تحكم به العادات العسوفة المتخبطة

حدث ليلة أمس بعد أن سطرت اليك آخر رسالة على الكيفية التي
شرحتها آنفا انى تعبت فتمت على المكتب والقلم بيدى والمصباح مضاء والباب
باب الغرفة وبالإسف غير مرتج ان جاء والذى ذلك القاسى القلب ساحه
الله واطلع فى الغرفة فرآني على تلك الحال التي وصفت واني نائمة فانهز فرصة
ذلك ودخل الغرفة باحتراس وجعل وأنا مستغرقة فى النوم يقلب فى الاوراق
التي أمانى . . . أواه يا عزيزى ماذا أقول لك . . . انه اطلع على ذلك السر
المكنون الذى لا يعلم به غيرنا وخالقنا تعالى . . . انه قرأ تلك المجموعة الكريمة
من رسائل حبنا الطاهر النقي ولكنه لم يشفق على قلبي الكسير ولم يراع الله فى

هو انا العذرى لانه ما كاد يأتى على آخر تلك الرسائل ويعلم مغزاهما حتى تطاير الشر من عينيه وثار ثأر الغضب في نفسه فانقض على بعنف وشدة وهو ممسك بيده تلك المجموعة و آخر رسالة منك فضرب على كتفى بعنف فاستيقظت من النوم فزعة مرعوبة فلما تحققت منه ورأيت تلك الرسائل بيده صرخت صرخة من فؤاد مجروح دوى لها كل البيت واستيقظت منها امى والخدم فاسرعت امى الى غرفتى لتتظر ما الذى دهانى أما أبى فلم يزد عن قوله « ما هذا يا فاجرة ، ما هذا يا ملعونة » فقلت مدافعه عن نفسى بشمهم وقد شجعتى دخول امى علينا « هذا يا والدى حب طاهر لا غبار عليه وانت قد قرأت ولا ريب مجموعة رسائله وعامت بسره فاصنع ما يرضى ذمتك » فاحتد غضبه من جوابى فرفع يده فى الهواء ولطمنى على خدى لطمة قوية اطارت لى وهو يقول « أنتن تعرفن هذا الحب »

أما انا فسقطت فى الحال تحت اقدامه مغشياً على ولم أحر جواباً على ما أتذكر غير جملة واحدة قلها مستغيثة ضارعة « رحماك يا الهى ، رحماك يا أبى ، رحماك يا امه » وجعل الدم يسيل من فى وانفى من قوة تلك اللطمه أو من مصادمة وجهى للارض بعنف حين سقطت لا أعى

وعند ما افقت من غشيتى وجدت نفسى فى فراشى وأمى ، أمى تلك الوالدة الشفوقة على جالسة تحت اقدامى وهى تبكى بالدموع الغزار وتنظر الى بعينين ملؤهما الحنان وتضع يدها على قلبى فلما رأتنى قد استيقظت وفتحت عينى انظر اليها وأتأمل فى حالتى وما دهانى كفكفت دموعها وقطبت حاجبها وعبدت فى وجهى لتظهر لى كدرها واستياءها من صنيعى أو ذنبى وخطيئتى

في اعتبارها ثم قالت لي بصوت جاف « أصحوت » قلت « نعم يا اماه رحماك
ردوا على رسائل حبيبي التي سلبتمونيها ولم تنصفوا في حكمكم علينا فقالت تبهم
وخشونة لم اعهد لها فيها من قبل « تعسا لك يا شقية أما تستحي ، أما كفاك
ما جلبت علينا وعلى نفسك من العار والشنار بمراسلتك ذلك الفتى الرديء
الذميم الذي ائتمناه فخان حتى تطالبى بوقاحة ان نرد اليك مجموعة عارك مع ذلك...
فقلت وانا اتنفس الصعداء وقد تذكرت شمائلك الغر الحسان وصفاتك الجميلة

التي طالما كانت امي تثني بها عليك واتقلا بها السريع بمجرد علمها بوقوع الحب بيننا
— بالله عليك يا اماه لا تخالني ضميرك الحر النقي وتقولى هذا القول
الكاذب ، انه والله لفتى كريم الخيم طاهر الاخلاق والذليل لم يأت بريبة قط
واني وحق الشرف لأحبه اضعاف ما يحبني ولا عار في الحب لو كنتم تفقهون
ولا شنار وبما انكم قد عرفتم ما بيننا واطلعت على اسرارنا فلا داعي اذاً لهجر
القول وقبيح الكلام مما يؤلمني ويوجع قلبي وانك أيتها الوالدة الشفوقة
لترتاحين وتعطين لو أنت رحمت قلوبنا واشفقت علينا . . . »

فأطرقت امي برأسها الى الارض ساعة وهي تفكر في الامر وغشيتني
انا موجة من بحار الافكار تقذف بي تارة الى ساحل الامل واخرى الى لجة اليأس
والخوف خوف اباها آه يا عزيزي لو نظرت الى امي والى حين دفع بها تيار
العادة وتوهم العار في مثل حينا بالحمل على الفاشى من امور الحب الفاسد في
هذا الزمان فرفت طرفها ونظرت الى نظرة وحشية بمد ذلك الصمت الطويل
كدت أذوب منها وجملا ثم قالت بصوت أجش تتخاله علامات الغضب والكدر
— انك مغرورة في حبك وتعلقك أو تعلق ذلك الفتى الغر بمجال الآمال

الكاذبة هو والدةه ولقد تذكرت الآن خداعها لي مرة لتجس نبضى
 فيما يريد ابنها ، أنه يستحيل علينا ان نزوجك منه خصوصا بعد أن أتيتما
 ما أتيتما واقترفتما ما اقترفتما مما لا تسمح لنا به عادتنا ولقد اقسم أبوك الليلة
 وهو يحرق الأرم من الغيظ أنه مزوجك في هذا الاسبوع ببن د... باشا
 وقد طلبك منه مراراً وكان لا يعجبه بالرغم من ثروته الواسعة لفساد سلوكه
 فلذلك كان يطاوله ولكن الآن لا أراه الا عاقداً له عليك من غده وقد
 أمرنى بالاستعداد لذلك تشفياً وتعجيلاً لأمرك»

فلما سمعت هذا الكلام طار عقلى واسودت الدنيا فى وجهى وكنت
 اعرف ذلك الفتى وهو جارنا واسمع عن فساد اخلاقه فهمضت من فراشى بسرعة
 وقد وقف شعر رأسى وتهددت اطرافه بلا انتظام فركعت أمام أمى وغيناى
 مغرورقتان بالدمع وأنا اقول لها بالخضوع والضرعة

— حنايك يا أماه ان عملكم هذا وحشى تأباه العواطف الكريمة
 والشفقة الوالدية فبالله عليكم لا تكونوا سبب شقاء ابنتكم وبلاء أيامها ،
 لا تحرموا عاشقين تحابا حبا خالصاً بنى على آمال فى الحياة كريمة ، ما الذى
 يضر يا أماه لو زوجتمونى بمن أحببته واحبنى ولقد رأيت من فضلا عن ذلك
 ما يسر الخواطر ويشرح الصدور أدباً وكمالاً فى السلوك والمعاشرة فى كل
 المدة التى عاشرنا فيها وقد رأيت أنت من والدةه كذلك سيده فاضلة وامرأة
 حكيمة ؟ ألا تحبون السعادة لى والهناء ؟ أنودون ان اشقى مع من اخترتموه
 لى وأنا لا احبه ولا احترمه وأنت قبل سواك تعرفين قبح سيرته ومهما يكن
 الحال فانكم لو اجبرتمونى على الاقتران به فان قلبى لا يكون له بل يكون لمن

أحبه ذلك الحب الصحيح . . .
أما أمى فبالرغم من تضرعى وتوسلى إليها جعلت تنظر الى شزراً
وهي تقول :

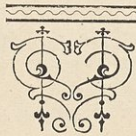
بخج هذه هي احدى ماثر التربية الجديدة تربية البنات وتعليمهن يتبعجن
ويعشقن ويراسن الرجال بالأمور الفاسدة « قلت « كلا يا أماه انى لم آت
أمراً إداً وهذه كتبي تنطق عليكم بالحق وتشهد لى ولا أريد الآن غير ماهو
بالحقيقة حق للفتيات الكبيرات امثالى « فقالت وقد ازداد غضبها وحنقها
« اسكتى يا خبيثة أما كفالك أنك قد فضحتنا بين الخدم وعند ذلك الفتى الغر
حتى تطلي بوقاحة ما ليس لك بحق من الاقتران بمن خدعك تمليقه ودهاؤه
طمعاً بالنال وكان سبب عارنا وأنك لا تعرفين أكثر منا وسوف تنسينه وتغبطين
مع زوجك الذى اخترناه لك وقد انصلح حاله على ما تحققت أما هذا الحب
الذى تدعيه — وما هى الا أمور صغار — فميه الخزى علينا والعار « قلت
كلا لا عار فى الحب ولا خزي فى الزواج به وأنه لنعم الموجب لحسن الارتباط
والتأديم « فقالت بجدة « انا لا نعرف حباً طاهراً ولا غير طاهر ومن اكمل
الآداب عندنا الانصياع لأمر الوالدين وقد اقسم أبوك بان يزوجك بمن
شاء فى هذا الاسبوع رضيت أو لم ترضى «

عند ذلك يئست وتحققت ان هؤلاء القوم قد جمدت نفوسهم على
العادات وقست قلوبهم فهي كالحجارة أو اشد قسوة ففقت من مكانى الذى
كنت راكعة فيه أمام امي وتراجعت الى الوراء وأنا كسيرة القلب حزينة
النواد ولزمت الصمت والبكاء وجعلت أقول فى سرى « ليصنعوا ما شاؤا

فلأصبرن على أحكام القضاء « على أنى لم ألبث ان عرّتى ذكرى حبك وأيام
اجتماعاتنا اللذيذة الماضية وأحلامنا وآمالنا فى المستقبل فاجهشت عند ذلك بالبكاء
المرثم ارتيمت على فراشى خائرة القوى وأنا أقول لأمى « أنكم ظالمون أنكم
ظالمون ومهما صنعتم بي فان قلبى لا يحب الا من ارتضى فاذا ما فرقتم بين جسمينا
فان روحينا لتتاجيان على القرب والبعد » ثم انشدت قول الشاعر

سبق القضاء بانى لك عاشق حتى الممات فأين منك مذاهبي

فلما سمعت امى منى هذا المقال قامت مسرعة وهي غضبي فخرجت
وأغلقت الباب علىّ بشدة ارتجت لها أركان البيت وهي تشتم وتلعن وتتوعد
فلما تحققت يا عزيزى انه القضاء بالفراق ولا مرد له جمعت قواى ونزلت الى
مكتبي فخررت على عجل هذه الرسالة لأجعلها الأخريرة اليك أعلمك فيها
بجالي وأودعك وأستودعك مع ذلك قلبى الى يوم تلقى الله وليس علينا شاهد
بذنب فى حبنا وغرامنا سوى ما سطرته أيدينا من رسائله وما حوت شهد
الله تعالى غير الأدب والعبرة والكمال والحكمة .



القصة الثانية

من الفقر الى الغنى

— ❖ قصة أدبية وموعظة اقتصادية ❖ —

كلمة

وضعت هذه الرواية الصغيرة ولم أخرج فيما حوت من الوصف عن حد المختصر المفيد ولم أجعل حوادثها المخترعة كذلك بالغريبة المدهشة فهي وان كانت قد تنقصها براعة القصصي الماهر في صوغ تلك الزخارف إلا أنها بالحقيقة جديرة بمطالعة أبناء الشبيبة خصوصاً لما تضمنت من الارشادات الاقتصادية وحوث من النصائح الاجتماعية
وكم أبصرت من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختياري

الفصل الاول

اذا كنت تطلب عزاً فأدرِّعْ تبعاً أو فارض بالذل واختر راحة البدن في ضحوة يوم من أيام شهر مسرى القبلي عام ١٥٩٤ الموافق لشهر أغسطس سنة ١٨٧٨ ميلادية — وقد كان النيل عالياً والفيضان مرتفعاً جداً واخرج الحكام في الأقاليم المصرية الاهالى الى عمليات العونة والسخررة للمحافظة

على الجسور وسدود النيل خشية الغرق واستعمل العمد و « القواسة » أعوان
 المأمورين والمهندسين كل فظاظلة و غاظطة في سوق الفلاحين سوقاً عنيفاً
 كالانعام الى العمل بأدواتهم — اقلعت من الصعيد سفينة شراعية من سفن
 النيل التجارية تحمل أرزاقاً وسفاراً وكانت وجهتها القاهرة فالاقليم البحرية
 وكانت هذه السفينة من سفن النيل العادية ، بسيطة في تركيبها وشرعها
 قديمة في عهدها وصنعها ، قدر باطنها وظاهرها ، زرية جملة في شكلها وهيئتها
 وكانت لرجل من أهالى اسنا يقال له « الرئيس ابراهيم » يعمل في كار الملاحة
 النيلية بين اسوان وسواحل البحر الابيض المتوسط حيث ينتهي النيل عن
 أبيه وجده ، وكان معه اثنان من ولده يتعاطيان مهنته ويعاونانه في تعويم
 سفينته وتسييرها تارة بالشرع وتارة بالمجازيف وآونة بشدها وجريها بالحبال
 وهو ما يسمونه في اصطلاح النوتية « جر اللبان » وذلك عند ما تكون الريح
 ساكنة والنيل المبارك رهواً .

وكانت السفينة تحمل في هذه السفرة قحماً وعدساً وتجر وراءها «رمثاً»
 مصنوعاً من جذوع النخل أو الدوم ومحملاً شيئاً كثيراً من الجرار القخارية
 المعروفة « بالبلاص » موضوعة بعضها فوق بعض بمهارة واتقان رأسها الى
 أسفل وأسفلها الى أعلى ومشدودة بحبال اللبف شداً محكمًا .

وكان ركاب السفينة بضعة عشر شخصاً رجالاً ونساءً ووجهة بعضهم
 القاهرة وبعضهم الاقالم البحرية وقد كانت السفينة في مجراها ومرساها
 تلقى الصعاب من رجال « عوائد السفن » اذ ذاك وعمال التفتيش على الملح
 ونحوه من مغارم ذلك العهد ومظالمه ولصوص النيل أو شحاذوه الذين كانوا

يتصدون للسفن النازلة والصاعدة على ضفاف النيل البعيدة عن المرافى فيلحقونها
سباحة أو على الزوارق يستجدون ركابها أو يحتظفون مما تحمل من سلع ومتاع
وكان بين ركاب هذه السفينة رجل وامرأته من فقراء الوجه القبلى
خرجا هارين من بلدهما بجوار مدينة جرجا من شدة ما قاسياه من ظلم عمدتها
وجوره عليهما واستئثاره باراداتهما وتسخيره الرجل فى زراعته والمرأة فى
داره بلا اجرة الا القوت الضرورى التافه فضلا عن أذنه البليغة وعقابه لهما
بالضرب والشتم على أقل هفوة تبدو منهما حتى ملا الحياة وزهقت روحهما
وصمما على الهجرة وأزمعا النأى عن الاوطان ولسان حالهما يقول :

وما ربع القطيعة لي ربع ولا نادى الاذى منى بنادى

فانتهزا فرصة خروج ذلك الطاغية مع العمال الى عمليات السخرة والعونة
وخفارة النيل وفرا طالبين النجاة لا يلويان على شىء ولا يحملان من حطام
الدنيا سوى ما عليهما من الثياب البالية ومخللة فيها بعض أمتعة تافهة وكسرات
من الخبز المجفف والبصل وركبا هذه السفينة من سوهاج وقد عطف عليهما
صاحبها الرئيس ابراهيم لفقريهما وحملهما على الجارية بلا مقابل براً بالانسانية
وحباً بوجه الله الكريم وكانا فى حالة من البؤس والشقاء يرق لها الجمود،
كان الرجل شاباً لا يتجاوز الثلاثين من عمره والمرأة تقرب منه سنناً ولكنهما
لهزلهما وضعفهما كان الناظر اليهما لا يخالهما الا فى الاربعين أو الخمسين من
سنهما، وكان لهما طفل رضيع تحمله المرأة على عاتقها وهو مثلهما فى النحول
والشحوب ويزيد عليهما بالبكاء والصراخ لضعفه عن الصبر على مضض الجوع
من قلة الرضاع

وكان الرجل — واسمه يوسف سعد — على شيء من معرفة القراءة والكتابة فكان يفتح مصحفه يقرأ فيه لركاب السفينة بالصوت الجهورى الحسن والمرأة واسمها فاطمة تطبخ لهم الطعام وقد قل صراخ ابنها لشبعه وريه مما حجب فيهما ركاب السفينة واصحابها بمدة السفر

وظلت السفينة تشق عباب النيل بركابها وهم في اتم صفاء واهناً عيش وقد علت المياه بلونها العسجدى وزحفت بجيوشها الجرارة حتى كادت تكتسح الشواطىء والجسور وتلأماً ما بين الجبلين الشرقى والغربى بالرغم مما اتخذ من الاحتياطات لصد هجماتها المتوالية وزحفاتها المتواصلة على البلاد

ولله مجرى النيل فيها اذ الصبا ارتنابها في سيرها عسكرياً بجرا
فشط يهز السمهرية ذبلاً ونهر يهز البيض هندية بتر
اذا مدحاكى الورد غصاً وان صفا حكي ماءه لونا ولم يعده بسرا

وكان ركاب السفينة لارتفاع مياه النهر عن مستوى الوادى يرون القرى ويشاهدون الدساكر والجسور ومن عليها من الخفراء والعمال وقد غمرت المياه بلونها المصندل الوردى ما حولها من الاراضى الزراعية فاضحت كالجزر فى وسط البحر العظيم وأشجار النخيل فيها كأذرع لليابسة ممدودة باسطة الأكف من فروعها وسعفها تضرع الى الله وتبتهل اليه تعالى ان يخفف عنها من وطأة هذا النيل السعيد ويكف من طغيانه فكان هذا المنظر الجميل الرهيب يطرب نفوسهم ويروع افئدتهم فى وقت معاً

وبعد مضي خمسة أو ستة أيام من السفر على هذا الحال اشرفت السفينة على القاهرة وقد شاهد ركابها الأهرام الجيزة فتمعجب من رؤيتها

من لم يكن رآها من قبل منهم وكان أول السائين الرئيس ابراهيم عنها فاطمة
امرأة يوسف سعد فقال الرئيس مخاطباً الجميع :

« هذه أيها القوم اهرام مصر المشهورة وهي احدى عجائب الدهر
وقد أولع بذكرها المتقدمون والمتأخرون وشبهها الشعراء بنهدين لتلك
الغادة الحسنة من أرض النيل وقد حارت في استكناه حالها الباهم قال
عمارة اليميني الشاعر :

خيلي ما تحت السماء بنية تماثل في اتقانها هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه وكلما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفي في بديع بنائها ولم يتنزه في المراد بها فكرى
على أنها بنيت لتكون قبوراً لمن شادوها من الجبارة والقراعة الاول
الذين جابوا الصخر بالوادي كعاد وتمود وغيرهم ممن نوه بذكرهم القرآن
للعظة والاعتبار وقد بقيت الآثار وتخلقت عن اصحابها حينما تتكون ناطقة
بعظمة تلك الأمم البائدة مشعرة الخلف بمجد السلف كأنها لسان حالهم يقول
بأفصح مقال :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

وكانت السفينة في غضون ذلك الحديث تسير بسرعة عظيمة وقد طاب
لها الريح فلم تمض غير ساعة من ضحوة ذلك اليوم الذي اشرفوا فيه على القاهرة
حتى القت مراسيها على ساحل مصر القديمة وهناك افرغت بعض شحنها
وتركت الرمث وعليه اصحابه ثم استأنفت السير قاصدة فرضة بولاق فمرت
على مدينة الجيزة فجزيرة الروضة فالقصر العالى وكان اذ ذاك في ابان مجده

وأيام عزه حيث كانت تنزله ساكنة الجنان والدة المرحوم اسماعيل باشا الخديو الأُسبق فكان ركاب السفينة الذين لم يشاهدوا هذا القصر الجميل من قبل وهو مطل على النيل تحيط به حديقته الغناء الواسعة يسألون عنه الرئيس ابراهيم وكلما قربوا منه وتمثل لهم صرحة المرد بنقوشه وزخارفه البديعة التي تمايل أزهار الروض الأنيق ازدادوا تطلعاً وتشوقاً وكان في مقدمة المتشوقين يوسف سعد وامرأته فاطمة التي أخذ منها الدهش والعجب كل مأخذ

وكان الرئيس ابراهيم يجيب على ما يلقي عليه من الأسئلة عن هذا القصر وساكنيه بقدر ما يعرف وامرأة يوسف سعد خصوصاً لا تزداد الا تعجباً وسؤالا وكان مما قالت للرئيس ابراهيم فاضحكت عليها كل ركاب السفينة — ان هذا القصر ليس عند سعادة مديرنا مثله وهو حاكم المديرية وكل المأمورين والعمد والجند تخشى بأسه وتخاف سطوته وتهلع قلوب الفلاحين من جبروته

فقال الرئيس ابراهيم وهو يضحك « أتظنين أيتها المرأة ان مديركم ليس هناك من هو أعلى مقاما منه؟ ألم تعلمي أنه نائب ابن ربة هذا القصر افندينا نائب السلطان ووالى هذا البركله من الصعيد الى الوجه البحرى الى السودان حتى حدود الحبشة وفي دواوين حكومته كثيرون يزيدون مقاما ويعلمون مرتبة عن مديركم ولكن أنت لجهلك بشؤون العالم لا تعرفين أكبر منه في الدنيا وظيفية »

على ان المرأة لم تقتنع بكلام الرئيس ابراهيم بل دخلها الريب والشك

منه لما كان نحياً اذ ذاك على عقول الفلاحين من الجهل المطبق والخوف الشديد من بطش مديري ذلك العهد ومأموريه وعمده غير أنها لما رأت في نظر زوجها الأقتناع بقول الرئيس ودلائل الاحترام وعلائم التوقير والتعظيم عند ذكر الوالى والسلطان تشجعت وقالت

— اذا كان افندينا الوالى كما تقول وعنده كثيرون ممن هم أعظم مقاماً وأكبر رتبة ووظيفة من مديرنا فلماذا لم يعزله ويول غيره وقد سمعت في دار العمدة أنه عات جبار يبتز الأموال ويضرب العمد ويرفت الحكام ويؤذيهم وقد رأيت أنا مرة عمدتنا ذلك الطاغية حضر الى داره محمولا على الأكف ورجلاه تقطران دماً لان المدير أمر اعوانه فطرحوه على الارض وضربوه عليها بالسياط ضرباً وجيعاً حتى دميماً وقد لزم الفراش من جراء ذلك مدة على أنى والله قد سررت في سرى كثيراً وعلمت ان ذلك انتقام من الله لانه طالما آذانا نحن وغيرنا وضرب . . . »

فلم تتم مقالها حتى قام اليها زوجها ووضع يده على فمها بعنف وهو يقول :
— اسكتي أيتها المرأة فأنتك ثرثرة فنظر اليه الرئيس ابراهيم نظر المؤمن وكأنه يقول له لا تخش أيها الرجل بأساً فانتنا هنا في الحمى تم قال للمرأة وهو يتسم :

— وما يدريك أيتها المرأة ان افندينا لم يعزل مديركم ويول غيره وانت لجهلك بتلك الشؤون وتشابه اعمال هؤلاء الحكام في جبروتهم وبتشهم من كبيرهم الى صغيرهم بالفلاح المسكين وبأنفسهم كالسمك يأكل بعضه بعضاً تظنين المدير الجديد هو القديم لأنك لم تعرفي اسم هذا ولم ترى شخص ذاك

فسكتت المرأة عند ذلك وكأنها اقتنعت لاثمها تذكرت انها سمعت مرة في بلدها برفت مدير وتعيين مدير جديد من مديري ذلك العهد وما ادراك ما كانوا عليه

وكانت السفينة قد اشرفت على (كبرى) قصر النيل وقد فتح ساعتئذ لمرور السفن فأدى الرئيس ابراهيم رسم المرور ثم مر بسفينته وكان تيار الماء شديداً وأمواجه كبيرة ودارات المياه تفتح كالهوة العميقة وتدور حول نفسها بسرعة ويسمع لها دوى وخيرير شديد فبعد ان خرجت السفينة من تحت الكبرى صارت تتمد ميداناً شديداً بركابها يميناً وشمالاً حتى هلمت قلوبهم واشتغلوا بما هم فيه من الكرب عما استقبلهم من المناظر على ضفتى النيل وارتبك الرئيس ابراهيم وولده في شأنهم وصاروا حيارى تارة ينشرون شرع السفينة وتارة يطوونها ويكتفون في تسييرها بالمجازيف وكان الرئيس ابراهيم هو القابض بنفسه على الدفة على ان السفينة بالرغم مما اتخذ هؤلاء النوية المهرة من الاحتياطات جعلت تزداد اضطراباً وثاقلاً في السير وجعلت دارات المياه تدور من حولها بكثرة كأنها تترصد لها وتذررها بالغرق القريب وهو ما قد كان فانها لم تكذبعد عن كبرى قصر النيل بمقدار ثلثائة متر حتى غرقت بمن فيها وغشى ركبها من اليم ما غشيهم

الفصل الثاني

وكان يوسف سعد لما أحس بان السفينة على وشك الغرق وقد دخلها الماء اخرج من مخلاته زقاً صغيراً منفوخاً فربطه تحت ابطه ووضع ابنه الرضيع

فوق عاتقه ونزل الى النيل فحملها الجراب وكان يوسف يحسن السباحة ثم قال
 لأمرأته اتبعيني فنزلت المرأة بالسرعة الى الماء وكانت ماهرة في السباحة مثله
 فصبر لهما زوجها حتى امسكت به ثم صارا يجران أيديهما وارجلهما ويفرقان
 الماء فرقاً عنيفاً بمجدق ومهارة والجراب يعاونهما وسكت ولدهما عن الصراخ
 من الدهش وهول الماء وكان التيار شديداً وسريعاً فلم يلبثا على تلك الحال المريعة
 طويلاً حتى قذف بهما الموج على ساحل انبابة

أما السفينة ومن بقي فيها من الركاب فأبصر بها وهي تقاسى مرارة الغرق
 بعض زوارق ترسانة بولاق وقوارب الصيد التي كانت منشورة هناك فأسرعوا
 اليها وانتشلوا بعض ركابها وغرق البعض ممن كانوا لا يحسنون السباحة ونجا
 كذلك الرئيس ابراهيم وولده فطلعوا الى البر على ساحل بولاق وجعلوا
 يحثون التراب على رؤوسهم لضياح سفينتهم وأموالهم وصار الناس من اصحاب
 السفن والتجار يعزون الرئيس ابراهيم ويطيّبون خاطره حتى سرى عنه ذلك
 بعض احزانه شأن الأُنسان في مصائبه حيث تكون شديدة الوقع في بدايتها
 ثم تهون شيئاً فشيئاً وتزول رويداً رويداً

وكل شديدة نزلت يقوم سيأتي بعد شدتها رضاء

ولا سيما ان الرئيس ابراهيم كان قد اسعتان ببعض نوتية السفن الراسية
 هناك على انتشال سفينة في ذلك اليوم عينه فأخرجوها الى البر وساعده التجار
 والنوتية على تعميمها وكانت لتقدم عهداً قد ثقت من اسفلها ثلاثة ثقوب
 فنفذ اليها الماء بالسرعة من تلك الثقوب واغرقها

فلندع الرئيس ابراهيم يصلح سفينته ويتساهل معه التجار في سلعهم التي

فقدت لهم فيها وقد نسي من كان معه في السفينة من الركاب الادميين كأن
لا قيمة لتلك النفوس عند هؤلاء التجار ونقني أثر يوسف سعد بطل هذه
الرواية — وكان هو وامرأته قد عدا في الغرقى وقد رأى القارىء كيف نجا بأهله
وولده — فإنه لما صعد الى ساحل انبابة استراح هو وزوجته قليلا وخلع كل
منهما ثوبه الوحيد عن بدنه فعصره ونشره على حجر هناك وكانت الشمس
قد آذنت بالمغيب الا ان حرارة النهار المدبر وجفاف الهواء الطلق سرعان
ما جففا ذينك الثوبين الباليين فارتداهما يوسف واهله ثم قصدا مع الغروب
تماماً بلدة انبابة وقد حمل يوسف المخلاة على ظهره والمرأة ابنهما الرضيع على
عاتقها مقتنين خطي النساء اللاتي كن يملأن جزارهن من النيل وهن جذلات
فرحات مغتبطات بتلك السعادة الخلوية والمعيشة البسيطة الريفية يعنين ويطن بن
كعادة سكان القرى المصرية خصوصاً زمن فيضان النيل المبارك ابهاجا
بمقدمه السعيد ولا غرو فان نفوس هؤلاء الفلاحين تشعر بفطرتها في مقدمة
كل كائنات مصر بان هذا النهر المبارك انما هو معين حياتها ومصدر خيراتها
فلذلك قدسه سلف المصريين وأجله خلف منهم وابتهج بفيضانه كل حي تحت

سما مصر وشدت له مغانيها ورقص الزرع والضرع

كيمياء النيل خالصة قد اتتنا منه بالعجب

كان من ذوب اللجين وقد عاد بالتدبير من ذهب

ومغاني مصر تسمعه نعمة الشادى بلا صخب

ونسيم الريح لاعبة فى خلال الروض بالقضب

ولما وصل يوسف سعد الى انبابة وامرأته خلفه جعل يسأل عن دار

عمدتها لكي ينزل عنده على عادة عمد الارياف من ايواء الفقراء وضيافة الغرباء وهي من عادات العرب المشهورة ولا بأس بها وكان الذي سأل منه شيخاً يناهز الستين من عمره وتظهر عليه سيماء الوقار والصلاح فقال له الرجل وقد رأى خلفه امرأته تمشى على استحياء وتحمل على عاتقها طفلها

— من أي البلاد أنت يا رجل

فقال يوسف سعد

— من مديرية جرجا يا سيدي

ثم تنفس الصعداء

فقال الرجل وقد ادرك ما جاش بمخاطره من ذكر لوعة الغربة وفراق الأهل والوطن والشقاء الذي حاق به فاضطره الى النزوح عن بلده :

— اظنك هربت من ظلم عمدة بلدك واضطهاده اياك فان هؤلاء العمدة

البعثة يعينون الزمان على الفلاح المسكين :

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف اذا الرعاة لها ذئاب

على أننا يا بني في هذا البلد آمن جانباً من هذا القليل لاننا على قيد شبر

من القاهرة عاصمة القطر وبلد الحكومة المركزية وان كانت كل البلاد سواء

الآن في الرزح تحت اقبال المظالم والمغارم نسأل الله الفرج واصلاح الحال

اذا اشتد عسر فارج يسراً فانه قضي الله ان العسر يتبعه يسر

ثم التفت الرجل الى امرأته يوسف سعد فقال « وما هذه المرأة منك »

فقال سعد

— هي زوجتي وهذا الطفل ابني وقد انهمكهما الجوع والتعب اليوم

فقال الرجل وقد رق لهما عند سماع هذا القول .

— اتبعاني ولا تسألاني عن دار العمدة فأتما في ضيافتي

فمشى يوسف سعد الى جنب الرجل مطرقاً برأسه الى الأرض وتبعتهما المرأة واضعة برديتها على رأسها وحاملة ابنها على كتفها غاضبة بصرها استحياء وقد انهكها الجوع والتعب ونام الطفل على عاتقها من شدة ما عازاه من الروع في الليل وظلوا سائرين الى ان أشرفوا على ضريح الأستاذ الأنبي فقروا له فاتحة الكتاب وجعلت امرأة يوسف تضرع اليه وتستغيث به في كشف كربتها واصلاح غربتها حتى قال لها زوجها « كفي أيتها المرأة فان الله تعالى أولى بنا وهو وحده المتكفل بعباده »

ان الكواكب فوق عجزك عجزها من أين تمنح غيرهن جدوداً
فقال مضميفهما وهو يضحك

— نعم ولكن النساء في بلادنا غيبات ناقصات عقل ودين ولهن من هذه السخافات أمور لا تحصى مضحكة مبكية معاً :

أمور تضحك السفهاء منها ويسكي من عواقبها اللبيب
وهي بالحقيقة كذلك لما لها من الآثار السيئة في تربية الأولاد من حيث دخول الأوهام والخرافات على العقول فتترك اللجاء الى جانب الله والعمل بالاسباب التي أرشد اليها ودل عليها وتركها الى تلك السفساف والاعتقادات مما يبرأ الى الله تعالى منه نفس هؤلاء الأولياء الكرام على الله
ثم أنهم استأنفوا السير قاصدين دار ذلك الرجل الذي اضافهم وكانت في آخر البلدة وحين دخلوها جعل الرجل يرحب بيوسف سعد وامرأته

ويكرم وفادتهما ويؤانسهما ثم أنه قدم لهما الطعام فأكلا حتى شبعا وطقق يوسف وامرأته يقصان على مضيفهما قصتهما وسبب نزوحهما عن بلدهما هربا من جور عمدتها وما لقياه في سفرهما وغرق السفينة بهما في النهر بالقرب من ساحل انبابة وكان الرجل يصنع لحديتهما بالشغف والحنان ويطيب خاطرهما ثم قال يوسف سعد وقد رأى من الرجل طيبة نفس وكرم أخلاق دالة على ارادة الخير لهما .

والعين تعلم من عين محدثها ان كان من حزبها أو من أعاديها
« واني يا سيدي أريد الآن ان أعمل لأعيش حراً واكدح على نفسي
وأهلي وقد حجب الله الى العمل ما دام شريفاً وجعاني من الحرص على اداء
واجبي فيه بمكان عظيم واعطاني من القوة والعافية ما أحمده عليه واشكره
ورغب الى التوكل عليه بما أفاده الشرع لا بالأمانى الكواذب ولقد قيل في
مشور الحكم (الخذلان مسامرة الأمانى والتوفيق رفض التوانى) وقال أبو
تمام الشاعر المشهور

من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولا
فالسعي يا سيدي واجب على كل ذى حياة وعلى الانسان ذى العقل
والسلطان من باب أولى ثم انشأ يقول :
اذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه شكى الفقر أو لام الصديق فأكثر
فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا
فضحك رب الدار وقد رأى تمس ضيفه وتحقق له أنه رجل عمل
وكد فطيب خاطره ووعد بالمساعدة على تحصيل العيش ثم أنه تركه وامرأته

ليناما ويستريجا . من عناء السفر وتعب ما قاسياه من أهوال الغرق وذهب الى غرفته ليأخذ هو أيضاً راحته

الفصل الثالث

كان ذلك الرجل الذي آوى اليه يوسف سعد وامرأته وضافهما تلك الليلة في بيته من مزارعي انبابة واسمه الحاج على ابراهيم وله نحو خمسة افدنة من الارض الجيدة بالقرب من هذه البلدة يزرعها خضروات وقصب السكر ويبيع من مستغلاتها في القاهرة سواء بالقطاعى للباعة المتقلين أو بالجملة للتجار أرباب الحوانيت من الخضرية والفاكهانية

وكان الحاج ابراهيم هذا رجلاً صالحاً وشهماً كريماً يبلغ من العمر حوالى الستين كما تقدم ومع ذلك فقد كان من قوة الساعد والعمل ووجه شأن كل فلاحي هذا القطر الذين لم تقسد أحوالهم رخاوة المدينة الحديثة بما يفضل معه الشباب من أولاده الثلاثة الذين كانوا كثيراً ما يهربون من العمل والشغل معه ويعقونه ويتكعون على القهوات ويتعاطون تلك الآفة المنفسدة من الحشيش ما عدا واحداً منهم كان يلازم أباه ملازمة الظل للشبح ويعاونه في الكدح ويساويه في النشاط والاجتهاد لانه كان قد سلم من تعاطى تلك الآفة فلم يعتد الكسل ولم يعتره فتور العزيمة وخمود العقل كأخويه بل كان كله نشاطاً وغيره لكي يلحق والده الشيخ في العمل ويعاونه عليه الا أن والده لكثرة معاملته تجار الاثمار وباعة الخضروات لا جرم كان في حاجة الى

أيد كثيرة قد كان في غنى عن التماسها من الخارج لو كان أولاده على شاكلة
هذا الولد النجيب البار بوالديه وكان مع ذلك اصغر اخوته

وان تيمما كلها غير سعدها زعانف لولا عز سعد لذلت

فلما دخل الحاج ابراهيم على غرفته لينام جعل يفكر في نفسه ويقول

وقد فرح من عثوره على يوسف سعد

— يظهر لى أن ضيفي من محي العمل وأنه حسن السريرة جيد السيرة

فلنتفعه ولننتفع به أو اه لو كان عمر وبكر ولداى مثل اخيهم مصطفى لاراحنى

وارتاحا وقد كبرت وشخت وبدأت أشعر بالتعب من العمل ولكن فيمكن

ماشئت يا ألهى ثم غشيه النعاس ولسانه رطب يذكر الله تعالى تسيحاً وتقديسا

لان الرجل كان على جانب من التقوى والصلاح والتصوف الحقيقي

تواضع لرب العرش علك ترفع فما خاب عبد للمهمين يخضع

وداوى بذكر الله قلبك أنه لاشفي دواء للقلوب وأتقع

وقام عند انشقاق عمود الفجر وصياح الديكة كعادته ليصلى الصبح ويخرج

الى عمله ولكن عمرته الدهشة اذ سمع ضيفه يوسف سعد وقد سبقه الى

الاستيقاظ من النوم يصلى ويتلو القرآن بالترتيل الشرعى الحسن فقال في نفسه

(ما شاء الله يظهر لى أن ضيفي هذا من أهل الصلاح والتقوى أيضاً لاجرم

ان التقوى جماع الخير) على أنه لم يشأ ان يشوش عليه فقام بالخذر الى متوضئه

فتوضأ واسبغ وضوءه ثم جاء الى مصلاه فصلى ما شاء ان يصلى مخففا صوته

وتسبيحه حتى لا يسمعه ضيفه وكان جيش الظلام قد ولى امام جيوش الشفق

الاحمر شفق الغزاة الطالعة وقد علا الضوء فلأ ما بين الأفق نوراً مبشراً

بان سلطانه النهار باشعتها الذهبية ستعلو عرشها لتحكم في الطبيعة الأرضية بما شاءت يد القدرة الالهية من التدبير المحكم وجعلت الطيور تغرد وترقص طرباً على أغصان الشجر فرحة مستبشرة بما ستقوم به من مهام السعى على أرزاقها واقواتها وقد أخذت كفايتها من الراحة والهجوع

وكان أهل بيت الحاج ابراهيم في غضون ذلك قد نهضن الى مهامهن البيئية يؤدينها وحبلى اللبن وجهزن الفطور فارسل منه الى ضيفه وامراته فأكلا ثم دعاه اليه فلما جاءه هش له وبش وبعد الاستراحة هنيهة قال له « هيا بنا الى العمل يا بنى فاني قد استخرت الله تعالى وعزمت على ان أعطيك قطعة من أرضى تزرعها بالشركة بينى وبينك مناصفة وان تلاحظ لي فوق ذلك حقلى كله اذا أنا عبت لأن لى ولدين كبيرين عاقين لى وكثيرا ما ينتهزان فرصة غيائى ويعشان بزرعى ولا قبل لآخيهما الصغير بهما »

فشكره يوسف سعد على مروءته ووعدته خيراً ثم خرجا الى الضيعة وقد هب نسيم الصباح العليل وتبعهما ولد الحاج ابراهيم الصغير المدعو مصطفى يحمل على أنان لهم بعض الأدوات الزراعية ويجر ورائه جاموسة وبقرة صفراء حلوب وعجلا من الجاموس وبعض شاء وأمعز تسوقها خلفه وهى راكبة على الجاموسة أخت له صغيرة اسمها رقية وتمشى الى جانبها فاطمة امرأة يوسف سعد وقد أحببها هذه الفتاة الصغيرة للهجتها الصعيدية المضحكة

فلما وصلوا الى الحقل وكانت الشمس قد اشرقت والقت باشعتها الذهبية على الارض فزادت منظر الحقول جمالا توجه الفتى مصطفى تواء الى عمله وأوت الفتاة وامرأة يوسف الى خص على ربوة هناك بجوار المرعى فكانت

القتاة فرحة طربة تضحك ملء شديها حتى جعل أبوها وقد لحظ السبب الذي يضحكها من لهجة فاطمة امرأة يوسف سعد ينظر اليها نظرة المؤنب غير أنه لما رأى عطف المرأة عليها سكت وأخذ يوسف سعداً من يده وتوجه به الى قطعة أرض لا تزيد مساحتها عن عشرة قراريط قريبة من ذلك الخصب ومزروعة بخلا قد نما وترعرع فقال له « دونك هذا الغيط من الفجل فاعن به وبع منه بأمانة الله ولك النصف مما تحصله من الثمن وعليك فوق ذلك ملاحظة حقل كلة الذي أعمل فيه أنا وابني عند غيابي على ما اشترطت عليك أمس » ثم تركه وانصرف الى عمله

وكان يوسف سعد من مهرة المزارعين وعلى جانب من النشاط وحب العمل والكدح مع ملازمة السكون والهدو شأن رجال الاعمال فجعل يعنى بذلك الغيط من الفجل عناية فائقة وكان نباته قد صالح للجنى ورأى باعة الفجل قد أتوه من ضحوة ذلك اليوم ليشتروا منه فقام في الحال وشمر عن ساعد الجد وجعل يقتلع منه بعناية واهتمام حتى جمع منه شيئاً كثيراً وطلق أولئك الباعة يشترونه منه وهو يقبض الثمن ويسلمه الى زوجته فتضعه في صرة معها فرحة مسرورة لرؤية الدراهم وكانت تسمع بها من قبل سماعا وما جاء مساء ذلك اليوم الا وكان ما جمع من ثمن ذلك الفجل الذي باعه نحو الثلاثين قرشاً فقدمه الى الحاج على ابراهيم فبرقت أسرة الرجل وقال له

— والله أنك يا يوسف رجل مبارك فوالله لا أذكر في عمرى أني بعث في يوم واحد بهذا القدر بخلا من غيطى واني تارك لك ما جمعت اليوم كله لتستعين به في شأنك ولا احسابك على نصيبى منه الا بعد بيع كل ما في هذا

الغيظ من الفجل وأرى أنك رجل أمين

ثم أحب ان يأخذه معه الى الدار فقال له يوسف سعد وقد اغرورقت
عيناه بدموع الفرح والسرور

— أشكرك يا سيدي شكراً جزيلاً وأرجوك وقد عهدت الى ملاحظة
حقلك وحرصته أن تتركني في هذا الخصب فإنه يكفيني أنا وامرأتي
فتركه الحاج على ابراهيم وأخذ ابنه وابنته وهي لا تريد ان تفارق امرأة

يوسف سعد فاستاقوا مواشيهم وانصرفوا الي دارهم للمبيت
أما يوسف سعد وامرأته جلسا في الخصب وطفقا يتحدثان يذكران ما مر
بهما من ظلم عمدة بلدهما ويشكران مولاها على ما أولاهما من نعمة الخلاص
من ربقة والعمل بحريتهما وطفقت المرأة تعد النقود وتعيد عدها وهي فرحة
مسرورة الي أن ران الكرى على جفניה فنامت الي جانب ابنها وهي جدلة
مغتبطة بما آل اليه حالها وجعلت وهي نائمة تحلم بالدرهم والنقود وتذكرها
فجعل زوجها ينظر اليها ويتبسم ويرفع طرفه الي العلا ويشكر مولاها الي أن نام
مغتبطاً بحاله هو أيضاً

وإذا العناية صادفتك عينونها ثم فالحخاوف كلهن أمان

الفصل الرابع

لا أطيل على القارئ في سرد قصة الرجل في عمله هذا الجديد بالتفصيل
وقد فك عن ارادته أسرها فانه لما كان رجل عمل وهمة من طبعه دأب على

الكدح والسعي مع الحاج على ابراهيم وقد سمر منه هذا سروراً عظيماً وربح معه ارباحاً طائلة ولم تمض على يوسف سعد وهو على تلك الحال سنوات حتى توسع في زراعة الخضر وتجارها وصار من أعيان بلدة انبابة فابنتى بها الدار واقنتى بكده وجميل سعيه فيها العقار

ولن تجد الثراء بغير سعى وهل يورى الزناد بغير قدح
 وكان في غضون تلك السنوات الأولى من حياته السعيدة يتردد كثيراً على القاهرة لانجاز أعماله ومحاسبة تجار الخضر والفاكهة وقد اتسعت أشغاله وازداد عملاؤه وصار يدعى (الشيخ يوسف سعد الجرجاوى) وكانت الأحوال في القطر قد تغيرت حيث أخذت الثورة العراقية وأعيدت السلطة الخديوية وبدأت المنظمات الحديثة والأصلاحة الجديدة تجرى مجراها في المصالح المصرية والشؤون الأهلية وأبطلت السخرة والعونة وخففت الضرائب والمغارم وقام مقام السخرة والعونة أعمال التطهير بالمقاولات وكان للشيخ يوسف سعد صديق قبلى من بلده يشتغل في مقاولات التطهير فلما رأى ذلك الرجل منه النشاط والاستقامة حسن إليه ان ينزج معه في غمار تلك الاشغال بالشركة وما زال يلاح عليه حتى قبل ذلك وأحال أعماله الزراعية على شريك له في انبابة لا يجمله القارىء اذ هو مصطفى ابن المرحوم الحاج على ابراهيم الذى كان قد توفى الى رحمة مولاه في غضون تلك السنوات فقام مقامه في عمله وزراعتة ابنه هذا وقد علم القارىء سيرته الحسنة مع أبيه من قبل دون أخويه الكبيرين اللذين ما صدقا ان مات والدهما حتى باعا ميراثهما الى أخيهما مصطفى وشريكه الشيخ يوسف سعد ورحلا الى القاهرة وقد صاروا من كبار

الحشاشين العطلّ وعالة على أخيها وشريكه الشيخ يوسف سعد يأتينهما أحيانا
للاستجداء ثم يعودان الى حشيشهما وقد تغيرت سحنتهما وأخلاقهما من تلك
الآفة تغيراً قبيحاً ودُلاًّ وصغرت نفساهما

ومن كان ذا عين ولا يبصر الذي امام فهذا والضرير سواء
ولما انصرفت همّة الشيخ يوسف سعد الى تلك الأعمال الجديدة مع
شريكه ذلك المقاول وصار يربح الأرباح الطائلة تارة من مقاولات المباني
الأميرية وتارة من عمليات التطهير والحفر والردم اضطر أن يترك زراعة
الخصر والبقول بتاتا وان ينقل بأهله الى القاهرة وكان قدرزق أولاداً كبارا
وكان اكبرهم ذلك الذي هاجر به وهو رضيع من بلده تحمله أمه على عاتقها
وقد ادخله المدارس حتى حصل على شهادة الدراسة الثانوية فألحقه أبوه بمدرسة
الطب وكان أوسطهم بالمدرسة الخديوية واصغرهم باحدى المدارس الابتدائية
غير بنتين زوج احدهما من مصطفى شريكه وابن شريكه القديم وصديقه
الحميم صاحب الأيادي البيضاء عليه المرحوم الحاج على ابراهيم وكان ذلك
قبل أن يتوفى ذلك الرجل الى رحمة مولاه وبارادته حتى يحكم بينه وبين شريكه
الهمام الشيخ يوسف سعد الروابط بأواصر النسب ولحمة المصاهرة

ولقد كان الشيخ يوسف في أعماله الجديدة كثيراً ما يضطر الى السفر
والتنقل في جهات الأقاليم التي تكون فيها أعماله بهمة لا تعرف الكلال ولا
الملل ليلازم العمال ويياشر بنفسه الأشغال ولا يهمل شأنه وكان من طبعه
حب الأتقان للعمل وحسن أنجازه والتبكير له بكور الغراب مع الصدق
والأخلاص وحسن معاملة معامليه من العمال وأرباب الأشغال حتى اجتذب

اليه القلوب وأحبه الناس واشتهر بين طائفة المقاولين شهرة عظيمة واعتمده
نظارة الاشغال بين أشهر المقاولين المعتمدين لديها

واتسعت أمامه الأشغال وعظمت لديه رؤوس الاموال فجعل لا يكتفي
بالمقاولات الأميرية وأعمال التطهير وخلافه بل أخذ يقول على تشييد المباني
الجسيمة والعمارات الفخيمة للأفراد في القاهرة وغيرها واشترى كذلك
أراضي كثيرة من أراضي البناء في أهم احياء القاهرة الجديدة وكانت اذ ذاك
في الأوج من حركتها وارتفاع أثمانها فباع وكسب المكاسب العظيمة بجده
ونشاطه حتى صار يشار اليه بالبنان في روته العظيمة وقد اضحت تربو على المائة
الف من الجنيهات

ولقد تقدم أن الشيخ يوسف سعد كان يلم بشيء من معرفة القراءة
والكتابة ويتلو القرآن فأفاده ذلك أيما فائدة في حياته هذه السعيدة اذ توصل
بذلك وقد اتسعت بالخبرة معلوماته الى عمل حساباته وتخطيط الرسومات
الهندسية البسيطة لما كان ينشئه من العمارات ولا غرو فان الانسان النبيه
النشيط لا يتوقف نجاحه الا على ما في نفسه من المشوقات والحركات النفسانية
فهما تفهت معلوماته الأولى فقد تسمو به همته الشماء وعزيمته العليا الى ما قد
يعجز عنه حتى أرباب الفن الاخصاءيون ممن قد يكسلون ويتراخون في
شؤونهم ويتبعون السبل المتفرقة فيفسلون وتذهب ريجهم ومعارفهم هباء ويمتاز
عليهم أهل الهمة وذوى الاقدام وأرباب النشاط والصدق والأخلاص وهذا
سر عظيم من أسرار نجاح الانسان وتفوق البعض على البعض من بنيه بذلك
العقل التجريبي النشيط المستفاد عن الرغبة والشوق في متقلب الأحوال

وتدبير الشؤون والاعمال واتهاز الفرص وقد ضرب له المتقدمون الامثال
وحكوا في المواعظ عنه على السن الحيوان الاعجم ولنا في قصة مسابقة
الارنب والساحفة عبرة وأى عبرة

والمرء تلقاه مضيقاً لفرصته حتى اذا فات أمر عاتب القدرا
وكان الشيخ يوسف سعد من جهة ثانية دقيقاً في عمله حازماً في رأيه
يطالع الصحف ويتتبع بالخذر والخوف حركة التجارة وأعمال الشركات التي كانت
كأس البلاد بدأت تفتح بها اذ ذاك أى منذ ست سنوات فوقع في نفسه
الريب والشك في أمرها ونجاحها لاعتبارات كثيرة أهمها كون اكثرها كان
يؤسس على آمال واطماع اشعبية وأنها غير خاضعة بالمعنى الحقيقي لقوانين البلاد ولا
رقابة الحكومة وسيطرتها فكان الشيخ يوسف سعد يأسف على تهافت المصريين
كالفراش على الاكتتاب لها وشراء سهومها بالثقة العمياء لأنه كان يرى ما
يدفعون من أثمانها أموالاً اضيعت عليهم في مشروعات لم تخمر بها الفكر الرجيحة
ولاحاجات البلاد الصحيحة وقد كثرت حول تلك المشروعات الهوائية جيوش
السماسرة ومدراء السوء وعشاق الأمانى الكواذب وذوى الاطماع الأشعبية
وفي الطمع المدقة للرقاب وتقطع لأعناق الرجال

وكان كثيراً ما يفتح اصدقاءه بالأراء السديدة فيما يأخذ بيد الوطنيين
من الأعمال الجليلة والمشاريع الرابحة التي تعود على الامة بالفلاح والنجاح من
مثل انشاء المصارف والتجارات النافمة والنقابات المفيدة والمعامل الصناعية
الجديرة بعناية المصريين لترقية شأن بلادهم كما كان ينحى باللوم الشديد على
تلك التهورات التي كان يندفع في تيارها على غير هدى وبلا ترو أولئك

الطامعون الطماعون وكان يحذر من عواقبها ويتنبأ بمصيرها
 وكان اذا جالس الشبان من سعارف أولاده ينصح لهم بالانكباب على
 طلب العلم واداء الواجبات المدرسية واحترام النظمات والتزام الطاعة
 للاساتذة والابتعاد عن السفاسف والنقائص ويريهم أقوم الطرق فى سبيل
 الجهاد على الحياة والاعتماد على النفس والاجتهاد والثبات فى الأعمال ويضرب
 لهم المثل بنفسه ويطلعهم على سيرته الأولى وأنها وأمثالها الكثيرة خير نموذج
 لطالب النجاح فى العالم

وكانت أراءؤه فى السياسة المصرية تجرى مجرى العقل والرزانة وان
 الاستقلال المنشود انما يتوقف الحصول عليه بالمعنى الحقيقى على الاستقلال
 فى الأعمال الذاتية وقوة الارتباط القومى وان فى التخاذل والتدابى والتنازى
 بالألقاب مع الاتكال فى الأمور كلها على الحكومة حتى فى أهم موارد
 الحياة ومصادر الثروة ما يجعل ذلك الاستقلال بعيداً فى الحقيقة وان لنناه
 بالفعل وان فى المهارة واختل فى السياسة ما يقلل قيمة تلك المطالب والمساعي
 لنا فى العالم فتكثر الأعداء وتقل الاصدقاء

والناس اكيس من أن يمدحوا رجلا ما لم يروا عنده آثار احسان
 غير أنه لما كان يبدى هذه الأفكار أمام أولئك الشبان المتفقيهن كانوا
 كثيراً ما يهزأون به خفية ويعيبون لهجته (الصعيدية) وكان الكثيرون
 منهم يسمونه الرجل الساذج والانسان الابله وأن ما تحصل عليه من الغنى
 والثروة (انما جاءه فلتة من فلتات الدهر التى ضيرت العالم التحرير زنديقاً
 وكان أولاده كثيراً ما يتمنون سكوته أمام أصدقاءهم المتفقيهن لانه لا يحسن

السياسة ولا الكياسة في اعتبار هؤلاء المناطقة

وكان هو يلحظ ذلك منهم إلا أنه لطيب نفسه وتأكده من أن للعواطف والشعور حكمها وسيادتها في زمن الشباب وعهد الصبا وأن هذا الحال لا بد له من قياد وارشاد (في ذلك الدور حتى تؤسس العواطف على أمتن أساس من العقل والروية) لذلك كان يث أراءه تارة بالجد وتارة بالهزل والمزاح فكان يسمع لا قواهم وانتقاداتهم بالسكينة والهدو ثم يجب عليها بالرأي السيد والقول المفيد باسمًا ضاحكًا ملمحًا تارة ومصرحًا أخرى وكان مما يقول :

« أن جماع الخير في هذا العصر العمل والقيام بالواجب ومصدر الشر اتباع الالهواء والدعاوى الطويلة العريضة مع التراخي في المفيد واهمال الواجبات فقضيتنا تقتضى الفطنة والهمة العليا حتى تحل مشكلتنا الاجتماعية والسياسية طبق المرام والا فما دام حب الذات والتدابر رائدنا والمشاكسة والمخاشنة قائداً وعدم القيام بالواجبات ديدنا تهمت ولا ريب أعمالنا وكثرت أعداؤنا وعدالنا

إذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى فقد شكته عند ذلك ثواكه
وقد اشمته الاعداء حقاً بنفسه وقد وجدت فيه مقالا عواذله

الفصل الخامس

وكان الشيخ يوسف سعد ينحى باللوم كما تقدم على التهورات في المضاربة مع التواكل والاعتماد على عناية الغير وينصح لاصدقائه وذوى الأعمال من معارفه

باستثمار المال وطلبه بانفسهم وأحياء الصناعة والتجارة مما هو مضمون النجاح
نابت الأرباح اذ ان كل (الاعمال المبنية على مبادئ صحيحة لغايات حميدة
لا بد أن تنتج عنها نتائج حميدة هذا فضلا عن أنها ترقى شأن الانسان وتحرك
همة غيره للاقتداء به) (١)

وكان يقول : « العمل أصل نجاح العباد وعمران البلاد ولا بلية على
الانسان أشد من أن يعيش بالأمانى بلا تعب ولا كد
ولا تتعلل بالأمانى فانها عطايا أحاديث النفوس الكواذب
« والأمة التي ليس في افرادها ميل الى العمل والكد والاستقلال يجب
اسقاطها من عداد الأمم لان الفراغ من شأن الأموات والاشتغال من
شأن الأحياء »

ذا العود لم يثمر وان كان شعبة من المثمرات اعتده الناس في الخطب

﴿ وقال أبو تمام الشاعر المشهور ﴾

من كان مرعي عزمه وهوميه روض الأمانى لم يزل مهزولا
« فالخذلان مسامرة الأمانى والتوفيق رفض التوانى والعمل الاستقلالى
الشريف خير للمرء وأهله وهيئته من تالد مال يرتكن اليه ويعتمد عليه بلا
عمل حتى كان الأمام عمر بن الخطاب اذا نظر الى الرجل سأله أله حرفة فاذا
قال لا سقط من عينه وقيل لأعرابي ينسج « ألا تستحي أن تكون ناسجاً
قال انما استحي ان أكون أخرق لا أنفع أهلى وحرفة يقال فيها خير من
مسئلة الناس »

(١) هذه الفقرة وجملة مما سيأتي من الحكم مأخوذ من كتاب سر النجاح ومحاضرات الادباء وغيرهما

« ان القليل من رأس المال بكل معنى الكلمة مع الرغبة والميل الى العمل وحسن الاختيار فيه يأتي بأجل الثمار وأعظم المكاسب وعلم بلا عمل كزراع بلا ثمر واشقى الناس من اتسعت معرفته وضاقت مقدرته

وذو الجهل خير من عقول علومه سراج ولكن ليس فيه ضياء
 « ولقد قال الأقدمون كما في كتاب سر النجاح « لا ينجح الانسان في عمل الا بالرغبة والدرس والمزاولة وسر النجاح المزاولة ورب قوم ينجحون بالصدفة ولكن نجاح الصدفة كربح المقامر آلة لخراجه »

« والكسل والتراخي آفة الأمم الشرقية كأهم ما زالوا على الطراز القديم من حب الأمانة دون اهتمام بالصناعة والتجارة وهذا سبب بليتها وعلّة مرض أفرادها وقلة رقيها واستئثار الأجانب بخيراتها فيأتونها فقراء ويعودون اغنياء ووهنت هي كسلا وتراخياً وتعلّة بالأمانى وتشبثاً بأوهام الوظائف واحتقار الصنائع والتجارة مع التشكي من جور الزمان ولقد قال واشنطون ارفن المؤرخ الأميركي الشهير هذه الحكمة الرائقة التي كما تصدق على الفرد تصدق على الامم لأنها الفرد مكرراً « أنتى كثيراً ما أسمع الكسل الوكل يشكى من ظلم الزمان وجوره على ذوى الفضل وما تلك الا تعلّة باطلّة لأنّه ما من أحد من ذوى الفضل الا ويفلح اذا كان من ذوى التدبير والسعي لان الجبناء الذين ينزويون في بيوتهم ويتوقعون أن يسوق القدر اليهم رزقهم ومن الاقوال المتداولة أن الدهر يخفض الفضلاء ويرفع الجهلاء ولعل ذلك لا يخلو من الصحة لان جهلاء القوم قد يكونون من أهل النشاط والهمة »

« وهذا بعينه معنى ما قاله أحد علماء العرب قديماً « انما نرى اكثر

الحذاق في صناعاتهم يضيق رزقهم لا تكالهم على حذقهم لا يبذلون جهدهم فيما يعملونه وغير الحذاق يبذل جهده ويفرغ نصحه « وقال الدكتور جنسن « أن شكوى الناس من الدهر بطل وظلم لاننى لم أر رجلاً نشيطاً مهملاً وكل من تخب مساعيه لومه على نفسه »

« وليس العمل بالنجاح تمام النجاح الا بآداب له وشروط من الصدق والأخلاص وحسن التدبير لان في السرف هلاك التالذ والطريف من الممال مهما كان معينه وحذق صاحبه وهناك أمثلة كثيرة لمن قادم الأسراف الى الفقر وأخرى كريمة لمن أدى بهم حسن التدبير الى الغنى والمال على كل حال قوة ولقد قيل « حسن التدبير نصف المكسب وسوء التدبير داعية البؤس » وما الافلاس الا سوء التدبير وما وقع تبذير في كثير الا هدمه ولا دخل تبذير في قليل الا اكثره وادخار الأموال للفرد والأمة من خير ما تصبو اليه روح العصر وفن الاقتصاد السياسى

ولا يساوى درهما واحداً من ليس فى منزله درهم
« فالمال نعم العون للمرء وللأمة لانه فى الواقع ونفس الأمر من مقومات حياتها مع العمل والسعى ولله در من قال :

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده
وما فتى الشيخ يوسف سعد ينصح اصداقاه على هذا المثال الكريم ويريهم الهدى من الضلال فى تلك الشؤون الحيوية الهامة ويميز لهم بين صحيحها وفاسدها ورائجها وكاسدها وكان ما حصل له من تجاريب الزمن وعبر الأيام قد افاده قوة حجة وصحة نظر حتى كان يجاهر لاصحابه ويكتب فى الجرائد

ويث فيها آراءه الصائبة مثبتاً للأمة بان لا نجاح للمصريين الا اذا عنوا بشؤونهم الاقتصادية وقبضوا على أزمته في بلادهم اسوة بغيرهم من الأمم الطالبة للارتقاء العارفة بسر حياة الأمم في استقلالها ولقد تمكن بالرغم من كثرة المصاعب التي قامت في وجهه من خوف بعض اصحابه المالىين المصريين وجبنهم من انشاء شركة تضامن صغيرة برأس مال قدره خمسون الف جنيه مصرى تشتغل في المقاولات وتوريد أدوات العمارات وبيع أراضى البناء في القاهرة باتمان معتدلة وكان ذلك حوالى سنة ١٩٠٢ فنجحت نجاحاً باهراً وربحت بفضل الرجل ومهارته ونشاطه أرباحاً حمة

وكان يود من صميم فؤاده أن ينشئ شركة صناعية محلية الا أنه لم يوفق لذلك بالرغم مما كان يظهر لأصدقاءه المالىين المصريين من فوائدها فكان يصبر ويقول في نفسه « ان هؤلاء الناس لا يرون النجاح الا اذا لمسوه بأيديهم وهذا النوع من النجاح السريع كثيراً ما يعقبه الفشل والخسار مع أن اهم النجاح ما يكون ثابتاً نفعه وربحه من الأعمال والاشغال المحتاجة اليها البلاد في أمورها الحيوية فالصناعة الوطنية تفضل عندى شركات المضاربة على أراضى البناء واستثمار المال بتلك الطرق التي لا شك في فسادها ومخاطرها لا سيما وان في احياء الصناعة والتجارة الوطنية مفخرة الأمة وعزها ومجدها

« ان بنى قومى يجهلون ولا ريب طرق النجاح الحقيقية ولا تنصرف همهم وقواهم العاملة الى ما فيه الخير المحقق بالتعاقد في الاعمال المفقرة اليها بلادنا والا لما فاتهم من قبل ومن بعد انشاء الشركات للشغل والصناعة والتجارة الخ وقد استأثر الأوروبون بمزيد الاسف باجتناء ثمرات البلاد من هذه

الوجهة ونحن نلظر ولا نلرك سا كناً من همتنا كأننا ما خلقنا للعمل بتلك القواعد الجديدة بأنفسنا ونقتنع بما ترك لنا فيه الباب مفتوحاً من شراء سهوم الشركات العاطلة والاكتتاب لكل جديد من تلك الشركات لما نرى ما يسبقها ويحدوها من نشرات المدح والترغب الطويلة العريضة ونحن لسلامة نيتنا وتواكلنا ووثوقنا بالغير دون أنفسنا نهافت عليها ولا تهافت الفراش على النار وليس ثم قانون واف ولا نظام رادع ضامن والحكومة تعطى الامتيازات والرخص لهذه الشركات باليمن وبالشمال ولو كان لبلادنا الأسيفة مجلس نيابي أفا كان يحافظ على حقوق الافراد ويوقف هذا التيار عند حده ليأمن كل على ماله « وكان الشيخ يوسف سعد مع قيامه بأعماله التجارية الخصيفة بالشركة لا يفتقر عن انشاء ومشتري العقارات الراجعة في أعظم أحياء القاهرة وابتياع الاطيان الكشيرة بجهة بلده ومسقط رأسه حيث كان قد جدد علاقته بها وكان العمدة الذي هرب من ظلمه وجوره قد مات وتعين مكانه ابن له سار في أهل البلدة غير تلك السيرة الأولى تحت سلطة النظام والقانون فكان الشيخ يوسف يتوجه اليها ليؤجر اطيانه الى الفلاحين سواء بالايجار أو بالزراعة وقد احبه أهل قريته وأجلوا قدره لبره ومواساته لهم حتى رغب اليه الكشيرون منهم أن يكون عمدتهم أو ينتخبوه عنهم لمجلس المديرية والجمعية العمومية أو في مجلس الشورى لما قد اتصف به من الاخلاص والنشاط وحب المصاحفة العامة وكرم النفس والخلال

أما هو فكان يريهم « صعوبة الأمر وان الانتخاب وان وقع عليه منهم فقد لا يوصله بالنسبة لطريقة الانتخاب الى مقصودهم ثم أن اختصاصات هذه

الهيئات قاصرة وغير منطبقة على مصالحة البلاد في هذا العصر الذي اصبحت فيه كل أمة من أمم الارض تقريباً حائزة لما يصلحها من تلك المنظمات النيابية الجليلة ذات الحقوق الواسعة ما عدا مصر الأسيفة فانها لم تزل على قدميها وعقيمتها واستئثار حكامها بالاحكام وان الزمان قد حان لنسخ هذا القديم والاعتراف بسلطة الأمة « ومنحها تلك الحقوق الصالحة على أنه لكثرة ما ألحوا عليه من هذا القبيل وعدم بالسعي لذلك واختيار السكنى بينهم لتلك الغاية ولقد كان الدافع له الى هذا العزم من جهة ثانية أنه كان قد شاخ وحن الى تمضية بقية حياته في بلده ووطنه ليعيش بسلام في مسقط رأسه وقد اغتنى واحرز ثروة طائلة وتعب ومل العمل فاحب أن يعيش عيشة السكون والهدوء بين أهله ومواطنيه ولا غرو فالكريم يحن الى وطنه كما يحن النجيب الى عطنه :

كم منزل في الارض يألفه الفتى وحينه أبداً لا أول منزل
الا أنه كان متردداً في عزمه بسبب الشركة التي كان يديرها ويباشر
أشغالها بنفسه وأولاده بالمدارس وابنته بأنيابة

وكان أولاده قد نال اكبرهم شهادة طبيب بنجاح واشتغل بمهنة الطب في القاهرة والتحق ثانيهم بعد أن حصل على شهادة الدراسة الثانوية بمدرسة الحقوق أما اصغرهم فادخله أبوه بعد أن احرز الشهادة الابتدائية مدرسة الزراعة بالجيزة وكان الفتى يأبى ذلك بادئ بدء تبعاً لاعتقاد الشبان في هذه المدرسة واضرابها فاجلسه أبوه بين يديه بحضور اخوته يوماً وألقى عليه هذه النصيحة الذهبية قائلاً :

« أنك يا بنى تجهل كماكثر فتيان اليوم فوائد مثل هذه المدرسة مع أن بلادنا زراعية محضه وفضلا عن الضمانات الحالية لخريجى هذه المدرسة فسيأتى وقت يكون لهم فيه جليل الخدمات والمآثر على الزراعة المصرية ورواج بضاعتهم حينما يقدرها الفلاحون وأرباب الزراعات حق قدرها ولست أدري والله كيف أن الشبان المتعلمين ينتقصونها ويعرضون عنها ولا يدركون فوائدها الجلى وما تجنى البلاد من معارف متخرجيها الفنية أو أنهم هم أنفسهم لا يعرفون كيف يعيشون بها

« ولو كان ثم مدرسة تجارية وكان لى ابن رابع لادخلته فيها أو لالحقته باحدى مدارس الصناعة أو مدرسة الهندسة أو تظن يا بنى أنه توجد فى العالم مدارس تفضل مثل هذه المدارس التى تخرج عمالا ماهرين وصناعا حاذقين أو تجاراً يعرفون من أين تؤكل الكتف وكيف يكون فى العالم النجاح فتفتخر بهم الامم وترتقى برؤوس أموالهم الفنية الشعوب ؟

« أنا يا بنى وأبناءنا واهمون فى التهافت على المدارس التى لا تخرج الا فى الادبيات مثل الحقوق والازهر واضراهما لان حياة الامة المادية تفوق حياتها الادبية أن للاعمال الحيوية الاجتماعية ميزانا اذا ترجحت احدى كفته على الأخرى فسدت على الامة أحوالها وكثرت عواطلها فاخلق بالشبان أن يجعلوا ذلك نصب الأعين وان يلتفتوا الى الاهم من الأمور المهمة للغبطة والسعادة الفردية والقومية ولكن للعوائد والاميال دخلا كبيرا فى

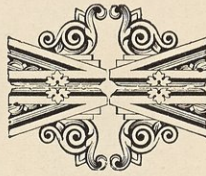
« على أنى محتاج اليك اذ أنت اتقنت فن الزراعة ألا تعلم أنى فلاح

وان لنا الآن من فضل الله أراضى كثيرة بلدنا هي في حاجة الى عناية مثلك يا بنى؟ ألا ترى ان أباك قد صار شيخاً كبيراً؟ وكفى ان أخاك الاكبر قد احترق الطب لينفع بني الانسان وأخاك الاوسط صار حقوقياً ربما صادفه بعد الخروج من المدرسة إما القضاء بين الناس بالعدل أو الدفاع عن حقوقهم بالصدق أما أنت فكن لا أبيك ، كن لزراعتنا الواسعة من فضل الله ، كن اخيراً لاهم مورد في حياة مصر بلادنا العزيزة »

فلما سمع القى هذه النصائح من أبيه رضى لها وامثل أمره وأدرك أخوه الاكبر والاوسط فضل أبيهما وجودة آرائه وافكاره فقاما اليه مسرعين يعانقانه ويقبلان يديه ويسألانه رضاه ودعاه وجعل ذلك الصغير يعانقه ويبكى من الفرح وينحى باللوم على تلك الافكار الفاسدة التي تحوم حول أبناء الشيبية تصرفها عما ينفع وتجب اليها ما يضر

وحدث في تلك الاثناء ان بدأت الازمة تلعب دورها المشؤوم فصفى الشيخ يوسف سعد شركته بخسارة قليلة أبى عليه فضله ومروءته الا تحمل خسارتها بمفرده دون باقى شركائه مما لم يؤثر قط على ثروته الواسعة غير أنه لما رأى الأحوال اشتدت وطأتها والفضائح انكشفت والانس ممن تحملوا خسارة الشركات جعلوا يصخبون ويلعنون صار ييسم ويقول في نفسه « هذا ما كنت اخشاه هذا ما كنت احذر منه أنه لم يكن الوقت بعد لقيام المصريين بالأعمال المفيدة الجليلة بأنفسهم وسيأتى زمان يدركون فيه خطاءهم وأما أنا فأراني قد تعبت ومملت من هذه الأشغال وأحمد الله على ما حصلت عليه من المال والعقار فلا نسحب بقرينتى الى بلدى لا أعيش بسلام من دخل أملاكى منتقلا

مع ذلك بين مسقط رأسى والقاهرة حيث مستقر اولادى وبعض عقاراتى «
ثم انه اخبر اولاده بما صمم عليه وبعد ان زودهم بنصائحه الذهبية ودعهم
وسافر مع السيدة قرينته على الطائر اليمون الى بلده ومسقط رأسه حيث
قابله أهلها بالترحاب والابتهاج وبعد ان كان قد خرج من تلك القرية صعلوكا
هائما على وجهه من الظلم لا يملك شروى نغير عاد اليها شيخاً جليلاً تحف به
المهابة والاكرام وأمواله وثروته تقدر بالقناطير



القصة الثالثة

في الريف

— قصة صاغها الخيال وموعظة أفادتها الحال —



بزغ القمر ليلة أربع عشرة ربيع الاول الماضى على قرية طل . . . التابعة لمركز ش . . . من أعمال مديرية المنوفية التى امتازت بين الأقاليم المصرية بمجودة الارض وخصوبة التربة ، وسكنت حركة الفلاحين من الرواح بادواتهم ومواشيهم الآتية من الحقول والمراعى ودخل كل انسان من أهل القرية داره ليتناول عشاءه البسيط مع عائلته فكان لا يسمع فى القرية حينئذ سوى نباح الكلاب وخوار الثيران والعجول وصراخ الاطفال ونقيق الضفادع فى المياه والمساق البعيدة .

يبدأ أنه لم تمض من الليل ساعة حتى علا البدر بسناؤه القبة الزرقاء فصار نوره اللماع يسطع متخللاً طرق القرية وبدأ أوئسك الفلاحون البواسل يخرجون من البيوت زرافات ووحداً ويجلسون الى بعضهم والبعض على أبواب الدور كعادتهم يتحادثون فى شؤونهم الزراعية ومحصولاتهم القطنية وغلاتهم الاخر ، أما كبراًؤهم فجعلوا ينسلون الى دار العمدة ليقضوا سهرتهم وسمرهم فى ناديه

وكان عمدة هذه القرية الشيخ طه . . . رجلاً فاضلاً وشهماً كريماً في الخامسة والأربعين من عمره طويل القامة قوى العضلات وسيم الوجه ذالحية كثة يدير أعماله بالنشاط وشؤون قريته بالهمة والاستقامة حتى شهد له بالبراعة رؤسائه من رجال الإدارة وكان على جانب عظيم من الثروة والغنى التالذ منه والطريف مما أحرزه بمجده واجتهاده ، غير أنه كان مولعاً كأكثر عمد القطر المصري بالزواج فكان عنده زوجتان وطلق قبلهما واحدة وماتت عنده قبلها أخرى وكان يطمع في الزواج بثالثة زين له الزوج بها بعض اخصائه من رجال القرية وكانت أمثلة على جانب من المال والجمال تسكن عزبة لها قريبة من قريته وتابعة لها في الإدارة ، على أن أهل القرية كانوا يشيعون فيما بينهم أن هذه السيدة هي التي دست إليه ذلك الرجل ليخطبها لكي تخلص من الخاح ابن عم لها في خطبتها وهي تأباه لسوء سلوكه .

جلس هذا العمدة تلك الليلة التي نروى حوادثها في ناديه والتف به كبراء قريته من المشايخ الحاليين والمرفوتين والمأذون وبعض كبار المزارعين وكان في ذيل المجلس حلاق القرية ثم كاتب العمدة الخوصى وهوفتى قبلى وقد تثر بين يديه عدة من الجرائد يقرأ للقوم فيها بالصوت الجمهورى اخبار البلاد وتجاراتها وحوادث العالم وسياسات الدول وهم مصغون اليه ولا غرو فالجرائد اصبحت من اكبر نعم العصر على البشر وقد نسخت آيتها في الريف الاشتغال بقصص أبى زيد الهلالي والوزير أبى ليلى المهلهل الخ . وكان الكاتب كثيراً ما يضطر الى السكوت لدخول القوم في حديث أو جدال فاذا فرغوا عاد الى قرائته عليهم وجعلوا هم يصغون بالشغف اليه

وكانت الليلة هادئة والنسيم بليلاً منعشاً والسكون سائداً إلا ما كان يسمع من نقيق الضفادع عن بعد ونباح الكلاب وأصوات الكيروان وهو محلق في الجو وحفيف بعض الأشجار وخمائل القصب المحيط بحديقة العمدة بازاء فناء الدار حيث كان مجلسه وكان القمر يسطع بضوئه البهي وقد احاطت به الهاله فزادته جمالا وجلالا ولولا خمائل القصب الهندي الممتف حول تلك الحديقة كسور لها لا أبصر الجالسون هناك الخلاء وما فيه على ضوءه الى مدى بعيد ولرأوا خصوصاً ثلاثة رجال ملثمين اقبلوا مسرعين ودخلوا بين ادغال القصب باحتراس وفي يد كل واحد منهم بندقية محشوة خرطوشاً فكمنوا بين تلك الادغال يرقبون من خلالها بعين اليقظ حركة العمدة وجلسائه وقد قال أحدهم لرفيقه :

— أترأه ؟

فقال المستؤل :

— نعم أراه كما أراك وهذا فلان الى يمينه وفلان وفلان الى يساره وهذا فلان صاحبنا معهم وهو يضحك ملء شذقيه يا لقلوب الرجال فانها صناديق مقفلة !

فقال الرجل الثالث :

— لكن هذا لا يكفي أيها الاصدقاء بل لا بد لنا من الانتظار ريثما تثبت وتتحقق لنصيب الغرض والا أفلت الصيد من يدنا اذا نحن اخطأنا المرمى بعجلتنا — والعجلة كما قيل من الشيطان — فتضيع علينا الفرصة والجعل ونكون قد عرضنا أنفسنا للهلكة أيها الرفاق والخطر ولم نشف غليلنا وغليل صاحبنا

الذي استأجرنا من ذلك العمدة الوحش فانه طالما تيقظ لنا وطار دنا كل مطرد ولولا صاحبنا الذي حثنا عليه وأغرانا به لمزاحمة هذا العمدة العتل الزنيم له على الزواج بابتة عمه صاحبة العزبة لما أتينا هذه الليلة بل أظن أننا كنا لنفكر في آتيان هذا العمل أو نجراً على الاقدام عليه أليس كذلك يا شهلان ؟
فقال المدعو شهلان وهو يبسم :

— انهن النساء يا صديقي انهن النساء فهن هن سبب كل فتنه وبلية في العالم بل وكل خير أيضاً ان لم يكن مباشرة وبالذات فبأمثال تلك الاسباب :
اذا رأيت اموراً منها الفؤاد تفتت
فتش عليها تجدها من النساء تأتت

على اني قد انتقمتم لنفسى من هذا العمدة الوغد أيام كنت أسكن هذه القرية وكان يضايقني الانتقامات الشافية المحققة عن نفسى فلقد سممت له كثيراً من المواشى وقلعت له كثيراً من المزروعات وهل تذكر يا بدوى حادثة حريق الجرن وبعد أن أشعلنا فيه النار جعلنا نصيح ونستغيث فهرع الينا أهل القرية رجالاً ونساء ليعينونا على اطفائه بعد أن كانت النيران قد التهمتته كله فصار كوم رماد فهلعت القلوب وشقت الجيوب وقد جازت الحيلة عليهم جميعاً حينئذ ولكن التحقيق أظهر ادانتنا بتجريات هذا العمدة الذميم فدخلنا السجن وأقمنا فيه بضعة سنين وكنت مزجوجاً فيه قبلنا يا علوان بسبب كتب التهديد وطرق النصب التي كنت تستعملها في ابتزاز أموال العمدة والاعيان والتجار وقد خرجنا منه معاً تحت المراقبة . . .

وسمع الاشقياء نباح الكلاب بالقرب منهم فلزموا السكون التام وقد

انبطحوا على الارض ملصقين بطونهم بأديمها لا يبدون حراكا ولا ينبسون
 بينت شفة بل ينظرون بعين الحذر من طرف خفي عن أيماهم وشمائهم :
 ينام باحدى مقلتيه ويتقي باخرى المنايا فهو يقظان نائم

﴿ ٢ ﴾

ندع هؤلاء الاشقياء الثلاثة وهم مترصدون للعمدة ليقنلوه — وقد علم
 القارئ بسبب الحمل لهم على آيات هذا المنكر من أن مزاجه على
 الزواج بالسيدة صاحبة العزبة القريبة وهو ابن عمها وأحد جلساء العمدة في
 هذه الليلة هو الذي أغرامهم واستأجرهم عليه فضلا عن الحزازات الكامنة
 من قبل في صدور هؤلاء الأشرار .

ونأتي مجلس العمدة نستمتع ما هو دائر فيه من الحديث وقد أتم الكاتب
 قراءة أهم ما في الصحف من الحوادث والاخبار وبدأ القوم يتجادبون أطراف
 الحديث في مواضيع شتى ويبدون الافكار والآراء في المحصولات القطنية
 خصوصا وأزمة النقود الحالية وحالة الفلاح وعسره

وكان أدق القوم فكراً هذا العمدة وأغزرهم مادة مأذون الشرع
 وأكثرهم هدرا وفضولا حلاق القرية
 فبعد أن أتى الكاتب على ما في الجرائد من أحوال القطن واسعاره في
 الجهات قال العمدة :

— ان أسعار القطن غير مرضية وهي على مايفهم من الجرائد مطردة

النزول بالرغم من قلة المحصول من ضعف الارض وآفة الدودة لكن للأزمة التي لعبت دورها المهم هذا العام^(١) دخلاً كبيراً في هذا الهبوط فالتاجر قد قلت في يده النقود التي صار صادرها أكثر من وادها لقلّة الثقة وقد أضحي الفلاح في أشد الحاجة الى النقود على انه كلما نزلت الاثمان ضمن بالبيع منظرأ الصعود أعوذ بالله من هذه الازمة التي جلبها على القطر اولئك المضاربون المجازفون حتى أفقدوا البلاد ثقة المالين باوروبا وكادت الضائقة تؤدى بمعين أرزاق العباد فقال المأذون :

والمصيبة أنهم يقولون ان الفلاح مدخرة عنده النقود وانه يخزنها ويحفيها ولا يثرها ولولا ذلك لا اضطر الى بيع محصوله والحقيقة ان جمهور الفلاحين على ما شاهد قليل التدبير كثير التبذير لا يألف الدرهم المضروب صرته بدليل ان اكثرهم يقترض على الموسم ثم اذا جاء الموسم وباع قطنه فقد لا يبقى له من حساب محصوله شيئاً وقد جاءت هذه السنة الشهباء ضعفاً على ابالة حيث هبطت الاسعار سواء بالحق أو بالأعيب مضاربي البورصة وشحت النقود أو فرت الى أصحابها الذين يعرفون قيمتها واشتد الضنك على الفلاح المسكين وارتبك في أمره والناس مع كل ذلك يحسبونونه غنياً مدخراً وانساناً مدبراً والواقع انه اكثر اهل هذه البلاد لجهله سفاهة وقلة تبصر مع انه بقرة البلاد الحلوب :

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

فقال الخلاق :

— نعم ما تقول يا حضرة الأستاذ ولولا ذلك لما اكثر عمد البلاد

وأعيان الارياف من الفخفة الكاذبة والابهة الباطلة في المعيشة مع ان
المعيشة الريفية أفضلها ما كان بسيطاً ومناسباً للطبيعة والفطرة الإنسانية خالياً
من التكلف ومن تأنقات أهل المدن ولكن عدوى التقليد في بلادنا هذه
يا سيدي عظيمة وحب الظهور والتزلف الى الحكام داء عضال وما أحسن ما اتصف
به جناب عمدتنا فهو رحل الواجب الذي لا يميل الا الى جد الأمور ولا يحفل
الا بصحيح المطالب الحيوية مع كرم في النفس وجود في اليد ومرؤة وشمم
فهو محل الثقة والاحترام وقد خلد له في صحائف الأعمال النافعة عاطر الذكر :

فتي يشتري حسن الشاء بمجده اذا ما اشترى الخزاة بالمال يهس
فقاطعه أحد مشايخ القرية مغيراً موضوع الكلام - وكان على غير
ما اتصف به العمدة فلم يعجبه فضول الحلاق

- أعدت يا (اسطى) احمد اليوم ذلك الرجل المسكين الذي دست
له امرأته السم في الدسم بسبب غيرتها من ضرتها ؟
فقال الحلاق وقد تحول تيار فكره وثرثرته الى هذا الموضوع :

- نعم وقد زالت عنه كل أعراض الخطر ودخل في دور النقاهة كما أفاده
الطبيب . ومن الغريب انه كان الى أول أمس يهذى وهو نائم ويقول في
هذيانه كأنه يكلم امرأته هذه التي دست له السم في الطعام « أنت السبب
في زواجي بتلك المرأة لانه ما كاد زوجها جارنا يموت حتى جعلت تحسنين لى
التزوج بها بدعوى انها امرأة فقيرة وانها ولود وأنت عقيم فلما رأيتها بالدار
معك وانها حملت أخذتك الغيرة الشديدة وزين لك شيطان جهلك ان تضحي
لى ولها السم في الطعام ولكن الله بمنه ولطفه نجانا من كيدك يا خاسرة »

فقال العمدة عند سماع هذه النادرة « أضحيج ما تقول ؟ فقال الحلاق
« نعم وحقك انه لحق ولقد كان الرجل يكرر هذا القول له مراراً في النهار
مدة ثلاثة الأيام الأول من مرضه وكانت امرأته الجديدة تسمع ذلك
وتبكي بالدموع السخينة ولما افاق ذكرت له ما كان يقول فقال والله لا أدرى
وقام حينئذ أحد الجلوس مستأذناً في الانصراف فقال له العمدة ببشاشة
ولطف « لم يحن الوقت بعد يا سيدي مهران »

فقال ذلك الرجل « اريد أن آخذ راحتي لأنني تعبت اليوم تبعاً شديداً
مع (سيدي الشيخ) وقد أوصلته الى المحطة حيث سافر الى طنطا على قطار
الظهر للزيارة ولم نخلص من المودعين والمتبركين الا بالجهد الجهد والعناء الشديد
فقال له الحلاق عند ذكر الشيخ وكان درويشاً عظيماً له كبير التأثير في
تلك الجهات وتسلط غريب على عقول الفلاحين

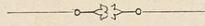
— انى والله مارأيت من ذلك الشيخ شيئاً من البركات ولا من الكرامات
وانى لمرتاب في شأنه ويعجب على ظني أنه دجال من أولئك الدجالين الذين
ينبشون في بلاد الريف يدعون الولاية وعلم الغيب والطب الروحاني الى أشباه
ذلك من طرق التحايل على العيش التي يصطاد بشباكها امثال الشيخ السذج
من سكان الريف امثالنا :

وما اسكر القوم حب الاله ولكنهم رقصوا للقصع

فقال مهران وقد تصنع التحمس لشيخه :

— أسكت أيها الرجل وألزم الأدب فانك لم تعاشر الشيخ مثلي وقد
رأيت انا له كرامات شتى ظهرت لي كالشمس في رائعة النهار ورأى له كثير

من الناس مثلها حتى ان حضرة العمدة حين وجه اليه في سره أمر زواجه بالسيدة ابنة عمي بشره الشيخ بكل خير وأعلمه بأنه سيتزوج (انسانية) سوف يكون له معها شأن وأى شأن . . . ونظر الى العمدة نظرة مملوءة بالحق والحسد وهو قابض على يده مودعاً ثم سلم وانصرف ترمقه الأ نظار وتلحظه العيون وكان الرجل وقد علم القارئ الآن اسمه هو صاحب اللصوص ومدبر المكيدة للفتك بحياة العمدة حسداً له على قبول ابنة عمه السيدة صاحبة العزبة الأقتران به دونه ويا للحسد من داء دفين تحت الضلوع قد تستحل به النفوس المنحطة المنكر واقتراف الآتأم في السر والعلانية (وحذاء كل مروءة حسادها)



﴿ ٣ ﴾

خرج مهران من دار العمدة وصدره يجيش بالحق ويغلي بالحسد وهو يتوعد الرجل في سره ويقول :

سيعلم اسماعيل ان عداوتي له سم أفعى لا يصاب دواؤها
« والله لن تصل اليها أيها الوغد اللئيم وستلقى الليلة لا بل الساعة حتفك
وأفوز أنا بها . نعم أنها رفضتني ولكني اعتقد أنها مارغبت فيك الا خوفاً
من سطوتك أيها الذميم فتى أراح الله منك الأرض ومن عليها يعود اليها
صوابها وتقبلني أنا ابن عمها وأقرب الناس اليها فأفوز اذ ذاك فوزاً مييناً »
ولم يكد يصل الى باب داره وهو يحدث نفسه بالأمانى ويعلمها بالأمال

حتى لقي واحداً من أولئك اللصوص قد سبقه إليها وهو واقف ينتظره وكان الأشقياء قد ابصروه حين غادر العمدة فبعثوا إليه أحدهم ليسترشدوا منه مرة أخرى وقد عجل منهم الصبر فأسرَّ إليه مهران كلاماً ثم دخل إلى داره على عجل واغلق بابها عليه وبدلاً من أن ينام كما اعتذر إلى العمدة حين انصرف أشعل سيجارة وجعل يتمشى في غرفته يرقب من النافذة وينتظر تلهف نتيجة ما دبر من المكيدة لاغتتيال العمدة

وكان أحد خفراء القرية قد لمح على ضوء القمر اللص في لثامه وهو يحدث مهران على باب داره فراه شأهما فلما دخل وأغلقها عليه ورأى الخفير اللص قد أسرع في عدوه يلتفت يميناً وشمالاً كالغراب في تيقظه تبعه ذلك الخفير اليقظ من بعيد ليستطلع جلية خبره وجعل يتوارى وهو يتبعه في ظلال الدور لكي لا يراه الشقي حتى وصل إلى رفيقيه وسمع الخفير كلامه فلما تبين له حقيقة شأنهم بادروا إلى دار العمدة ليطالعوه على دخيلة الأمر أما العمدة وجلساؤه فبعد أن انصرف مهران من المجلس جعلوه موضع حديثهم فقال الحلاق وهو يضحك ملء شذقيه :

— والله إن (سى مهران) واجد عليك يا جناب العمدة لأنه طالما كلمني بأنه كان يود من صميم فؤاده أن يقترن بالسيدة ابنة عمه صاحبة العزبة ولكنه لما رأى مزاجه عليها خصماً عنيداً وبطلاً صنديداً نكص على عقبيه وترك له المكان على كره منه
فقال المأذون :

— انى أعلم علم اليقين انه طلبها مراراً ولكنها كانت في كل مرة يحطها

فيها ترفضه وتأباه لما تعلمه من دخيلة أمره وفساد حاله وسوء سلوكه في بيته مع أهله ولا تخفى عليكم سيرته مع زوجته المسكينة التي هي معه الآن وقد بدد أموالها مع أمواله في قضاياها ودعاويه الطويلة العريضة وما كان يغشها ويخدعها به ويسلب أموالها لينفقها في شهواته البهيمية في القاهرة والاسكندرية حتى أصبح لا يملك الا تلك الافدنة القليلة المكلفة باسم امرأته والمرهونة للبنك العقاري ولولا مروءة جناب العمدة في استئجار هذه الاطيان وأخذة على عهده ايفاء ما عليهما من الديون للبنك مع اعطائهما ما يكفيهما لنفقتهما السنوية مما يزيد في الواقع عما تستحق الاطيان من الاجار لكانا الآن في اسوأ الحالات وأشقاها فالسيدة ابنة عمه وهي الحريضة على أموالها قد أحسنت صنعا برفضه لانه ليس كفوا لها وقد عرفت كفؤها فاخترته

فقال الخلاق وهو يتبسم وينظر الى العمدة بعين القلق : — انها والله العاقلة الرشيدة وقد دل اختيارها على كمال عقلها :

قد عرفناك باختيارك اذ كان دليلا على الليب اختياره
فضحك الجلوس :

أما العمدة فكانت أفكاره تسبح في واد آخر لانه أحس ومهران ممسك بيده يودعه بارتعاش تلك اليد كما علم من صوت الرجل ورأى في نظره الحسد والشر مجسما وكان الشيخ طه ... العمدة شهما كريما لا يرضى ان يعاديه أحد ولا يجب أن يبغضه انسان بسبب يكون في قدرته تلافيه وحسمه الخلاف فيه شأن الامجاد وسنة كرام الأنام فقام لساعته يتمشى في حديقة الدار وهو يقول في نفسه والقوم جلوس شاخصون اليه « ما الذي يضرني اذا أنا عدلت

عن الزوج بالسيدة . . . صاحبة العزبة وانتحلت الاعذار ثم ساعدت مهران على الزواج بها ؟ فهل أنا طامع بما لها كاولئك الاذنياء الذين يطعمون بأموال نسائهم ؟ هل هي أفضل ممن عندي من نسائي ؟ انها لمروعة ويدأخذها عند الرجل اذا أنا أعنته على نيل مبتغاه اكراماً لحرمة المرحومين والده وعمه اللذين كانا من أعز أصدقاء بيتنا وان كان جل مراده على ما يظهر انما هو ثروة تلك السيدة ابنة عمه ولكني أراها أحرص من ان تئيله منها الا بمقدار ما يصلح حاله . انه لمن صنائع المعروف التي تقى مصارع السوء اذا أنا قضيت للرجل حاجته وأثلته وطره وعسى الله أن يصلح بذلك شأنه »

وحدثت حركة في القصب حيث كان اللصوص كامنين ولو لم يكن العمدة مشغولاً بأفكاره لسمعها وتنبه لها وكانت هذه الحركة حركة قدوم مهران فانه لم يطق الصبر على البقاء في داره دون أن ينظر أو يباشر بنفسه ما دبر من المكيدة لازهاق روح العمدة حتى يخلو له الجو منه وطفق اللصوص يقصون عليه ما سمعوا من الحديث الذي دار بشأنه وان العمدة لم يجب بشيء بل قام يتمشى غارقاً في أفكاره كما يرى

وهنا لزم اللصوص ومهران السكوت لان العمدة بدأ يكلم جلساءه بالصوت الجهورى وهو يتمشى في الحديقة واضعاً يديه خلف ظهره بما دبر في نفسه من الخير فانصت اليه جلساؤه في مجلسهم كما أصغى مهران واللصوص في مكمنهم فقال :

« اعلموا أيها الاخوان انى كنت ولم أزل متردداً في الزواج بتلك السيدة وحيث أن صديقنا سى مهران يرغب في الاقتران بها وهى ابنة عمه فهو أولى

الناس بها واني أشهدكم والله على بآني باذل جهدى في اعانتة على ما يريد ...
وما كاد العمدة يتم عبارته وقد دنا وهو يتمشى من مكان اللصوص حتى
صوب اليه مهران بارودته فأطلقها عليه وهو يقول « تكذب أيها اللئيم أنها
لحيلة منك ولكنها لا تجوز على مثلى » وأطلق الاشقياء كذلك عليه بنادقهم
فارتجت من أصوات طلقاتها القرية وخر العمدة قتيلا يتخبط بدمه فذعر كل
من كان بمجلسه وتبتوا مكائهم وقد عرتهم الدهشة وبهتوا بضغ دقات ثم أفاقوا
لهول المصاب وفضاعة الجريمة فقام المأذون وهو يقول « لا اله الا الله انا لله
وانا اليه راجعون » وقام وراءه مشايخ القرية والحلاق والكاتب وأسرعوا
الى العمدة وأحاطوا به وهو على آخر رمق من الحياة والدم يسيل من ثلاثة
مواضع في جسده وقد خضب وجهه ولحيته فشم الحلاق عن ساعد الجد
وانزع عمامته عن رأسه وجعل يضمد بها جراحه ثم نقلوا الجريح الى داره وقد
استيقظ كل من في القرية وهربوا الى مكان الحادثة وعلت أصوات
النساء بالعيول والصراخ وجعلت الكلاب تهر وتنبح والمواشى في مرابضها
تخور والدجاج والاوز تصيح الأدميون في غم وكدر من هول مصابهم
في عمدتهم والحيوانات في فرح وابتهاج ظننا منهم ان الليل قد أدير والصبح قد أسفر



كان الخفير الذي عرف بسر المكيدة على نحو ما سبق واسمه حسن
زيدان قد وصل الى باب دار العمدة ليعلمه جلية الخبر ولكنها ما وطئ عتبة

باب الحديقة حتى سمع العيارات النارية الاربعة وشاهد العمدة مجندلا يتخبط في دمه في وسط الحديقة عند ذلك رجع أدراجه ثم صرخ بأعلى صوته على باقي خفراء القرية قائلاً « أبعوني يا رفاق فلقد قتل عمدتنا وأنا عالم بمكان الاشقياء الذين قتلوه عالم بمصدر المكيدة أبعوني قبل أن يفتل هؤلاء الاذنياء وتضيع منا الفرصة »

فلم تكن الا هنيئة حتى أحاط هؤلاء الخفراء البواسل وفي مقدمتهم حسن زيدان ومعهم بعض رجال القرية بنبايتهم باللصوص ومهران وقد خرجوا من مكنتهم يريدون الفرار الا أنهم لما رأوا أنفسهم قد أخذوا من مكان قريب وأحاط بهم الخفراء من كل جانب حشوا بنادقهم وأطلقوها عليهم فقابلهم الخفراء بالمثل ودارت معركة هائلة بين الفريقين انتهت بعد منتصف الليل بانتصار الخفراء والقبض على الاشقياء بعد ان جرح واحد منهم جراحا بليغة واصيب ثلاثة من الخفراء بجروح خفيفة

وسيق المجرمون الى دار العمدة حيث ضبط أحد مشايخ القرية الواقعة ودون محضرها الاول وأخبر المركز تليفونياً بالحادثة خفف مع الصبح الى القرية معاون البوليس ومأمور المركز ووكيل النيابة وطبيب المركز وعملوا تحقيقاً دقيقاً ظهرت منه ادانة مهران وانه المغري لهؤلاء الاشقياء المستأجر لهم على قتل العمدة بل المباشر بنفسه معهم لتلك الجريمة الفظيعة بسبب حسده له وبغضه اياه فاستاقوا الجميع الى السجن تحت المحاكمة ليلقوا جزاء ما جنت أيديهم ونقلوا الجرحى الى المستشفى ما عدا العمدة حيث قرر الطبيب ان اصابته خظة وان الافضل أن يترك للمعالجة في داره

وفي أصيل ذلك اليوم قرأ أهل العاصمة خبر الحادثة في الجرائد وقد طيرها البرق إليها وعنون لها بعض الصحف « بالحادثة الفظيع » وبعضها « باختلال الامن العام » في الاقاليم وعلقت عليها كلها ما شاءت أن تعلق من الملاحظات والانتقادات وانقسم الرأي العام في الحادثة قسمين فريق أخذ ينحى باللائمة على الحكومة ويرميها بالتقصير وفريق جعل يتأفف من تلك العادات الفاسدة التي لم يزل عليها بعض أهل الريف مما يثلم شرف الأمة ويحط بقدرها بين الامم مع اجماع الكل على استنطاق الحادث وطلب تشديد العقاب على اولئك العتاة البغاة ولا سيما رأس العصاة ومدبر المكيدة مهران حتى يكون في ذلك العبرة للاشرار أمثالهم وقد كثرت الجنايات من هذا القبيل على ضروب شتى وجعل أهل القرية يلفظون كذلك بالحادثة ويذكرونها بالاسف والتحسر لمكانة الشيخ طه ... عمدتهم المحبوب من قلوبهم ويصبون حام سخطهم على مهران مقترف هذه الجريمة الشنيعة ويلعنونه ويذكرون أيادي العمدة البيضاء عليه وانه كان قد أظهر قبيل الحادثة خصوصاً عدوله عن ذلك الزواج المشؤوم وصرح على مسمع منه بأنه سيساعده على اقرار عينه بها ولكن يا للخسة ويا للؤم الطباع قال أحد سكان القرية وكان في جمع حافل من أهلها أمام دار المأذون في تلك الليلة التالية لليلة الحادثة بعد أن خاضوا عباب الموضوع على هذا المثال مثني وثلاث ورباع شأن البشر في كل حادث خطير وأمر جلال ينزل بهم وقد بزغ القمر وطاب للقوم على ضوءه السمر وان كان يشوبه الحزن والكدر

— والمصيبة أيها الاخوان ان هذا الاثيم من المتعلمين المتأدين المهذبن

وقد أرسله المرحوم أبوه وهو صغير الى المدارس والمعاهد الدينية في طنطا
ومصر فكث ثمانى سنوات يدرس ويتعلم ولم يأت القرية الا بعد ان مات
أبوه وعمه فكانت سيرته كما تعلمون وكأنه ما تعلم ولا درس ولا عرف
« ما قال الله وقال الرسول »

فقاطعه المأذون قائلاً

— انها طباع السوء يا بنى ولا يفيد فيها علم ولا أدب
اذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب
فقال الحلاق بثرثرته المعهودة

— اذا كان الامر كذلك أيها الاستاذ فلا داعى اذاً للتعب والنصب
في التربية والتعليم وقد اجهد الحكام أنفسهم في حث العمدة والاعيان في
نواحيننا على انشاء الكتاتيب والمدارس بهمة لا تعرف الكلل ولا الملل
فقال المأذون وكان مضطجعاً على جنبه وقد علت وجهه علام الجذ والاهتمام
— ان هذه الطباع السيئة التي قد لا يفيدها التعليم والتهذيب الفائدة
المطلوبة قليلة وشذوذ للقاعدة العامة من طباع الناس ولولا ذلك لفسد نظام
الاجتماع البشرى فالعلم والادب يفيدان الجمهور من بنى آدم بل هو غذاء
أرواحهم وقوام حياتهم ولكن نتائجهم في الطباع السوء قد تختلف عن نتائجهم
في طباع الجمهور السليمة غالباً لان في تلك أمراض نفسية موروثه عن
أجدادهم وقد تنقلب فيهم وتتكيف في أدوار اعمارهم وتظهر بمظاهر شتى
ولكنها تكون متجانسة متقاربة ومعلوم أيها الاخوان ان النخل هو الذى يلد
النخل والحنظل لا يثمر غير الحنظل والناس كما في الحديث الشريف معادن

كمعادن الذهب والفضة وهم كالاراضى الزراعية منها الاراضى الجيدة والاراضى الخبيثة ومنها ما يحتاج الى عظم عناية وكبير علاج حتى تأتى بالزرع فالثمر ولحسن حظ الانسانية ان السواد الاعظم من بنينا جيد المعدن سايم الفطرة حسن القابلية متى عنى بتربيتهم وتهذيب نفوسهم صلحوا وتهذبوا وترقوا وتقدموا خصوصاً اذ غدوا بالتربية الصحيحة والتعليم المفيد منذ الصغر والتعليم فى الصغر كما جاء فى الحديث الشريف كالنقش على الحجر « ثم استطرد قائلاً وهو يتنفس الصعداء » على انى آسف شديد الاسف لان عوامل التربية عندنا قاصرة وسطحية لا يقصد منها تهذيب النفوس بالذات بل جل القصد منها مطالب الحياة المادية والتربية ان لم تؤسس على الآداب النفسانية لتقوية روح التضامن الانسانى فقل أن ثمر الثمر الشهي بل تنعكس فيها الآية ويضحى الصالح طالما يحكم الوسط وعوامله الفاسدة ويكون جرثومة فاسدة اضيفت الى اشباه لها من قبل وقد زادها التعلم والتطور تقنناً فى الشر فأهم شئ يطلب فى التربية والتعليم العصريين انما هو تقيم نفوس الاطفال بكل الوسائل وبجميع الوسائل الممكنة بتعاون العائلة والمدرسة والهيئة الاجتماعية حتى تؤسس تربية الاطفال والنشء على أقوى الدعائم ولكن لسوء الحظ فان هذه القاعدة الاساسية فى حكم المفقود عندنا فالرجل يرسل ابنه الى المكتب أو المدرسة أو الازهر ليتعلم ويتثقف فلا يجد الناشئ فى كل تلك المعاهد سوى الدروس النظرية ويرى لسوء الحظ من الوسط عملياً سواء فى البيت أو فى المدرسة أو الهيئة الاجتماعية عكس تلك النظريات فلا يحفل حينئذ بما تكون نفسه أحرزته من مغزى الآداب فى دروسه ولا يطبقها على عمله وفى سلوكه بل

يجعل همه منصرفاً إلى الحياة المادية وأحرازها بأى الوسائل التي تهديه إليها فكرته المستفادة من عادات وسننه وقد يطرح وراء ظهره تلك الآداب والفضائل وتخلو منها نفسه شيئاً فشيئاً واذ قد تصادمه القوانين العمالية القائمة فهو يجتهد فقط لالتباس المخرج من عبء مسؤولياتها والاستفادة منها كما يلتمس المحامى الماهر حل معضلاتها والخروج من مشكلاتها من أجل ذلك أقدم الناس على العدوان بعضهم على بعض بنسبة ما استفادوا من الطباع وتكون لهم من العادات بلا اعتداد بوازع الآداب الصحيحة النظرية فالذي يقترف الآثم لا يجهل غالباً ضررها وأذاها ولكنه يقدم عليها لتجرد نفسه بحكم العوائد من روح الآداب والاعتداد بقيمتها الصحيحة عملياً وقد اكتسبت طباعه سواها أو مزيجاً من جيد الأخلاق ورديتها وهذه الأحوال تختلف باختلاف الوسط والطباع ففي المدن يكثر حب الشهوات والفجور وفي الريف يكثر حب الانتقام والعبث بالأمن العام وفي بعض الناس يكون الدافع شديداً مستعصياً بحكم الطبع الغلاب وفي بعضهم يكون ضعيفاً تافه العمل سريع الزوال بحكم الطبع كذلك على أن لما نشككي منه عندنا وتوَجَّع أشباه ونظائر لدى سوانا من الأمم ولقد حسب بعض العلماء ممن يسمونهم بالفلاسفة الخيرات والشورور في حياة الإنسان تلقاء هذا الحال فوجد الشر فيها يربو على الخير بكثير فلذلك حكم بأن الحياة نعمة على الإنسان وليست نعمة فالسعيد إذاً من جاهد نفسه وهواه ذلك الجهاد الأكبر فحصل الخيرات واكتسب الفضائل ونبذ بذ النواة الشرور والرذائل حتى صفت له موارد الحياة وزاول بالأرادة الصحيحة صحيح لذاتها الإنسانية وما لفظ المأذون عبارته الأخيرة من كلامه أو خطبته هذه

الطويلة على القوم وهم منصتون اليه صاغون الى كلامه بعضهم يعي له وبعضهم غير مدرك معناه حتى علت الاصوات أصوات النائمات في دار العمدة لان المسكين كان قد قضى نحبه في تلك الساعة من جراحه بين اذرع زوجته وبناته فصرن يصرخن ويصحن (واسيداه واسنداه واسبعاه) فوجمت النفوس حول المأذون وخشعت القلوب لهول المصاب وجعل القوم يحوقلون ويسترجعون وكأن بومة وقد وقعت تلك اللحظة على شجرة هناك تصوت وتصفر بصوتها الرهيب نذير للقوم بان شرور الانسان من الانسان وكان كير وانه وقد حلقت في جو السماء فوق الرؤوس هذه الآونة تصيح بصوتها الشجي المعلوم (لك لك لك) سفير آخر لهم بأن الأمر كله لمن لا يعتوره الفناء وان له وحده سبحانه الدوام والبقاء



القصة الرابعة

— ❦ س . . . بك ❦ —

(قصة خيالية وموعظة أخلاقية)

في نحو الساعة الثالثة من مساء يوم من أيام شهر نوفمبر الماضي وقد أخذت مدينة القاهرة زخرفها وعادت إليها حركتها وكثرة زوارها وقف س . . . بك — وهو شاب من موسرى أبناء هذه العاصمة في مقتبل العمر وشرخ الشباب لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره بهي الطلعة قوى البنية تظهر عليه دلائل النجابة ونزق الشباب — امام المرآة في غرفة الزينة بداره في شارع . . . يهيهء نفسه للخروج ويستعد للذهاب الى «الازبكية» متنزه الشباب وملتحق الاحباب

وقف س . . . بك هذا الموقف وهو أحب المواقف لبعض أبناء الشبيبة العصرية فبعد ان أجرى ما هو ضرورى من غسل الايدي والوجه وتسريح الشعر بدأ يتطرف في التبرج والزينة الجديدة فأخذ مادة وذلك بها وجنتيه ودهانا آخر فتل به شاربيه ثم زجيج به حاجبيه وجاء بفرشة صغيرة ونغمسها في سائل ودعك بها أسنانه ثم تناول مشطا وفرشة من الفضة الخالصة الموهمة بالذهب وجعل يفرق بها شعر رأسه فرقا مخصوصاً حتى أضحي فلتقين وله (قصة) مدلاة على الجبين بشكل مخصوص جديد لست اعرف اسمه فليعذرني

القارىء أو بالتالى ليغتفر هذه الذلة للغتنا العربية على نقصها وخلوها من هذه الاسماء (الموضحة) وهى ليست بموضحة

مضى على س . . . بك زهاء ساعة وهو يهيبه نفسه على هذا الطراز الجديد المستطاب ثم دق جرس الساعة فى بهو الدار الساعة الرابعة وكان سماعه لهذه الدقات نبيه الى أنه قد تأخر فعمد الى قيضه الجميل والى سر واله اللطيف فلبسهما بسرعة ثم جاء الى موضع الأحذية أو معرضها من الغرفة فاتقأ أجملها شكلاً فاتعلمه الا أنه لما جاء دور « ربطة الرقبة » جعل « يربط ويحل » ثم « يحل ويربط » الى ان أحكم رباطها على ما تشتهي نفسه وتقر به عين أمثاله من الشبان كل ذلك وهو يروح ويغدو فى الغرفة أمام المرأة مترنماً تارة بشعر عربى وطوراً بشعر اعجمى وكلاهما يدور حول محور التشيبب بالضياء العيـد . ثم فتح خزانة الثياب واخرج منها صدرية بازرار ذهبية مرصعة بالمالس فلبسها وعمد الى سترة مخيطة باحكام ومبطنة بالحرير فارتداها ثم تعطر ولا كعروس ووضع فى منديله عطراً آخر من زجاجة غير الأولى عقب شذاه فى أرجاء الغرفة ان لم اقل فى الدار كلها . وكان كل شئ من أدوات الزينة والعطر والثياب موضوعاً بمكانه المعدله على الموائد وفى الخزائن والصناديق والحقائب والعلب بكثرة تفوق أدوات زينة العرائس . وكان جرس الساعة قد دق الرابعة والنصف فى بهو الدار الا ان . . . س بك لم يسمعه ولكنه لما أحس بتأخره اخرج ساعة جيبه الذهبية المرصعة بالدر والجوهر فدلته على قرب انتهاء الساعة الخامسة عند ذلك اسرع الى المرأة ووقف أمامها مرة ثانية يفتل شاربيه ويصلح وضع طربوشه وينظر الى صدريته وسترته وسرواله وحذائه الخ ثم

تأخر عن المرأة بضع خطوات لينظر شكله وهندامه عن بعد وبينما هو منهمك في عمله دقت الساعة الخامسة غير أنه لما رأى عيباً في وضع طربوشه لم يعبأ بذلك ولم ينفل به بل جعل يصلح وضع طربوشه ويسوى من تحته الشعر غير مكترث للوقت وقد آذنت شمس النهار بالمغيب وفيما هو مشغول باصلاح شأنه على هذا النمط البارد دخلت عليه خادمة صغيرة فوقفت بجوار الباب ترمقه باستهزاء وهو لا يشعر بها وتسخر منه باخراج لسانها وهو لا يعلم بمكانها غير أن الخبيثة لما أحست بانه سيلتفت الى ناحيتها أسرع الى نداءه قائلة :

• — سيدى أن ل . . . هانم الخاطبة قد حضرت وهى تطلب مقابلتكم والسيدة والدتكم أمرتني بان أعلمكم بحضورها وهما جالستان في غرفة الاستقبال فقال س بك وقد علت أسرته علائم السرور والابتهاج — اذهبي اخبريهما اني آت قريباً

فذهبت الخادمة مسرعة الا ان س بك لبث يصلح من شأنه على تلك الصورة وقتاً آخر طويلاً فجاءته الخادمة ثانية وهى تقول

— تفضل بالمجيء يا سيدى فان سيدتى تقول لكم ان الست ل . . . تريد أن تذهب الى دارها وقد أمسى عليها المساء

فقال لها الشاب وقد احتدم غيظاً من مجيئها اليه مرتين

— اذهبي أيتها الملعونة فقد قلت لك ها أنا ذا حاضر فخرجت الخادمة

وهي ترجف منه الا أنها لم تبعد خطوات حتى ناداها وهو يقول

— افتحي يا عائشة أنابيب النور فقد أوشك الظلام أن يخيم

فرجعت الفتاة وأمسكت بمفاتيح النور الكهربي وادارتها فانقلب المكان

الى نهار ساطع بعد أن كانت الظلمة قد سدلت عليه سجنها وهو لاه بشأنه فلما رأى ذلك نشط في عمله ثم ذهب الى مكان عصيه فامسك عصا منها مقبضها من الذهب الخالص على شكل رأس الطاووس فوضع هذه العصا على احدى ذراعيه ووضع رداءه الخارجى على الذراع الأخرى ثم خرج من الغرفة وهو يقول للخادمة وهي واقفة بجوار الباب تنظر اليه بعينين ملؤهما الخبث والرياء — احرصى على ابقاء كل شىء مرتباً فى مكانه أيتها الرعناء والا فانى

ولا ريب (املص) أذنيك

أما الفتاة فما كاد يوليها الشاب ظهره حتى صارت تتأفف وتلوك عبارات سخط متقطعة بصوت خافت لا يسمع « قُبِحَتْ خدمة كلها تعب وعناء ... ارتب كل شىء مكانه وهذا ال يعثره ثم يوبخنى وما أحراره هو بالتوبيخ والتقريع يسهر الليل كله وينام النهار (بطوله) ويمكث خمس ساعات فى لبس ثيابه ويتبرج ويتزين ويضع أنا لست أدرى ان كان هذا فتى أم فتاة فما أشقى هؤلاء الناس بغناهم وما اتعسهم بحظوظهم ليت لى نصف ماله ليت لى ربه ليت لى عشره فأكون أسعد منه حظاً وأنعم بالآ وأعرف بقيمة النعمة وقدر الثروة فلا أبذرهما فى أمور تعود على بالوبال ولا أضيعها فيما يثلم الشرف ويحلب الخسران لكن قبحت هذه الدنيا الدنيئة فانها تعطى من لا يعرفون قدرها وقيمتها فيسرفون ويبذرون ما جمع لهم الآباء هؤلاء الآباء الذين عرفوا كيف يعملون بالجد وكيف يبنون المجد وكيف يجمعون الثروة بالاجتهاد والسعى والنشاط والاستقامة والبعد عن هذه السفاسف والنقائص الواقع فيها الآبناء اليوم على أنى والله سرورة مما ستؤول عليه حالة هذا الفتى الغرحتى

ينتهي من نخبخته ويعدل عن عجزته ويعرف قدره الحقيقي متى عضه الفقر بنابه وأناخ عليه الدهر بكل كلكه وهو على وشك السقوط في مهواته السحيقة آه ولكني آسف على سيدتي والدته هذه المرأة الكريمة البارة الرشيدة وقد بدأ يقلقها حاله ويربها المصير



ترك هذه الخادمة الرعاء تهرف بما لا تعرف وتقول في الاقدار ماشاءت ان تقول وهي تعمل في الغرفة ترتب وتضع كل شيء مكانه وتتبع خطى س . بك فأنه ما كاد يخرج من غرفة الزينة حتى تعطرت ارجاء الدار برائحة عطره التي كانت تسبقه ونم عليه كما نم وقع اقدمه بقدمه الى حيث كانت السيدة والدته والخالطة ل . . . هانم في انتظاره فلما اطل عليهما من باب الغرفة قامت اليه هذه السيدة خيته بالأعظام والأجلال ثم قالت وهي تبسّم وكانت امرأة كهلة بدنية تعرف كثيراً من بيوت القاهرة واشتهرت بمزاولة صناعة « الخطبة » - قضيت مهمتي يا سيدي البك على ما تحب وترضى وأرى أن تسرع بتقديم الهدايا والتحف والمهر كما يطلبون ولا أخالها كثيرة عليك فالمر خمسائة جنيه والهدايا لا تكلفك ضعف هذا المبلغ ويتلو ذلك حفلة عرس تناسب مقام سعادتك . فتمهقه س بك ثم قال - أنا لا يهمني كل ما يطلبون وسأقضيه لهم كما يرغبون وإنما يهمني قبل كل شيء أن تكون العروس على ما تشتهي نفسى جمالا ودلالا وزينة وكياسة لا ككنساء العهد القديم اللواتي كن لا يعرفن غير البيوت وهم البيوت والانكماش في البيوت . . .

فقاطعتها السيدة والدته وهي تنظر اليه بعين ملؤها الحنان والشفقة قائلة
 — أراك يا بنى مخطئاً خطأً جماً فان تلك الاحوال التي تزدريها وتحتقرها
 على حسب ما يوحيه اليك فكرك القاصر لحي الاحوال الطبيعية للمرأة وأما
 هذه الأمور المستحدثة فاني أراها كبيرة الضرر عظيمة الخطر على النساء بل
 على كل أبناء الهيئة الاجتماعية غير أن الناس يحسبونها من لوازم المدنية
 والحضارة لما يرونه من زخرفها وبهرجتها في الهيئة ولكن يا بنى بثست الخصال
 هي ثم تمثلت بهذا البيت :

العيش خير في ظلال الجهل ممن عاش كدا

فطأ طأس . . رأسه حياءً من والدته ونظرها الحاد الموجه اليه وكأنه
 أحس بما يشغل فكرها ويثير أشجانها منه فقام مسرعاً وهو يقول للخطبة
 — أنى ذاهب الآن لاني مرتبط بموعدهم ببعض الاصدقاء وسأحضر
 (خاتم الخطبة) في هذا الأسبوع لتقدمه والدتي الى آل العروس أليس
 كذلك يا أماه ؟

أما السيدة والدته فلم تجبه بشيء لان افكارها كانت تجول في واد آخر
 ولما خرج تبعته الى خارج الغرفة حيث استوقفته وهي تقول أرجو منك
 يا ولدى أن لا تطيل السهر ولا تسرف في مالك وتذكر ما عليك من الديون
 والرهون وقد اتسع خرقها بسبب سوء تصرفك وصحبتك الاشرار والاغرار
 الطائشين ممن لا يعرفون للحياة نظاماً ولا للعيش تدبيراً فقال س بك

— لا تخافي يا والدتي أنه وان كان قد نفذ كل ما عندنا من نقود الايجار
 تقريباً والاطيان مرهونة فسارهن هذه الدار لنخرج خصوصاً من حفلة

الزواج فرحين مشكورين

ثم أسرع الى السلم فطوى درجه طياً أما والدته فكانت تنظر اليه والدمع
يذرف من عينيها وحين انقطع وقع اقدامه على السلم رفعت طرفها الى السماء
وجعلت تضرع الى الله تعالى وتقول في دعائها :

« إلهي اليك الملجأ فيما نزل بنا اضرع اليك وأنا الضعيفة ان تصرف
عن ابني هذا السوء عاجلاً يا ارحم الراحمين »

وبينا هي تناجي ربها على هذه الصورة الرهيبة خرجت الخاطبة فرأتها
شاخصة ببصرها الى السماء بحالة لم تعهد لها أمثال هذه المرأة المنحطة فارتعدت
فرائصها أما السيدة والدة س بك فالتفتت اليها وهي تبسّم ثم وضعت في يدها
شيئاً من النقود وصرفتها قائلة :

— أظنين أني أحب ان يتزوج ابني من فتاة على ما تصوره له منازعه

الحالية فقالت الخاطبة

— اذاً أنت لا ترغين ؟

فقالت السيدة أم س بك بسرعة :

— اللهم لا

* * *

كانت سيارة س . . . بك تنتظره على باب الدار والخدم وقوف ينتظرون
خروجه فلما خرج من دار الحريم مسرعاً وهم بالركوب ناوله البواب كتاباً
باسمه وقال ان أحد البرابرة أعطاه اياه ففض ختامه بلهف فاذا فيه باللغة
الفرنساوية ما نصه :

« عزيزى س . . . بك أنى بانتظارك ولكن حذار من ان تحضر خلواً
 مما وعدتني به من تلك الهدية الصغيرة » محبتك ف . .
 فطوى الكتاب وهو يبسم ووضعها في جيبه ثم فتح باب السيارة وركب
 وأمر السائق بان يذهب به الى شارع (المناخ)
 فتحركت السيارة وعلا في الجو صوت صفيرها ونفيرها ثم جرت
 بسرعة البرق فلم تمض بضعة دقائق حتى كانت امام دكان تاجر مجوهرات
 في ذلك الشارع فنزل س بك وطلب جواهر وتحفا وضعها بعلها في جيوبه
 وأضيف ثمنها في دفتر التاجر (على الحساب) بلا مساومة
 ثم ركب اتمويله فطار به الى (اسبلندبار) حيث لقي صحبه وخلانه
 اجلس اليهم وسكنوا اليه كعادتهم وأمر سائق السيارة بالرجوع الى الدار وان
 يخبرهم (بان لا ينتظروه للعشاء)

*
* * *

لبث س بك بين أولئك الأصحاب والندماء في مسامرة ومنادمة
 وقرع كؤوس وحديث حلو لذيذ في السياسة والكياسة والاحزاب والطوائف
 والدول والممالك ثم في الظرف والظرفاء والغواني والمعاني والمراسح والمثلات
 وبالجملة فان الانسان في مثل هذه المحاضرات والمناديات بين الكاس والطاس
 يقب العالم السياسى والاجتماعى رأساً على عقب ويفصل مما يصوره له الخيال
 حقائق ناصعات وآيات بينات . سنة المدنية والتمدنين في جميع أقطار هذا
 المعمور — فلما أزفت الساعة التاسعة قال بعض الندماء ممن كان لظرفه يوافق
 كلا على فكره وهواه ويجمع بين الأضداد مشايمة ومسارة للظفه

— لنذهب نتناول العشاء في مطعم (ساتى) أو فى (كوفاتش) وبما
ان س . . . بك قد (رضيت عنه كرام عشيرته) واعنى بها (حوريته بل
مغناطيسه) ف . . . هانم فليكن حسابنا هنا وهناك عليه الا توافق على ذلك
يا عزيزى س . . . حباً بتلك العادة الحسناء التى طالما سمعتك تنشدنى فيها
اسحب ذيلى الى منازلها ولا أبالى من لام أو عدلا
ما العيش الاساح محسنة وقهوة تترك الفتى تملا

فضحك القتيان اسماع هذا الشعر وصادقوا على مقترح النديم الظريف .

• أما س بك فدفع الثمن ولم ينس بنت شفة ثم قام معهم الى مطعم (ساتى)
فتعشوا ثم ذهبوا الى القهوة (المصرية) ففضوا فيها رداً من الليل اقترح
أحد الرفاق فى آخره الصعود الى مكان معد للقمار وكان س . . . بك وهم
خارجون من (اسبنددبار) اخرج من جيبه ورقة (بنك نوت) بقيمة خمسين
ليرة مصرية وأبدلها بنقود ذهبية فلما صعدوا الى مكان اللعب وكان مكتظاً
باللاعبين اضطر س . . . بك وهو يلعب ان يخرج (سفتجة) أخرى وأخرى
وهو مع ذلك يخسر ولولم يتذكر موعده مع ف . . . هانم ليلت يلعب كعادته
حتى مطلع الفجر فقام حينئذ وقام لقيامه اصدقاؤه ونزلوا فلما خرجوا من المكان
استوقف مركبة واستأذن اصدقاءه فجعلوا ينكتون معه ويضحكون ويقهقهون
بالصوت العالى على قارعة الطريق وقد لعبت الخمرة بالرؤوس فلم يخلص
س . . . بك من أيديهم الا بشق النفس حتى جعل فريق منهم يعدو وخاف
المركبة يشيعونه (بالنكتة) اللطيفة والكلمة المستظرفة !!!

وقفت العربية به الساعة الواحدة بعد منتصف الليل امام دار كبيرة

رفيعة العماد بشارع . . . وهي معدة لما يسمونه في الاصطلاح الجديد (بنسيون) فنزل س بك ودخلها ثم صعد السلم الى الطابق الأول فقرع باباً فلم يكن الا هنيهة حتى كان الى جانب معشوقته يتناغيان ويتعاطفان والخدماء رائحة جائية تهيبه سفره المدام وتوقد الشموع وتجهز المكان

لبث س . . . بك مع حبيبته في بسط وانسراح الى أن ران الكرى على الأجنان فناما متعانقين الى الصباح ولم يستيقظا الا قبيل الظهر فباس ثيابه وودع معشوقته وانصرف الى داره

فقابله حين دخل الدار وكيله وكأنه كان ينتظره وقد علت وجهه غبرة فقدم اليه (رزما) من الورق كلها (كشوفات) وكلها اعلانات يطالبه التجار فيها (باستجارات) تربو على الأربعة آلاف جنيه مصرى

— عند ذلك أسقط في يده فجعل يمشي في فناء الدار يفرك يديه ويضرب اخماساً لاسداس والوكيل واقف في ناحية ينظر اليه والسيدة والدته الفاضلة ترقب حركاته من وراء ستار من النافذة . أما هو فكان يقول في نفسه : « ما العمل أن المبلغ الذي حصلناه من ايجار الاطيان قد ذهب ادراج الرياح وكذلك مبلغ السلفة الأخيرة لحق به ووراءنا حفلة العرس . . . والبيت أعوذ بالله من الجنون أضيع مالي وقد كان كثيراً في أمور شيطانية ؟ أهذا هو مبلغ حظ الحياة وسعادتها . ولو أردت الآن رهن هذا البيت لا يكفي ما ارتهنه عليه وقد سمعت أمس من السماسرة ان البنك قد لا يعطيني المال المطلوب مني كله ثم ما يكفي لنفقات العرس . وهيني حصلت النقود المطلوبة فكيف يكون السداد وعلي أقساط أخرى لديون أخرى . . . ليتني لم أجار

شبان اليوم .. ليتنى لم أصاحب هذه اللعينة ف ... الخادعة النصابة ...
 ليتنى لم أتعلم لعب هذا القمار الخاسر تعساً لهذه الحياة التي كلها تعب ونصب ..
 أيكون سلاح الدهر عليّ مالي و ثروتي ... أيكون بؤسى من غناي وشقائى
 من نعيمى ... ليت أبى لم يترك لى ثروة ولا ميراثاً ... ليتنى لم اكن ...
 بقي س ... بك غارقاً فى هذه الأفكار السوداء وعلامات الهم والنم
 بادية على وجهه غير مكترث لنفسه وقد نزل رذاذ من المطر فبلل ثيابه وهو
 يسقط فى فناء الدار ، بلل الثياب التي كان يخاف أمس عليها حتى من هبوب
 النسيم ويعنى بلبسها بكل أحكام وتدقيق !!!

الا أنه استيقظ أخيراً على صوت وكيله وهو يناديه قائلاً :

— تفضل سعادتم بالذهاب الى دار الحريم فالسيدة والدتم أرسلت تدعوكم
 فهرول س ... بك وكأنه تذكر المؤاسى الحقيقى الباقى له فى هذا العالم
 من تلك الأم الشفيقة الى باب الحريم فدخله ثم صعد السلم مسرعاً وذهب
 تواء الى حيث كانت والدته فألقى بنفسه فى احضانها وجعل ينتحب ويجهر
 بالبكاء والعيويل كالطفل أعوزه الرضاع وهو يقول « قد ضعت يا أماه »
 أما والدته فقد عرفها القارىء حكيمة رشيدة تلجأ الى الله فى الشدة
 كما تشكره فى الرخاء فلم تدهش لحاله ولم ينزعج خاطرها لمقاله بل قالت له
 بلطف وهوادة :

— أنك يا بنى لو كنت سمعت لنصحي من يوم مات المرحوم والدك
 وتابرت على دراسة العلوم والمعارف بالجد والاجتهاد والاستقامة لكنت اليوم
 فى اهنأ عيش واطيبه ولنت الشهادات العالية وتوفر عليك مع ذلك مالك

ولكنك ما كاد يحول الحول على المرحوم أبيك حتى تحول تيار فكرك من الاستقامة والنشاط الى الأعوجاج والتخث وقد التف حولك جماعة من أبالسة الأئس ومردة بني آدم فعلموك الشرب وعلموك اللعب والسهر والتبرج واتباع سبل المفسدين والمبذرين ولكن يابني لا تحزن ولا تيأس من روح الله . فاني أرى أنه لم نزل فيك بقية خير عظيمة يدل عليها انفعالك اليوم وتبني عنها شدة تأثرك الآن لهذه الأحوال بل النتائج اللازمة لما انتهجته من السبل الفاسدة . وأنت لم نزل في مستقبل العمر وشرح الشباب فقم يابني واخلع رداء هذا الضلال وتب الى الله منه وأرى ان تنزل الى وكيلك الآن ليعاونك على عمل حساب دقيق لو ارد مالك وصادره فتسقط كل مالا داعي له وتحذف مالا فائدة لنا فيه وان رأيت بيع بعض الارض لتأدية الديون المتراكمة عليك فلا بأس بذلك اذ المثل يقول « فقر بلا دين هو الغنى الكامل » وارك من اليوم سبيل المفسدين وانبد نبذ النواة طريق المبذرين اخوان الشياطين .

فوقع هذا النصح من س . . . بك موقع الماء الزلال من نفس الظمان فقبل يد والدته وشكر لها ثم قام فغير ملابسه ونزل الى وكيله فمكث معه في عمل حساب وتغيير وتبديل في مصروف البيت حتى استقرت الحال على بيع مائة فدان لوفاء الديون والاكتفاء بمائتي فدان باقية يوازي ريعها السنوي ألف وخمسة مائة جنيه لانها من أجود الأراضى الزراعية فعند ذلك تهال وجهه س . . . بك فرحاً اذ وجد حل معضلته وانفراج أزمته على هذه الصورة المرضية فقام من وقته الى والدته فقال لها وهو جذل مسرور :

— قد وجدنا حل معضلتنا وانفراج كرتنا تحت شرط أن لانعود لمثل

حياة الجنون الماضية

فقلت والدته وهي تبسم ابتسامة ذات معنى وقد وجدت فرصة أخرى لنصحه

— حسناً يا بنى حسناً فعلت ولكن هذا الشرط متوقف اتمامه عليك وحدك فهل أنت قوي الأرادة صحيح العزيمة لانك بغير قوة الارادة وصحة العزيمة لا تم أمراً ولا تصالح شأنا وأظن أنه لم تفتك سيرة م... بك بن ش... باشا وغيره وغيره ممن سقطوا في تلك المهوأة السحيقة فاصبحوا اليوم في حالة يرثى لها لتماديمهم في النفي والفساد...

« أما من حيث الزواج فان أمامي لك فتاة ينشرح لها صدرى وصدرك ويطمئن اليها قلبي وقلبك وطالما كنت أرجو الله ان أراها لك حليمة حسن تربيتها وكمال أدبها ولكن كان يمنعني من خطبتها لك نزقك وطيشك وتطلعك الى الزوج بفتاة تلامم ما كان في نفسك من المنازع والاهواء وانى لمتحقة أننا نسال السعادة والهناء في بيتنا على يد هذه الفتاة الرشيدة التي اخترتها لك أنت بصفتك زوجاً وأنا بصفتي حمات ولا تهتم بالمهر فانا سأكفيك مؤونة ذلك كله وجل مناني ان أراك يا بنى سعيداً على ما اتصوره أما على ضعفى وكونى والدة لك فهل تريح يا بنى قلبي وتقبل ما أشرت به عليك ؟

فتمام س... بك وقد نار تأثر الصفات الكريمة فى صدره لمقال والدته فالتقى بنفسه بين ذراعيها مرة أخرى وهو يقول « قد قبلت يا أمهات قد قبلت » ثم اجش بالبكاء ولكن كان بكأوه فى هذه الدفعة بكاء اطمئنان وفرح لا كلمرة السابقة عويل جزع وترح

فكاهات حكيمية وخرافات وعظية



بغلة العشر

عندنا معشر المصريين خرافة لست أدري لها أصلاً ولا فصلاً وهي أنه في ليلة العاشر من شهر محرم الحرام أى ليلة عاشوراء المباركة تخرج من عالم الغيب بغلة يقال لها (بغلة العشر) تحمل أموالاً وطرفاً قتمر على البيوت الى ان تدخل الدار السعيدة التى قسم لاهلها ما تحمل من النضار ولقد قص عليّ صديق لى يسكن بعض الأحياء الوطنية القديمة النادرة المضحكة التالية من فكاهات بغلة العشر فى هذه السنة قال :

« حدث فى ليلة العاشر من المحرم الحرام أن استيقظ بعض فقراء جيراننا ممن يعتقدون ببغلة العشر ويعلمون النفوس بالأمانى والاهوام فى منتصف الليل وكان القمر يسطع بنور ضئيل فسمع صوت حوافر دابة تسير امام داره فاضغى الى الصوت فتحقق له أنه حقيقة لا وهم فقام الى النافذة ففتحها وأطل منها على الحارة فرأى بغلة وعليها (زكية) هنالك طار عقل جارى وثبت له أنها هي هي بغلة العشر فنزل مسرعاً وفتح باب الدار بلطف حتى لا يسمعه أحد فينازعه نصيبه وخرج يعدو خلف البغلة الى ان ادركها فأمسك بزمامها وصار يجس بالشعف مافى الزكية فراه شيئاً ثقيلاً مندجماً فى بعضه فلم يشك المسكين أنه (الذهب أو التبر) ثم جعل يعالج فتح الزكية تارة بيده وتارة باسنانه والظاهر ان البغلة كرهت الوقوف له طويلاً وكره هوان تقلت من يده فأخذ يرجعها بالعنف ليدخلها داره فجمحت ورفسته ورفسة قوية فصرخ عند ذلك صرخة مزرعة ثم سقط على الارض مغشياً عليه

وسمع الصوت الخفير فجاء صوبه مسرعاً وهو يقول (وهد) واستيقظت أنا وكثير من الجيران فاطلنا من النوافذ من هنا ومن هنا ننظر ما الخبر

ولما حضر الخفير وشاهد جارنا والبغلة لم يرتب في أنه لص فأسرع (وضرب نمرة) فاجتمع اليه بعض الخفراء وأحبوا ان يستاقوا جارنا والبغلة الى القسم الا أنى وبعض الجيران كنا قد نزلنا الى مكان الحادثة فعرفنا الرجل فقال أحدنا

— هذا فلان جارنا ولا نعهده الا رجلا مستقيماً ورعاً وان كان فقيراً وقال آخر وقد نظر الى ناحية البغلة : « وهذه بغلة » المعلم فلان الحماي جارنا وهي تحمل (قصر ملا) من مستوقده كعادته ليبيعه في العمارات فقلت أنا وقد تذكرت ان الليلة ليلة عاشوراء : — واظن ان جارنا فلان المسكين حسبها بغلة العشر حيث الليلة ليلة عاشوراء فاحب ان يدخلها بيته بحملها فرفسته تلك الرفسة الموجهة ثم دنوت من الرجل فوجدته قد استيقظ وهو ييسم لمقالي على أنى لم اطل التأمل فيه حتى عراني الضحك الشديد لما رأيت على وجهه وفي شفتيه وملابسه من غبار القصرمل فانتبه لذلك باقى القوم وجعلنا نضحك نحن والخفراء جميعاً وفيما نحن كذلك واذا بالمعلم الحماي مقبل يبحث عن بغلته وقد كانت هربت بعد ان حملها فلما علم بالحادثة وان جارنا يتألم من رفسة بغلته وان كان لم يصب بأذى قال وهو يضحك معنا

— جزاؤه ما حل به ان كل من بينى آماله وأمانيه على الأوهام ويتبع فيها هوى النفس لاهدى العقل لا ريب يلحقه الخسار ويناله العار ثم ساق بغلته امامه ونقلنا نحن والخفراء جارنا وهو بشر حال من الألم الى داره

﴿ ٢ ﴾

أدب نفسك يا بابا

كانت عزيزة الصغيرة تلعب بعرائسها الى جانب والدتها بغرفة جلوسهما وكانت أمها ممسكة بيدها بعض الملابس الصوفية القديمة ترقع فيها لدم تمكن زوجها اذ ذاك

من مشتري ملابس للشتاء وقد اقبل فضله بسبب العسر وكان زوجها في هذا اليوم لم يخرج من البيت لتوعك اصابه من سهرة اطالها بين الكأس والطاس فجلس مع زوجته وابنته على كره منه وقد أخذته البرداء فجلس على كرسي طويل واضعاً على رجله غطاء سميكاً من الصوف وممسكاً بيده بعض الجرائد يطالع فيها الا أنه كان يمر بنظرة على سطورها ولا يفقه لها معنى لتشتت افكاره في ملذاته

وجعلت عزيزة ابنته تلعب بعرائسها وتضحك ملء فيها ببساطة ونقاء فكانت تارة تصف عرائسها كالعسكر وتارة تلتقي ببعضها على الارض تعزرها وتوبخها ثم تصيح وتكتر من الجلبة والضحك بما يسر ناظر الوالدين على ان أمها لعامها بما عليه زوجها كانت تنظر اليها نظر المؤنب الا مر بملازمة الادب والسكوت في حضرة أبيها أما هي فكانت لشدة سرورها لا تكترث لذلك وجعل أبوها يتململ ويتضجر لانه ما كانت تذله الحياة العائلية بل كانت كل افكاره وهو اجسه موجبة الى الخارج الى عشيقته له كان يترك أهله في حاجة الى القوت الضروري وينفق عليها ماله بسخاء حتى ركبته الدين والفقر ودخل من ثم الحزن والكدر قلب السيدة زوجته وشحب لونها وهزل جسمها غير أنها لوفرة آدابها وكال نفسها كانت تكتم احزانها واشجانها ولا تبديها لاحد سوى بعض نصائح كانت تفوه بها من حين الى حين لهذا الزوج التعس لما يندر من ماله ويظيل من اتعاب نفسه بالسهو ويكثر من الشراب فيأتي اليها مع الصبح في حالة من السكر زرية. وكانت عزيزة الصغيرة تسمع احياناً تأنيب والدتها لوالدها فأرسم في مخيلتها الصغيرة حالة شقاءهم فلما جلس أبوها في هذا اليوم الذي نروى حكايته فيه بداره متوعكاً من السكر وجعلت عزيزة تلعب بعرائسها وأمها تنظر اليها وأبوها يكاد يتميز من الغيظ على نحو ما سبق وهي لطهارة نفسها لا تحفل بذلك وكأنها كانت تسر وتطرب برؤيته في هذا اليوم عندهم على غير عادته فلذلك تكتر من اللعب والفرح والنظر الى أبيها لكي يلاعبها أما هو فلم يكن همه منصرفاً الا الى ملذاته ثم في تدبير (الحيلة) للحصول على المال اللازم لها وقد فقداً معه من النقود فلماذا جعل يزجر ابنته بجفاء وخشونة ويبعدها عنه كلما اقتربت منه ولقد ازدادت شرسته حين سأل قرينته

« ان تقرضه بعض نقود ليخرج الى الفسحة اليوم لانه لا يوجد في جيبه مليم واحد »
 فنظرت اليه السيدة زوجته نظر العاتب المسترحم ثم قالت « أما والله أنك تعلم
 اننا بعوز حتى الى بلغة تبنيغ بها اليوم وقد بعث حلي وورهننت بعضه على ان استرده
 في آخر الشهر والباعة لمطالك لا يبيعوننا شيئاً ولست أدري متى يثوب اليك عقلك
 ومتى تفقه لواجباتك العائلية » ثم سكتت وقد غلبها البكاء فجعلت دموعها تتحدر
 وسكت هو ولكن على أحر من الجمر وكانت عزيزة قد اقتربت منه ثانية في هذه
 البرهة وهي فرحة جذلة لما كان منه الا ان رفضها برجله رفسة قوية القاها بعيدا عنه
 فسقطت في حجر أمها صارخة وصرخت أمها لصراخها

هنالك عرته الدهشة دهشة الجاني الاحمق وحيرة الاثيم الخارق للنواميس حبا
 بشهوته فقبع في كرسيه وأخذ ينظر من طرف خفي الى ابنته وزوجته وهما متعاقبتان
 باكيتان وكان ضميره النقي قد بدأ يتأثر لذلك المنظر وفي تلك اللحظة كفكفت عزيزة
 دموعها ثم نظرت الى أبيها بلطف وهي تقول ببساطة الاطفال وسلامة ضائرتهم النقية :
 « أدب نفسك يا بابا أما كفاك أنك تتركنا أنا وأمي وتذهب حيث تذهب (فلوسك)
 وتأتينا في آخر الليل بحالة (وحشة) مع انك لو بقيت معنا واكلمت معنا لكنت تسر ونسربك
 ونعقب جميعاً ونسعد ولكنك (دائر على هواك) وتاركنا في اليوم الذي تبقى فيه معنا اضطرارا
 ونفرح بك ونسربرؤيتك تؤذينا وتضر بنا لا ريب أنك أولى بالتأنيب والتأديب يا بابا)
 أما أبوها فكان يسمع هذا الكلام الصادر عن ضمير نقي وقلب طاهر فكان
 يقع من فؤاده موقعاً أحد من السهام وجعل من ثمة يستر وجهه بأحدى الصحف يتصنع
 المطامعة ولكن السيدة قرينته رأت شدة انفعاله ولحمت دموعه تفيض على الصحيفة حتى
 بللتها فمات اليه مسرعة وعزيزة على كتفها وهي تقول (مالك) فقال (لا شيء غير
 أني قد تبت الى الله ورجعت على يد ابنتي) ثم قام الى عزيزة فاحتضنها وجعل يصالحها
 وهي تتمتع بدلال الطفل وتقول

(لا . لا أدب نفسك يا بابا) حتى رضيت عنه ورضي عنها ولم يعد من ذلك
 الحين يصنع الشرأو يغشى بؤرات الفساد)

﴿ ٣ ﴾

الحقيقة والخرافة

لم يخط بنان كاتب فيما اظن ولم يصور خيال شاعر فيما اعتقد ما يسمونه « الحق والباطل ، والصواب والخطأ ، بل العقل والجنون بأفضل مما صورته تخيلة الشاعر الخرافي الفرنسي فلوريان الشهير (Florian) في قطعه التي سماها « الحقيقة والخرافة » فلماذا كانت حرية بان تنقل بمعناها الرائق ومغزها الشائق الى لغتنا العربية الشريفة قال فلوريان برزت الحقيقة من خدرها يوما عارية الجسد بادية الاعضاء تصطك من شدة البرد اسنانها وترتعد فرائصها فجعل كل من يراها من الناس شيوخاً وشباناً نساء ورجالا يهرب من امامها ويفر من بين يديها فرار السليم من الاجرب وهي مع ذلك تلمس النصرء وتنشد المؤاسين الآخذين باليد

وبينا هي على تلك الحال تندب سوء حظها ونحس طالعتها اذ اقبلت عليها « الخرافة » تجر ذيلها وتنيه في حللها وحليها وان كان كاه من كاذب الجوهر وزائف النضار فقالت للحقيقة بعجب وخيلاء

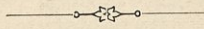
— عمى صباحا آيتها الحقيقة مالى أراك واقفة وحيدة فريدة

الحقيقة — كما ترين التمس ذا مرؤة يؤأسيني ويؤويني ولا أجد أحدا بل أرى الكل ينظر الى شزرا ثم يلوى وجهه ولا يعطف على كاتني أتيت أمرا إداً أوجنت على هؤلاء البشر جنانية لا تعترف

الخرافة — وانك مع ذلك يا اخية افضل مني شأننا واضح بنية وأنا ولا فخر أينما حلت وحيما كنت لا اقابل الا بالهشاشة والبشاشة والترحيب ولكني أرى لهذا الصنيع من الناس معك سبباً وهو بروزك لهم هكذا عارية الجسد بادية البدن وانى

لمعرضة عليك رأياً فيه ان شاء الله صلاحك وصلاحى انا ايضاً فتعالى نصطحب واكسوك
من ثيابى الفاخرة وأخذك تحت رداى هذا الجميل وندخل على الناس معاً فبفضلى لا يطردهك
الجهلاء ولا ينفر منك الحمقاء وبفضلك أنت يقبلنى العقلاء اه

تلك هي قطعة فلور يان الجميلة فى الحقيقة والخرافة وانى وان لم اصغها فى قالب
عربى ميين مساو للاصل بلاغة وسلاسة كما يتجراه أولئك الفحول من الناثرين والناظمين
عندنا الا انى لا اخال قارئها الا قائلًا معى أنها الحكمة « وان الحكمة ضالة المؤمن
ينشدها انى وجدها »



الدباغ الدباغ

ارقت ليلة وما كان ارقى لعشق أو غرام أو لامر فى نفسى هام وانما تطوح بى
الفكر فى شؤون هذا العالم وحوادثه السياسية الخطيرة فى هذا البلد الامين وبلاد الدولة
العلية فحفا النوم عيني ولزمها سهاد وارق انتهى بى الى التضجر والتأفف ولوم نفسى الضعيفة
على اهتمامها بما لا يعينها وأنها اصغر من ان تهتم بتلك المهام ، ثم جعلت العن الشيطان
الرجيم — حسب العادة — قائلًا « لعنة الله على ابليس اللعين اللهم اخزه وابعده عنى »
فما انتهيت مما خطر لى وفهت به حتى اهتزت اركان غر فى ورأيت أرضها انشقت
وبرز منها شبح هائل الجسم قبيح المنظر فارتجف لرؤيته قلبى وانتفض منه جسمى كما
انتفض العصفور بلله القطر فغطيت وجهى كيلا أرى هذا الوجه القبيح « قبح وجهه »
لكن هيات هيات فانى رأيت من خلف الغطاء الكشيف كما رأيت بهينى رأسى فاحببت
ان اتعوذ منه فوضع يده الحديدية على فى وهو يقول :

— انى سمعك يا هذا تلعن ابليس وتشمه وانا ابليس فحتمك لارىك خطأك وانت

أحد هؤلاء البشر الذين ينسبون لى كل شر مع أنهم هم مصدر جل الشرور التى تلحق بهم من نفوسهم الخبيثة

فسكن لكلامه روعى اذ تحقق لى أنه انما جاء ليتناقش ويتتصف لنفسه لا ليقصص منى على ما بدر وييدر فى حقه من لعنات الناس الاشرار منهم والاختيار فقلت لا برما اعتقد فيه — ألا ترى هذه الخطوب وتلك الكوارث العامة منها والخاصة التى تلحقها واشياك بالبشر وما كفاك ذلك حتى توسوس اليهم فلا يفوتك كبير أو صغير حتى تنص على الكل عيشهم فلولاً الشرور التى توجد فى العالم والوساوس التى تلقىها فى الارواح لعاش الناس سعداء مغتبطين ولما اتابتهم المصائب والا كدار فأنت الذى تثير التعصبات المذهبية والجنسية ، وأنت الذى تخدع النفوس وتغشها وتكيد لها المكائد ، وأنت الذى تجلب مصائب العشق والغرام والقتل والانتقام ، والسكر والعربة وتخرب البيوت بالطمع وتجب القهار الى الناس والاسراف والتبذير ، وأنت صاحب مصائب السياسة والحروب وبالجملة فأنت انت جرثومة الدواهي وويلات البشر منذ آدم وحواء الى ان يرث الارض رب السماء أليس الامر كذلك ؟

فققه ابلوس قهقهة الهازىء الساخر بالعقول ثم قال :

— والله انكم لغرورون معاشر بنى آدم مخدوعون وما يخذعكم الا انفسكم وهى التى تحطب عليكم وتجلب لكم كل مصائبكم ، نعم اننى اخرجت ابويكم من الجنة حسدا لها ولكننى لم يكن لى سلطان عليكم انتم بهذا المقدار فاللوم كل اللوم انما هو واقع على أم رأسكم ، فاتم الذين تعطون بأيديكم فى المصائب ، واتم الذين باهوائكم تسلبون انفسكم النعم ، واتم الذين يملأ الغرور بين جنوبكم فتمادون فى الغي والضلالة والصلف والحماقة حتى اذا رأيتم الفشل والخسار والوبال اللاحق بكم قصاصاً على ما فرطتم وافرطتم فيه جعلتم تسبون الزمان والمكان وتلعنون ابلوس وجنوده ، وابلوس وجنوده شهد الله براء من اكثر الشرور اللاحقة بكم فينبغى ان تلوموا انفسكم افراداً وجماعات ...

ثم قطع ابلوس كلامه بغتة وقد شخص ببصره الى ناحية من الغزفة وجعل يحماق اليها ويرتجف وقد تصاعر وامتعق لونه فقلت له

— ما دهاك ؟

قال :

— الدباغ الدباغ ...

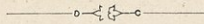
فنظرت الى تلك الناحية التى شخص ابليس بصره اليها فرأيت حقيقة صاحب هذه الجريدة (الانسانية) فاغراها مكشرا عن انيابه وفيها العطب ينظر الى ابليس شذراً فتصنعت تجاهل العارف وقلت لابليس :

— وما الذى يخيفك من الدباغ ؟

قال :

— يا كفى ...

وانقطع نفسه ثم ضرب برجله الارض واختفى واستيقظت انا من نوى فلم أر
لا ابليس ولا الدباغ .



— النحل المصرى والنحل الاجنبى —

(حتى نحانا ليس كمنحلهم فالمر إذا فى الوسط)

كلمة تؤثر عن عظيم من العطاء قالها متعجباً ونقل الى حديثها صديق لى أديب
يعشق الملح ويستطرف الطرف قال :

حدثت عن عظيم من رؤساء الجمعية الزراعية الغيورين على اتماء الزرع واحياء
الضرع وتربية الحيوان النافع مثل البقر والضأن ودود القز الخ . أنه اتى بخبير فى تربية
النحل من البلاد الايطالية ليتمنى به فى مصر بمساعى امثال الرئيس الكبير المشار اليه
فبعد ان درس الخبير الايطالى طبائع النحل المصرى واطواره ونوع عسله وشمعه والعوارض
التي تعرض له والآفات التي تتنابه — بعد ان درس ذلك كله درس خبير سألته الرئيس :

— ما الذى رأيت ؟ وهل الافضل هو النحل المصرى أو النحل الايطالى أو الكريتى حتى نجلب منه لنريه هنا ؟
فقال الخبير :

— الامر لكم يا مولاي على ان النحل المصرى كالنحل الايطالى والكريتى فى العمل والعسل وانما يمتاز النحل الاجنبى على النحل المصرى بانه لا يهاب الزناير ويقاقلها ويدافع عن نفسه وخلياته دفاع البطل والشجاع المستبسل ، فالنحل المصرى آفته الزناير تترصد له وتقتله قتلا ذريعاً وهو لا يدافع عن نفسه ولا يقاوم وأما النحل الايطالى وأمثاله فانه يقاوم ذلك العدو ويفلت منه بل يقتل من يعتدى عليه منه فى خيلته ، فاذا هاجم الخلية الزنبور من ثقبها العادية وجد أبداً حراساً من النحل يحرسونها فتبادر بلسعه قبل ان يلسعها وتقتضى عليه قبل ان يقتضى هو على ما فى الخلية « وأعجب من ذلك واطرب أنه اذا تمكن الزنبور من فتح ثلمة فى الخلية تجمع النحل من هنا ومن هنا بقوة عجيبة حتى يسدها فى وجه ذلك العدو المهاجم بأسرع ما يمكن »

فقال الرئيس عند ذلك تلك الكلمة الماثورة المصدر بها هذه « الهامشية »
(حتى نحننا ليس كمنحلهم فالسر اذاً فى الوسط)

﴿ ٦ ﴾

المرأة

طلعت قطعة شعرية للشاعر الفرنسى ريشر (Richer) عنوانها « المرأة » فاعجبني أدبها وما تضمنت من الحكمة البالغة فقلت لانقلها الى قراء الجريدة « على الهامش » وقد عزوتها الى صاحبها حتى لا يقال « ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل » وهاك تلك القطعة بمعناها الرائع ومعزاها الحكيم :

« وقف اخوان فتى وفتاة صغيران امام المرأة في غرفة زينة والديهما وكان الفتى جميل الحيا بديع الصورة بعكس ما كانت عليه الفتاة من قبح الصورة ودماءة الحلقة فطال موقفيهما : تاه الفتى في جماله واعجابه بنفسه وتبكيته لاخته وغرقت الفتاة في بحر لحي من الغيظ والخذل كما نظرت صورة أخيها وصورتها وما بينهما من الفرق العظيم والبون الكبير اشتد غيظها ولما لم تطق صبراً على ذلك اسرعت تعدو الى والدها باكية شاكية أخاها وما قال لها مبتكراً وما يصنع من الوقوف أمام المرأة بالحياء والدلال والتعالى عليها بالجمال وتضرعت اليه ان يمنع ذلك الاخ الوقوف أمام المرأة مرة ثانية

أما والدها البار الحكيم فتبسم ضاحكا من قولها وطوقها بذراعيه ثم جمع بينها وبين أخيها أمام المرأة وقد رآها خير فرصة سائئة لنصحهما كليهما فقال :

« أى ولدى أنى غير مانعكما التطلع في هذه المرأة العجيبة التي تعكس عليكما صورتكما أما أنت يا بنى وقد أوتيت شطر الحسن والجمال كما ترى بنفسك فواجب عليك اذاً ان لا تدنس هذا الجمال الذى وهبته بالكبرياء والحيث ، وأما أنت أيتها الابنة الرشيدة فيمكنك ان تصلي ما افسده عليك الدهر كما ترين بالاخلاق الفاضلة ، ألسى ثوب الحكمة فانه جمال لا يفضله جمال »

✻ تم الجزء الثالث من أحسن القصص ✻

✻ وهو آخر الكتاب ✻

(والحمد لله)



فهرس

	صفحة
القصة الاولى بين عاشقين	٣
» الثانية من الفقر الى الغنى	٦٣
» الثالثة فى الريف	٩٦
» الرابعة س . . . بك	١١٥
فكاهات حكمية وخرافات وعظية	١٢٨
بغاة العشر	٠٠٠
أدب نفسك يا بابا	١٢٩
الحقيقة والخرافة	١٣٢
الدباغ الدباغ	١٣٣
النحل المصرى والنحل الاجنبى	١٣٥
المرآة	١٣٦



جدول

✂ بعض الخطأ وصوابه ✂

صواب	خطأ	سطر	صفحة
أم	م	١٣	١٢
ويغدو	يفدو	٩	١٧
كثيراً	كثير	١٠	٢٤
بصرف	صرف	٣	٢٧
أمها	أمها	٩	
كل ما	كما	٥	٤٤
لأولى	للأولى	١	٤٦
راسلتك بحبي وراستني	رسالك بحبي ورسالتي	٩	٥٥
أخيمها	أخيمهم	٧	٧٧
وراءه	ورائه	١٤	٧٨
ويعودون	ويعودن	١٠	٨٨
تصرفهم	تصرفها	١١	٩٤
أربعة عشر	أربع عشرة	٥	٩٦
إليه	عليه	٢٠	١١٨
ونتم	ونم	٨	١١٩



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036761613

PJ
7828
.M8
A38

JUL 15 1974

